محمد زروال

الحياة الروحية في الثورة الجزائرية

منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

مقدمة وزير الشؤون الدينية والأوقاف

تُعدّ الثورة الجزائرية واحدة من أعظم الثورات في التاريخ الحديث، ليس فقط بسبب نجاحها في تحرير الجزائر من الاحتلال الفرنسي، بل أيضًا لما حملته من قيم ذات أبعاد روحية ودينية وثقافية عميقة.

إنّ الحياة الروحية التي كانت في قلوب المجاهدين والمجاهدات، لم تكن مجرد عنصر ثانوي، بل كانت القوة الدافعة التي أمدتهم بالعزيمة والإيمان، لانتزاع وتحقيق النصر.

من خلال هذا الكتاب "**الحياة الروحية في الثورة الجزائرية**"، نسعى مع كاتبه الأستاذ المجاهد محمد زروال إلى استكشاف الجوانب الروحية للثورة الجزائرية المباركة، وإدراك ما للإيمان العميق بالله والثقة به، والتمسك بالقيم الدينية الإسلامية، من دور كبير في صمود الشعب الجزائري، أمام واحدة من أعتى القوى الاستدمارية في العالم.

إن المساجد والزوايا القرآنية، كما ينكشف لقارئ فصول الكتاب، كانت مراكز للمقاومة والتعبئة، وإن العلماء والشيوخ كانوا في الميدان فاعلين، دعاة روحيين، وقادة جهاديين مقاومين في آن واحد.

إن الكرامات الربانية التي أيّدت المجاهدين في صمودهم ومعاركهم، وما لازم ذلك من الاستغاثة والدعاء والذكر، كانت أسلحة لا تقل فتكا بالعدو الظالم عن بارود البنادق و نيران المدافع.

إنّ هذا الكتاب -الذي نرى في إعادة نشره مادة مناسبة لطلبتنا في المعاهد الدينية- ليجدر تعميم نفعه في الأجيال اللاحقة، لكونه قد وفّق في تقديم صورة تاريخية عن الحياة الروحية التي كانت تسري في نفوس المجاهدين، والمكارم التي طبعت أخلاقهم.

نعم، لقد أضاء نورُ صبرهم على الكفاح والنضال، طريقَ يقينهم في النصر والحرية والاستقلال.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنبياء: 72]

وقال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السَّجْدَة : 24]

إن جزائرنا بعد أن حققت هدف الاستقلال، بإقامة دولة جزائرية ديمقراطية اجتماعية ذات السيادة، ضمن إطار المبادئ الإسلامية، مع احترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني؛ لتنعم اليوم بالوحدة الوطنية، وبالاستقرار والأمن التام، والتنمية المستدامة، وهي تتطلع بأجيالها في كل مرحلة من مراحل البناء والتشييد، إلى غد أفضل، وأهداف مشرقة نبيلة، وهذا تكملة لرسالة الشهداء.

رحم الله شهداء هذه الأرض الطاهرة، التي عجنت تربتُها بدمائهم الزكية، وجزاهم الله عنا خيرا، وعوضهم بالنعيم المقيم الذي لا يبغون عنه حولا، وإنهم وإن قُتِلوا في هَذِه الدَّارِ فإنَّ أرواحَهم حَيَّةٌ مَرزوقةٌ في دارِ القَرارِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

[آل عمران: 169]

وقد صح عن نبينا ﷺ أن أرواحَهم في أجوافِ طَيرٍ خُضرٍ، لَها قَناديلُ مُعلَّقةٌ بالعَرْشِ، تَسرَحُ مِنَ الجَنةِ حيثُ شاءَت، عَلَى بَارِقٍ -نَهْرٍ بِبَابِ الْجَنَّةِ- فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا.

المجد والخلود لشهدائنا الأبرار، وحفظ الله أبناء الجزائر في الحاضر وفي كل جيل يأتي، من كل مكروه ومن كل سوء، ووفقهم لتأدية واجب حفظ الأمانة بكل حرص وصدق وإخلاص.

ورحم الله الشيخ محمد بن بشير الرابحي حيث أنشد في "لاميته للوقائع المختصرة في تاريخ الثورة الجزائرية المظفرة" (وهي لامية تقع في 5000بيتا):

سينتصر الجيش الجزائري فاتحا ومفتكا أرضه من أيدي الأســافل

ويعلو لواء الجيش في كل ربـــوة وفوق المباني من عظيم المنـــازل

وترجع عزة الإسلام لأهـــــلها ويذهب الاستعمـــار دون رواحل

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، كثيرا، كثيرا.

وزير الشؤون الدينية والأوقاف

الدكتور يوسف بلمهدي

بسم الله الرحمن الرحيم

«وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم»

صدق الله العظيم .

(سورة النساء) الآية : **١٠٢**

مقدمة الطبعة الثانية

هذا الكتاب ينبئ عنوانُه عن موضوعه، وعن شدة حاجة القراء إليه، خاصة منهم أئمة المساجد، لما يتضمنه من حقائق وأحداث وطنية صنعها الشعب بالنفس والنفيس، دفاعا عن مقوماته الدينية، وكان هؤلاء الأئمة أكثر الناس بحثا عنه بعد أن انقطع عن التداول، وكم حاولنا مع بعض الجهات المختصة إعادة إحيائه بالطبع، ولكننا لم نظفر بشيء من ذلك.

وها نحن ننشره اليوم في طبعته الثانية، بعد أن واتتنا الفرصة، وأسعفنا الحظ عندما وافق معالي وزير الشؤون الدينية والأوقاف الدكتور يوسف بلمهدي على أن يعاد نشره، وكان ذلك بمناسبة حضوره مداخلة ألقيناها من هذا الكتاب عنوانها "القيم الروحية والأخلاقية في الثورة التحريرية" وكان ذلك صبيحة يوم الإثنين 04 صفر 1445هـ الموافق 21 أوت 2023، بدار القرآن الشيخ أحمد سحنون-بئر مراد رايس، بمناسبة الذكرى المزدوجة لـ20 أوت (1955-1956) وإحياء لليوم الوطني للمجاهد، حيث نظمت وزارة الشؤون الدينية والأوقاف ندوة تاريخية بعنوان:

"جهود الإمام في الإرشاد والفتوى خلال الثورة التحريرية المباركة
الشيخ الإمام محمد الطاهر آيت علجت رحمه الله أنموذجا".

وقد طرقتُ في مداخلتي باب الحديث عن ظاهرة النعاس في القتال في الثورة الجزائرية، والدعم الرمزي لسيد الشهداء حمزة عم الرسول ﷺ في هذه الثورة"، وقد صفق الجمهور لهذه المحاضرة كثيرا وعلى رأسهم السيد معالي الوزير -الذي لا يحب أن يشكر له الخير عندما يغدق هذا الخير على الدين والثقافة-، وعندما استشعرنا ولاحظنا إعجابه بها طلبنا منه أن يتكرم بالطبع، إذ ترد الكثير من المطالب من طرف الأئمة يعربون فيها عن حاجتهم الشديدة لنسخ من هذا الكتاب.

فإلى معاليه أقدّم أجمل الشكر وأعمقه، وأحسن الثناء وأصدقه، على هذه العناية التي اختص بها هذا الكتاب الذي يدل عنوانه على ما يزخر به من قصص من أحسن القصص التي طبعتها الثورة الجزائرية بطابعها الديني والوطني والإنساني.

إن الذين سيطالعون فصول هذا الكتاب، سيلاحظون أننا قدمناه لهم كما قرأوه أول مرّة في طبعته الأولى، لم ننقصه ولم نزد عليه، كما أنهم سيعيشون مع الكرامات الربانية التي أكرم الله بها المجاهدين في الثورة، فوفّر لهم سبحانه وتعالى أسباب النصر الخفية التي توجت هذه الثورة بتحقيق الاستقلال الذي طالما حلم به سلفنا من الأجداد.

الأستاذ/محمد زروال

بئر مراد رايس بتاريخ:

الاثنين 23 ربيع الأول 1446هـ

الموافق 16 سبتمبر 2024م

المقدمة

كان أملي يكبر مع انتصارات الثورة المسلحة في أن أعيش فرحتين : فرحة عامة باسترجاع الاستقلال الوطني، وفرحة خاصة بأن أكتب شيئا عن عظمة تلك الثورة التي تهزني بمبادئها وبطولات رجالها. وقديما قال الشاعر العربي :

فما راء كمن سمعا. . . . . . .

نعم لقد رأيت مشاهد، وعشت مواقف حببت إليَّ الانغماس في روحانيات تلك الثورة التي أفاض الله سبحانه وتعالى منها على كثير من عباده المجاهدين.

وإذا كانت آمالي قد تحقق البعض منها فاستردت الجزائر حريتها واستقلالها، وتمت بذلك الفرحة العامة، فإن البعض الآخر من تلك الآمال بقي يراودني لا يمنعني من تحقيقه بعد نيل الاستقلال إلا بناء البلاد ومواصلة النضال.

ولما أحلت على المعاش، عقدت العزم على ترصيع كتاب أقدمه للقراء، أخلد فيه مآثر الثورة الغراء، فتجندت بالليل والنهار أنظر في الكتب والأسفار، وأسأل الأصحاب والاخوان عن أمجاد هذا الزمان، ولم أزل على هذه الطريقة إلى أن عرفت الحقيقة (1).

(1) أقصد حقيقة النعاس التي ظل المجاهدون الذين عاشوها في الثورة يجهلون تفسيرها الصحيح إلى يومنا هذا (1988 م). ولكن الله سبحانه وتعالى ألهمني معرفتها في النصف الأول من شهر رمضان 1408 ه وبيان ذلك : كان علي أن ألقي درسا عن غزوة «بدر الكبرى» في مسجد ابن باديس بالعاصمة حيث كنت أؤم المصلين مدة معينة؛ فما راعني وأنا أهيء عملي إلا أن بعض كتب التفسير تتكلم عن النعاس الذي غشي المسلمين في الغزوة المذكورة وغزوة أحد كذلك. عند هذا تذكرت النعاس الذي كان يعتري المجاهدين الجزائريين في أثناء الثورة والذي لم نكن نفهمه على وجهه الصحيح فقررت منذئذ أن أخص هذه المسألة بدراسة مستفيضة لمعرفة الحقيقة؛ فكان هذا الفصل الذي جمعت فيه كل ما جاء عن النعاس في القتال من القرآن الكريم وكتب السير، وألقيته محاضرة في =

عندئذ صممت على أن أقتحم هذا الميدان بما أملك من لغة وبيان . وقد أقدمت على تأليف هذا الكتاب «إقدام الشجاع على وادي السباع» (1)، أصور فيه انهزام هذه الضباع (2) أمام انتصارات هذه السباع (3) . وقد رأيت أن أتناول فيه الثـورة من داخلها فأحلل بعض وقائعها تحليلا أستند فيه إلى واقعها كما عشناه وبلونا من أمره الكثير.

وإذا كان لهذا الكتاب شيء من فضل على الثورة وعلى تاريخها في الحاضر وفي المستقبل، فإن الهدف منه هو التفسير الديني والعلمي لظاهرة النعاس في القتال وبعض الظواهر الروحية الأخرى التي استعصى فهمها على الكثير من المجاهدين الذين عاشوها في الثورة ولكنهم ظلوا يجهلون تفسيرها الصحيح إلى ما بعد الاستقلال بخمسة وثلاثين عاما . كما أن هذا الكتاب يعد ردا شجاعا ومسؤولا على الناكرين والجاحدين لتلك القيم الروحية النبيلة . وبذلك فإنه يجمع بين السبق إلى ما لم يسبقه إليه أحد في الكشف عن حقيقة تاريخية من حقائق الثورة ألا وهي تقديم تحليل دقيق لمسألة «النعاس في القتال» وبين محاولة إقناع من يرفضون وقوع هذه الحقيقة بصفة خاصة .

= مسجد الاصلاح بـ «الشريعة» من ولاية تبسة بمناسبة ذكرى معركة «الجرف الشهيرة» . فلقيت تلك المحاضرة تجاوبا كبيرا في نفوس المجاهدين . عندئذ قر عزمي على نشر هذه الآراء في الأوساط كلها فشاركت في الملتقى الوطني الأول لجمع مادة تاريخ الثورة في مدينة باتنة حيث ألقيت محاضرتي التي انقسم الناس في أمرها إذ تبنى أفكارها المجاهدون وأنكرها غيرهم . وقد بثت تلك المحاضرة على أمواج الاذاعة الوطنية أول مرة ليلة الفاتح من نوفمبر بمناسبة الذكرى الرابعة والثلاثين لاندلاع الثورة كما نشرت في جريدة الشعب في الشهر ذاته أول مرة كذلك .

(1) وادي السباع : موضع بين مكة والبصرة، وهو واد قفر من السكان تكثر به السباع . قال سحيم بن وثيل :

مررت على وادى السباع ولا أرى
كوادي السباع حين يُظلِم واديا
أقلّ به ركب أتوه تئية
وأخوف إلا ما وقى الله ساريا

بنعاشور الطاهر. التحرير والتنوير
تونس : الدار التونسية للنشر، 1984 ، 748 صفحة

(2) أريد بالضباع، الجيش الفرنسي المنهزم .
(3) أريد بالسباع، أفراد جيش التحرير الوطني المنتصر .

إن القليل من فصول هذا الكتاب قرأه الناس في أوقات متباعدة في جريدة «الشعب». ولكن أكثر تلك الفصول ظل أوراقا تتطلع إلى النشر، ونشرا يهفو إلى تلك الأوراق. على أني أجلب انتباه القارىء إلى أني غيرت بعض عناوين تلك الفصول، بل وأعدت كتابتها من جديد.

كما أن هذه الفصول يمكن تقسيمها إلى قسمين: قسم أرصد فيه بعض الحقائق الروحية التي وقعت في الثورة فتسمو بها إلى عالم الملكوت أحلل فيه تلك الحقائق تحليلا أستند فيه إلى القرآن الكريم، وسنة رسول ﷺ. وقسم أتناول فيه رأيي الخاص في كيفية جمع المادة وكتابة تاريخ الثورة. كما أني حافظت على هذه الفكرة القوية أو هذا الخيط الذهني الذي يجمع تلك الفصول إلى بعضها البعض، سواء ما ظهر منها فاطلع عليه القراء، أو ما ظل منها مخبوءا ينتظر قراءة هؤلاء القراء. وذلك يعني أني كنت أخطط لهذا المهم، وأرسم له نموذجا في ذهني أستهدف منه الوصول إلى نتيجة واحدة هي أن الثورة الجزائرية قد كان الجانب الروحي فيها أظهر ما يميزها عن غيرها من ثورات العالم.

قلت: إن بعض تلك الجوانب الروحية تعرضت لكثير من القصور في فهمها أو الاجحاف في إنكار وقوعها من أساسها، ولكني لم أبين لك طبيعة هذه الحياة الروحية. وإذا كان علي أن أجيبك عن جلية تلك الحياة فإني أطلب منك أن لا تثور علي فأنا لست إلا مترصدا للحوادث.

أليست ظاهرة النعاس في القتال الذي يعتري المجاهدين؛ وتفجير ينبوع لهم من الأرض، ونزول المطر عليهم من السماء عندما تشتد بهم الحاجة إلى هذا أو ذاك، وتراكم الضباب في فصل الصيف لينسحبوا تحت جناحه آمنين ثم أليست أخيرا هذه المرائي التي تخرج للواحد منهم كفلق الصبح قلت: أليست هذه كلها دليلا على روحانية تلك الثورة وصفاء ونقاء نفوس أولئك المجاهدين؟ فأنت ترى أن هذا الكلام لا تطمئن إليه كل النفوس، ولكني أؤكد لك أني لم أسقه للقارىء لاهيا ولا عابثا فأنا لست من ذلك كله في شيء إذ لا أروي للناس إلا ما أومن بوقوعه ذلك أني أعرف أن الناس إن خدع بعضهم فلن يخدعوا كلهم عن الحقيقة.

وبعد، فإن لهذا الكتاب قصة يجب ذكرها. كان ذلك عندما اغتنمت فرصة

أول اجتماع للمجلس الوطني لجمعية قدماء الجيش الوطني الشعبي . ففي هذا اليوم (15 افريل 1991) وزعت عل كل واحد من الحاضرين (وكان عددهم خمسة وأربعين عضوا) استمارة أطلب فيها الاجابة عن أسئلة تتصل بمشاركة كل واحد منهم في الثورة ، وجلبت انتباههم إلى أن تلك الاجابات ستظهر في كتاب بحول الله . بمناسبة الذكرى الأربعين للثورة ، وضبطت لهم الكيفية التي يراسلونني بها ، ولكن أي واحد منهم لم يفعل إلا المجاهد / مصطفى عبيد (1) الذي قدم لي ـ مشكورا ـ معلومات كتابية عن الثورة لكنها لا تتصل بهذا الكتاب .

وقد صدمني عدم الرد الجماعي على طلبي الشخصي فقررت منذئذ أن أعود إلى ذاكرتي الشخصية ، وإلى تدوينات كثيرة لي ، وإجراء مقابلات مع بعض الاخوان لهذا الغرض وبذلك تهيأ لي إعداد هذا المهم ليناسب ظهوره الذكرى الأربعين للثورة وفاء بالعهد الذي قطعته على نفسي .

ولا يفوتني أن أتوجه بالشكر إلى الدكتور / محمد العربي ولد خليفة الذي قرأ هذا الكتاب فأبدى لي خمس ملاحظات أثبت اثنتين منها ، وإلى الصحافي الشاب / خير الدين العايب الذي أعانني على تنظيف بعض المواضيع وعلى الترتيب النهائي لعناوين هذا الكتاب فإليهما أجدد شكري وخالص امتناني .

وختاما ، فإني أقدم هذا الكتاب إلى الشعب الجزائري المجاهد آملا على الله أن تتخطى الجزائر هذه الفتنة ، وتتجاوز هذه المحنة ، فيعود الأمل إلى النفوس من جديد كما أعادته إليها الثورة منذ أمد بعيد ، بل كما أعادت هذه الثورة العزة والكرامة للأمة العربية والشعوب الاسلامية .

بئر مراد رايس

الاثنين 16 جمادى الأولى 1414 هـ الموافق ليوم الفاتح نوفمبر 1993 م

محمد زروال

---

(1) هو العقيد السابق قائد الناحية العسكرية السادسة أحيل على المعاش .

القســـم الأول

الحياة الروحية في الثورة الجزائرية

الهوية الوطنية في الثورة الجزائرية

يعـد الاستعمار ظاهرة سياسية مركوزة على المنكر والظلم الاجتماعي لأن تفشيها يؤدي إلى الخلل في الجماعة البشرية، ويتسبب في الاضطراب بين أفراد الأمة الواحدة إذ يقل الاحساس بالكرامة الانسانية بل ويكاد ينتفي الشعور بذلك عند الفرد والجماعة.

ومن هنا تبدأ الشعوب المغلوبة على أمرها البحث عن أسباب ضعفها فإذا وجدتها تصدت لها بالمقاومة من داخل نفسها ومن خارجها. ومقاومتها لها من داخل النفس هي تعلقها بكل ماهو روحي يمثل ضمانتها الوحيدة في استمرار وجودها الفاعل أو الذي يبحث عن وسائل الفعل. وهذه الوسائل تختلف من مرحلة إلى أخرى ولكنها في المراحل كلها يمثل جانب العقيدة فيها أكبر تلك الوسائل وأكثرها ضمانة للوصول إلى مرحلة ذلك الوجود الفاعل.

وقـد شكـل الـدين عاملا أساسا في اهتياج الخيال الوطني الجامح للأمة وتنبيهها وإيقاظ الشعور الوطني فيها. وإذا كان الدين يقوي اللحمة بين أفراد الشعب الواحد فإنه وحد الجزائريين في رسم أهدافهم الوطنية وإن اختلفت مظاهـرهم الاجتـماعية. وكلما توهـج الـدين بنور الايمان وقوى سلطانه على النفـوس كلما كان الأفراد والجماعات حمية أبية لا تعنو للظلم ولا ترغمها قوة مستبدة. والدين هو هذه الخواطر الروحية المكتنة في النفس، تلك الخواطر التي تدعو إلى المزيد من فعل الخير كما تدعو إلى مقاومة الشر كذلك، وهي تقوى في النفس المؤمنـة بقوة الوازع الديني فيها كما أنها تضعف بضعفه. لذلك نرى المستعمـرين يجعلون محاربة الدين هدفهم الأول فهم يجندون لهذا الغرض كل ما أوتوا من قوة لفصل الشعب الذي يحتلونه عن هذا المقوم الروحي الكبير في

الأمم والشعوب. فقد جندت فرنسا الآباء البيض للنهوض بهذه المهمة التي تستهدف تنصير الشعب ومحاولة تقديم الدين له في غير صورته الحقيقية ما دام يرى فيه ملاذه الوحيد والعنصر الأساس الذي يلوذ به ويعصمه من الفناء والذوبان في بوتقة غيره.

ومن هنا مثل الدين أقوى الوسائل في المحاربة الخفية والعلنية للعدو فكان بحق هو الذي يعول عليه في استلهام النفوس سلطانها القوي من سلطانه الأقوى لأنه يمثل الضمير الحي في حياة الشعب والشعلة التي لا تنطفىء نارها أبدا.

إن ما يفرضه الاستعمار من قيود على الحياة الروحية للشعب وما يسنه من قوانين تحد من تلك الحياة الروحية يعد ضربا من ضروب هذا التعسف الاجتماعي والتدخل الأخرق بهدف إضعاف عامل الدين في الشعوب وانتزاع هذه الشعوب من أصولها المتأصلة فيها، تلك الأصول التي كونها الدين في نفوس أبنائها.

إن تشبث الشعب بعناصر وجوده وعلى رأسها الدين قد حمى الدين ذاته، ورسخ الأسباب التي توهن العلاقة بينه وبين المستعمرين وبذلك تبقى شخصيته المعنوية والمادية على حد سواء بمنأى عن المسخ والفسخ. من هنا نرى الشعب يرفض من داخل نفسه ومن خارج هذه النفس عوامل الضغط المختلفة التي يتعرض لها قصد تخليه عن مقوماته الوطنية التي تقوم عليها أسس حياته الناهضة الواعدة.

وقد مثل الصراع على الدين مجالا واسعا من مجالات المعركة الروحية التي شنها الاستعمار الفرنسي على الشعب الجزائري إيمانا من هذا الاستعمار بضرورة خوض غمار هذه الحرب النفسانية التي كان يعرف مسبقا أنه لن ينتصر فيها ولكنها تسجل حضوره الذي لا يخلو من بعض الآثار الوخيمة على البعض من ضعاف النفوس.

مما تقدم يتبين لنا الأهمية القصوى لعامل الدين في حياة الشعوب وفي نظرة المستعمرين لهذا العامل الحيوي. فماهي أهمية الأرض في حياة تلك الشعوب؟ وللاجابة عن ذلك نقول: «لقد نظرت الثورة إلى الأرض على أنها الكائن

الروحي والمادي المفقود في حياة الشعب الذي يكون في النفوس معنى التوحد. ويوجد في الاختلاف بين مشاربها الفكرية أسباب ارتباطهم بالأرض، فتجتمع الأمة على الخواطر المشتركة والأهداف الوطنية الموحدة.

وقد تفطن الاستعمار الفرنسي إلى أهمية العلاقة العضوية بين الشعب والأرض فحاول أن يقلل من تلك الأهمية وذلك بتوهين تلك العلاقة بين الأرض وأصحابها الشرعيين فيكون فيهم الشعور بعدم أهليتهم لامتلاك الأراضي الخصبة بحجة أن نوع حياتهم البسيطة غير المستقرة يتطلب منهم التنقل الدائم وعدم التقيد بهذا النمط من الحياة التي تدعو إلى الاستقرار الذي يحد من حريتهم في ذلك التنقل.

من هنا سن الاستعمار الفرنسي قوانين تحرم على البعض من أصحاب الأرض الخصبة أن يمتلكوها، وتسوغ له مطاردتهم منها، وترحيلهم عنها بعد تجريدهم من وسائل الانتاج وإخضاعهم لهذه السياسة الماكرة التي تجبر المواطنين على التخلص المفروض من أراضيهم، فمن الاغراء على بيعها إلى الاغواء على النزول المكره عنها لهؤلاء الوافدين الذين يستقدمون من شتى البلدان الأوربية بهدف تمليكهم تلك الأراضي المنتزعة من أهلها الأصليين.

ولعل أخطر أنواع هذه السياسة التوطينية الظالمة ما كان يعمد إليه الاستعمار من اغتصاب للأرض بالقوة من ملاكها الأصليين على إثر وضع حد قمعي لهذه المقاومات الشعبية المتكررة.

فأنت تعلم أن الاستعمار كان يحمل الشعب هذه المغارم الثقال عقب قضائه على تلك المقاومات المتواصلة.

وكانت تلك المغارم متنوعة المصادر، منها : المال السائل والعقار والأرض، ولعل التعويض عن تلك المغارم بالأرض كان أحب إلى نفوس المعمرين فهم يعلمون أن شمال البلاد أخصب تربة من جنوبها وأقرب إلى وسائل المواصلات، وأقل كلفة مالية في استصلاحها بالقياس إلى غيرها من الأراضي الأخرى، كما أنه يمثل أكثر المناطق حفاظا على ممتلكاتهم وحياتهم التي لا يأمنون عليها شر هذه المقاومات التي لا تهدأ إلا لتشب نارها من جديد.

وقد نتج من هذه السياسة الاقتصادية الجائرة أن خف الضغط على الشمال، وتوالت تدفقات الجزائريين المهجرين إلى الهضاب العليا وغيرها من المناطق القاحلة الجرداء حيث لا يطاردهم الاستعمار. ولم يبق في تلك المناطق الشمالية إلا هؤلاء المعمرون وكثرة كاثرة من الأيدي العاملة الوطنية لكي تقوم بخدمة تلك الأراضي الجيدة التي آل أمر امتلاكها إلى أولئك المعمرين.

وقد نشأ عن اغتصاب الأرض من أصحابها أن ظهر في شمال البلاد هذه الملكيات الأوربية الكبيرة التي اجتلب لها أربابها العمال من المواطنين الجزائريين الذين رحلوهم عنها بالقوة. وبعيدا عن تلك الملكيات عاش الجزائريون المرحلون عيشة المحرومين الذين ظلوا دائما يبحثون عن سبب شقائهم وحرمانهم فلا يجدون الجواب عن ذلك إلا في هذا التزايد لعدد الطارئين عليهم وعلى أرضهم.

وإذا كانت الأرض قد شكلت مصدرا كبيرا للثروة بالقياس إلى الأوربيين فإنها قد شكلت بالنسبة إلى عموم الجزائريين قوة أدبية ومادية تستهدف الدفاع عن حرمتهم والذياد عن كرامتهم. وبذلك تكون هذا الصراع الحضاري ليستمر بين جنسين لم يجمع بينهما إلا تسلط القوي على الضعيف والدفاع المستميت لهذا الأخير عن نفسه وعن مقوماته الوطنية.

ولأن الأرض قد مثلت سندا قويا للمستضعفين فإنها ظلت هذا السند القوي لهم في ثورتهم على الأعداء إلى أن تحولت إلى مقبرة دائمة لأولئك الأقوياء المتسلطين. إنها نقطة ارتكاز في التربص بالعدو ومجابهته فهي كانت تزرع الأمل في النفوس بوجوب تحريرها ذات يوم.

وإذا كانت الأرض تمثل الصيرورة التاريخية المشتركة والامتداد الحضاري للمجتمع الواحد فقد كان التباين واضحا للشعب بين الحضارة التي ينتمي إليها وبين هذا الغزو الثقافي والفكري والاقتصادي الطارىء عليه.

إن الحضارتين اللتين تصطرعان في الجزائر تحمل كل واحدة منهما في طياتها طبيعة الأرض التي أنتجتها والبيئة التي غذتها مع ما في طبيعة هذه الأرض وتلك من التباين والاختلاف الذي ينعكس على المقومات الأساسية للفرد في كل واحدة منهما.

إن الرصيد التاريخي للأرض يختلف من بيئة جغرافية إلى أخرى نظرا إلى التفـاعل الذي يربط الأرض بمن يعيشون على ظهرها ذلك أن الأفراد تتأثر طباعهم بمدى ما ينغرس في نفوسهم من آثار يحدثها كر الجديدين (1) على أديمها.

وإذا نحن رجعنـا إلى التـاريخ نستقرئه مدى تأثير معاني الأرض في حياة الجزائريين تبين لنا أن ذلك التأثير قوي على النفوس شديد على الأفكار يصب في مفهوم واحد هو التعلق بالأرض والدفاع بحرارة عن هذه الأرض. على أننا لا نفاضل بين حيز من الأرض وآخر إلا بالقدر الذي يشهد بتضحيات هذا الحيز على ذاك أو بمدى ماقدمه من إسهام في صنع حضارة بني الانسان.

وهذه السياسة الاستعمارية الجشعة التي كانت تستهدف عزل الشعب عن مقوميه الأساسين : الدين والأرض، هي عين السياسة التي انتهجها الاستعمار ورسمها لنفسه قصد محو هذين المقومين الآخرين في حياة الشعب وأعني بهما : اللغة العربية الموحدة للشعب، والتاريخ المشترك بين سائر أفراده.

لقد كان الاستعمار يرى في العنصرين المذكورين من القوة السحرية التي تجتذب الشعب إليها مايدعوه إلى مقاومتهما ومحاولة الحد من تأثيرهما في النفوس والوقوف منهما عين الموقف الذي اتخذه من كل من الدين والأرض. وأقل ما توصف به هذه السياسة المنكرة البغيضة أن فيها كثيرا من إقرار العزم على محاربة ومطاردة اللغة والتاريخ. فقد كان هدم مراكز الثقافة وتحويلها إلى بيع وكنائس شاهـدا على اتبـاع هذه الخـطة التي تناهض اللغة وتستعدي عليها الوسائل المختلفة التي لا تعمق الشعور بأهميتها كعامل مهم في توحيد صفوف الشعب.

وليس من شك في أن ذلك يعد إمعانا في محاولة الفصل بين الشعب ولغته من جهـة وإغواء وإغراء لطائفة قليلة من أبناء هذا الشعب في أن تقبل على تعليم هذه اللغة مادامت الغلبة الثقافية لها على اللغة العربية وعلى غيرها من عناصر الخير في هذه البلاد.

من هنا تكونت هذه النخبة المثقفة باللغة الأجنبية التي سيقف الكثير من أنصارها موقف العداء من اللغة العربية آمادا طوالا.

---

(1) الجديدان هما : الليل والنهار لأنهما يتجددان باستمرار (الكاتب).

ولكن الشعب حارب الاستعمار من حيث حاربه هذا الأخير فقد نهض رجاله يحافظون على هذا العنصر الحيوي في بنيته الاجتماعية التي تقوم أساسا على هذه الأدبيات التي تستشف كنهها من القداسة الدينية التي عبرت عنها لغة القرآن والتي نزل الوحي بها من السماء فأكسبها بذلك خلودا في نفوس الناطقين بها.

من هنا كان الدفاع التلقائي عن هذا المقوم اللغوي أحد الأسس التي انبنت عليها الفكرة الاصلاحية والسياسية التي شكلت سلاحا معنويا يزود الشعب بطاقة روحية لا يعرف الفناء إليها سبيلا.

وما من شك في أن الاستعمار قد جند أسلحته الظاهرة والخفية منها لطمس معالم هذا الركن الركين في نفوس الشعب ولكنه لم يبلغ من ذلك ما يريد فقد أخفقت مشاريعه وهي تواجه الارادة الشعبية التي اتخذت من اللغة العربية وسيلة للمقاومة وسبيلا إلى المطاولة أفضى بها أخيرا إلى تحقيق العزة والسيادة التي حرم منها طويلا.

وإذا كان هذا هو القدر المقدور للمقومات الثلاث السابقة مع الاستعمار الفرنسي فقد شكل التاريخ هو الآخر واحدا من العوامل المكونة للشخصية الوطنية والناهضة عليها. فقد كان حظ التاريخ كبيرا من التزييف والتحريف، والكتابات الموسومة المسمومة التي لا تتورع عن اصطناع صراع فكري كاذب بين الشعوب مبدؤه التسلط الثقافي، ووسيلته القهر وهدفه امتصاص دماء الشعوب.

وقد ظل تاريخ الجزائر متصلا بالمشاعر الشعبية يغذوها غذاء يبعث فيها الأمل ويقوي فيها الايمان بإيغالها في القدم وإيغار صدرها على العدو.

وإذا كان للتاريخ مصادر متعددة فإن أهم هذه المصادر بالنسبة إلى الجزائريين هي هذه التضحيات المتواصلة التي لاتزيده إلا عنادا وإصرارا على إضرام نارها على العدو كلما واتته الفرصة في ذلك. من هنا كانت المراحل التاريخية للشعب طافحة بالغضب، معبرة عن الارادة في التحرر.

إن إكبار التاريخ وإجلاله في حياة الشعب يوحي إليه وحي أبطاله الذين

صنعوا هذا التاريخ ومقوماته التي نهض بها استرجاعا للحق ودفاعا عن الحياة الحرة الكريمة.

وقد عكف الرجال المخلصون من أبناء الشعب على خدمة مقوماته الوطنية فيها ورثوا من تلك المقومات يحاولون بذلك أن يعطوها معاني جديدة تلهب في نفوسهم نار الثورة وتوغر صدورهم وتحفظها على العدو. من هنا كان شن هذه الحرب النفسانية على المستعمرين ردا تتطلبه طبيعة الظروف التي لم يبق للشعب فيها من وسيلة مادية إلا إعلان تلك الحرب النفسانية على العدو الفرنسي.

وقد شكل التاريخ أداة وصل روحي بين أفراد الشعب إذ كان مما يمتاز به هذا التاريخ أنه يمثل ملحمة شعبية لم تصنعها طبقة ممتازة لتفاخر بها طبقة ممتازة أخرى. وهذه الظاهرة ليست طارئة ولا عارضة وإنما هي إنفاذ للارادة الجماعية للشعب في التعبير العملي عن غضبه تعبيرا جماعيا فهي أسلوبه المتبع، وطريقته المثلى في مواجهة العدو.

ونظرا إلى ما تقدم فقد ركزت الثورة على إبراز هذه المقومات الوطنية التي يجب أن تنهض عليها أسس الجهاد الذي يخوضه الشعب.

ومهما يكن من شيء فقد أذكت الثورة نار هذا التفاعل الذي يشد الشعب إلى مقوماته الوطنية فتكون بذلك هذا الرصيد الثوري المؤسس على الأدبيات التي عاش عليها الشعب يستلهم منها عنصر بقائه إلى أن كانت الثورة المظفرة.

وهذه المقومات الوطنية التي تستند إليها الثورة ليست إلا دليل صدق على هذا المخزون الأدبي الذي يزخر به الشعب والذي يدخره لليوم الموعود.

ومن الانطلاقة الأولى للثورة كان الأمل بالنصر من أهم البوادر التي تلوح في أفقها وذلك بسبب ما توصلت إليه من نتائج تؤكد كلها أن الطاقة الروحية المكتنة في المقومات الوطنية هي العامل الأساس في كسب النصر وأن هذه الطاقة لا نكاد نلمسها إلا في عبقرية الشعب التي تختلف عناصر تكوينها من شعب إلى آخر وهي تعد في شعب الجزائر من أقوى تلك العناصر وأشدها تأثيرا في النفوس.

وإذا كان تركيز الثورة على الجانب الروحي أكثر من الجانب المادي فإنما ذلك بسبب ما توليه من أهمية لهذا السلاح المعنوي الخطير. ونحن إذا استقصينا

جهاد الجزائر الطويل وجدناه ينحل إلى مفاهيم أخلاقية وأدبية في جملته وتفصيله. هذه المفاهيم تستمد ديمومتها من كيان الشعب وأصالة ذاته التي تشيع الأمل في النفوس وتدفع الفرد إلى أن يجدد ثقته بنفسه ليعمل للغد القريب، وليستعد لما تخبئه له الأيام. من هنا بدأ الفكر الجزائري يظهر عناية خاصة بالمشكلة الوطنية الكبرى وأعني بها مشكلة الهوية الوطنية وما يتولد عنها من صراع حضاري بين قوتين متناقضتين : قوة الاستعمار المادية، وقوة الشعب الروحية. كما أخذ هذا الفكر يتعمق الأسلوب الأكثر نجاعة في مواجهة العدو فلا يتبنى منه إلا وسائله الأدبية مع عدم إهماله لما توافر عليه من الامكانات المادية التي من شأنها أن تكمل مفعول تلك الوسائل الأدبية التي لا تزداد إلا طموحا وجموحا وجنوحا في عقول وقلوب الشعب. وكلما أحس هذا الأخير شعورا متزايدا باستعلائه الروحي واستطالته المعنوية على أعدائه دفعه ذلك إلى البحث الجاد عن أسباب تعثر مسيرته السياسية. ولكن الشيء الذي نؤكده هو أن هذا التعثر السياسي هو الذي أنضج هذا الفكر النضالي وعلمه الثبات للمعضلات وفكرة الاعتماد على الله وعلى النفس مادام يملك هذه القوى التي تنأى عن الشر وتنهى عن اقترافه.

ولكن كلمة المقومات الوطنية التي ورد ذكرها في هذا الحديث تحتاج إلى شيء من الجلاء والوضوح بالنسبة إلى المفهوم الجزائري بصفة خاصة ذلك أنها تعني بالقياس إلى شعب الجزائر جملة من الأسس التي ينبني عليها الكيان الوطني؛ وأن مجموع هذه الأسس إنما تنهض أساسا على العامل الروحي الذي يتغلغل في النفوس المؤمنة؛ وأعني به عامل الدين الذي يسخر لسلطانه كل تلك الأسس التي هي:الأرض، اللغة، والتاريخ المشترك. وإنه ـ أي الدين ـ بالنظر إلى هذه الثلاثة الأخيرة يمثل إكسير حياتها فقد نظر الشعب إلى الأرض على أنها تمثل امتدادا لهذه الرقعة الجغرافية العربية الكبيرة، أو على الأقل لجزء منها على أنها مهبط الوحي ونزول الرسالات التي أضفت عليها هذه الهالة من القداسة الدينية التي خصها الله سبحانه وتعالى بها، كما أنه نظر إلى اللغة على أنها اللسان المعبر عن إيمانه بالدين الذي أنزله الله في تلك الأرض. ونظر أخيرا إلى التاريخ المشترك على أنه هو السجل الحافظ للعناصر الروحية التي كونت الوحدة

الوطنية والمعنوية بين أفراده، وحافظت على هذه الوحدة. من هنا يتبين لنا هذا الارتباط العضوي بين الشعب والمقومات الوطنية التي أسهمت في إبراز شخصيته؛ فجاءت شخصيته هذه متميزة بذلك عن غيرها من بعض الشعوب الأخرى التي لا تستند مقوماتها الوطنية إلى هذا العمق الروحي الذي تفرد به الشعب الجزائري. إننا نريد من وراء هذا كله أن نصل إلى القول: إن المقومات الوطنية إذا كانت جامعا مشتركا بين الشعوب جميعا فإنها في الشعب الجزائري أكثر تقويما وأشد استعصاء على خطوب الدهر لأنها تنبني على هذا العامل الروحي الذي هو الدين الذي تخضع له باقي المقومات الوطنية الأخرى. والذي لا يتوافر مفعوله السحري لبعض الشعوب.

هذه لمحة يسيرة عن العلاقة بين الثورة والهوية الوطنية أو بين الهوية الوطنية والثورة أردنا من خلالها أن نتوصل إلى هذه الحقيقة وهي أن الثورة التي لا تملك رصيدا دينيا ووطنيا يؤهلها لتفجير ذاتها لا تستطيع أن تثبت للخطوب خاصة إذا كان هذا الرصيد وليد التجربة المرة والمراس الطويل. إن أثر المقومات الوطنية يظهر في شحذ النفوس وتهيئة العقول لينقلها من حالة التردد إلى العمل الثوري، ومن فقدان الوعي بالذات إلى الشعور بالذات. ففي مدرسة الثورة يحتل الفعل الشعبي مركز الصدارة في التعبير عن تلك الذات. إن تفجير الطاقات الحية في وجه الاستعمار عملية متجددة لا تزيدها الهزائم إلا عنادا وإصرارا على إذكاء نارها المضطرمة كلما واتتها الفرصة في ذلك.

جيل الثــورة
أو
خلاصـــة الأجيــال

وتستطيع أن تسميه جيل استرجاع الحرية والاستقلال من المستعمرين الفرنسيين أو جيل بناء الدولة الجزائرية الحديثة والنهوض بأعباء هذه الدولة أو تستطيع أن تسميه بما شئت أن تسميه به من هذه الأسماء التي لها علاقة بالثورة على العدو من أجل العزة والكرامة؛ كل هذه الأسماء وكل هذه الأوصاف وكثير غيرها يمكن أن يوصف بها هذا الجيل الذي رفع رأس الجزائر عاليا؛ إذ لولاه لما أمكن الله الجزائر من أعدائها. فقد وقعت عناية الله سبحانه وتعالى عليه فجعل النصر على يده وعجله له وكف أيدي الأعداء عنه وعن الشعب. وبذلك وضع حد لهذا الاستعمار الظالم الغاشم الذي جثم على أرض الجزائر مدة طويلة حاولت خلالها الأجيال السابقة لجيل الثورة أن تحقق ما حققه هذا الأخير من نصر أراد الله له أن يكون وقفا على جيل الثورة. وليس هناك من شك في أن ذلك يعد تفضيلا لهذا الجيل على من سبقه من تلك الأجيال التي حاولت كلها أن تحرز النصر وتفتك الحرية والاستقلال. ولكن الله أعلم من غيره حيث يجعل فضله باختيار من هم أهل لهذا الفضل وهو أعلم كذلك متى يؤتي فضله هذا على عباده المؤمنين. وبذلك أسبغ الله نعمه على جيل الثورة فكان حريا بهذا الجيل أن يكون شاكرا لله وأنعمه عليه.

وجيل الثورة يعد خلاصة الأجيال إذ هو ثمرة جهاد الشعب وحصيلة أتعابه ومعاناته ذلك أنه يمثل الفكر الشعبي الرافض للاستعمار، المؤمن بحقه في الحياة الحرة الكريمة. وجيل الثورة يعد كذلك جزءا من الشعب كما أن الشعب

جزء منه فهما بذلك يكملان بعضهما البعض ولا سبيل إلى أن يتقطع ما بينهما من صلة ولكنهما مضطران بحكم الظروف السياسية العنيفة التي كان الاستعمار يسلطها على الأبشار والأشعار أن يقويا تلك الصلة وينمياها وأن يتصديا لكل ما يعرض لثورتهما من خطر يجر على وجودها شرا عظيما.

فأنت ترى أن ذلك الجيل كان مندفعا إلى العمل الجاد والمخلص تحدوه في ذلك الرغبة الصادقة في الانعتاق من براثن الاستعمار الفرنسي والانتقام من هذا العدو الذي أصاب الناس في حياتهم وأرزاقهم وفي معتقدهم الديني والوطني كذلك.

ولعل أهم ما يتميز به جيل الثورة هو أنه عرف كيف يستخلص الدروس النافعة من تجارب تلك الأجيال التي سبقته ويتكيف مع الواقع الذي يعيش فيه ويتفهم الظروف الداخلية والخارجية للشعب قبل أن يقدم على تفجير الثورة. ولم يكن ذلك ليتسنى له لو لم يغلب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة فقد كان تنكره للذات، وإخلاصه للمبادىء الوطنية، وارتباطه الوثيق بالشعب يمثل كله إحدى الدعائم القويمة التي بنى عليها نضاله وأسس عليها جهاده، وما كان ليتم له هذا الأسلوب الثوري الناجع في معالجة مشكلة الحرية والاستقلال لو أن الله لم يوفقه إليه ولم يهده إلى سبيله السوية في ذلك.

وجيل الثورة فهم الثورة على أنها تجنيد عام للشعب، وعلى أنه مسؤول على نتائج هذه الثورة والآثار التي سيذكره بها التاريخ وعلى وقع تلك الآثار في نفوس الشعب. فهذا الجيل الواعي بعظم المسؤولية التاريخية التي تحملها قد عصم نفسه من العوامل الوخيمة التي تؤثر على نهوضه بمهامه الثورية، وتشكك في إخلاصه، وتفسد رأي الشعب في انقياده له، فكان بذلك مثالا في القيادة الثورية الجماعية الرشيدة التي تستلهم عناصر نجاحها من هذا الاخلاص الذي يطغى عليها وعلى أفرادها، ومن هذه الارادة الشعبية العامة في وجوب التحرر من الاستغلال والاستذلال. على أن هذه الخصال الثورية التي يتحلى بها جيل الثورة قد أكسبته صلابة في مواجهة العدو فاستطاع بطبيعته التي تعودت قساوة الحياة في عهد الاستعمار أن يثبت لأهوال وأوجال هذه الحرب الظالمة وبتعبير آخر نقول: لقد أسهم الاستعمار الفرنسي نفسه بأساليبه غير الانسانية في أن يكون

في الأهالي هذه الروح الرافضة لكل ما له علاقة بسياسته العنيفة التي يسلطها على أمن الناس وحرياتهم.

وهذا الجيل قد عاش تناقضات فكرية وسياسية كثيرة في أثناء الثورة. ولكن رجاله لم يحفلوا بتلك التناقضات ولم يخالفوا عن المبادىء التي تجمعهم وأخذوا نفوسهم مأخذ الجد في الصرامة في الاحتكام إلى تلك المبادىء التي توحد بينهم، ولم يحسبوا لأهواء نفوسهم الجامحة حسابا. وقد نشأ عن إخلاصهم هذا وعن تعلقهم بالأهداف والأصول أن كانوا مثالا رائعا في كل ما يتصل بشؤون حياتهم وهو ما لم يألفه الشعب الجزائري قبل ذلك.

من هنا كان الصراع السياسي والفكري في مسيرة هذا الجيل، وكان الاختلاف الكبير بين النظرة السياسية والفكرية المتعقلة وبين النظرة المتطرفة في ذلك. وقد انتفعت الثورة بهذا الاختلاف واستفادت قضايا فكرية وسياسية أثرت بها كفاحها وغذت بها عقول الناس الذين أخذوا بحظوظهم الفكرية من تلك الصراعات التي واجهوها بحزم وعزم وشجاعة أدبية من أول ظهورها وذلك كله حفاظا على الوحدة الثورية. وقد ثبت هذا الجيل أمام تلك التناقضات الداخلية يغالب أمواجها ويقاوم عواصفها من داخل نفسه ومن خارجها ينتصر عليها حينا وتنتصر عليه حينا آخر ولكنه يظل يظهر عليها ويصرعها مادام قد جعل منها وسيلة يحقق بها حقه في الحرية والاستقلال.

وقد استمد جيل الثورة طبيعة تنظيم ثورته ونمط تسييرها من طبيعة الأرض ونمط الحياة اليومية للشعب فهو إذن جيل مبتكر مبدع يحاول أن يوفق بين الأسلوب في العمل الثوري وبين طبيعة الأرض وبين نظرة الشعب وتطلع هذا الأخير للاستقلال. وهو بذلك يعمل على ربط اللحمة بين الثورة وبين الشعب على أن تكون الثورة هي الشعب والأرض وعلى أن يكون الشعب والأرض هما الثورة كذلك.

وإذا أردنا أن نحلل دقائق هذه العلاقة بين الثورة والشعب والأرض لنرى أكان جيل الثورة قادرا على الصمود والبقاء أم أنه كان معرضا للفشل والهزيمة في قيادة الثورة فإننا نلاحظ أن هذا الجيل كان يعتمد في نظرته التوفيقية بين العناصر الثلاثة التي هي : الثورة، الشعب والأرض على عامل الدين فقد كان

هذا الجيل نابعا من صفوف الشعب فهو إذن متأثر بجملة من العوامل التي يتأثر بها الشعب وأهم تلك العوامل وأكبرها تأثيرا في النفوس هو عنصر الدين الذي آمن به الشعب أربعة عشر قرنا أيقظ في نفوس أبنائه الاحساس بالكرامة والتصدي للظلم وقوي العلاقة الروحية التي تربط بين أفراد الشعب الواحد.
من هنا اعتمدت الثورة آعتمادا كليا على إلهاب عنصر الدين في نفوس الشعب منذ أيامها الأولى فكانت شعارات دينية كثيرة دفعها جيل الثورة ليلهب بها حماسة النفوس المتدينة وقد نجح في ذلك إلى حد بعيد فأنت ترى أن عامل الدين قد أدى دورا كبيرا في إذكاء جذوة الثورة في الأوساط الشعبية المخلصة وفي أوساط المجاهدين والمناضلين على حد سواء.

أما العامل الثاني الذي اعتمد عليه جيل الثورة فهو المبادىء السياسية الواضحة التي لا يماري فيها أحد حتى من الأحرار الفرنسيين أنفسهم فقد اجتمعت كلمة الشعب على أن تلك المبادىء هي الأهداف التي يستهدفها والآمال التي يتطلع إليها لذلك كان تعلقه بها قويا والتفافه حولها عن إيمان راسخ في النفس وثبات في القلب.

ولم تكد الثورة تنتشر في أرجاء البلاد حتى تجلت معاني تلك المبادىء وحتى تقبلها المؤمنون بها راضين بها مطمئنين إليها وليس في هذا شيء من غرابة بالنسبة إلى شعب عاش قرنا وربع القرن يناضل ويقاتل من أجل عزته وكرامته.

وإذا كان لجيل الثورة مزايا فأهم هذه المزايا في نظرنا هو أنه عرف كيف يحافظ على وحدة الثورة رغما عن التناقضات التي كانت هذه الثورة تعيشها داخل صفوفها. وإذا كانت تلك التناقضات ملائمة لطبيعة الأشياء التي تصل إلى مستوى ثورات الشعوب فحري بمثل هذه الثورات أن تمر بمثل هذه المراحل الصعبة في تاريخ مسيرتها ولكن قوة كل ثورة تكمن في قدرة رجالها على التصدي بإخلاص ثوري وإرادة قوية في تجاوز هذه الخلافات التي تنشأ من حين إلى حين والتي تدل على سلامة الثورة، وعلى وضوح فكرها المتوقد الذي لاينفك يبحث عن أنجع السبل لتحقيق الأهداف الوطنية المرسومة.

وأما العامل الثالث الذي اعتمد عليه جيل الثورة فهو يتمثل أول ما يتمثل في

هذه الثقة المتبادلة بينه وبين الشعب انطلاقا من العاملين الأولين اللذين قامت عليهما هذه العلاقة المتينة بين الثورة والشعب وهما : عامل الدين ووضوح المبادىء الثورية المتينة بين الشعب والثورة، إذ ليس يكفي أن تكون طلائع الشعب تؤمن بمبادىء وأهداف لايؤمن بها الشعب كذلك. وهذه هي الرابطة القوية التي ألفت بين القلوب ووحدت بين القوى الثورية وبين عامة الشعب. إذن فقد كان هناك تضامن وتعاون وتوازن بين جيل الثورة كقيادة رائدة وبين الجماهير الشعبية كقوة صامدة. وبفضل ذلك التضامن والتعاون استطاع جيل الثورة أن يكون هذه البيئة الثورية التي تساوي فيها الموت والحياة؛ فقد كان هذا الجيل ينظر إلى الموت على أنه يمثل مصدره الوحيد في الحياة الحرة الكريمة؛ وعندما تتساوى الحياة والموت في نظر الفرد المتطلع الطموح فإن ذلك إيمان بانتصار الحياة على الموت، وإيذان بانبلاج نور الحياة على ظلام الموت.

من هنا لا يحسب الناس لموتاهم حسابا لأنهم الثمن الغالي للحياة الغالية التي يتطلعون إليها. وفعلا فقد عاش جيل الثورة لا يفرف بين شهيد يوارى في التراب وبين مجاهد يمشي على التراب، ذلك ضحى بحياته من أجل عزة التراب وهذا سيلقى المصير ذاته إن لم يتحرر التراب، وهذا هو المعنى السامي من تساوى الموت والحياة في تفكير جيل الثورة بل في الواقع الذي عاشه هذا الجيل الذي كان أقصى ما يميزه أنه كان شديد الايمان بوجوب تحرير الأرض.

وأول ما يتميز به جيل الثورة هو أنه جيل مخضرم عاش مراحل تاريخية كثيرة وغنية جدا بالمفاهيم المتناقضة والأفكار المتباينة فهو عاش مرحلة الاستعمار وذاق مرارة هذه الفترة الحالكة وبلا من ويلاتها الكثير من المعاناة النفسانية، والاجتماعية، والحرمان من التعليم، والمطاردة السياسية والاضطهاد الفكري إلى غير ذلك من هذه المظالم المختلفة التي يضع الاستعمار لها قوانين ظالمة صارمة لينفذها على المظلومين والمحرومين.

كما أن هذا الجيل عاش مرحلة الثورة التحريرية بمبادئها الثورية النبيلة، وخروجها على نظام الاستعمار ودخولها في نظامها هي - أي الثورة - الذي اصطنعته لنفسها بديلا للحكم الأجنبي.

وعاش هذا الجيل من جهة أخرى مرحلة الاستقلال التي تحمل في طياتها معاني الشعور الفعلي بالسيادة الوطنية والانتماء غير المنقوص للأرض والشعب.

ولعل أخطر المراحل التي يحياها جيل الثورة هذه التي أحيل فيها معظمه على المعاش وهو لا يزال قادرا على العطاء للثورة وللشعب. وإذا كان هذا موضوع آخر نرجىء الحديث فيه للمستقبل بحول الله فإننا نقول: إن التشرذم والتمزق النفساني، والشعور الكبير بالمرارة هي كلها صفات أصبحت ملازمة لهذا الجيل الذي يرى البلاد وهي تضطرب والثورة وهي تصادر ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئا لأنه أحيل على المعاش باسم القانون الذي صنعه رجال سيحكم عليهم التاريخ.

وهذه المراحل الأربع في حياة الثورة قد أكسبته وعيا سياسيا، ونمت ثقافته النابعة من نفسه ومن العوامل الخارجية التي كونت شخصيته المتميزة بالتجارب التي نجذته (1) في كل واحدة من تلك المراحل.

على أنني لست غاليا ولا مسرفا في القول إذا أكدت أن هذا الجيل قد كون لنفسه طبقة نضالية سياسية ممتازة في نضالها. وهذه الطبقة النضالية السياسية الخاصة قد قامت على عوامل مشروعة وأسباب منطقية كجهاد العدو وقيادة الشعب في هذا الجهاد وأخيرا في الانتصار على هذا العدو واسترجاع الحرية والاستقلال منه.

وجيل الثورة قد تعرض للكثير من النقد الذي يوجهه إليه أعداؤه ممن لم يشاركوا في الثورة فهو عند هؤلاء المتعاملين مع الاستعمار ومن لف لفهم يمثل العداء المستحكم في نفوسهم على هذا الجيل الذي كانت له السابقة في تفجير الثورة على هذا الاستعمار، لذلك فأنت تجد الكثير من أولئك القوم يقولون اليوم: إن المجاهدين الحقيقيين قد استشهدوا كلهم؛ أما هؤلاء الأحياء ممن ينتسبون إليهم فليسوا بمجاهدين وليس الجهاد منهم في شيىء إذ لو كانوا كذلك لا ستشهدوا كما استشهد غيرهم. والحقيقة هي أنهم يريدون أن يروحوا عن أنفسهم بهذا الكلام الكاذب الساخط الداعر وأن يوهموا الناس بأن هؤلاء ليسوا إلا مجرد أناس كانوا يحملون السلاح تماما كما كانوا هم أيضا يحملون هذا

---

(1) نجذته بمعنى: أحكمته وحنكته وهي مشتقة من النواجذ فيقال عض عليه بالنواجذ (الكاتب).

السلاح إلى جانب العدو. ولكننا نرد على هؤلاء القوم فنقول : إننا نعرف نياتكم من هذه الدعايات المغرضة وهدفكم من هذه الحملات المسعورة التي تشنونها على المجاهدين. إنكم تستهدفون شيئا واحدا هو الحط أو محاولة الحط من القيمة المعنوية والتاريخية لهؤلاء المجاهدين فقد كبر عليكم أن تنظروا إليهم بالأمس يطاردونكم في المعارك ويطاولونكم اليوم في الاستئثار بهذا العز المنيع الذي أعزهم الله به عندما جعل النصر المؤزر على أيديهم. كما أننا نقول لهم : إذا كنتم تختلفون معنا في التوجه الثوري التحرري من الاستعمار الفرنسي فإنكم لا تختلفون معنا في قراءة وفهم هذه الآية القرآنية الكريمة : «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومابدلوا تبديلا» (1) ألا ترون أن هذه الآية تؤكد أن مصير المجاهدين واحد من اثنين : إما استشهاد وإما انتظار - أي إطالة في الأعمار - وصدق الله العظيم عندما قال في حقكم : «أفتومنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض» (2).

وجيل الثورة يمكن تقسيمه بعد الاستقلال من الناحية الاجتماعية إلى قسمين : القسم الأول منه يعيش عيشة مترفة وهؤلاء هم الحاكمون الفوقيون الذين ظلوا يتخبطون في النعيم المقيم، قد أنساهم ما هم فيه من هذا النعيم المقيم حالة البؤس والشقاء التي ظلت تلازم الغالبية العظمى من إخوانهم المجاهدين الذين تحملوا الكثير في الثورة من أجل أن تنعم البلاد بهذه الحرية وهذا الاستقلال. على أن الذين يعيشون في العلياء لن يتذكروا الدهماء، خاصة إذا تدخلت بينهم الشقراء، تسقي البعض منهم كؤوس الصهباء. عندئذ تكون الفرقة، وتشتد الحرقة، ناس كثيرون يتألمون وقليل منهم يتخمون، عائلات تنام في الملاجيء وأخرى تشخر في البرج العاجي. وأما القسم الثاني فيتمثل وضعه الاجتماعي في هذه الكثرة الضخمة من المجاهدين الذين تكثر حاجاتهم وتتنوع فهي فقر إلى المال وحاجة إلى السكن ذلك أن الكثيرين منهم ممن يسكنون الآن في المدن الكبرى قد هاجروا إليها بعد الاستقلال فوجدوا أنفسهم مضطرين إلى السكن في ملاجيء تحت الأرض وفي

---

(1) سورة الأحزاب، الآية : 22

(2) سورة البقرة، الآية : 85

هذه الأكواخ القصديرية التي تنجم من هذه الأرض كما ينجم العشب منها في فصل الربيع.

ولست أحدثك عن الاهانات البالغة التي يلقونها من بعض هؤلاء الموتورين الحاقدين عليهم فهذا يكره المجاهدين لأنهم قتلوا أباه الخائن في أثناء الثورة (1) مثلا، وهذا ينقم منهم لأنهم يمثلون وضعا سياسيا قائما هم الذين صنعوه بأيديهم فهم محسودون عليه. وذلك يكرههم لأنهم يمثلون القطيعة بين عهدين مختلفين عهد الحرية وعهد الاستعمار الذي لا يزال الحنين يهزه إليه مدفوعا في ذلك ببعض العوامل الخاضعة لتكوينه الثقافي الغربي وانسلاخه عن مقومات أرضه وشعبه.

وإذا كنت قد بينت لك أن هؤلاء المجاهدين سعداء بهذه الثورة أكثر مما هم أشقياء بها فإني لا أريد أن أدعك قبل أن أضيف إليك هذه الحقيقة الأخرى وهي أن هؤلاء المجاهدين عندما يتحصل الواحد منهم على أبسط حقوقه فإن أعداءهم يشنون عليهم حربا شعواء فحواها أن المجاهدين قد انفردوا بخيرات البلاد؛ كل شيء من نصيبهم هم وحدهم لا يشاركهم فيه أحد. وقد فات هؤلاء أن هذه الخيرات لم يكن حظ المستضعفين من غالبية المجاهدين منها إلا هذه الانتقادات اللاذعة التي تحاول أن تسمم الأجواء العامة على هؤلاء المجاهدين، كل ذلك لأن جيل الثورة يعيش هذه التناقضات الكثيرة والمختلفة في أوساطه فتسرب المتسربون، واندس المندسون ليحدثوا هذه الفرقة والاختلاف بين أفراده.

إن جوا سياسيا جديدا ظهر بعد حوادث أكتوبر 1988 م أصبح جيل الثورة يعيشه بفكر يتأرجح بين التشبث بالقديم والأخذ بالجديد، فكر لا يريد أن يفرط في القديم لأنه الأساس الذي انبنى عليه مجد الجزائر ولا يريد أن يتخلف عن الجديد لأنه يمثل وسيلته الوحيدة في الملاءمة بين أفكار ونظريات الأمس التي قادت الشعب إلى التحرر والانعتاق، وبين تطلعات هذه الأجيال التي تهفو وترنو إلى مستقبل لا نراه إلا في مصلحة الجزائر.

---

(1) الموتورون بمعنى: الناقمون. (الكاتب)

وإذا كان الناس قد تعودوا أن ينظروا إلى الثورة على أنها شيء مقدس لا يمكن نقده، ولا الكشف عن خباياه وطواياه فإني لست من هذا الرأي في شيء وليس هذا الرأي مني في شيء فأنا أريد أن أجلو الحقيقة مع ما فيها من بعض الاساءة إلى الثورة، ولكني أؤكد لك مخلصا أن هذه الاساءة لا تساوي شيئا بالقياس إلى أمرين اثنين : أما الأمر الأول فهو الاخلاص الشديد والكبير للجزائر من خلال الثورة، هذا الاخلاص الذي يتمتع به جيل الثورة فإنني لم أحدثك مثلا عن بعض هؤلاء المجاهدين الذين حملوا السلاح في وجه الثورة حديثا يدعو إلى الغرابة والاعجاب حقا وهو أنهم عندما يكونون في حالة اقتتال مع طائفة موالية للثورة فإن الطائفتين المتقاتلتين سرعان ما توجهان أسلحتهما إلى العدو عندما يطوق هذا الأخير رجالهما أو يحاصرهما. وبذلك يصبح الاخوة المقتتلون إخوة مقاتلين لهذا العدو الذي يتصدون له جميعا. وهذا لعمري هو القمة في الاخلاص للجزائر وإن اختلفت النظرة في الفهم الصحيح لهذه الوسائل التي يتوسل بها كل واحد منهم لتحرير الجزائر. ومما يلاحظ في هذا الشأن هو أن فكرة الاخلاص في الثورة ظلت ملازمة للمجاهدين ومثلت جامعا مشتركا بينهم إلى أن تحقق النصر وتم استرجاع الاستقلال.

وأما الأمر الثاني فهو أن جيل الثورة قد عض رجاله على النواجذ إلى أن وضعوا الأمانة التي ائتمنهم عليها الشعب بين يديه وأعني بذلك طرد الاستعمار وإعادة الكرامة المسلوبة لهذا الشعب.

وفي اعتقادنا فإن هذين العاملين هما وحدهما الكفيلان بأن يضعا هذه الثورة في مقام محمود. أما ماعدا هذين العاملين فإن الثورة لا تعدو أن تكون مجرد تصرفات بشرية خاضعة لهذا القانون الذي نادى به ابن خلدون وهو «أن الناس متشابهون وإن اختلفت أزمنتهم وأمكنتهم، كما أنهم مختلفون وإن اشتدت بينهم وجوه الشبه» وهذا القانون هو الذي يسوغ لنا أن نتحدث عن جيل الثورة على أن أفراده هم ناس من الناس إن حللت أخلاقهم وجدت فيها كثيرا من المحامد التي لا تخلو من بعض المساوىء ولكنها عموما أخلاق فاضلة بدليل أنها آثرت المصلحة العليا للبلاد والثورة على أي مصلحة أخرى.

ومهما يكن من شيىء فنحن نعتقد أن هذه الثورة هي كأي حركة عالمية رائدة

تعيش متناقضات نتيجة منطقية للرجال الذين يعيشون فيها مادام هؤلاء الرجال ناسا من الناس. ولكن هذه الحركة تمتاز عن غيرها من الحركات العالمية الأخرى بأنها تنظيم شعبي عام ينهض أساسا على عنصرين كبيرين : عامل الدين وعامل الوطنية اللذين لا ينفصل أحدهما عن الآخر إذ لا دين بلا وطن ولا وطن بلا دين. ولكن هذا الدين الذي تقوم عليه الثورة لا يمكن أن تظل شعلته تتأجج في نفوس الناس إذ لا تلبث هذه الأخيرة أن تتأثر شيئا فشيئا بعوامل الاغراء والاغواء، عندئذ تعود تلك النفوس سيرتها الأولى، ولا يلبث الناس أن يظهر لك كل واحد منهم على طبعه فتصدم عندئذ بهذا السلوك الشائن، الذي يصدر عن بعض الأفراد الذين قد يحكم الغير من خلالهم على هذه الكثرة الضخمة من المجاهدين والمناضلين بأنهم ليسوا بأسعد حالا من غيرهم.

ونحن إذا درسنا جيل الثورة دراسة اجتماعية قبل الاستقلال ألفيناه يتكون من طبقة الفلاحين والعمال وقليل جدا من المثقفين أي أن هذا الجيل هو في الغالب الأعم نتاج هذه البيئة الاستعمارية التي تحكمت فيها عوامل الشر وخضعت لفساد السياسة الاستعمارية. ومن إفرازات هذه السياسة القاسية الشديدة على الشعب نشأ جيل الثورة وقد آنطبعت نفسه بهذه الغلظة على الاستعمار الفرنسي أي أن هذا الاستعمار هو الذي ساهم بظلمه وتعسفه الاجتماعي واضطهاده السياسي والفكري لأفراد الشعب فنشأ بينهم هذا الائتلاف بدل الاختلاف، وهذا التوحد عوضا عن التفرق و هذا الاجماع على الأهداف الوطنية التي كان الشعب مددها.

وجيل الثورة قد ورث صفات مرذولة عن العهد الاستعماري كان عليه أن يتخلى عنها عندما تقلد مسؤولية نفسه بنفسه فقد كان عليه أن يخرج حتما من الفقر والجهل والمرض وكثير من المساوىء الاجتماعية والخلقية الطارئة عليه. وهو قد حقق الكثير من ذلك إذ استغنى البعض منه بعد فقر، وتثقف بعد أمية، وسعدت حياته بعد بؤس وشقاء. من هنا يمكننا أن ننوع جيل الثورة إلى فئتين : فئة استكملت مقومات شخصيتها الذاتية بعد الاستقلال فانضمت إلى الجامعات تثقف عقولها وتغذو نفوسها وتوسع مداركها العلمية فتحصلت على

الشهادات الجامعية في ذلك، ولكن هذه الشهادات إن انتفع بها البعض فإن البعض الآخر لم ينتفع بها لا في ترقيته في إطار عمله، ولا في النهوض بهذه المسؤوليات الوطنية الجسام التي تسند إلى من لا كفاية علمية لهم ولا مقدرة لهم في ذلك. وفئة ثانية عاشت بعد هذا الاستقلال على الرصيد الثوري معتمدة في حاضرها ومستقبلها على ماضيها لم تحاول أن تتطور في فنون المعرفة ولا أن تكسب شيئا من ذلك، إنها فئة الذين عاشوا يلوكون الماضي ويجترونه. وقد فات رجال هذه الفئة أن ذلك الرصيد الثوري الذي يتبجحون به هو من صنع الجميع وهو إرث مشترك بينهم وبين رجال تلك الفئة الأولى التي حدثتك عنها والتي بذلت جهدا أي جهد في التثقيف ونيل الاجازات العلمية ولكنها إجازات تختلف مستوياتها في التحصيل العلمي فقد كان الكثير ممن تحصلوا على تلك الاجازات يتدنى مستواهم العلمي بالقياس إلى الاجازة التي يحصلون عليها تدنيا كبيرا بسبب انعدام القاعدة الثقافية الصحيحة والسليمة التي يبنون عليها تلك الاجازات التي جاء الفارق كبيرا بينها وبين من يحملونها حملا تنوء به كواهلهم.

وانطلاقا من هذا الواقع فإنه يمكننا أن نثبت هذه الحقيقة التاريخية وهي أن جيل الثورة قد عاش في أثناء هذه الثورة وحتى بعد الاستقلال الوطني تناقضات كثيرة تتشابه في أغلبها وإن اختلفت في الزمان. ولكن تلك التناقضات يجب إرجاعها إلى سبب واحد هو هذه الأمية المتفشية في أوساط المجاهدين والمناضلين فقد حالت تلك الأمية دون ظهور بيئة تتحكم فيها الثقافة وتخضع لقواعد المعرفة ويحتكم الناس فيها إلى منطق الأشياء. وقد نتج من هذا الوضع غير العادي ظهور واقع ثوري شديد المرارة هو صورة واضحة للأمية عندما تتفشى في الأوساط بل والجهل عندما يعم هذه الأوساط.

ولكن ما عوض الثورة عن هذه النواقص الكبيرة كلها كان شيئا واحدا كنت حدثتك عنه ألا وهو الاخلاص الذي تحلى به جيل الثورة تحليا لا يضاهيه فيه أي جيل في أي شعب من شعوب العالم.

وذلك الواقع الثوري المر الذي خضع له الناس قد كان السمة الغالبة التي تطبع حياتهم العامة. لذلك كان هؤلاء الناس يروّضون أنفسهم على أن تتعود

هذه الحياة التي تعج بالكثير من المتناقضات في التسيير والتفكير، والتنظيم والتدبير وذلك حفاظا منهم على الثورة وكفى . وكان حتما أن يستمر هذا الوضع إلى مابعد الاستقلال. إذ كان من الصعب على شعب جرده الاستعمار من كثير من أسباب الحياة أن يبنى هذه الحياة من جديد بناء رفعت قواعده على أسس سليمة معتمدا في ذلك على نوعية هؤلاء الرجال الأمين الذين حدثتك عنهم وعلى هذا الفراغ والدمار الاقتصادي الذي خلفه له الاستعمار بعد رحيله عنه. ومن هذا الفراغ الذي يحاول رجال مخلصون أن يملؤوه يكون التباين والاختلاف في التفكير والتدبير، والتنظيم والتسيير.

وجيل الثورة جيل عظيم قتلته عظمته أو كادت تقتله فهو كان منذ اليوم الأول لاندلاع الثورة توجهت إليه سهام الأعداء في الداخل وفي الخارج يريدون أن ينالوا منه ومن ثورته، ولكنه كان عصيا أبيا عليهم وعلى ما يبيتون له من مكائد ويدبرون له من مؤامرات.

على أن الأزمة التي عاشتها الثورة هي أزمة تكمن أسبابها في قيادة الثورة نفسها. فقد كان أفراد هذه القيادة يمثلون المجتمع الجزائري على ما كان عليه هذا المجتمع من وضع مأساوى عام قبيل الثورة أريد أن أقول : إن رجال تلك القيادة لم يكونوا من الطبقة البرجوازية ولا من النخبة المثقفة ولكنهم كانوا وسطا بين الطبقتين المذكورتين يتميزون أول ما يتميزون بنضالهم المتحمس وحبهم الصادق للجماهير الشعبية ولكن ما كان ينقصهم هو هذه الكفاية العلمية التي كانوا لا يستطيعون بدونها أن يملأوا الفراغ الكبير الذي ظلت الثورة تعانيه في كثير من جوانبها التي تأثرت إلى حد بعيد بسبب النقص في تلك الكفاية العلمية.

ولعلنا سنفرد لهذا الموضوع الخطير فصلا طويلا نحلل فيه هذا الرأي تحليلا يمكن أن يقودنا إلى إيجاد العلاقة الوطيدة بين ذلك الرأي وبين ما تتخبط فيه الجزائر اليوم من مشكلات معضلات.

وإذا كنت قد حدثتك عن جيل الثورة فقد كان هذا الحديث عاما، وأنا أريد الآن أن أحدد لك مفهومي الخاص لهذا الجيل الذي يتمثل عندي في التقسيمات الثورية الآتية :

(1) التقسيم الأول : ويشمل كل الذين حملوا السلاح وانضموا إلى صفوف المجاهدين واعتصموا بالجبال إلى غاية الحصول على الحرية والاستقلال.
(2) التقسيم الثاني : وينضوي تحت لوائه كل الفدائيين والمسبلين الذين ينفذون عمليات فدائية أو يربطون الاتصال لمصلحة المجاهدين أي ينفذون أمر هؤلاء المسلحين والمعتصمين بالجبال.
(3) التقسيم الثالث : ويندرج في مفهومه كل المناضلين المتعاطفين مع الثورة أي الذين يمدونها بالمال وغيره.

هذا هو التقسيم الثوري الاجتماعي لجيل الثورة لا أكاد أستثني منه إلا هؤلاء الذين وقفوا من الثورة موقف الحياد أو موقف العمالة والخيانة ذلك أن الثورة لاتؤمن بالمواقف المترددة ولا المتخاذلة فإما أن تكون معها فأنت الثورة والثورة أنت، وإما أن لا تكون معها فليست منك في شيء ولست منها في شيء.

وقد أراد الله لجيل الثورة أن تكون له الزعامة الثورية والقيادة الجهادية في هذه البلاد فكان على هذا الجيل أن يشكر الله حق شكره على هذه الريادة التي جعلها فيه والتي خصه بها من دون غيره من الأجيال السابقة. أما نحن فشاكرون لله هذا الفضل العظيم علينا بأن جعلنا من الذين وقفوا إلى جانب هذه الثورة المظفرة المباركة.

جبهة التحـرير الـوطني
أو
خلاصـــة الأحـــزاب

إن من الحقـائق التي أقرها الواقع وأثبتها التاريخ ما يمكننا أن نسميه بـ «التفـاضـل بين الأحزاب السياسية» فالأحزاب لا تتفاضل إلا بما تحمل من مبادىء سامية تتفاوت في المراتب، وتختلف في المفاهيم، انطلاقا من أن أي تنظيم سياسي لايقوم إلا بما ينطوي عليه من أفكار ذات أبعاد كبيرة تستهدف تغيير المجرى العام للحياة لكي تأتي بمفاهيم إنسانية جديدة، وتسن سننا راقية هي غاية ما تطمح إليه البشرية، وتسعى إلى تحقيقه. ذلك أن الأحزاب تكتل بشري خاص يؤمن أفراده بقناعات خاصة غالبا ما ترمي إلى الرفع من قيمة الفـرد والنهوض بالتالي بالمجتمع نهوضا يستلهم الخير لمصلحة أفراده، ويعلي الحق، وينشر الدين متى كان الدين أحد ثوابت هذا الحزب أو ذاك.

من هنا يمكننا أن نقول: لقد صدق «الاخضر بنطوبال» (1) عندما قال في إحـدى المنـاسبات العامة، وهو يصف الارهاصات الأولى للثورة ووقع هذه الارهاصات في نفوس سكان منطقة جبال الأوراس: «لقد كان الشعب في الأوراس مهيأ للثورة أكثر مما كان الحزب ذاته مهيأ لها».

لقد كان الشعب في المرحلة الممهدة لتفجير الثورة في أشد الحاجة إلى قيادة ثورية واعية ملهمة تنبثق من صفوفه لكي تتحمل مسؤوليته التاريخية العظمى وتنهض بحمله الوطني مستلهمة منه أفكارها الواضحة في التحرر والانعتاق.

وقـد مثلت جبهـة التحرير الوطني هذه الظاهرة الفذة في العصر الحديث كأجمل وأروع ما يكون التمثيل عندما فاجأت الجميع في الداخل وأدهشته في

---

(1) هو واحد من جماعة (22) التاريخيين وقائد الولاية الثانية سابقا ووزير الداخلية في الحكومة المؤقتة.

الخارج بإعلانها عن تفجير أكبر ثورة على الاستعمار الفرنسي عرفها القرن العشرون.

وإننا إذا نظرنا إلى جبهة التحرير الوطني من زاوية خاصة تبين لنا أنها تنظيم ثوري جمع المبادىء الصحيحة السالمة من أطراف الأحزاب التي سبقته، ومهدت له وتقدمت بين يديه. وبذلك فالجبهة تعد دعامة ينتظم فيها كل ما توزع أمره، وتشتت وتفرق بين التنظيمات السياسية الأخرى. ذلك أن تقرير المبادىء وترسيخ القواعد إنما استلهمته الجبهة من مآسي الماضي. وبؤس الحاضر وتطلعات المستقبل وبذلك شكلت الجبهة مصدر المدارك الانسانية لروح الأمة. وإذا كان هناك إقرارات قطعية نسميها مبادىء وثوابت لهذه الجبهة، ونعدها أصولا جبهوية لاتقبل الاختلاف ولا يمكن الحياد عنها ولا إنكارها حتى أن منكرها وجاحدها يعد منحرفا ومتخاذلا فإن هذه الاقرارات القطعية أو المبادىء والثوابت إنما تبنتها الجبهة لمصلحة الأمة استمدادا من آلامها وآمالها.

لقد وضعت الجبهة الانسان الجزائري في حالة الرشد والأهلية وتحمل المسؤولية بعد أن كان موضوعا في حالة القصور والحجر؛ فالجبهة قد شرفته تشريفا ذاتيا بترشيده وتوسيع مداركه وإعادة الثقة إليه بنفسه إذ جعلت كل شيء من الشعب وبالشعب وللشعب. وبذلك فإنها تناولت مواضيع الحياة الانسانية للفرد الجزائري تناولا عاما لا يقتصر على أحوال دون أخرى إذ رفعت من شأنه في ناحيتيه الفكرية والمادية ولاسيما الفكرية منها إذ أزالت عنه الشعور بعقدة النقص أمام الفرد الأوربي وهي بذلك قد طبعت مناضليها الأوائل على الصعيدين السياسي والعسكري على ملكات روحية سلوكية وتصورات نفسية وذهنية للأشياء كانت زادهم ومعينهم الذي لاينضب. من هنا تميزت حياتهم اليومية بالايمان بما هو ضرورة ثورية تتجمع عليها الصفوف وبين ماهو غير ذلك يكون قابلا للاختلاف في الرأي و التباين في الافكار.

لقد استمدت جبهة التحرير حقيقتها من كيان الشعب واستلهمت أصولها ومبادئها من أصوله ومبادئه وكان هذا هو سبب قوتها والتفاف الشعب حولها.

إن الشعب لا يستمد حقيقته من التنظيمات السياسية بقدرما تستشف هذه

التنظيمات السياسية روح تنظيمها من ثوابت الشعب مراعية في ذلك عوامل ثلاثـة لا يمكن إغفالها أو التغاضي عنها تلك العوامل هي : الدين، اللغة والوحدة الترابية الوطنية. وقد ثبت من خلال التجارب المعيشة والحياة الواقعة أن كل تنـظيم سياسي لا يراعى هذه المبـادىء والأصول سيؤول إلى الفشل ويصير إلى الزوال وينتهي إلى الاضمحلال.

إن جبهة التحرير الوطني لم تكن مقصودة في ذاتها بقدر ما كانت مقصودة للمعاني القائمة بها أي للأهداف التي رسمتها والأبعاد الوطنية والانسانية التي حددتها. من هنا أكدت الجبهة هذا التلاحم العضوي بينها وبين الشعب بل أنها جعلت هذا التلاحم مدد الشعور بالذات.

إن الجبهة قد كشفت حقيقة الأحزاب وما انطوت عليه تلك الأحزاب من صراعات هامشية كادت توقف مسيرة النضال وتشل حركة التحرر، ولكن إنقاذ الموقف جعله الله سبحانه وتعالى على أيدي أفراد كانوا من أشد الناس التصاقا بالشعب ومن أكثرهم إيمانا بحقيقة هذا الشعب وما يزخر به من قوة وطاقة كانت في أشد مراحل هيجانها الشديد لاتنتظر إلا ساعة الصفر.

لقد نجحت جبهة التحرير الوطني نجاحا كبيرا في تحقيق فكرة «الشعبية في الميدان لمواجهة العدوان». ولم يكن هذا النجاح ليحالفها لو أنها لم تركز جهودها على عوامـل كثيرة هي : عامل الاعتقاد الديني، عامل الاعتقاد السياسي في العمل من أجل تجسيد هدف كبير، عامل الوحدة الترابية الوطنية وعامل اللغة. على أن عامل الاعتقاد الديني هو ما تطمئن إليه النفس اطمئنانا باطنيا أكثر من العـوامـل الأخـرى. فالأسـاس الاعتقادي الديني إذن هو الذي تنبني عليه الحركات الشعبية المؤمنة التي لا يمكن أن تتخلخل بسهولة ولا أن تتزعزع بيسر.

وقد جمعت الجبهة بين إصلاح النفوس بتوعيتها توعية ثورية، وبين إصلاح نظام المجتمـع بسن قوانـين تتلاءم والظرف المرحلي العصيب؛ في حين كان معظم الأحزاب يشوبه التردد والتناحر والتخاصم بل كان معظم هذه الأحزاب منصرفا إلى الافتراق فرقا متباينة المنازع مختلفة المشارب.

لقد نجحت الجبهة في حمل الشعب على وجوب الاعتقاد بضرورة التصدي

للعـدو. وكان هذا هو أهم ما ابتدأت به الجبهة وأكثر ما ركزت عليه إيمانـا منهـا بأن إصـلاح الفكـرة هو مبدأ كل إصلاح إذ لا يرجي صلاح لقوم تلطخت عقولهم بالعقائد الضالة وخسيئت نفوسهم بآثار تلك العقائد. وقد نشأ عن هذا الاعتقاد الجبهوي الثوري : عزة النفس، أصالة الرأي وحرية العقل أولا وأخيرا.

وقـد اختصت الجبهـة بإقـامـة الحجـة ومجادلة معارضيها فأفحمت الكل وأسكتت الجميع ذلـك أن اختـلاف الأحزاب كان ناشئا عن حسد بعضها البعض مع ظهور الحقيقة وإعلان الأهداف الوطنية. لكن قادة تلك الأحزاب صمموا على البقاء على وضعهم المخالف وودوا لو ينجحون في رد الأوضاع إلى ما كانت عليه.

لقد عملت الجبهة الكثير لتؤلف بين أفراد الحزب الذي تحزب رجاله بعضهم على بعض ولـترأب الصدع بين قوم يتصارعون على السلطة الحزبية الفارغة بدافع من حب الذات ووازع من عبادة الشخصية. فلقد ذهب رجال هذا الحزب أو ذاك كل مذهب في الاختلاف في الرأي إلا مذهبا واحدا لم يذهبوه، ونحـوا واحـد لم ينحـوه أو ينهجـوه هو «إيثـار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة». من هنا كانت الحتمية التاريخية لظهور جبهة التحرير الوطني التي ربـطت مصـيرهـا بمصـير الشعب والتي كانت واعية بمهمتها الثقيلة شاعرة بضخامة وجسامة مسؤوليتها الوطنية فتبنت مطالبه المشروعة باسم قيادة شابة كانت من أكبر ما كان يحيرها أنها لم تكن معروفة في أوساط الشعب إلا أنها مع ذلك قررت أن تحمل الهموم الكبيرة لهذا الشعب الذي كان مهيأ للثورة موحد الكلمة على وجوب أن يفجر هذه الثورة. وفعلا فإن الثورة قد انفجرت لأن كل واحد من قادة الجبهة كان مخلصا للشعب حاضرا في نفوس الشعب فأين نحن اليوم من هذا الاخلاص للشعب وأين نحن من ذلك الحضور في نفوس الشعب ؟

الوحـدة الوطنية في العمل في الثورة الجزائرية

يعد «التمايز بين الأزمنة والأمكنة» إحدى الظواهر التي أكدتها سنة الله في الكون وأقرها الواقع المعيش. فالأزمان لا تتفاضل إلا بما يحصل فيها من أعمال صالحة انطلاقا من أن التاريخ لا يضع الموازين القسط للأزمنة إلا بما يحدث فيها من عمل يستهدف الرقي للجميع، ويستلهم الخير للكل، ذلك أن الزمان ظرف تخلد فيه تحديات الشعوب لقوى الظلم والطغيان وتمجد فيه صراعاته بهدف تغيير المجرى العام للحياة لتحقق بذلك آماله المطبوعة بطابع وطني إنساني تبقى ما بقى الدهر وتخلد ما خلد الانسان. كما أن التمايز بين الأمكنة يعد هو الآخر إحدى الحقائق التي أثبتها الكثير من التجارب بل التي جاء القرآن الكريم مصدقا لها قال تعالى: «إنا أنزلناه في ليلة القدر» (1). وقال: «وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا» (2) وقال: «والمستغفرين بالأسحار» (3). وكما أن شهر رمضان يعد أفضل الشهور القمرية فإن شهر نوفمبر يعد هو الآخر، أفضل وأعظم الشهور الشمسية بالقياس إلينا نحن الجزائريين. هذا عن التمايز في الأزمنة. أما عنه في الأمكنة فأي مسجد في الأرض يفضل مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة؟ وأي موضع وقعت فيه معركة يفضل معركة بدر ويتميز عنها؟ وعندنا نحن في الثورة الجزائرية أي جبل يفضل جبال الأوراس؟ وأي مكان يفضل مكانا سقط فيه شهيد؟ وهكذا دواليك. حقا إن التمايز ظاهرة طبيعية حباها الله كل ما خلق على الأرض قال تعالى: «ليميز الله الخبيث من الطيب» (4).

---

(1) سورة القدر الآية: 1

(2) سورة الاسراء، الآية: 78

(3) سورة آل عمران، الآية: 17

(4) سورة الأنفال، الآية: 37

وقـد عبر عن هذه الحقيقة الكبيرة المجاهد / الأخضر بنطوبال في إحدى مداخـلاتـه عندما قال : «إن الشعب الجزائري لم يعرف الوحدة الوطنية في العمل زمانا ومكانا منذ آلاف السنين إلا في غرة نوفمبر 1954».

إننا عندما نحلل هذا الكلام فإننا نقول : إن إصرار قيادة الجبهة على وجوب تفجير الثورة في ليلة الاثنين الموافق للفاتح نوفمبر وفي ساعة واحدة هي ساعة الصفر وفي أنحاء الوطن جميعا يعد في حد ذاته إحدى العلامات المميزة لهذه الوحدة الوطنية في العمل من حيث الزمان والمكان، تلك الوحدة التي تفطن ذلك المجاهد الذكي إلى إفراغها في قالب زادها كثيرا من البعد في النظر والدقة في التعليل والتحليل وأضفى عليها طابعا من الثقوب في الذهن والتوقد في الفكر.

وقد علل الدارسون للثورة الجزائرية هذه الوحدة بأنها شكلت منذ البدء مؤشرا كبيرا من مؤشرات الأسباب المباشرة في تحقيق النصر وتوافر عوامله التي يجب أن ترتبط بعـامـل الاعتقاد الديني الذي تجد فيه النفس المؤمنة ملادها البـاطني، وعالمها الروحاني الخفي الذي لا يفتأ يزودها بهذه الطاقة الملكوتية العلوية الهائلة التي تكسبه منعة ذاتية تدفعه دائما إلى طلب الشهادة فيقبل عليها راضيا بها مطمئنا إليها.

حقـا إن الوحدة الوطنية كما يجب أن تتجلى في الوحدة الجغرافية للأرض وتظهر في حياة أفراد الأمة الذين يعيشون على هذه الأرض من حيث نظرتهم المشتركة للحياة، وتصورهم العام لفكرة التوحد الاجتماعي فإنها يجب أن تتجلى كذلك في نمط عيش هؤلاء الأفراد وفي تفكيرهم في كبريات القضايا الوطنية وفي أسلوب معالجتهم لهذه القضايا بصفة خاصة وطريقة تعاملهم معها، وما يتميز به ذلك من حب للوطن الذي تشدهم إليه عوامل دينية، لغوية وترابية هي قمة العوامل وهي الذروة الشامخة التي يتحصنون بها من كل دخيل حسيا كان أو معنويا. على أننا نعتقد أن الثورة الجزائرية قد خصها الله سبحانه وتعالى بكثير من عنايته فبوأها بذلك مقاما سياسيا متميزا إذ ألهم قادتها الأوائل تفكيرا ثوريا وحـدويا ظهـرت نتائجه الأولى في هذه الوحدة الزمانية والمكانية التي نجحوا نجاحا كبيرا في تحقيقها عندما فجروا الشرارة الأولى للثورة تفجيرا تأسست عليه

القاعدة الصلبة والمتينة التي تعكس المفهوم الصحيح لمعنى الاستقلال ومفهومه للأمر الحقيقي ذلك أن الله إذا أراد أن يكتب النجاح هيأ له من الأسباب والمسببات ما يضمن له ذلك، عندئذ تتفتح العبقريات وتتفجر الملكات تمهيدا لما سيتحقق من نصر.

لقد كانت ثورة نوفمبر تتويجا لهذه الاستفادات الذكية من عنصر الزمان. لقد عرفت الثورة كيف تستفيد من الوقت فعممت مفهومه الصحيح في أوساط المجاهدين كلهم فأظهر هؤلاء براعة كبيرة في مسابقة الزمان وملاحقة دورته التي لا تكاد تنتهي حتى يكونوا قد حققوا النصر وسجلوا الفخر.

لقد كان القدر يخبىء تشريفا عظيما لجيل نوفمبر 1954 م الذي عرف كيف يستفيد من وسائل النصر وكيف يتعامل مع الظروف الوطنية والدولية منها على السواء، فبقدر ما توافرت أسباب النصر بقدر ما كان التعامل معها موصلا إلى تحقيق النتائج الايجابية وضامنا لكسب المعركة بأهدافها القريبة والبعيدة.

لقد كان مما حرصت الثورة الجزائرية على نشره بين صفوف الشعب أنها عملت على تعميق الفهم الصحيح للدور الكبير الذي يؤديه عامل الزمان في تقريب ساعة النصر ذلك أن تكاثف الجهود وانصبابها في بوتقة واحدة وفي أجل معين من شأنه أن يعجل بوضع حد للحرب فالحرب كلما امتدت وغطت أرجاء الوطن كله كلما كان الخلاص منها قريبا ولن يتأتى ذلك إلا بالعمل اليومي الدؤوب.

على أننا إذا التمسنا بعض المظاهر العملية لهذه الوحدة الوطنية في الميدان فإننا نجدها ماثلة في الحياة اليومية للمجاهدين وما كان يقوم به هؤلاء من أعمال ويأتون من أفعال فلقد كان مما اتصف به المجاهدون في أثناء الثورة أنهم كانوا قوما استوى عندهم الليل والنهار لا يكادون يفرقون بين هذين النقيضين إلا بقدر ما يؤدون من واجب ترتاح له نفوسهم وتطمئن إليه قلوبهم. إنهم لا يخلدون إلى الراحة ولا ينالون قسطا منها إلا إذا تخلصوا من واجبهم اليومي وأدوا ما عليهم من التزام.

لقد غيرت الثورة نظرة الفرد الجزائري إلى عنصر الزمان فبعد أن كان هذا الفرد لا يأبه بالوقت ولا يعيره اهتماما، أصبح كل همه أن يحافظ على الوقت

ويؤدي عمله في أجله المحدود ويحترم المواعيد احتراما دهش له الأعداء أنفسهم. من ذلك ما كان يتحدث به الأوربيون خاصة منهم الألمان عن جدية الجزائريين وحفاظهم على المواعيد. وقد سمعت هذه الشهادة عنهم من أحد الجزائريين (1) الذين عاشوا في الخارج يعملون لفائدة الثورة وهي أن مثالية الجزائريين كانت شيئا فذا وأمرا غريبا يدعو إلى الدهشة بحق. كما حدثني أحد المجاهدين في هذا المعنى قال: حدد لنا مسؤولنا الزمان والمكان حيث يلقانا ولكنه تأخر عن الحضور ساعتين تقريبا، وعندما قدم علينا فإنه أخذ يعتذر إلينا ويوبخ نفسه ويعاتبها ويحملها المسؤولية الكبيرة في ذلك، فأشفقنا عليه وقلنا له: هوّن على نفسك، على رسلك يا هذا، لم هذا العتاب كله؟ فقال لنا: إني أستحق أكثر من هذا اللوم وأكثر من هذا العتاب، قلنا له: ولم ذلك؟ قال: ألست مسؤولا على حياتكم لو أن مكروها أصابكم في هذا الوقت الذي تأخرت فيه عن الموعد؟ إنني أشعر بمسؤوليتي على أرواحكم أمام الله وأمام الثورة.

إن الوحدة الوطنية في العمل مظهر عام للوحدة السياسية والنضج الفكري لذلك ركزت الجبهة على إعطاء عنصر الزمان ما يستحقه من العناية والاهتمام لكي يؤدي دوره في تعميم الثورة أي عزل الشعب عن العدو وفي إبلاغ صوت الثورة إلى العالم الخارجي وهو ما نجحت فعلا في تحقيقه في أقصر الآماد. وقد شكل هذا رافدا من أهم الروافد التي اعتمدت الثورة عليها في استقطاب الشعب حولها في الداخل وتعاطف العالم معها في الخارج.

---

(1) هو الأستاذ / مولود قاسم الوزير السابق للشؤون الدينية ورئيس اللجنة الوطنية للتعريب. توفي رحمه الله.

تطـور المجتمع في الثـورة الجزائريـة

تعد الثورة أحد العوامل الأساسية في تطوير المجتمع إذ لا يمكن تصور ثورة واضحة المبادىء لا تحدث تطورا كبيرا في المجتمع كما أنه لا يمكن تصور تطور هام وعام في المجتمع لا تقوم ركائزه على نظام ثوري قوي. إذن فالثورة هي التطور، والتطور هو إحدى النتائج العاجلة للثورة. وإذا كانت الثورة الجزائرية قادرة على التغيير فإنها وجدت وضعا اجتماعيا عاما قابلا بطبعه لهذا التغيير. وقد عبر عن هذه الحقيقة آنذاك الشهيد «العربي بنمهيدي» (1) عندما قال: «أرموا بالثورة في الشارع تحتضنها الجماهير».

والتـطور ينقسم إلى قسمـين: تطور من داخل النفس وتطور من خارج النفس. أما التطور الذي يأتي من داخل النفس فهو الذي يكون نتيجة للتأمل الواعي للوضع العام الذي يعيش فيه الفرد أي شعور هذا الفرد شعورا وجدانيا في دراستنا هذه بصفة خاصة بالاجحاف في حقه كتسليط المظالم المتنوعة عليه، وسـوء معـاملتـه كاحتقـاره. واستصغـاره والتعاظم عليه، والاستنقاص من إنسـانيته: من هنا يبدأ الانسان البحث عن الأسباب الحقيقية التي أوجدت ذلـك الوضع المتعفن فإذا عرفها شرع في البحث الجاد والمتواصل عن طرق معالجتها، وهذا ما نسميه بالتطور من داخل النفس أي الذي يكون مصدره مجرد خواطـر تجول في نفس الانسـان فإذا تحولت هذه الخـواطـر إلى عمل. أصبحت تعـرف بـ «الأخـلاق الفاضلة» التي نسميها نحن في هذه الدراسة «تـطورا» وهـذا النـوع من التطور الذي يكون مدده داخل النفس، ومنبعه

---

(1) هو البطل المعروف الذي استشهد تحت تعذيب الجنرال «بيجار».

أغوارها البعيدة لا يمكن أي قوة مادية خارجية عنه أن تقضي عليه فتزيله وتمحو آثاره من داخل النفس لأنه منها بمنزلة الروح من الجسد ولأنه كامن بين الأحناء والضلوع.

وأما التطور من خارج نفس الانسان فهو هذا الذي يكون نتيجة للمجهودات الفكرية والعضلية التي يقوم بها الانسان لتحقيق عمل ما بوسائل معينة ولأهداف محددة، وهذا النوع من التطور المادي تستطيع أي قوة مادية أن تتسلط عليه فيصبح أثرا بعد عين لأنه قابل بطبيعته لذلك أي كونه حقائق مجسدة ومعالم ظاهرة إن لم يمكن التحكم في قوة العقل الباطنة التي شكلت مصدر إيجاده فإنه يمكن القضاء عليه لأنه ظواهر مادية تتشكل بأشكال مختلفة وتتلون بأصباغ متنوعة. على أن من أهم خصائص التطور أنه لا يتوقف على اكتساب درجة معينة من الثقافة إذ يمكن أيا كان أن يتطور فكريا ويتحسن أخلاقيا دون أن يكون له إلمام بالثقافة أو رصيد من العلم ولو كان ضئيلا... وليس هذا الكلام يعني أننا ننفي العلاقة بين التطور كظاهرة جبلية في الانسان وبين الثقافة التي من شأنها أن تنمي هذا التطور، وتثقفه وتهذبه وتعمل على تطويره هو في حد ذاته.

ويعد الشعب الجزائري من أكثر شعوب العالم قابلية للتطور والتقدم بسبب ما أودع الله في عقول أبنائه من حب للمعرفة وبلوغ لغايات الخير التي أولها التحرر من الهيمنة الأجنبية. وقد كان تطور المجتمع الجزائري في أثناء الاحتلال الفرنسي معاكسا للسلطة وفي خط مواز لها وذلك ما يميز هذا التطور الذي ظهر وسط حكم سياسي وعسكري معاد للشعب ومعرقل لكل مظهر من مظاهر تطوره.

وقد كان تطور المجتمع الجزائري في أثناء الثورة بسبب العوامل الآتية:

1) كان الشعب قبل تفجير ثورة نوفمبر 1954 م يحلم بظهور قوة وطنية موازية للاستعمار تعمل على تحرير أرضه من العدو الغاصب. وعندما اندلعت هذه الثورة فإنه سرعان ما آمن بها وارتمى في أحضانها لأنه كان يتوقعها ويرى فيها طريقه الوحيد للخلاص.

2) مثلت المبادىء النبيلة لهذه الثورة التي تدعو إلى إقامة دولة جزائرية مستقلة عاملا مهما في استقطاب الجماهير الشعبية لها.

3) كان للانتصارات العسكرية اليومية التي تسجلها الثورة على العدو أثرها في ترسيخ مبادئها في نفوس الجماهير الشعبية.

4) كان الشعب قبل اندلاع الثورة يتمتع بوعي سياسي كبير إذ كان يتطلع إلى اليوم الذي ينفصل فيه عن المجتمع الأوربي الغريب عن كيانه والذي يحكمه بقوة الحديد والنار، وكان هذا الوعي السياسي العام ناتجا من الفكر التحرري الذي كان يكتسح العالم آنذاك ويطوح بعرش الاستعمار المتهالك سواء كان ذلك في تونس والمغرب المجاورتين للجزائر أو في هذه الأصداء العالمية الكبيرة التي تتردد على إثر هزيمة فرنسا العسكرية في معركة «ديان بيان فو» الشهيرة قبيل اندلاع الثورة الجزائرية بقليل.

5) وجد الشعب نفسه بين قوتين تتصارعان من أجل السيطرة عليه هما: الاستعمار من جهة والثورة التحريرية من جهة أخرى. من هنا كان على الشعب أن يختار أي الطريقين، فاختار طريق الثورة أسلوبا لمعالجة قضيته المستعصية على الحل.

6) الدعم الذي كانت الثورة تتلقاه من الخارج خاصة من الدول العربية الشقيقة.

7) العنف الشديد الذي كان الشعب يتعرض له جماعيا من الاستعمار كالقتل، والتعذيب، والتشريد، والسلب، والنهب، و الاحراق، والتدمير الشامل فقد كان لهذا الأسلوب الاستعماري في التعامل مع الشعب أثره في تعميق الجرح بين الاستعمار والشعب الذي دخل في الثورة أفواجا وأوى إليها لكي تعصمه من هذا العنف الذي يسلطه الاستعمار عليه.

هذه هي في نظرنا أهم الأسباب التي جعلت الشعب يرتمي في أحضان الثورة فكيف قابلت الثورة هذا الارتماء وكيف تعاملت معه؟ وللاجابة عن هذا السؤال نقول: إذا كانت الثورة قد استمالت جماهير الشعب إليها فإنها عرفت كيف تستفيد من انضمام هذه الجماهير إليها فتعمل على تطوير أفكارها وترشيد عقولها بما يتلاءم والواقع الثوري الجديد وذلك بانتهاج سياسة تتسم بالحكمة والرشد إيمانا منها بأن الشعب هو الثورة وأن الثورة هي الشعب.

لذلك كان اتصال الثورة بالجماهير الشعبية اتصالا مباشرا ويوميا يتم عن طريق المحـافظين السياسيين الذين أوكلت الثورة إليهم أمر التوجيه والتوعية ليرفعـوا من معنـويات المنـاضلين ويضعـوهـم باستمرار في الصورة السياسية الصحيحة. لكي تتعمق مفاهيمهم للثورة وتتوسع مداركهم وتتفتح ذهنياتهم عن هذا العالم الجديد الذي يزخر بالمبادىء الثورية السامية التي يرى الشعب فيها آماله التي طالما خيبها الاستعمار.

وقد تولى شرح البرنامج السياسي للشعب في القرى والأرياف خاصة. هؤلاء المرشدون السياسيون وبذلك وجد المناضلون في الأوساط الشعبية مادة سياسية جديدة تستهويهم يتابعون تطوراتها اليومية.

وكانت هذه السياسة تتطور وتتجدد كلما تطور الكفاح و تجدد بل كلما انتصر هذا الكفاح وأحرز نتائج باهرة في ميدان المعركة المسلحة. من هنا يمكننا أن نقـول: لقد أسهمت الثورة عن طريق برنامجها السياسي الذي تولى أولئك المحـافـظون السياسيون شرح أبعـاده المختلفة شرحا دائما للشعب في تطوير المجتمع تطويرا ارتقى بالمستوى الفكري العام للشعب رقيا كان في مستوى هذه الحـوادث التي تتـولـد يوميا عن الثـورة وتتمخض عن الكثير من انتصاراتها السياسية والعسكرية.

وقـد أدت هذه الانتصـارات إلى تقبل شعبي واسع للثورة شجع طبقات الشعب كلها على أن يترسخ فيها الايمان بهذه الثورة ويتعمق.

وإذا أردنـا أن نلمس مظاهـر هذا التـطور العام الذي أحدثته الثورة في المجتمع الجزائري فإننا نجد ذلك يتمثل في الميادين الآتية:

1) عنصر الدين والأخلاق: لقد عرف هذا الجانب تطورا ملحوظا في حياة المجتمـع فبعـد أن كان موضـوع الدين والأخلاق يشوبه الكثير من الأوهام والخـرافات بسبب تشجيع الاستعمار - كسلطة حاكمة ومفروضة على الشعب - للأسبـاب الحقيقية التي تفضي إلى ذلـك كالاتبـاع المتعمد لسياسة التدجيل والتـدجين، والتجهيل بغلق المدارس في وجه أبناء الشعب، والدعم القوى للمضللين من بعض رجال الطرق والزوايا ومحاولة إدخال مفاهيم خاطئة على الـدين قلت: «فبعد أن كان هذا الجانب يعتريه الكثير من البدع والأوهام

الفاسدة. فإنه في أثناء الثورة، قد تحرر من هذه التصورات المتزمتة كلها لا لشيء إلا لأنـه تحرر من السلطة الاستعـمارية التي كانت تشجع على سياسة التخدير ومحاولة إفراغ العقول من وازع الدين إن أمكنها ذلك. وبذلك نبذ الشعب هذه المعتقدات الفاسدة وراءه ظهريا بسبب ما صح عنده من بطلانها وعدم موافقتها لشعيرة الجهاد التي ينهض بأعبائها. من هنا عملت الثورة على إصلاح الفرد إصلاحا من داخل نفسه، وذلك بتقوية إيمانه بالله وبالوطن. لكي يتأهل لمواكبة المرحلة الجديدة التي تتحدى إفرازات الوضع القديم. وكان هذا الاصلاح الديني والأخلاقي أحد الأسس التي اهتمت بها الثورة لما يحمل بين طياته من بذور الخير ولما يدعو إليه من التمسك بأهداف الثورة التي تبشر بالآمال الواعدة ولا تنفك تبرهن في ميدان المعركة المسلحة على أنها صادقة في ذلك كما نتج من إصلاح الثورة للفرد كذلك أن هذا الأخير أصبح يؤمن أنه ملك للشعب يضحي بحياتــه في سبيل هذا الشعب. ولأن الفكـر الـديني والخلقي كان ممزوجا بالمزاعم الباطلة فقد كان الناس يعتقدون عن جهل أن هناك وسائط يتقربون بها إلى الله تساعدهم في قضاء حوائجهم وتسهل لهم الكثير مما صعب من أمرهم. لذلك كان عليهم أن يحسنوا علاقاتهم مع تلك الوسائط بالتوسل إليها وزيارتها، وإقامة الولائم في أضرحتها مع ما يحدث في هذه المنـاسبـات المفتعلة من أعـمال تتنافى والاعتقاد الديني الصحيح. وكان الاستعمار قد شجع هذه الأساليب التي تقلل من إيمان العبد بربه بل وتقوي العلاقة الفاسدة بينه وبين من لا ينفعه و لايضره. وكان كثير من هذه المزارات قد أحدثها الاستعمار نفسه لكي يضلل بها عقول المؤمنين ويوقف عن طريقها هذا الزحف الديني الذي يعمل بطبيعته على تجديد الفكر وتنوير العقل وتنقيته مما علق به من الشوائب والأدران. ولكن هذه الأساليب المضللة كلها لم تصمد أمام تجدد العقول ونهضة الأفكار خلال الثورة إذ كانت تلك المزارات كثيرا ما تتعـرض هي ذاتهـا للأخـطار كقصف طيران العـدو ورمي سلاح مدفعيتـه العشـوائي عليها. عندئذ ظهر للناس عجزها وبدا لهم ضعفها وقالوا: «لو كانت تردعنا الخطر لردته عن حياضها». وكانت هذه إحدى النتائج المعنوية الكبيرة التي توصل إليها المجتمع عن طريق المشاهدة والتجربة.

2) العامل السياسي: شهد المجتمع الجزائري في أثناء الثورة تطورا سياسيا

يتمثـل أول ما يتمثل في وجوب التخلص الفوري والنهائي من الاستعمار إذ أصبح له تنظيم ثوري قوي هو جبهة التحرير الوطني التي تحملت مسؤولية الدفاع عن مصالحه الوطنية في الداخل والخارج، وذلك باتباع سياسة تتميز بأنها ثورية حاسمة يدعمها الجهاد اليومي في ميدان المعركة المسلحة.

وكـان مما اتصفت به هذه السياسة هو أنها كانت متحررة من الضغوط الأجنبية بسبب تعضيد (1) الشعب لها، وانبثاقها عن فكر سياسي وطني أصيل لم يعرف عنه أنه ساوم في مبادئه أو فكر في النزول عن ثوابته الوطنية.

وإذا كانت السياسة قبل اندلاع الثورة أحلاما جميلة تراود نفوس الوطنيين وأملا كبيرا في بناء دولة جزائرية مستقلة فإن هذا المفهوم خلال الثورة التحريرية قد أخذ أبعادا كبيرة هي إلى الواقع أقرب منها إلى تلك الأحلام وذلك. بسبب أن الأمل المجرد أصبح مقرونا بالعمل المجسد. وإذا كان الشعب يعتقد أن انتصاره على العدو إنما يتوقف على مدى ما يقدمه من تضحيات يتقبلها راضيا بها مرضيا ومـا يتعـرض له من خسائر مادية وبشرية تشكل الضمانة الوحيدة لكسب معركته الحضارية مع العدو فإنه قدم الكثير من هذه التضحيات التي ضاق الاستعمار بها ذرعا فراح يصب جام غضبه عليه.

وقد كان للمظالم الاجتماعية التي ما انفك الاستعمار يسلطها على الشعب كانتزاع أخصب الأراضي منه، وتسليط الضرائب عليه، وانتهاك حرمته ودوس كرامته كان لها أثرها العميق في إحداث الشعور المشترك بهذه المظالم في نفوس المحـرومـين الذين شكلت تلك المظالم بالنسبة إليهم باعثا كبيرا للبحث عن الـذات قصـد التخلص من هذا الوضع الاجتماعي والسياسي المتعفن. وقد تسبب هذا البحث في تطور فكري سياسي متدرج ينمو بتزايد الغبن الاجتماعي ويتعاظم بتعاظم أسباب ذلك ومسبباته. وقد كان هذا أحد الأسباب المباشرة التي أدت بالشعب إلى أن يتطور هذا التطور السياسي الفكري السريع بهدف وضع حد نهائي لهذه المظالم التي طالما تحملها وهو كاره لها ساخط عليها.

وقـد حملت الثورة المجتمع على التكييف مع هذا الواقع السياسي الجديد عندما أوجبت عليه أحكاما يتقيد بها وأوامر ينفذها تتمثل خاصة فيما يأتي :

---

(1) التعضيد بمعنى : المساعدة مأخوذة من العضد. (الكاتب)

ـ مقاطعة الاستعمار وذلك بعدم دفع الضرائب إلى إدارته المالية المستنزفة وقطع وسائل اتصالاته المختلفة كالخطوط الهاتفية وتحطيم الجسور، وقطع الطرق، وعدم الاحتكام إلى محاكمه، ورفض تنفيذ أوامره ونواهيه، وإتلاف بطاقات التعريف الشخصية لما ترمز إليه من إهانة للهوية الوطنية باستعمال هذه الكلمة F.M (فرنسي مسلم) على أحد وجهيها وعدم الذهاب إلى السوق الأسبوعية إذا كان الامر يتطلب ذلك. وإذا كانت هذه التعليمات السياسية قد لقيت صدى كبيرا في الأوساط الشعبية فامتثلت لها وعملت بمقتضاها فإن ذلك قد عرضها للانتقام الشديد من العدو ولكنها تحملت ذلك لأن واجبها الوطني يدعوها إلى تحمله مهما كلفها ذلك من أتعاب وصعاب. وقد برز تطور المجتمع سياسيا كذلك عندما تعمق إيمانه بحتمية النصر في الميدان على العدو وذلك عندما أفشل مناوراته السياسية التي حاكها لعزله عن الثورة في كثير من المواقف كما دلل الشعب على كفاءته السياسية العالية عندما نظم مظاهرات 11 ديسمبر 1960 م التي تحدى بها إرادة العدو السياسية وجابه بها آلته العسكرية الجهنمية. ومما يشهد على مدى إدراك الشعب ووعيه السياسي ونضجه الفكري بعدالة قضيته الوطنية أنه رشق طائرات العدو بالحجارة عندما كانت تحاول تفريق صفوفه في تلك المظاهرات. على أنه يجب علينا أن نذكر للتاريخ أن نضج الشعب السياسي، قد شكل أحد العوامل الكبيرة في المحافظة على الوحدة الوطنية والترابية، وقد بلغ هذا التطور السياسي أوجه عندما استفتي الشعب في تقرير مصيره السياسي فقال كلمته الفاصلة «لا للاستعمار» وقال كلمته التاريخية الخالدة «نعم للاستقلال». وكان من تأثيرات الثورة القوية في المجتمع أنها قوت فيه الاحساس بالذات وعمقت فيه الشعور بالوعي القومي الذي من لوازمه الترابط الاجتماعي ووحدة المصير ومجابهة العدو بقوة لضمان النصر عليه. من هنا كان الشعب يرى أن كفاحه العادل هو جزء من حركة التحرر العالمي وأن هذا الكفاح يجب أن تتعمق أصوله في عقول الجماهير وتدخل في قلوبهم بل وأن تمتد إلى كل الشعوب المضطهدة قصد المساهمة الفعلية في تصفية الاستعمار كظاهرة عالمية عاقت الشعوب عن التقدم وأخرتها عن مسايرة الركب الحضاري في العالم. على أن من إفرازات هذا التطور السياسي

الذي شهده المجتمع الجزائري في أثناء الثورة ما نسميه بـ (عنصر الشك) الذي تميز به مجتمع الثورة عندما أصبح أفراد هذا المجتمع يرتابون في كل شيء لأن كل شيء من حولهم يناصبهم العداء ويتحين الفرص للايقاع بهم.

وكان ظهور هذا العنصر ناتجا من الاحباط النفساني الذي آل إليه أمر الشعب الذي أصبح لا يثق أكثر في السلطة الحاكمة بسبب هذه المظالم اليومية العامة. التي تثقل كاهله والتي فاقت كل تصور؛ فلا الوعود ولا التصريحات السياسية الرسمية أصبحت تطمئنه، أليس يراها كلها مجرد ألاعيب سياسية يجب عليه أن يقف منها موقف الحذر فلا يجرفه تيارها ولا ينساق وراء بريقها الكاذب ؟

لقد نجحت الثورة في تقوية بناء النفوس من داخلها بناء استلهم قوته من قوة مبادئها واستوحى شموخه من عظمتها فأضحت هذه النفوس سليمة البنية متينة الأركان قوية البنيان.

وقد أسهم الاستعمار إسهاما غير مباشر في تأجيج الروح الوطنية وتنمية الشعور بالمعاناة أليست سعادة الأوربيين من شقاء طبقات الشعب المحروم ؟ ألم يكن النعيم الواسع الذي أغدقه الاستعمار على نفسه هو حصيلة لهذه الأتعاب وهذا البؤس الذي يتكبده الشعب ؟

إن آخر ما نختتم به الحديث عن هذا الجانب من هذه الدراسة ما رواه المجاهد «عمار بنعودة» (1) في إحدى المناسبات في قاعة المحاضرات برياض الفتح عام 1986 م عندما قال «.... إن من أصدق الصور على بشاعة أعمال الاستعمار أن يعمد دركي إلى نزع مظلة أحد الأهالي من فوق رأسه ويضعها على رأس الحمار الذي كان يركبه». حقا إنها مبالغة في الاهانة و إمعان في المذلة وصدق من قال: «الأزمة تولد الهمة». وكان للثورة سياسة داخلية تتسم بالمرونة تقوم أساسا على تنظيم أفراد الشعب داخل إطار «الخلايا الشعبية» وهو تنظيم يستهدف إقامة هياكل تنظيمية ترمي إلى عزل الشعب عن العدو

(1) هو واحد من جماعة (22) التاريخيين.

قصد إعداده بالتدرج إلى ممارسة حكم نفسه بنفسه بعد أن يسترجع حريته ويستعيد استقلاله.

كما تجلى هذا التطور السياسي فيما نشهده من اهتمام الشعب بمتابعته اليومية لمستجدات قضيته الوطنية على الصعيدين الداخلي والخارجي وذلك من خلال استماعه للمحطات الاذاعية وقراءة الجرائد والمجلات ومواكبة أخبار الثورة مواكبة دقيقة لاتعرف الكلال والملال.

3) العامل الاقتصادي : إذا كان المجتمع الجزائري لم يتطور خلال الثورة من الناحية الاقتصادية لأن وسائل الانتاج ظلت بأيدي العدو فإنه تطور من الناحية «الفكرية الاقتصادية». أي أنه نظر إلى الثروة التي يملكها على أنها يجب تسخيرها لخدمة الثورة وبذلك فقد شكل الشعب قاعدة خلفية للثورة تضمن لها الوسائل المادية الضرورية لمواصلة جهادها على العدو. وقد قدم الشعب في مقابل هذا التأييد المادي للثورة الكثير من التضحيات الجسام إذ أحرق الاستعمار منازله ونهب أرزاقه وسلب أمتعته وأحرق أرضه وصادر محصولاته الزراعية وعرض خيراته وأمواله للسلب والنهب.

وقد سنت الثورة نظاما خاصا داخل الأوساط الشعبية يقوم بجمع المال عن طريق الاشتراكات والزكوات و التبرعات والاعانات. وكانت هذه الأموال السائلة. وغيرها من الحيوانات، كالخيل والبغال والحمير والغنم والبقر والمحاصيل الزراعية قد شكلت بالنسبة إلى الاقتصاد في الثورة أصلب القواعد وأمتن الوطائد التي مثلها هذا الفكر الاقتصادي. نعم كان ذلك بفضل الامدادات المالية التي كان يمدها بها الشعب خلال جهاده المتواصل. وكانت «الصابة» أو المحصول الزراعي السنوي الوفير تشكل بالقياس إلى الثورة حليفا طبعيا بما يضمن لها من ازدهار اقتصادي يسد حاجاتها اليومية. ولذلك فقد كان الاستعمار كثيرا ما يلجأ إلى إحراق الحقول ذات المردود الكبير لكي لا يستفيد منه المجاهدون؛ كما أنه يعمد إلى تقتيل الحيوانات الأخرى بقنبلتها لكي لا يستعملها المجاهدون في تنقلاتهم، وفي نقل أثقالهم عليها قال تعالى : «والخيل والبغال والحمير لتركبوها» (1).

(1) سورة النحل، الآية : 8

ولعل صندوق التضامن الوطني الذي يشهد على كرم الشعب والذي أعقب نهاية الحرب مباشرة هو خير دليل على هذا التحرر الفكري الاقتصادي الذي تمتع به المجتمع الجزائري في أثناء الثورة التحريرية.

4) العامل الثقافي : إننا إذا تصدينا بالبحث عن مدى تطور هذا العامل وجدنا أن حظه من ذلك يكاد يكون معدوما لأن العدو أغلق المدارس وحرم المجتمع من وسائل الثقافة؛ لذلك ظل هذا الجانب لم يتطور في الجماهير العريضة؛ اللهم إلا إذا استثنينا هذه الطائفة القليلة ممن دأبوا على تثقيف أنفسهم وتغذية عقولهم وأفكارهم باللغة الفرنسية. على أن ما يمكننا أن نسجله في هذا الصدد هو أن المجتمع الجزائري خلال الثورة قد نظر إلى الثقافة من جانبها «النظري» أي أنه تعمق فيه الشعور والاحساس بما يدعو إلى الاقتباس والتمثل بغيره من الشعوب التي تقدمت عليه في هذا المضمار وإن مجتمعا هذا هو حاله من الشعور بسياسة التجهيل التي فرضها عليه الاستعمار لجدير به أن يتطلع إلى يقظة ثقافية عامة تتأسس على الاستلهام من مقوماته الوطنية.

وبقدر ما كانت سياسة التجهيل شديدة الوطأة على الشعب بقدر ما كان ذلك باعثا له على وجوب التحرر من هذه القيود الثقافية التي أخرته عن اللحاق بقافلة من سبقوه في ذلك.

ولعل أكثر الفئات الاجتماعية التي حظيت بنصيب وافر من الثقافة هي التي كانت تحت حماية الثورة أعني بذلك طبقة اللاجئين في كل من تونس والمغرب حيث فتحت الثورة المدارس في وجه أبناء هؤلاء لكي تعلمهم تعليما يتناول الثقافة العامة وتكون الكثير منهم تكوينا عسكريا ليشاركوا في عملية تحرير الوطن، ولم تكتف الثورة بذلك بل إنها أنشأت فرقة مسرحية، وأخرى فنية وثالثة رياضية وأوفدت الطلبة إلى خارج هذين القطرين ليتعلموا أو يتدربوا على فنون القتال.

وكان من أهم ما ميز هذه الثقافة هو أنها كانت تقوم على «الوحدة الوطنية» وتدعو إليها بهدف الحفاظ على هذا التلاحم العضوي الذي ينطلق منه الشعب في تصوره للمستقبل، الذي يجب أن ينبني أساسا على هذه الوحدة بين أفراده ومناطق ترابه.

وإذا أردنا أن نحلل هذه الثقافة إلى عناصرها الأولى. وجدناها ثقافة ثورية تحررية جزائرية إنسانية لا تضيق بالأفكار التحررية العالمية بل تدعمها وتساندها لأنها ترى فيها تكاملا لرسالتها الوطنية التي جعلت غايتها طرد الاستعمار في الداخل ومحاربة وجوده في الخارج وذلك ببث هذه المفاهيم الثورية الجديدة التي تطارده ولا تبقى عليه في مناطق نفوذه.

وقد منح الشعب هذه الثقافة كل الوسائل التي تبعث فيها الحياة كي تنمو وتذكو وتزدهر في ميدان المعركة المسلحة فكان في نمائها وذكائها قوة له ومجابهة للعدو دلت على قوتها وتفتحها للحياة بل تفتحت لها عقول و نفوس هؤلاء الذين زادتهم إيمانا بعدالة قضيتهم فزادوها تثبيتا وترسيخا في عقولهم، ونفوسهم، فكان هذا التكامل بينهم وبين الثقافة، كملوها بتحريرها من القيود وتخليصها من الجمود فهذبت عقولهم بهذه السلطة الروحية التي ما انفكت تطبعهم بطابع يلائم رسالتهم الوطنية والانسانية على حد سواء.

وكانت هذه الثقافة الثورية واسعة الانتشار في صفوف الشعب عميقة الأثر في نفوسه مطبوعة بطابع الأخذ والعطاء فهي إن كانت قد تأثرت بالفكر التحرري العالمي من جهة فإنها قد أثرت في هذا الفكر من جهة أخرى.

5) العامل الاجتماعي : عرف هذا العامل تطورا محسوسا في حياة المجتمع الجزائري خلال الثورة إذ أدى تلاحق الحوادث وتتابعها إلى تطور عام للشعب في الميدان الاجتماعي عندما نظم المجتمع صفوفه في جبهة عريضة موحدة لمواجهة العدو. وقد أدى هذا الأسلوب المتماسك و الموحد في العمل الثوري بما حقق من انتصارات عسكرية على العدو؛ أدى إلى تغيير البنية الاجتماعية للشعب إذ ظهرت هذه الطبقة الجديدة المتميزة وأعني بها طبقة «المجاهدين» الشهداء منهم، والأحياء، وأرامل الشهداء، وأبناءهم، وذوي الحقوق، والمسجونين، والمعتقلين، واللاجئين الذين تجاوز عددهم 250 ألف لاجىء في كل من تونس والمغرب.

وتعد هذه الطبقة اليوم أكثر الطبقات الشعبية إخلاصا للثورة. وتدليلا على هذا الاخلاص بسبب ماتتمتع به من عمق في التجربة وحنكة في السياسة اكتسبها أفرادها في الميدان من خلال ممارستهم اليومية للنشاط الثوري المتنوع الأساليب.

وقـد كانت هذه الـطبقـة الجديدة النابعة من صفوف الشعب من أصالة الرأي، واستقامة الذهن. ورجاحة العقل والمقدرة والكفاءة النضالية، بحيث إنها جلبت إليها انتباه الجميع وكسبت تأييد الكل والتف حولها كل العاملين المؤمنين ولم ينفض من حولها إلا شرذمة قليلة ناوأ أفرادها الثورة وناصبوها العداء فكذبوها ووصفوا رجالها بالمغامرين بل ولمزوهم بالجنون وقاتلوهم وداموا على مقاتلتهم إلى إن كان النصر للفئة المؤمنة بربها وبعدالة قضيتها لأنها مدعومة من الشعب الذي لا يغلب ولايقهر. وإذا كان لكل دعوة تاريخية كبيرة أنصارها ومعارضوها من بني جلدتها فقد كان للثورة الجزائرية كذلك أنصارها وبعض معـارضيهـا من بنيها الذين لم تستسغ عقولهم أن يعلن الشعب الثورة على العدو، لا لشيء إلا لأن هذا العدو من القوة بمكان لذلك ظهر في المجتمع الجزائري هذه المجموعة الضالة المضللة التي اصطلح على تسميتها آنذاك بـ «القومية أو الحركة».

إن هذه الشرذمة التي فسقت عن أمر ربها تعد ظاهرة اجتماعية شاذة. ساعد الاستعمار على التغرير بها. ويمكننا أن نلم بأسباب خيانتها للوطن فنلخص ذلك في الآتي :

1) ضعف الوازع الديني في نفوس هؤلاء القوم ممن انضموا إلى صفوف العدو.

2) أدى الفقر وسوء حالة المعيشة بهؤلاء إلى التجنيد مع العدو.

3) أدت الأطماع السياسية بالكثير منهم إلى الانضمام تحت لواء العدو.

4) أدى الخوف الدائم من العدو وتقتيله الجماعي للناس إلى التحاق البعض من هؤلاء بصفوفه.

5) أدت المــظالم التي تعــرض لها البعض من أفـراد الشعب وحتى من المجاهدين أنفسهم إلى أن يتنكر البعض منهم للثورة. وقد كان لهذه الأسباب وغيرها الأثر الفعال في ظهور هذه الطبقة ممن يمكننا أن نسميهم بـ «المنافقين أو المرتدين» الذين لا يخلو منهم أي تنظيم سياسي جديد منذ أن كانت هذه التنظيمات وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. على أن من أكبر ما يوجه إلى النظام القائم في البلاد من نقد هو إهماله لهذه الطائفة منذ الاستقلال إلى يومنا

هذا إذ لم يقم بدراسة نفسانية واجتماعية وسياسية تتناول أسباب تخليهم عن الوطن في أحرج ظروفه التي مر بها وهو يكافح من أجل الحرية والاستقلال. على أننا نعتقد أن مثل هذه الدراسة ستعتمد عليها الأجيال القادمة في التعرف العميق إلى الأسباب الحقيقية التي يتذرع بها البعض عندما يتخلون عن الوطن.

كما أن الشعب قد تطور في الميدان الاجتماعي إذ أصبح له رجال مسؤولون في شتى ميادين الحياة كالادارة بمختلف فروعها والحزب، وقيادة الجيش، والنشاط السياسي في الداخل والخارج وباختصار فإننا نقول: لقد تطور المجتمع الجزائري تطورا أدخل تفسيرا هاما على البنية الاجتماعية التي أصبحت تتشكل من هياكل مختلفة لم تنبن عليها أسس هذا المجتمع قبل ذلك. أليست التنظيمات السياسية الكثيرة كالمجلس الوطني للثورة، ولجنة التنسيق والتنفيذ، والحكومة المؤقتة، والسفارات، والتنظيمات الشعبية كاتحاد العمال، واتحاد الطلبة، والفرق الرياضية، والفرق المسرحية وعلى رأس هذه البنى الاجتماعية كلها جبهة وجيش التحرير الوطني بثقلها السياسي والعسكري قلت: أليست هذه جميعا دليلا على هذا التغيير الذي أصاب كيان الأمة والذي أوجدته الثورة لخدمة أهدافها وتحقيق أغراض الشعب النبيلة؟

العامل العسكري: كان المجتمع الجزائري قبل اندلاع الثورة يؤمن بأن الحرب هي الحل الوحيد لقضيته العادلة مع العدو وأن عليه أن يخوض هذه الحرب عندما تندلع بوسائله وإمكاناته الخاصة انطلاقا من أن الشعب الجزائري يعد من أكثر شعوب العالم اعتمادا على النفس. ولعل هذه إحدى ميزاته التي ينفرد بها ألا وهي اعتماده أساسا في كبريات قضاياه الوطنية على ما يتوافر له من رصيد مادي ومعنوي يدخره على الدوام لمثل هذه الطوارىء.

إن الثورة التي فجرها الشعب ببندقيات الصيد والسلاح الأبيض ما فتئت تتطور من يوم إلى يوم تطورا يتصل بمختلف نواحيها كالتسليح الذي عرف تحسنا كبيرا بفضل هذه المغانم التي يحصل عليها المجاهدون من العدو في أرض المعركة والتجنيد الذي شهد هو الآخر دخول الناس أفواجا في صفوف الثورة، والامكانات المالية التي قدمها الشعب للثورة وبذلك فقد شكلت هذه العوامل

مجتمعة رافدا كبيرا من روافد الثورة أعطاها دفعا جديدا وساهم في تطوير أساليب قتالها وإقبال المؤمنين عليها بما يملكون. وكان هذا التطور المادي ناتجا من التطور الفكري للأفراد الذين يتوقف على تطورهم الفكري هذا كل تحسن أو تقدم في هذا الميدان ذي الأهمية الكبيرة بالنسبة إلى المجتمع الجزائري في ذلك الوقت. والتطور العسكري في أثناء الثورة عرف هو الآخر تقدما ملحوظا عندما تأكد الشعب أن الحرب ضرورة حتمية وأن أمدها سيطول بسبب تعلق الاستعمار بخيرات الأرض لذلك استعد الشعب استعدادا كبيرا لخوض غمار هذه الحرب الظالمة. وكان مما تقرر في مفهوم الشعب آنذاك عن الحرب هو أن العدو مهما كانت إنسانيته كبيرة ومهما ادعى لنفسه التخلق الزائف ونسب إليها القيام بأفضل الأعمال وأكثرها نبلا فإن هذا كله سرعان ما يصبح في خبر كان إذا تعلق الأمر بمصالحه المادية الخاصة. عندئذ يتجرد من إنسانيته تلك وتثور فيه حيوانيته فيقتل ويعذب ويشرد ويمثل أبشع التمثيل لا يفرق في ذلك بين الانسان والحيوان بل بين النبات والأرض والجماد يرى الجميع معاديا له والكل يناصبه البغضاء والعداوة من أجل هذا يقوي فيه حب الانتقام فيثأر من كل شيء شعورا منه بالانفراد والعزلة لأنه يرى أنه في أرض غريبة عنه توحدت فيها الجهود المادية والمعنوية عليه ولكي يرضى هذا العامل النفساني فإنه يعمل على سلوك سياسة الابادة الشاملة. فما أكثر ما أحرق الجبال لكي لا يحتمي بها المجاهدون وكذلك يفعل بالحقول لئلا تستفيد الثورة من محصولها الزراعي بل ما أكثر ما قنبلت طائراته الحيوانات لأنه يرى فيها إمكانات مادية تسهل على المجاهدين أداء مهامهم اليومية. وباختصار فإننا نقول : إن الفكر العسكري الثوري الجزائري قد تعمق فهمه أساليب قتالية جديدة وكثيرة شدت من أزره وهو يقاتل العدو. أليس الصبر، والثبات، والتضحية، بالمال والنفس، والطاعة، والانضباط وعدم إفشاء أسرار الثورة للعدو، والتكتم الشديد عليها، والحفاظ على هذه الثورة باحتضانها وتبني أفكارها قلت : أليست هذه كلها وغيرها من تلك الأساليب القتالية الثورية التي شكلت هذه المفاهيم الجديدة التي آمن بها الشعب وسار على نهجها فطورت فكره بما يتلاءم ومعانيها النبيلة ووحدت نظرته للحياة بما يتماشى ودعوتها الصحيحة إلى إعلاء كلمة الحق ؟

ومن مظاهـر التـطور العسكـري خلال الثورة، هذه الأعداد الكثيرة من المجاهدين المثقفين الذين أرسلتهم الثورة في بعوث إلى بعض البلدان العربية الشقيقـة وغيرها من البلدان الصديقة ليتدربوا على مختلف الأسلحة الحديثة ويتعلمـوا فنون القتال وحرب العصابات بصفة خاصة هذه التي يتطلبها أمر الثورة آنذاك؛ وبذلك كونت الثورة طبقة ممتازة من الاطارات المتخصصين كل في ميدانه كسلاح الطيران والبحرية والمدفعية وسلاح المشاة إلى غير ذلك من هذه التداريب العسكرية والصحية الأخرى التي كانت تتم في قواعد ومراكز مخصصـة لذلـك على الحـدود الشرقية والغـربية. وعـلى العموم فإن الشعب الجزائري قد حافظ على نفسه الثوري الطويل فما إن يمر جهاده بالمراحل الأولى للثورة تلك المراحل التي تتصف بالبدائية والبساطة في تشكيل المقاتلين والخفة في عدة هؤلاء والسرعـة في الحركة والتكيف السريع مع طبيعة الأرض حتى يتطور جهاده هذا فيصبح مشكلا من وحدات مقاتلة مسلحة بأحدث الأسلحة ومدربة تدريبا عسكريا جيدا. وقد شكل هذا الجانب أحد مظاهر التطور الذي اتصف به المجتمـع الجـزائري خلال جهاد الصفوة المختارة من أبنائه. ومن مظاهر هذا التطور الفكري والعسكري ما كانت الثورة تقوم به من عمل إنساني مع من يأتونها أسارى إذ كانت تحسن معاملتهم وتستعملهم في أغراض سياسية خدمة لأهدافها الوطنية ودعما لجانبها في المحافل الدولية. وكان مما تميز به الفكر العسكري أنه كان يتجدد مع الزمن ويتكيف مع الظروف فيأخذ من كل معركة أسلوبها الخاص في القتال ويستخلص منها النتائج.

لقـد كان من أخص ماتميز به الفكـر العسكري هو أنه انبني أساسا على الايمان القـوي بعـدالـة القضية الـوطنية ولذلك فقد انغمس هذا الفكر في عمليات عسكرية شديدة الضربات موجعة للعدو، طابعها الغلظة من جهة إلا أنها تفيض من العاطفة الجياشة والحب العارم للوطن وللانسانية على السواء.

وقد تفطن الاستعمار إلى هذا التطور العام في المجتمع الجزائري فعمل على الحد من انتشاره في أفكار الجماهير الشعبية وذلك عندما وضع مشروع قسنطينة عام 1958 م ذا البعد الاقتصادي والسياسي إذ كان يرمي إلى تحقيق أهداف اقتصادية قصد تحسين حالة السكان الاجتماعية والنهوض بمستوى معيشتهم

العام خاصة إذا علمنا أن نسبة 2٪ من هؤلاء السكان كانوا يمثلون بورجوازية زراعية، وأن نسبة 8٪ منهم يشكلون الطبقة الشغيلة و 4٪ من الطبقة الوسطى. أما التجارة والصناعة فكانتا بأيدي المعمرين.

وإن إلقاء نظرة عامة على هذه النسب المئوية الضعيفة لَيدل دلالة صادقة على مدى ما كان يعانيه الشعب الجزائري في أرضه وعلى مدى ما كان يتمتع به بالمقابل هذا العدد القليل من الأوربيين الذين امتصوا دماء الشعب واستفادوا الكثير من خيرات بلاده. وقد نبهت الثورة الاستعمار إلى هذا التفاوت الكبير بين الأهالي والمعمرين وذلك بفضل انتصاراتها العسكرية والسياسية عليه فعمد إلى وضع المشروع المذكور كأنما كانت مشكلة الشعب الجزائري تتمثل في مزيد من الخبز. ولكن الثورة ردت على هذا المشروع ردا أبطل مفعوله وأماته في مهده انطلاقا من أن المسألة الجزائرية تتجاوز هذه المفاهيم فهي قضية حياة أو موت من أجل الحرية والاستقلال لا من أجل الخبز والمال.

كما أن الاستعمار قد عمد إلى حيلة أخرى لتطويق عملية التطوير في المجتمع فأحدث نظام ضباط الشؤون الأهلية الذي يستهدف القضاء على الثورة وذلك بمحاولة عزل الشعب عن مسار الثورة بإظهار العطف المصطنع عليه ومشاركته آلامه وأحزانه في هذه الحرب التي قام بها أناس متمردون يجب على الجميع أن يكونوا يدا واحدة عليهم لافشال مخططهم الذي يرمي إلى عملية الفصل بين المجتمع المسلم والمجتمع الأوربي. وكان هؤلاء الضباط يتكلفون كثيرا من مظاهر المواساة النفسانية للشعب حتى أن أحدهم تحدث عنه من رآه فقال عنه : «إنه كان يبكي في حضرة عجوز تنتحب عندما جاءها خبر قتل ولدها الوحيد على أيدي رجال العدو لأنهم اشتبهوا في أمره». ومما يدل على أن ضباط الشؤون الأهلية لم تكن مهتمهم إنسانية كما يزعم العدو ذلك أن أحد هؤلاء الضباط أثرت عنه هذه الكلمة المشهورة وهي قوله : خير لي أن ألقى القبض على محافظ سياسي واحد من أن أبيد كتيبة عن آخرها من «الفلاقة» (المجاهدين).

الجهاد بالمال والنفس في الثورة الجزائرية *

تحتاج الوسائل التي انتصرت بها الثورة الجزائرية إلى كثير من التأمل والتمعن. فلقد بات من الحقائق المقررة أن هذه الثورة ليست إلا نفحة ربانية أكرم الله سبحانه وتعالى بها عباده المؤمنين في هذه الديار إذ سرعان ما هب الشعب إلى احتضان إرهاصاتها الأولى عندما لاحت أنوارها وبانت أولى تباشيرها، فدخل فيها أفواجا، وتقبلها تقبل المطمئن إليها، أليست أهدافها الواضحة وغاياتها النبيلة مما يبعث على ذلك الاطمئنان ويدعو إليه؟ بل ويلح عليه بأن يضحي في سبيلها بأعز ما يملك؛ وهل يملك الانسان في الحياة الدنيا أغلى من ماله وأعز من نفسه؟.

يعد الجهاد بالنفس أكبر امتحان وأشد ابتلاء يتعرض له الانسان المؤمن في حياته عندما يدعوه الداعي إلى ذلك. فالانسان الذي كرمه الله وجعله خليفة في الأرض مطالب شرعا بالدفاع عن عرضه وماله والذود عن ديار الاسلام كلما داهمها الخطر أو أحاط بها العدو.

والجهاد بالنفس هو القمة الشامخة في العطاء والذروة العالية في الفداء والابتلاء الذي دونه أي ابتلاء؛ والامتحان العسير الذي لا يتصدى له إلا كل مؤمن قوي الايمان شديد التمسك بأهداب الدين.

وقد أجاد الشاعر العربي القديم عندما عبر عن هذه الحقيقة فقال :

يجود بالنفس إذا ضن البخيل بها

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

---

* نشرت في جريدة (الشعب) عدد 7986، سنة 1989

والجهاد بالنفس قديم قدم الأمم الغابرة. وإذا نحن رجعنا إلى تاريخ الشعب الجزائري فإننا نجده مليئا بالتضحية بالمال والنفس. أما المال فسنتعرض لذكره. وأما التضحية بالنفس فليست هذه السطور مما يتسع للحديث عنها والتنويه بشأنها، فالضحايا البشرية التي قدمها الشعب على مذبح الحرية أعظم من أن تحصى، وأكثر من أن تعد. . . من هنا يمكننا أن نقول: إن للشعب الجزائري مفهومه الخاص عن التضحية في سبيل الوطن. . فهو قد استنبط أحكام هذا المفهوم، واستقرى أصوله من خلال تجربته المرة، ومعاناته الطويلة في ذلك، كما أن تمسكه الدائم بهذا المفهوم، وتشبثه به قد جعله يتخذه مسارا يتفرد به على شعوب الأرض جميعا. . فلقد استرخص الشعب الجزائري كل موتة لا تكون من أجل هدف وطني نبيل، واحتقر كل عمل لا يؤدي إلى إرضاء مطامحه ولايصب في مجرى تحريره.

وإذا كان الناس مطبوعين على حبهم للحياة وتعلقهم الشديد بها فإن ذلك يتفاوت قوة وكيفية وأساسا. وقد أجاد أبو الطيب عندما وصف ذلك فأحسن وصفه إذ يقول:

أرى كلنا يهوي الحياة بسعيه
حريصا عليها مستهاما بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقي
وحب الشجاع النفس أورده الحربا

حقا إن النفوس إذا كانت كبارا استهانت بكل عظيم ترى فيه وسيلتها الوحيدة للخلاص من العدو، وكذلك كان الشعب الجزائري الذي ضحى بخيرة أبنائه من أجل حريته السليبة واستقلاله المغتصب.

إن طي المراحل الصعبة في تاريخ الشعوب يتوقف على مدى ما يتوافر لها من تجارب مريرة في ذلك؛ وإن الشعب الجزائري الذي نجذته خبرات الحياة وحنكته أيامها الشداد يعرف أكثر من غيره أن للحرية ثمنا هو الجهاد في سبيلها والذود من أجلها. . . وهو يعرف كذلك أن هذا الجهاد تتعدد وسائله، وتختلف طرقه ومناهجه الحسية والمعنوية.

إن طعم الحياة ومذاقها يتوقف على مدى ما يؤمن به المرء من مبادىء وما يعتنق من أصول وثوابت وما يقدم في سبيل معتقداته هذه مما تبخل به طبيعة البشر فلا تنفقه إلا وهي كارهة ولا تبذله إلا وهي ساخطة. وقد كان من فضل الله على الشعب الجزائري أن غرس فيه روح البذل والعطاء غرسا، وحبب ذلك إليه حبا لا يضاهي فيه ولا يداني.

إن الشعب لا يلجأ إلى الجهاد إلا لكي يحمي كيانه من الانصهار والذوبان في كيان غيره وبوتقة هذه القوى الدخيلة عليه التي تتحكم في مشيئته وتستبد بأمره.

إن الشعب إذا أصر على بلوغ أهدافه لم تثنه العقبات مهما عظم أمرها واشتد خطرها. وعلى قدر ما تتراءى له الصعاب، وتتبدى له الأتعاب على قدر ما يتهيأ لتذليلها ويتصدى بشمم وإباء للاستهانة بأمرها.. فالصور الرائعة والمشاهد الخالدة التي يستلهم منها الناس أسلوبهم الأمثل وطريقتهم الصحيحة في إلحاق الهزيمة بالعدو لهي مما تزخر به الثورة الجزائرية. لقد عرف أبناء الثورة الجزائرية بتفانيهم الشديد في التضحية والفداء حتى كان لهم في ذلك رؤية خاصة لا يدانيهم أو يماثلهم فيها أحد...

أليس الواحد منهم يحدد علاقته العضوية بأقرب المقربين إليه انطلاقا من منظور وطني يضع المصلحة العامة فوق كل شيء، ويراعي حظوظ الشعب في الحياة الحرة الكريمة أول ما يراعي... وإن أكثر الأزمنة تعلقا بذاكرة الشعب هي هذه التي تهيج مشاعره وتؤجج عواطفه وتلهب إحساسه بما قدم من تضحيات جسام في مختلف مراحلها، كما أن أفضل الأمكنة عنده هي هذه التي تحتضن رفات شهيد أو التي ارتوى ترابها بدم هذا الشهيد.

إن إبراز فاعلية العنصر الشعبي. وإظهار ما يتمتع به هذا العنصر من تفوق بارز في معركة الشعب مع الاستعمار يمثل حجر الزاوية في كل دراسة جادة لتاريخ الثورة الجزائرية ذلك أننا لم ننتصر على العدو بما أوتينا من قوة مادية بل بما أمدنا الله به من أسباب وماهيأ لنا من وسائل قوت في الشعب إيمانه وعززت فيه إصراره على انتزاع النصر فيفتك حقه السليب ويسترجع كرامته المهيضة. وانطلاقا من هذا فإننا نقول: إن التركيز على روح وقائع الثورة، وتسليط

الأضواء على معانيها البعيدة هو ما يجب أن يستشفه كل متتبع لمعاني هذه الثورة البـاسقة التي تعكس لوحتها الفنية مأساة شعب لم يتخذ من القوة وسيلة أو يتصدى للعنف إلا بالصمود والثبات .

إن التوجيه الصحيح ، والارشاد القويم هما المنهج الذي تتحدد من خلاله البذور الأولى للوعي بالذات، والادراك بالنفس والشعور بالوجود الذي يجب أن يتحـرر من القيود حسية كانت أو معنـوية. إن تطور المـواهب في شعب مستضعف واكتمال نضجه السياسي لا يتم إلا إذا وصل هذا الشعب إلى مرحلة اليأس لايجاد حلول لمشكلاته مع الخصم . . عندئذ تكون الثورة .

إن ترشيد الفرد، وتحرير فكره من عقدة النقص ومركب الخوف من العدو ظل واحدا من الأهداف الكبيرة التي كرس الشعب نفسه لخدمتها . . ذلك أن السمو بالفكر إلى درجة من التطور الذهني الذي يؤهل الفرد للنهوض بأعبائه الـوطنية شكـل عامـلا من عوامل الاعداد التي أفضت إلى توسيع القدرات الفكرية وبلورة وتنمية الملكات التي أبدعت فأحسنت الابداع .

وأما المال فقد بسط الشعب فيه يده كل البسط فكان له بذلك كتاب مرقوم يشهد له بهذه العطاءات التي لن تجد لها مثيلا إلا في القلة من هؤلاء الذين فرضوا أنفسهم على التاريخ من أجل نصرة الحق والدفاع عن الثوابث المقدسة . وقد ذكر الله المال في آيات كثيرة من القرآن فقال : «المال والبنون زينة الحياة الدنيا» (1) إلى غير ذلك من هذه الآيات التي جاء المال فيها مقدما في الذكر على الانسان نفسه وعلى كل عزيز آخر لأنه ـ أي المال ـ حاضر على الدوام في ذهن الانسان ولأنه أيضا مما يرغب فيه الصغير والكبير والمحتاج إليه وطالب الاستزادة منه .

أذكر أني دعيت ذات مرة عام 1984 م إلى إلقاء محاضرة في قسمة المجاهدين في «بئـر الخـادم» فكان فيها قلت عن دور المال في الثورة الجزائرية : إن من الأسباب الرئيسة التي جعلت المجاهدين يترفعون عن المال فلا يقعون في شراكه خلال الثورة المسلحة هو أنهم كانوا يعيشون عيشة لا تحتاج بطبيعتها إلى سلطان

---

(1) سورة الكهف، الآية : 46

المال على النفوس ذلك أنهم كانوا يتنقلون في مناطق بعيدة عن العمران غير آهلة بالسكان لا تقام فيها الأسواق ولا يقع فيها التبادل التجاري، لذلك عزفوا عن هذا اللون من الحياة المترفة فنبذوا المال وراء ظهورهم. وما كدت أختم هذا التعليل حتى بادرني أحد الحاضرين فقال: إذا كان المجاهدون في الثورة الجزائرية لم يغرهم المال، ولم يستهوهم بريقه لبعد مابينهم وبين زخرف الحياة من أسباب تدعو إلى ذلك فقد كان بإمكانهم أن يغلوا (1) المال إلى أسرهم التي كانت في أشد الحاجة إليه؛ ولكنهم لم يفعلوا ذلك. وفي الحقيقة فإني أعترف أن رد هذا المجاهد كان قويا ومفحما ذلك أن الثورة كونت بيئة روحية خاصة تربى فيها أبناؤها تربية سليمة قوامها الاخلاص للمبادىء الثورية وعمادها التفاني في أداء الواجب بأمانة ونزاهة فحققت بذلك الكثير من الصور النضالية التي تفردت بها، فهي قد اعتمدت في تنشئة ناشئتها على جانب العقيدة الدينية وركزت على وجوب الايمان بأن كل شيء يجب أن يكون في خدمة أهداف الثورة يخضع لمثلها العليا، ويتماشى ومقاصدها في التحرر والانعتاق. من ذلك ما وجدته مدونا في بعض أوراقي القديمة من أن جماعة من المجاهدين كانت مكلفة بحمل كمية كبيرة من الذهب والفضة إلى قيادة الثورة في «تونس» ولكنها وقعت في اشتباك مع العدو؛ فما كان من قائد تلك المجموعة إلا أن أمر أحد مساعديه أن يسوق الجمل الذي كان محملا بالذهب إلى كهف حيث بقره وأخرج جوفه ووضع بدله كيس الذهب الذي كان وزنه خمسة وعشرين كيلو غراما. إن هذه العملية لا يمكن وصفها إلا بأنها تمثل القمة في الاخلاص والذروة الشامخة في الحفاظ على اموال الثورة. كما روى لي المناضل / أحمد الصالح بن عبد الله زرفاوي (2) ما يأتي: في عام 1955 م أرسل المجاهد / علي عفيف (3) إلى أحد الأهالي يطلب منه أن يحضر العشاء للمجاهدين؛ وفعلا فقد ذبح الرجل بعض الخرفان وأمر زوجته أن تتظاهر بأنها تهيء الأكل ثم ذهب إلى مركز العدو فأسر إليهم الخبر، كما أن زوجته هي الأخرى قد أرسلت بعض من تثق فيه إلى المجاهدين تخبرهم بما كان من تواطؤ زوجها مع العدو.

---

(1) يغلوا: من الغلول وهو الخيانة.

(2) هو مناضل من الشريعة (تبسة).

(3) أحد القادة المحليين للثورة في الشريعة (تبسة). معروف بصرامته و شدته على العدو.

وبعد يوم أو يومين من ذلك لقي هذا الخائن جزاء عمله من قبل المجاهدين الـذين أرسلوا إلى زوجته مبلغا ماليا قدره مائة ألف سنتيم لكنها ردته إليهم قائلة : «هـذا مال الثورة، حافظوا عليه للثورة، وهذه مائة ألف سنتيم من عندي أقدمها إلى الثورة».

حقا إن الثورة مولها الشعب من خزائنه الخاصة، وموارده الغاصة. وقد عبر عن هذه الحقيقـة أحد المجاهدين الأوائل «الأخضر بنطوبال» عندما قال في إحدى المناسبات : كان رد فعل الشعب إيجابيا عندما أكد لنا المناضلون في جبل الأوراس أنهم يبيعون أرزاقهم لشراء السلاح بشرط أن لا نستلف من الدول الأجنبية لكي لا تكون الجزائر مرهونة ماليا لدى أي دولة أجنبية.

كما أنه قال في مناسبة أخرى : «والحق أن الشعب الجزائري كان هو الممول الرئيس للثورة خلال سنوات كفاحه بنسبة 80٪ . أما 20٪ الباقية فهي موزعة بين مساعدات مالية من الدول العربية الشقيقة والكتلة الأوربية الشرقية. على أن أهم من هذا كله هو أن الجـزائـر عنـدما استقلت في عام 1962 م عن الاستعمار الفرنسي فإنها لم تكن مدينة لأي دولة من دول العالم.

صور من الحياة الروحية في الثورة الجزائرية *
(1)

إن من يدرس الثورة الجزائرية في بعض أبعادها الخفية يتبين أنها ثورة تغلب عليها حياة الروح لترتفع بالمجاهدين فيها من الحياة المادية إلى الحياة الملكوتية وذلك بأن تسمو بأفكارهم إلى عالم الخلود وتحررهم من شرور الحياة الآثمة التي تستحكم في رقابهم. ولأجل تحقيق هذه الغاية الدينية والوطنية النبيلة عملت الثورة منذ البدء على تخليص نفوس أبنائها مما علق بهم من الشوائب وران على قلوبهم الخانعة المستكينة فإذا نظرنا إلى هذه الثورة من زاوية بعدها الروحي يتبين لنا أنها ثورة مؤمنة انتقشت نفوس أبنائها وامتزجت بطابع لا تغلبه الأخلاط ولا يجول في عالم الكدرات. فعاشت هذه النفوس مؤمنة بالثورة مخلصة في إيمانها بها، وكان هذا الايمان الذي نفذ إلى نفوسهم قد اقترن بتطهيرهم من عقدة الخوف من المستعمرين ونظرة هؤلاء المتعالية إليهم.

وإذا كان للانسان قوتان متعارضتان : إحداهما روحية والأخرى مادية فإن أخص ما امتازت به الثورة الجزائرية هو أن الجانب الروحي فيها قد تغلب على الجانب المادي بسبب ما كان يتمتع به المجاهدون من تأصل روح الجهاد بقواعده الصحيحة في نفوسهم فيتأهلون للتخلق بالخلق الحسن ويتصفون بفضائل الأعمال فيعيشون دائما بفكرهم مع هدي الله ويشعرون أنهم أقرب

** نشرت في جريدة (الشعب) عدد 7781، سنة 1989 م وألقيت محاضرة في الملتقى الوطني الأول لجمع مادة تاريخ الثورة في باتنة في 22 أكتوبر 1989 م، وبثت في الاذاعة الوطنية أول مرة بمناسبة الذكرى الرابعة والثلاثين لاندلاع الثورة، ونشرت في جريدة الشعب أول مرة في شهر نوفمبر. كما الاحظ أني أعدت كتابتها من جديد وقد سبقت هذه الاشارات كلها في التعليق على المقدمة.*

خلق الله إلى ملاقـاة الله بسبب تعرضهم للخطر الدائم واستعدادهم لنيل الشهادة في كل آن وحين.

إن طاقـة المجـاهد الروحية فوق المادة؛ إنه عالم علوي مشحون بالايمان لايتحـرك إلا لخدمة المبادىء الدينية والوطنية منها على السواء، إيمانا منه أن الموت في سبيل الله هو نقلة إلى العالم الأخروي حيث يلقي عدل الله وحكمته. كما أن اعتقـاد المجاهدين بالمصير الذي سيؤولون إليه إذا ماتوا قد شكل هو الآخـر سببا من أسباب عدم خوفهم من الموت. من هنا يمكننا أن نقول: «ليس الشر في الموت؛ لكن الشر في الخوف من الموت» (1).

إن المجـاهـدين لا يخافـون من المـوت لأن أنفسهم تطهرت من الذنوب والمعاصي فكافحوا أهواءهم وحملوا أجسامهم وقلوبهم على الاستغراق في ذلك الجـو الهـادىء الروحاني المنتعش واقتصروا من العيش على ما يسد الغلة (2) ويستـديم الحياة. وإذا كان يتعـذر على الانسـان أن يتجرد تجردا مطلقا من حيوانيتـه التي يحفظ بها استمرار الحياة في جسمه فإن المجاهد المؤمن ترتاض نفسه على التدرج في الدرجات العالية لكي يهذب حيوانيته ويخلصها من التوغل في الشرور والآثام ما أمكنه ذلك. لقد أودع الله في النفوس البشرية صفات من الكمال والطهارة يمكن أن تتعرض لأحوال طارئة من الأرجاس التي تنشأ عن الزيغ والانحراف. ولكن تهذيب النفوس المؤمنة المجاهدة وتقويمها من شأنه أن يزيد من ذلك الخير المودع فيها. قال تعالى: «لقد خلقنا الانسان في أحسن تقـويم ثم رددنـاه أسفـل سافلين» (3) وقـال: «الـذين آمنوا وعملوا الصالحات» (4)

والمجاهدون المؤمنون تلوح عليهم الأحوال والمظاهر الحسنة إذ لا يصدر عن الواحد منهم في غالب الأحوال إلا طيب القول وقويم السلوك بسبب ما قذف الله في قلوبهم من أشعة نور الايمان الذي يخترق حجب نفوسهم فينزع ما في

---

(1) من أقوال الشيخ / الطاهر بنعاشور.

(2) الغلة بالضم: حرارة العطش.

(3) سورة التين، الآية: 4 و 5

(4) سورة البقرة، الآية: 25

صدورهم من غل؛ على أن هذا الفضل لم ينله المجاهدون إلا في الأزمنة التي يغلب فيها الرشد والاستقامة والشعور الكبير بوجوب أداء الواجب الوطني والديني على حد سواء.

إن أصول الايمان بالمبادىء الدينية والوطنية مبنية أساسا على اعتناق كل ماله علاقة بذلك ونبذ كل ما من شأنه أن يضلل الفكر عن الطريق الصحيح ويبعده عن أهداف المصلحة العامة للوطن، ذلك أن المجاهد المؤمن زكت نفسه عن ضمائر الشر وتعالت عن اقتراف الأعمال الضارة علما بأن الأعمال هي نتيجة منطقية لقناعتنا السياسية وإيماننا بالمبادىء والأصول من جهة، ومن جهة أخرى فإنها - أي الأعمال - تكمل المقصد وتعمل على تجسيد الغاية وتحقيق الهدف.

إن من أفضل الأعمال المتولدة عن الايمان القيام بشعيرة الجهاد والنهوض بأعبائه. والمجاهدون يعلمون أنهم ملك للله تعالى لذلك فهم راضون بقضائه وقدره لايجزعون مما يأتيهم لأنهم متيقنون أنهم إليه صائرون وأنه سيبعثهم مقاما محمودا على ما قدموا من أعمال أهلتهم لذلك.

من هنا تظهر آثار صبرهم الشديد، إذ هو صبر مقترن بإيمانهم الكبير في الله. إن المجاهدين يتفاوتون في شدة التعلق بحظ النفس الوافر من الحياة الروحية ذلك أن تلاحم الخواطر المتباينة وتزاحم الأفكار المختلفة في النفس أمر في الجبلة لاتدفعه إلا المراقبة النفسانية التي طغى عليها نور الايمان الذي يودعه الله في المؤمن. فعندما تتصل الأشعة النورانية بالنفس المؤمنة وبالعالم الملكوتي فإن هذه النفس تنفعل بأنوار الخير وتتصف بصفات هي إلى الكمال أقرب منها إلى أي شيء آخر.

وعندما يتغلغل الجهاد في قلوب القائمين بأمره فيتقبلونه سلوكا أو تنبث آدابه وأخلاقه العامة فيهم فإن الايمان يعصمهم من نوائب الخطإ وتتناجى نفوسهم بدواعي الخير. عندئذ يعرضون عن محركات الشهوات ويكثر حظهم من التعلق بأهداب الحياة الروحية. قد يعرض لبعض المجاهدين نزوات تتغلب على نفوسهم فيصيرون متهيئين إلى الغواية. عندئذ يتمكن منهم سلطان الشيطان فلا يستطيعون مقاومته فيغويهم وسواسه ويضللهم تضليلا بعيدا..
إن من نزق النفس الانساني وقلة ثباته أنه يطغى ويتكبر وينسى شكر الله نسيانا

يقل أو يكثر إذا أصابته السراء وهو إذا أصابه ضر لم يقو على الصبر وجزع وألح في سؤال الله أن يزيل عنه ما ألم به. وهذه الأحوال الخلقية العارضة والمواقف النفسانية الطارئة من بعض المجاهدين لا تشكل عائقا روحيا يعوق أصحابه عن السمو في مدارج الكمال التي أعدهم الله لها متى راجعوا أنفسهم وندموا على ما فرط منهم. ولئن خلق الله الانسان محفوفا بجوانب السيئات فإنه سبحانه وتعالى جعل له من أسباب الكمال ما به يكون إعراضه عن محركات الشهوات. وهذا الاعراض لا يثبت له إلا من وهبه الله قوة إيمان تخترق الحجاب الصفيق لداعي الشهوة الحيوانية.

إن الثورة المؤمنة المجاهدة تعد إحدى شعب الايمان الذي دخل في قلب المؤمن المجاهد إذ بها يزداد إيمانه وفي جوها تلتهب مشاعره حماسة. كما أنها تقوى العلاقة بينه وبين ربه. والفرق بين الثورة الجزائرية وغيرها من ثورات العالم المعاصر هو أن الثورة الجزائرية ثورة شعب مؤمن له مقوماته الدينية والوطنية التي تميزه عن غيره من بعض شعوب العالم الأخرى؛ إنها ثورة دينية روحية تستهدف أغراضا دنيوية تخدم الدين والوطن في الحياة الدنيا، وترمي إلى تحقيق أهداف نبيلة في الحياة الأخرى هي نيل الشهادة التي تطهر أصحابها من الذنوب والمعاصي ولقاء الله طمعا في رحمته وعدله. إن الثورة الجزائرية قلب للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والحضارية لذلك فإنها أوجدت لنفسها عالما روحانيا متجانس النغمات موحد النبرات لايمكن الطعن في أهدافه الدنيوية ولا في مثله الأخروية العليا. أما ثورات العالم المعاصرة فهي تنظيمات ترمي إلى تحقيق أهداف دنيوية بحتة تخلو من البعد الروحي الديني وتفتقر إلى الخيط الذهني الذي يربطها بالله ربطا يراعي المصلحة العامة في الدنيا تماما كما يراعي متطلبات الحياة الآخرة. لقد كان مما نجحت الثورة الجزائرية منذ البدء في تكوينه أنها أوجدت مجتمعا ربانيا عابدا همه إعلاء كلمة الله بالصدق في العقيدة والعبادة والعدالة في المعاملات بين أفراده المجاهدين. من هنا كانت الفيوضات الالهية التي يختص الله بها من يشاء من عباده المؤمنين.

والمجاهدون يهجس في نفوسهم هاجس الخوف عندما يشاهدون قوة كبيرة للعدو لا قبل لهم بمواجهتها أحاطت بهم من جميع أقطارهم فتحدثهم نفوسهم

بالفـرار؛ ذلك أن الموت هو أشد ما تتوقاه النفس وتكرهه. وإذا كان الناس متفـاوتـين في الثبـات أمـام كثرة العدو فإن المجاهدين المؤمنين يحتاجون هم الآخرون إلى الاستعانة بالله وبالعقل المؤمن والهدي الديني الذي هو عون لهم وعصمة في ظرفهم العصيب ذلك. إن للنصر أسبابا مادية ومعنوية قد يغلب الجانب المعنوي فيها على الجانب المادي؛ وانتصار الثورة الجزائرية يرجع إلى هذه الأسباب التي يخفى بعضها على أفهامنا ويلوح بعضها الآخر لمداركنا وأذهاننا.

إن الله يختار من عوامل النصر مالا يخطر على بال أحد منا. أليست بعض الأسباب التي هيأها الله لنصر المسلمين في معركة بدر مما لم يكن معروفا في تاريخ الحروب سابقها ولاحقها؟ فهو سبحانه وتعالى أنزل الملائكة إلى الأرض يقاتلون العدو إلى جنب المسلمين وهذا ما أثبته الكتاب الكريم. قال تعالى: «وأنزل جنودا لم تروها» (1) كما أنه سبحانه وتعالى قد أغشى المسلمين النعاس عنـدما خافوا من العدو في معركة بدر وغزوة أحد وهو إنما أنزل عليهم هذه الظاهرة الغريبة من النعاس إلا لكي يؤمنهم ويثبت قلوبهم لئلا تحدثهم نفوسهم بالفرار لأنهم إذا فروا في هذه الحال فمن ذا الذي سيواجه العدو عندئذ بعد فرارهم هذا لكي ينتزع منه النصر الذي وعد الله به المؤمنين؟. وإذا كان لله في أمره شأن هو بالغه وحكمة يريد لها البقاء فإنه يضمن لها طرق النجاح بما يخفي على أذهاننا ويهيىء لها من أسباب النصر الخفية ما نتفطن إلى بعضه وما يغيب بعضه الآخر على أفهامنا وهذا هو السر الحقيقي في أن الله إنما يرسل النعاس على المجاهدين لكي لا يخلوا أماكن دفاعهم ولكي يظلوا ملازمين لهذه التحصينات الدفاعية، لأن حكمته اقتضت أن يكون النصر الكبير على أيدي طائفة قليلة في العدد والعدة. قال تعالى: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله» (2) فإنه يهيىء للخاصة من عباده المؤمنين طرقا موصلة إلى النصر بعوامل روحية إن عرفنا بعضها فقد جهلنا بعضها الآخر. قال تعالى عن ظاهرة النعاس التي سبق الكلام بخصوصها: «إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء» (3) فهذه الآية تثبت أن الله سبحانه وتعالى قد غشي

(1) سورة التوبة، الآية: 26

(2) سورة البقرة، الآية: 249

(3) سورة الأنفال، الآية: 11

المسلمين النعاس عندما فزعوا وخافوا من المشركين في معركة بدر كما أن قوله تعالى في سورة آل عمران يثبت هو الآخر أن الله أرسل النعاس على طائفة من المسلمين في غزوة أحد دون الطائفة الأخرى وهو ما يفهم من قوله تعالى : «ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم» (1)

هذا عن عوامل النصر المعنوية التي أمد الله بها المسلمين في معركة بدر فماذا عن هذه العوامل عينها في الثورة الجزائرية ؟ هل أكرم الله بها عباده المجاهدين في هذه الثورة ؟ أم أن أمرها قد اقتصر على الدعوة الاسلامية في عهدها الأول ؟ إننا لانشك في أن الله هو وحده الكفيل بضمان النصر أي بتغليب طائفة على طائفة أخرى متى توافر لها من الأسباب المادية والمعنوية لذلك النصر ومتى تهيأ لها منه ما لم يتهيأ لغيرها. لنفرض جدلا أن مجموعة من المجاهدين حاصرهم العدو وأن لا مخرج لهم أبدا من ذلك الحصار، ولنفرض كذلك أن هذه الفئة القليلة سبق في علم الله أن أفرادها سينجون بأرواحهم لأن أجلهم لم يحن بعد ولأن كل شيء لا يتم في هذه الحياة إلا وفق مشيئته سبحانه وتعالى، ومن مشيئته هنا أن أولئك المجاهدين المحاصرين لا يموتون كلهم أو بعضهم لأنه يقول : «فإذا جاء أجلهم لا يستاخرون ساعة ولا يستقدمون» (2).

إذن ماذا سيكون الحل في هذا الموقف العصيب يا ترى ؟ إن الحل في نظرنا لا يكون إلا بتدخل العناية الربانية بالطرق الخاصة والخفية التي لا ندركها لا لشيء إلا لأن الله قدر لأولئك المجاهدين المحاصرين أن ينجوا بأرواحهم كما افترضنا ذلك. ومن خلال التجارب التي عاشها المجاهدون وخبروها في مثل هذه المواقف الكبيرة في معاركهم الطويلة والكثيرة مع العدو، فإن الحل سيكون أحد هذه الحلول الأربعة :

1) إنه يكون تغطية جوية طبيعية وذلك بأن يرسل الله طبقة كثيفة من الضباب في الأفق يتسلل تحت جناحها الصفيق أولئك المجاهدون المحاصرون الذين لم يشتبكوا مع العدو بعد أو أولئك الذين قرروا أن يقتحموا صفوف هذا

---

(1) سورة آل عمران، الآية : 154

(2) سورة النحل، الآية : 61

العدو لكي ينسحبوا من المعركة التي تأكدوا أنهم أصبحوا لا يستطيعون مواصلتها.

2) قد يرسل الله الرياح فتثير سحابا يعقبه نزول المطر من السماء في غير وقته؛ لكن عند الحاجة الشديدة إليه، ذلك أن العدو يتوقف عادة عن الرمي كلما غطى الضباب الأفق وتلبدت الغيوم وتراكمت السحب في السماء وبدأ هطول المطر. عندئذ يغتنم المجاهدون هذه الظاهرة الطبيعية فيخترقون صفوف العدو، لكي ينسحبوا آمنين في أغلب الحالات التي تشهد وقوع مثل هذه الظاهرة الطبيعية الطارئة.

3) تفجير ينبوع من الماء لجماعة من المجاهدين المحاصرين كاد أفرادها يموتون عطشا.

4) قد يكون لحظات قليلة من النعاس يغشى الله به المجاهدين عندما تلوح لهم بوادر الخوف من العدو وعندما تحدثهم نفوسهم بالفرار. وهذه الظاهرة الأخيرة تدعو إلى التوقف عندها قليلا فلنتناولها بالبحث والتحليل. يقول عبد الله بن مسعود: «النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة من الشيطان»؛ ويقول قتادة: «النعاس في الرأس والنوم في القلب»؛ وقد جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع أبي بكر وهما يدعوان أخذت رسول الله سنة من النوم ثم استيقظ مبتسما فقال: «أبشر أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع ثم قرأ قوله تعالى: «سيهزم الجمع ويولون الدبر». وثبت عن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير: «لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم فما منا رجل إلا ذقنه في صدره....».
هذا وإننا نكتفي بهذا القدر من شواهد السيرة ومن أراد المزيد من ذلك فليرجع إليها. ويعرف الشيخ الطاهر بنعاشور النعاس فيقول: «إن النعاس هو النوم الخفيف أو أول النوم، وهو يزيل التعب ولا يغيب صاحبه فلذلك كان أمنة إذ لو ناموا نوما ثقيلا لأخذوا» والنعاس بهذا التعريف هو مثل السنة أو الوسنة قال تعالى: «لا تأخذه سنة ولانوم» (1) وقال عدي بن الرقاع:

وسنان أقصده النعاس فرنقت
في عينه سنة وليس بنائم

---

(1) سورة البقرة، الآية: 255

وإذا كان النعاس أمنا من الله وسلاما لعباده المجاهدين بأن ينسوا في تلك اللحظات قوة العدو التي تجابههم فإن هذا النعاس ليس شرطا أن يغشى المجاهدين جميعا ولا أن يرسله الله على من يرسله عليهم في كل الظروف ذلك أنه - أي النعاس - يعتري المجاهدين في حالات خاصة أهمها ما يأتي :

1) أن تكون قوات العدو كثيرة جدا.

2) أن تدوم المعركة اليوم واليومين والثلاثة والأربعة أيام وذلك يعني أن النعاس لا يكون في الاشتباكات الخاطفة والكمناء (1) السريعة لأن المجاهدين يوجهون فيها ضربات سريعة للعدو ثم ينسحبون بسرعة خاطفة.

3) لا يكون النعاس عاما إذ لو كان كذلك لأخذ المجاهدون من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

4) وقت النعاس يكون قبل بدء المعركة أو في أثناء نشوبها.

5) يمكن أن يغشى النعاس المجاهدين بعد أن يكونوا قد أخذوا نصيبهم من النوم والراحة. ولنا أن نلقي الآن هذا السؤال : ماهي الحكمة الالهية من النعاس في الجهاد؟ وما هو الهدف المتوخى منه ؟ وللاجابة عن ذلك نقول : «إن الحكمة الالهية من النعاس في القتال هي تأمين نفوس المجاهدين بزوال أثر الخوف من نفوسهم عندما تلوح لهم طلائع العدو الذي يفوقهم في العدد والعدة إذ توسوس لهم نفوسهم بالفرار. وإذا كان لهذا الفرار ما يسوغه من الناحية العقلية بسبب أن الخائف من الشيء يفر منه ابتغاء للنجاة وطلبا للسلامة لأنه يحكم على الأمور من خلال مظاهرها، وما يشاهده من ذلك كله يبعث على الخوف الشديد بل والهروب منه وتولي الأدبار فإن العناية الالهية التي وسعت كل شيء تريد غير ماتريده هذه النفس التي ملكها الخوف واستبد بها الجزع فيلقي الله في روعها أن تلازم مكان دفاعها لكي تواجه العدو وتنتزع منه النصر الذي كتبه على نفسه لعباده المؤمنين. ولكن هذا الصمود لن يتأتى لتلك النفوس الخائفة إلا إذا غشاها الله النعاس وأرسل عليها لحظات قليلة منه لكي تنسى في أثنائه طلائع العدو المباغتة وعندما تستفيق من النعاس فإن آثار الخوف تكون قد زالت منها، ذلك أن الخوف هو فتور يصيب أعصاب الانسان ويعتريها

---

(1) تجمع كلمة «كمين» على «كمناء» لا «كمائن». (معجم الخطأ والصواب).

بالوهن والضعف، وعندما يأخذ الانسان قليلا من الراحة فإن أعصابه سرعان ما تستعيد حيويتها وتسترد نشاطها ويزول عنها بالتالي ذلك الفتور الذي اعتراها وأصابها. على أن التحليل الديني والعلمي لظاهرة النعاس في القتال نستخلص منه هذه النتائج النفسانية الايجابية :

1) إنه أمن من الله بدليل قوله تعالى : «أمنة منه».

2) إنـه يزيل أثر الخوف من النفوس عندما تنعس لأنها بذلك تكون قد نسيت آثار قوات العدو عليها.

3) إنه يعيد الثقة إلى النفس لكي تصمد في مكانها الدفاعي لأن النفوس الآمنة هي التي يتهيأ لها ذلك.

4) استعادة النشاط العضلي بعد أن زال فتور الأعصاب الذي سببه الخوف لكي يتمكن المجاهدون من خوض المعركة بفضل استعادتهم لذلك النشاط الذي فقدوه في أثناء الخوف الذي اعتراهم.

إن هذه الظاهرة الغريبة التي نسميها نحن المسلمين «كرامات ربانية» هي قدر مشترك بين أمم الأرض وشعوبها مؤمنها وكافرها وثنيها وملحدها. ذلك أن الحياة الروحية ليست مما يختص به المسلمون دون غيرهم من أمم الدنيا. ولكن عنصر التفاضل في هذه الحياة يكمن في العماد الذي يقوم عليه نوع تلك الحياة الذي هو عامل الايمان والاعتقاد الديني الذي تشع أنواره في عقل المؤمن لكي تربطه بعالم القدس وتشده إلى دنيا الملكوت. من هنا يتبين لنا الفارق الكبير بين مفهوم هذه الظواهر في بيئة مؤمنة وبين مفهومها في بيئة كافرة أو ملحدة. إنه لا يفسر في هذه الأخيرة إلا على أنه خاضع لعامل «المصادفة». ألم تساعد الظروف المناخية الروس في تحقيق النصر على «نابليون» حتى أنهم سموا شهر يناير الذي انهزم فيه نابليون شهر «الجنرال يناير». كما أن البرودة الشديدة هي التي أعانت على انهزام الألمان عندما توغل هؤلاء في أعماق روسيا.

وإذا كانت الحياة الروحية قدرا مشتركا بين الأمم والشعوب فما هو حظ الثورة الجزائرية من هذه الظواهر الغريبة ياترى ؟ لئن أعوزتنا الحقائق المكتوبة في هذا الشأن فإننا نلجأ إلى الشهادات الحية التي لا يزال أصحابها أحياء لنستدل بها على صحة ما نذهب إليه من قول.

وكاتب هذه الدراسة يعد أحد الذين تأكدوا صحة وقوع ظاهرة النعاس في أثناء القتال إبان الثورة التحريرية، إلا أنني لم أكن لأجد لها تفسيرا دينيا أو علميا تطمئن إليه نفسي في ذلك الوقت؛ ولذلك فقد ظلت هذه المعضلة من همي سنين طويلة إلى أن كان علي أن أهيىء درسا ألقيه بمناسبة إحياء ذكرى غزوة بدر الكبرى في شهر رمضان من عام 1988 م. في مسجد «ابن باديس». بالعاصمة؛ فما راعني وأنا أعد عملي إلا أن الآيتين القرآنيتين الكريمتين اللتين سبق الكلام بشأنهما تتحدثان عن النعاس كظاهرة ربانية غريبة تعتري المجاهدين في الغزوتين المذكورتين. عندئذ تذكرت ما كان يعترى المجاهدين في الثورة الجزائرية من مثل هذه الظاهرة التي ذكرها القرآن وقررتها السنة النبوية الشريفة، ولكن المجاهدين الجزائريين لم يكونوا يفسرونها التفسير الصحيح إذ كانوا يؤولونها تأويلا خاطئا. ألم يكونوا يرون أن النعاس في القتال هو فشل أمام العدو وخوف منه؟ نعم إنهم كانوا يرون الأمر كذلك ولا يزالون يرونه كذلك إلى اليوم. والدليل على أنهم لايزالون مخطئين في تفسير النعاس في القتال تفسيرا صحيحا هو أني سألت المجاهد «العربي فارح» (1) المعروف بـ «فراح» ونحن في طريقنا إلى مدينة «الشريعة» بمناسبة إحياء الذكرى الرابعة والثلاثين لمعركة الجرف العظيمة عن ظاهرة النعاس في أثناء القتال خلال الثورة التحريرية فأكد لي صحة وقوع ذلك ولكنه علق عليه بأنه جبن يعتري بعض النفوس الضعيفة أمام العدو. وحكى لي هذه الحكاية قال: «أصابت شظية (2) قنبلة المجاهد «محمد بعلوج» (3) في معركة الجرف فجرحته جرحا خفيفا في رأسه. ولما نظرت إليه رأيت الدم يسيل من رأسه والنعاس يغالبه فعجبت لأمره وقلت في نفسي: «لقد فشل صاحبي في هذه الجولة وانهزم أمام العدو» فأجبته ضاحكا: «بل إن صاحبك لم يفشل ولم ينهزم وإن ما غشيه من نعاس هو «أمن من الله». فعجب من حديثي وقال: «وماهو دليلك على ذلك»؟ فقلت: «الكتاب والسنة». كما أذكر أني سألت المجاهد «مقداد جدي» (4) ليلة إحياء الذكرى

---

(1) هو أحد المجاهدين الذين حضروا معركة الجرف الشهيرة، أصله من الشريعة.

(2) الشظية: هو الشيء إذا تطاير شظايا.

(3) هو أحد المجاهدين الأوائل، أصله من الشريعة.

(4) هو قائد المنطقة السادسة (تبسة) في الولاية الأولى سابقا.

الآنفة الذكر عن ظاهرة النعاس في القتال فقال : «هذه حقيقة واقعة بلونا أمرها في الكثير من المعارك مع العدو. ولما طلبت منه أن يعلل لي حقيقة ذلك فإنه راح يعطيه تفسيرا لا يمت إلى الحقيقة في شيء. وسألت المجاهد «الهاشمي بوزيدي» (1) في مدينة خنشلة صبيحة يوم 1989/10/23 عن ظاهرة النعاس في القتال فقال : « إن أمره واقع وهو يغشى المجاهدين في المعارك وقبل نشوب المعركة بقليل وحتى في أثنائها».

وعندما ألقيت محاضرة في الملتقى الوطني الأول عن جمع مادة تاريخ الثورة في مدينة باتنة يوم 1989/10/22 م تناولت فيها ظاهرة النعاس بالشرح والتحليل فقد أثار هذا الكلام جدلا كبيرا في القاعة كان للمجاهد الكبير «الحاج الأخضر عبيد» (قائد الولاية الأولى سابقا) الفضل الكبير في الحد من حدته عندما وقف في الناس وقال : «هذه الحقيقة ومثلها مما جربته ثلاث مرات في الثورة التحريرية». أما المجاهد الأستاذ / «مصطفى هشماوي» (2) فأكد لي هو الآخر صحة وقوع ظاهرة النعاس في القتال وذلك بعد ما خرجنا من قاعة المحاضرات. وبمناسبة إحياء الذكرى الرابعة والثلاثين للثورة فإني دعيت إلى إلقاء محاضرة في قسمة المجاهدين بـ «باب الزوار» بالعاصمة تكلمت فيها عن ظاهرة النعاس في القتال. وعندما أنهيت كلامي وقف المجاهد «محمد بلهول» (من مجاهدي الولاية الثانية) فقال : «في إحدى المعارك بالولاية الثانية كان النعاس قد غشى المجاهدين فكنت أوقظهم الواحد بعد الآخر».

وإذا تتبعنا هذه الكرامات الربانية الغريبة في الثورة الجزائرية طالعتنا ظاهرة أخرى أشد غرابة هي ظاهرة «نزول المطر من السماء» في غير وقته كما وقع ذلك في غزوة بدر الكبرى قال تعالى : «وينزل عليكم من السماء ماء». (3) أما عن هذه الظاهرة عينها في الثورة الجزائرية فإن أمرها معروف عند المجاهدين الذين يرون فيها تأييدا معنويا لهم من الله ذلك أن العدو يتوقف عادة عن الرمي عندما يغطى الضباب الأفق وتتراكم السحب وينزل المطر فتتعذر إصابة الهدف

---

(1) أصله من مدينة خنشلة ـ مات رحمه الله.
(2) هو السفير الجزائري السابق في لبنان. أحيل على المعاش.
(3) سورة الأنفال، الاية : 11

بسبب عدم الرؤية الجيدة. فقد حدثني الكثير من المجاهدين الذين حضروا معركة الجرف الشهيرة أن المطر نزل من السماء في اليوم الرابع من هذه المعركة عندما كانوا يتأهبون للانسحاب وعندما تعذر عليهم ذلك بسبب تطويق العدو إياهم من جميع أقطارهم. عندئذ انتهز المجاهدون هذه التغطية الجوية الطبيعية فانسحبوا دون أن يكتشفهم العدو. وحدثني المجاهد / «محمود الواعي» (1) قال: في شهر رمضان من عام 1957 م كان بعض المجاهدين في المركز الاستشفائي «قسنطينة» (وهو جبل قرب «أريس»). وقد أراد مسؤول الناحية الأولى آنذاك المجاهد / «حابة محمد» أن يذبح عددا من الكباش بمناسبة عيد الفطر المبارك لأولئك المجاهدين المرضى.

وفي الليل بلغنا خبر يقول: إن قوات العدو خرجت من مركز «النوادر» سيرا على الأقدام لتباغت أولئك المجاهدين في مركزهم. وفي الصباح الباكر كانت قوات العدو على بعد خمس كيلومترات من الجبل حيث يتحصن المجاهدون. عندئذ ظهرت سحابة خفيفة غطت الأفق من قرية «منعة» إلى حيث يختبىء أولئك المجاهدون المرضى. وقد سارع هؤلاء بإخلاء مكانهم. وعلى الساعة العاشرة بالضبط بدأت الأمطار تهطل بغزارة من قرية منعة إلى مدينة أريس. وقد كان من نتائج هطّل تلك الأمطار أن امحت آثار أقدام المجاهدين فلم يستطع العدو أن يتبين خط سيرهم ولا الوجهة التي قصدوا إليها. وعلى الساعة الثانية عشرة من منتصف النهار توقفت تلك الأمطار عن التهاطل، وشرقت الشمس، ورجع العدو يجر أذيال الخيبة والهزيمة.

قال محدثي: وسألت الناس بعد ذلك عن هذه الأمطار المفاجئة فأكدوا لي أن أفقها لم يتجاوز المحور الرابط بين قرية منعة ومدينة أريس، وهي المنطقة التي كان العدو يخطط لتطويق المجاهدين فيها، ولكن هؤلاء تسللوا تحت تلبد الغيوم في الأفق ونزول الماء من السماء إلى الأرض.

أما عن ظاهرة «الضباب» كتغطية جوية تساعد المجاهدين على التسلل من غير أن يراهم العدو فقد حدثني المجاهد / محمد الصالح بوسلامة (2) قال: في

(1) هو الآن رئيس جمعية الحفاظ على مآثر الثورة في ولاية باتنة.

(2) هو واحد من مجاهدي الولاية الثانية وهو الآن يعمل أستاذا في ثانوية «الاخوة حامية» بالقبة.

صيف عام 1956 م اكتشف رجال العدو أحد عشر مجاهدا بينهم «الاخضر بنطوبال» في أرض عارية في بني «صبيح» بالميلية. وبينما كان أولئك المجاهدون في حيرة من أمرهم أرسل الله سبحانه وتعالى سحابة كثيفة غطت الأفق. عندئذ انتهز أولئك المجاهدون المحاصرون هذه الطبقة السميكة من الضباب فلاذوا بالفرار تحت غطاء هذه الظاهرة الطبيعية المفاجئة التي أرسلها الله في غير وقتها. وعندما تدخل المجاهد / الحاج «الأخضر عبيد» كما أسلفنا القول في ذلك فإنه قال: «وأنا أشهد أن العدو حاصرني ثلاث مرات لم أنج في كل واحدة منها إلا متسللا تحت غطاء من الضباب لا أرى له تفسيرا إلا أنه عامل من عوامل النصر الربانية الخفية».

وأما المجاهد / «عبد الرحمن بلعياط» (1) فقال لي في ليلة 14/11/1990 م بنزل «شلية» في مدينة باتنة ونحن على مائدة العشاء ما يأتي: «كان الضباب يمثل تغطية طبيعية للمجاهدين يتمكنون من خلالها من الانسحاب دون أن يراهم العدو أو يكتشفهم. وعلق على ذلك ضاحكا فقال: «وكنا خلال الثورة التحريرية نسمى الضباب بـ «الخائن» لأنه ينقشع أحيانا وحاجتنا لا تزال شديدة إليه». وحدثني الصحافي اللامع «عبد الحميد الصقال» (2) قال: «في صيف 1957 ألقى الاستعمار الفرنسي القبض على مناضل في نواحي «بريكة» حيث أمعن في تعذيبه ثم رماه في مطمورة مدة ثمانية أيام لم يذق خلالها طعاما ولا شرابا إلى أن أشرف على الهلاك. عندئذ توجه ذلك المناضل بالدعاء إلى الله قائلا: «اللهم لا تجعلني ألقاك عطشان» قال: وبعد هذا الدعاء بوقت قصير بدأ المطر ينزل غزيرا فاستعمل ذلك المناضل وسيلته الخاصة فشرب حتى الارتواء. واستطرد يقول: «وقد غمرت المياه تلك المطمورة حتى أن مناضلنا أصبح لا يجد مكانا يقبع فيه». وأما المجاهد «الحبيب خطاف» (3) فحدثني في هذا الموضوع قال: «في صائفة عام 1961 م كنا نتمركز في جبل «شلية» بالأوراس وكنا نرسل كل يوم قافلة من الحمير يسوقها بعض المجاهدين لكي

---

(1) هو عضو المكتب السياسي في حزب جبهة التحرير الوطني ووزير البناء سابقا.

(2) هو المدير الحالي لمجلة أول نوفمبر.

(3) هو العقيد والمدير المركزي السابق للامداد والتموين بوزارة الدفاع الوطني أحيل على المعاش.

يسقوا لنا . وكان خوفنا شديدا على تلك القافلة أن تكتشفها طائرات العدو التي تحوم حول مواقعنا في صباح كل يوم . لذلك كنا محتاطين للأمر أشد الحيطة فنحن نعرف جيدا مدى ما سنتعرض له من خسائر مادية وبشرية إذا استطلع العدو مراكزنا تلك .

وفي يوم شديد الحرارة من أيام تلك الصائفة سرعان ما تغير الجو وتلبدت الغيوم في الأفق ثم أعقب ذلك كله نزول مطر غزير ما كاد يتوقف حتى فوجئنا بينبوع يتفجر حيث كنا متمركزين كفانا شر تنظيم تلك القافلة من الحمير التي كانت ستتسبب في تدمير مركزنا وهلاك أنفسنا ، وعلق على ذلك الينبوع فقال : «وقد بقينا أكثر من عشرين يوما نتزود بالماء من ذلك الينبوع» .

صور من الحياة الروحية في الثورة الجزائرية (2)

الثورة المؤمنة تهذب نفوس أبنائها المؤمنين، وتنقيهم من الكدرات الزائفة، وتسمو بهم إلى أقصى درجات الكمال الروحي فتفيض الرقي إلى الفكر عندما تصادف قلوبا قذف الله فيها الايمان وعقولا سليمة لم تدنسها خراطيم الشيطان. كما أن أول ما تنقشه هذه الثورة المؤمنة في النفوس وأسبق ما يمتزج بها هو طبع تلك النفوس بطابع لا تغلبه الأخلاط فينهى عن الوقوع في البهيمية وينأى عن التردي في الحيوانية، تسمو نفسه سموا باسقا وتتعالى علوا شاهقا تبحث عن محيطها السرمدي حيث تتخلص من شوائب المادة وتتحرر من قيودها الآسنة. عندئذ تثور على الأوضاع البالية وتتمرد عليها فلا يربطها بها إلا هذا الخيط الروحي الذي لا تتكامل سنة الله في الحياة إلا بتوافره؛ إنه ضرورة قصوى لاستمرار عنصر الحياة على الأرض. ذلك الخيط هو ما نسميه عادة بـ «الروح». من ذلك ما حدثني به المجاهد / «الوردي قتال» (1) قال: لقد طغى الجانب الروحي على بعض المجاهدين في بعض مراحل حياتهم الجهادية حتى أن الواحد منهم أصبح لا يفكر في حياته الخاصة بقدر ما يفكر في حياته العامة، إذ يلوح له أن حياته وقف على سلامة أرواح إخوانه في الجهاد، فهو لا يريد أن يتخلف عن قافلتهم يفضل دوما أن يصحبهم في مسيرتهم الروحية اليومية الشاقة ينافسهم في فعل الخيرات ويسعى إلى ذلك سعي الراغب المستزيد، سعي من يطلب الموت فتوهب له الحياة لكنها حياة يغلب عليها ترقب الشهادة

---

(1) هو من «الشريعة» (تبسة) أحد تلامذة معهد ابن باديس وأحد المنضمين الأوائل إلى الثورة مع أحمد عثماني المعروف بـ (فريد) رحمه الله.

وطلب الموت حماية للمقدسات الدينية والوطنية ودفاعا عن المبادىء والأصول التي ظلت أمل الشعب وهدفه المنشود عبر مراحل تاريخه الموغل في القدم . أعود بعـد هذا الاستطراد فأقول : وطلبت من محدثي أن يسوق لي بعض الأمثلة الحية على تلك الجـوانب الـروحية في حياة المجاهدين اليومية التي أطنب في وصفها فقال : كان المجاهد «عمر البوقصي» أكبرنا سنا ، وكان رب أسرة فتية ، وكنا كلما تمركزنا أو مررنا قريبا من مقر سكناه أقول له : أنت متزوج ؛ عليك حقوق تؤديها إلى أهلها فهلا ذهبت إلى منزلك لتعطي كل ذي حق حقه ولكنه كان يرد علي دائما : إنني لا أستسيغ للحياة طعما إذا فارقتكم لحظة واحدة ، إنني لا أشعر برجولتي مكتملة إلا بين ظهرانيكم ولا أحس بنخوة الشهامة تهز كياني إلا إذا كنت بين صفوفكم ، أتريدني أن أحرم هذا الجو الروحي المتملي الهادي الساحر ؟ قال محدثي : وفعلا فقد كان الرجل لا يزور بيته أصلا لأنه لا يريد أن يتخلى عن حياة الجهاد طرفة عين . لقد طغت عليه الأجواء الملكوتية فأنسته كل شيء من حوله حتى زوجته وأبناءه . لقد توسع أفق إدراك الرجل بعد ضيق فأصبح ينظر إلى الأشياء نظرة شاملة ويقوم الأمور تقويما ينطلق فيه من منظور رائده المصلحة العامة وشعاره التضحية بالنفس من أجل ذلك حتى أن أفراد أسرته ليسوا إلا قائمة صغيرة مكملة لهذه القائمة الكبيرة التي هي الشعب الذي أوقف حياته للدفاع عن حقه في الحياة الحرة الكريمة .

وما كاد صاحبي ينتهي من سرد حديثه حتى طافت بمخيلتي هذه الصورة التي تركها لنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فحسم بها هذا الموضوع حسما والتي ترويها كتب السير على النحو الآتي : أن عمر خرج ليلة يطوف بالمدينة يتعرف إلى أحوال الناس فمر بدار فسمع صوت امرأة تنشد :

ألا طال هذا الليل واسود جانبه
وأرقني أن لا خليل ألاعبه
فلولا حذار الله لا شيء غيره
لزعزع من هذا السرير جوانبه

فاستدعاها من الغد فأخبرته أن زوجها أرسل في بعث العراق، فاستدعى عمر نساء فسألهن عن المدة التي تستطيع المرأة فيها الصبر على زوجها قلن شهران، ويقل صبرها في ثلاثة أشهر، وينفذ في أربعة أشهر وقيل: إنه سأل ابنته حفصة، فأمر عمر قواد الأجناد ألا يمسكوا الرجل في الغزو أكثر من أربعة أشهر فإذا أمضت استرد الغازين ووجه قوما آخرين.

إننا لم نورد قصة هذا المجاهد الروحية ولم نستشهد عليها ببعض ما جاء في كتب السير إلا لكي ندلل على أن بعض المجاهدين كانوا لا يرون الدنيا إلا من خلال عالم الروح وما يقذفه هذا العالم في نفوسهم من فيوضات ربانية يسبغها الله على الخاصة من عباده المؤمنين وبخاصة المجاهدين منهم.

وحدثني أيضا قال: وقعت خصومة عائلية بين أخوين رفض أحدهما أن يعيد ابنته إلى زوجها (الذي هو ابن أخيه) فشكا الأب الأمر إلى المجاهد / «خوجة بلعيد» ولكن هذا الأخير رفض الشكوى قائلا للأب: «إن ابنك ليس في حاجة إلى زوجة، إنه في حاجة إلى بندقية يدافع بها عن الجزائر». ولما أصر الأب على رأيه بوجوب عودة الزوجة إلى زوجها قال له المجاهد: إنني متزوج بامرأتين من أجمل نساء «أولاد رشاش» فهل أعطيك إليهما علامة تذهب بها إليهما فتختار أيهما شئت وأنا زعيم بأن أنزل لك عنها لابنك؟

كما أذكر أن الأستاذ المجاهد / «الطاهر بن عائشة» (1) كان قد حدثني حديثا إن كنت قد اطمأننت إلى صحة وقوعه فإنني لم أكن لأطمئن إلى ما سيحكم به القارىء إن له أو عليه. لذلك ظل هذا الحديث يشغل بالي مدة طويلة. وكنت كلما لقيته سألته من جديد عن حقيقة هذا الحديث وما أسر به إلي فيؤكده ويثبته. وقد تكرر ذلك مني مرات كثيرة فراح في كل مرة يحلل ويعلل ويستشهد على صحة حديثه بأن المجاهدين الصادقين يسمون فوق المادة فيضعون لأنفسهم عالما هم به خليقون وفي محيطه السرمدي يعيشون، إنهم يكتسبون من عالم النفحات الربانية طبيعة تختلف عن الطبيعة العادية. أليست معنوياتهم

---

(1) هو المناضل والمثقف المعروف، صاحب التحقيقات الكبرى للتلفزيون الوطني.

فوق الموت وأكثر ثباتا من الظواهر الطبيعية ؟ إنهم بالتالي يخلقون لأنفسهم تلك جوا ملكوتيا يحيطونه بهالة كبيرة من التجلي والاشراق.

وعندما قررت أن أنقل حديثه إلى القارىء أجريت معه آخر اتصال لأتثبت صدق المقال فعاتبني عتاب الصديق الأريب ولامني لوم الأديب اللبيب وهو يقول : حقا إن نفحات هذا العالم قدسية لا يصدقها إلا من عاش عدالة القضية وعرف جوانبها الروحية وسبر أغوارها الخفية واستطرد يقول : كنت قبل اندلاع الثورة مدمنا على الصهباء مولعا بالشقراء لا يطيب لي ذلك إلا إذا أنفثت الدخان على رؤوس الأصحاب والخلان. وعندما انضممت إلى الجهاد انغمست في دنيا الحياة العلوية ؛ لقد دأبت نفسي في عالم الثورة إذ أصبحت أنا الثورة لا أعيش إلا للمبادىء ولا أحيا إلا من أجل الحفاظ عليها والذياد عن حياضها. في هذا الجو المفعم بالايمان بالثورة نسيت متاعي في الحياة الدنيا وزادي الكبير منها. نعم نسيت الآفات الاجتماعية التي كانت تنخر عظامي، وتحطم كياني لكنه كان نسيانا إلى حين فعندما بدأ فجر الاستقلال يظلنا عاودتني تلك الآفات التي كنت تخلصت منها بفعل حياة الروح. وعندما عدت سيرتي الأولى كانت تلك الأوضاع تلاحقني ؛ على أني متيقن أنها ستبقى تلازمني إلى أن أفارق هذه الحياة. ذلك أن الثورة لا يصنعها إلا جيل واحد وأنا واحد من هذا الجيل.

ولما سألته عن السر في ذلك أجابني يقول : إن للمجاهدين المؤمنين طبيعة فوق الظواهر الطبيعية إذ تتلاشى طاقتهم المادية ولا يبقى لهم منها إلا ما يحفظون به استمرار الحياة في أجسامهم وبقاءهم على الأرض. أما ماعدا ذلك فإن لهم عالمهم الروحي الخاص حيث تتكشف لهم الكرامات الربانية وتتجلى لهم النفحات الملكوتية التي تطهرهم من القيود الآسرة وتخلصهم من الشرور الآثمة.

صور من الحياة الروحية في الثورة الجـزائرية *
(3)

لقد شكلت قضية بعض «الظواهر الغريبة» في الثورة الجزائرية أحد الاهتمامات التي شغلت فكري وحيرت أمري، فتتبعت بعضها من خلال رجوعي بالذاكرة إلى الماضي أستلهم منه، ومن خلال إلقاء الأسئلة على كل من أتوسم فيه الجواب المقنع عن ذلك من المجاهدين الأحياء فتبين لي أن لكل دعوة خالدة في التاريخ مراكز إشعاعاتها الأولى وانطلاقاتها المبكرة، وهذه المراكز إن اتحدت في ذاتها، وتشابهت في حقيقتها فإنها تختلف في نوع ما يحصل فيها من دعوات وجوهر ما يلوح منها من هذه الارهاصات الأولى التي تتنزل من السماء أو يكون الانسان الملهم مصدر انطلاقها والمبشر بمبادئها والمنظر لمثلها العليا والعامل الأول على تحقيقها لبني جنسه.

وقد كان للكهوف والغيران ذكر شائع في تاريخ الأديان قديما فالقرآن الكريم يؤكد أن هذه الكهوف كان المؤمنون يلجأون إليها هروبا بدينهم قال تعالى: «أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا» وقال: «إذا أوى الفتية الى الكهف» (1).

هذا عن الكهف في أيام انتشار الدعوة النصرانية. أما عنه في أثناء الدعوة الاسلامية فقد كان رسول الله ﷺ يتعبد في غار حراء قبل أن يبعث وفي هذا الغار نزل عليه الوحي أول ما نزل كما هو معروف. هذا عن حقيقة الكهف في العهد النصراني القديم كملاذ ديني وعن غار حراء كملجأ للتعبد والتحنث قبل بعثة رسول الله ﷺ.

---

(1) سورة الكهف، الآيتان 9 و10 على التوالي.

فماذا عن الكهف أو الغار كنقطة تحددت فيها معالم ثورية خاصة، وسجلت فيها وقائع ذات أبعاد لايمكن ربطها إلا بعالم الروح ولا وصلها إلا بالكشوفات الربانية التي ينـدر ظهورها إلا في أكثر الأوقات شدة ؟ ترى ماهي الحقيقة الكامنة فيما ذهبنا إليه من رأي وادعيناه من قول ؟ هل هو مجرد ادعاء لا يستند إلى دليل ولا ينهض على حجة ؟ أم هو الواقع الذي يرتبط بما ذكرناه ويتصل بما اعتمدنا عليه في هذه الدراسة التي لم نضعها لاهين ولا عابثين.

فقد حدثني الأستاذ المجاهد / «محمد الصالح بوسلامة» في 1989/03/11 م في هذا المعنى، قال: أوى خمسة من المجاهدين إلى كهف في جبل «تانقوت» (بلدية السبت، نواحي عزابة في شهر جوان 1957 م) ولما علم العدو بذلك فقد ركز قذائف مدفعية على ذلك الكهف تدكه دكا على أهله إلى أن انهارت أتربته وسقطت حجارته فانغلق بابه بسبب ذلك الانهيار والسقوط على أولئك المجاهدين الذين كانوا بداخله. وقد مكث أصحاب الكهف هؤلاء في غارهم سبعة أيام بلياليها كادوا يهلكون خلالها من شدة الجوع والعطش، ولكن الله سبحانه وتعالى أكرمهم بأن فجرلهم من الكهف ينبوعا فشربوا وغسلوا وكان لهم ذلك عون على ماهم فيه من محنة عصيبة وأمر شديد.

وبعد أن أزاحوا التراب والحجارة عن باب الكهف وتمكنوا من الخروج فإنهم تحدثوا إلى بعض أصحابهم بما كان من أمر انبجاس الماء لهم في الكهف فلم يصدقهم أحد فيما ذهبوا إليه من قول فتعاهد الجميع على أن يذهبوا إلى عين المكان لمعاينة الحقيقة، ولكنهم لم يجدوا أثرا للماء فقد نضب معينه وأصبح غورا فلم يستطيعوا له طلبا وصدق الله العظيم حين قال في هذا المعنى: «قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين» (1) وقال أيضا: (فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا) (2)

كما حدثني الأستاذ المذكور في الموضوع ذاته قال: (في عام 1957 أطلع أحد الخونة رجال العدو على كهف فيه أسلحة كثيرة، وذخائر حربية ومعدات وتموين وأشياء أخرى كثيرة مما يحتاج إليه المجاهدون في حياتهم اليومية.

---

(1) سورة الملك، الآية 30

(2) سورة الكهف، الآية 41

كان ذلك الكهف في جبل «السراق» (بالقرب من «عين طاية» «برج الساباط» بولاية قالمة)، وكان المجاهدون كثيرا ما يترددون إلى هذا الكهف حيث اتخذوا منه مركزا من مراكز الثورة في تلك النواحي. وقد أعد العدو عدته للهجوم على هذا الكهف، فكانت المدفعية تصب عليه قنابلها من بعيد، والمشاة يتقدمون إليه تحت غطائها المكثف يريدون أن يصلوا إليه؛ ولكن ثعبانا هائلا انتصب واقفا أمام باب الكهف يمنع أي واحد من رجال العدو أن يقترب منه. وقد ظل هذا الثعبان كذلك إلى أن يئس رجال العدو من الوصول إلى الكهف فرجعوا خائبين.وما كان منهم بعد ذلك إلا أن استدعوا ذلك الخائن الذي وشي لهم بأمر الكهف فاتهموه بأنه يسخر منهم ويهزأ بهم وفي الأخير فإنهم قتلوه بحجة أن الكهف لو كان يتردد إليه المجاهدون حقا لما اتخذ منه ذلك الثعبان ملجأ يأوي إليه.

إن مما لاشك فيه أن معظم الكهوف والغيران التي أوى إليها بعض المجاهدين في أوقات محنتهم العصيبة بصفة خاصة قد شهدت كرامات ربانية كاد النسيان يأتي عليها إذ لم يذكرها أصحابها ولم يدونوها. على أننا لم نورد المثالين اللذين سبق ذكرهما إلا لكي ندلل بهما على أن الكهوف والغيران في الثورة الجزائرية قد كان لها هي الأخرى مشاهد خالدة ومواقف تاريخية أبدية كتلك المشاهد والمواقف التي بدأنا بها حديثنا هذا عن قصة أصحاب الكهف وعن غار حراء وما كان لهذين الغارين من أثر حاسم في تاريخ الدعوة الاسلامية في عهد رسول الله ﷺ على وجه الخصوص.

إن هذه الوشيجة الروحية التي تربط حاضر الجزائر بماضيها لهي جديرة بالدراسة والتحليل والوقوف منها موقف التأمل والتمعن، وفي الأخير فإننا لم نسق هذا الحديث إلا لغرض واحد هو جلب انتباه الناس إلى وجوب العناية بهذا الجانب الروحي في الثورة الجزائرية الذي ظل مهملا والذي لن يكتمل تاريخ الثورة العام إلا بالتركيز عليه وجعله نقطة انطلاق أساسية في كتابة التاريخ العام للثورة الجزائرية.

صـور من الحياة الروحية في الثورة الجزائريـة
(4)

الفرد الجزائري أخص ما يتميز به ثقوب في الذهن، وتوقد في الذكاء؛ وقد تجلت هذه الحقيقة أكثر ما تجلت في أثناء الثورة التحريرية حيث تم تلاقي هذه الجموع الغفيرة للشعب من أجل مصلحته العليا وكان هذا التعارف من قرب مما لم يشهده الشعب خلال تاريخه الطويل كل ذلك كان بفضل هذه الثورة لأنها كانت ثورة شعبية بحق. فقد بات من الحقائق المقررة في تاريخ تلك الثورة أن الشعب لم ينتصر فيها على الأعداء إلا بفضل هذا التلاقي وهذا التعارف وما نتج من هذين العاملين من تضافر الجهود. وتكاثف الطاقات ومواجهة عامة لدحر العدو وصده على أعقابه.

إن الحقائق التاريخية تتفاوت في حظها من الخلود في سجل التاريخ فإذا قيض لبعضها أن يعمر طويلا ولبعضها الآخر أن لا يكون كذلك. فإن هذا راجع إلى أن هذه الحقيقة التاريخية دونت تدوينا خلدها في التاريخ وأن الأخرى أقبرت بإقبار صاحبها ودفنت بدفنه ـ وما أكثر ما يدفن التاريخ في بلادنا ـ فلم تدون في الكتب ولم تسجل في الصحف.

والحقائق التاريخية تنقسم إلى أعمال وأقوال فكما أن العمل يعبر عن الانجاز العضلي للمجهود الفكري أو العلمي أو الأدبي أو الحضاري فإن القول يعبر هو الآخر عما يؤمن به الانسان من مبادىء وأفكار.

من هنا جاءت الأهمية القصوى لتدوين الكلمة وكتابة القول وما يتركه هذا الجـانب من أثر في النفوس ذلك أن الكلمة تستشف وتستلهم من المقومات الأساسية لمعرفة حقيقة الشخص وتقويم مدى عمق تفكيره والتعرف إلى مستواه

العلمي والثقافي وتكوينه السياسي ووعيه بقضايا الانسانية المعذبة والمشكلات المعضلات التي تعانيها وتكابدها هذه الانسانية. وإذا أردنا أن نلتمس شيئا من هذه الحقيقة في الثورة الجزائرية بهدف تدوينها للأجيال القادمة لكي تتعرف إلى أحوال جيل ثورة نوفمبر من خلال أقوال رجالاته وكلمات أبطاله الخالدة فإننا نجد هذه الشهادات في مثل هذا الذي قاله الشهيد «ديدوش مراد» (1) عام 1955 م «يجب علينا أن نجاهد ثماني سنوات تكرس السنوات الأربع الأولى منها لمحو فكرة «الجزائر الفرنسية». أما السنوات الأربع الأخرى فهي التي سنحقق فيها الاستقلال بحول الله».

لقد تمخضت نبوءة هذا المجاهد فجرت مجرى الواقع إذا اعترف «ديغول» (رئيس فرنسا) بـ «الجزائر الجزائرية» في السنوات الأربع الأولى من الثورة أي في عام 1958 م، وأرغم على الاعتراف في السنوات الأربع الأخرى باستقلال الجزائر عن السيادة الفرنسية وذلك في عام 1962 م.

إن تصور ديدوش الصحيح للأشياء وتخمينه الصادق فيها يدل دلالة واضحة على ما كان يتمتع به هذا الرجل من بعد في النظر لا يداني واستلهام لحقائق الأشياء واستكناه لجوهر الواقع المعيش لا يرقى إلى معرفة كنهه إلا من كان في مستوى أبناء الجزائر ثقوبا في الذهن وتوقدا في الذكاء وذلك بالقياس إلى تصميم الشعب وعقده العزم على وجوب استرجاع سيادته الوطنية، وبالنظر كذلك إلى الأوضاع الدولية التي كانت رياحها آنداك تهب هبيبا بدأ يخلخل كيان الاستعمار ويطوح بعرشه المتهالك المتداعى. وكلما تذكرت هذه المقولة الصادقة قلت في نفسي: لقد صدق رسول الله ﷺ عندما قال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله (2)». حقا لقد نظر ديدوش إلى القضية الوطنية التي آمن بها نظرة إخلاص شديد فصدق الله قوله وأفاء عليه من فيوضاته اللدنية ما انتقش به كلامه في سجل الخالدين.

كما أذكر أني لقيت المجاهد الرائد/ صالح بن علي اسماعلي (3) يوم

(1) هو من مدينة الجزائر، واحد من الاثنين والعشرين التاريخيين وقائد الولاية الثانية حيث استشهد عام 1955 م.

(2) رواه الترمذي في جامعه

(3) أصله من الشريعة (تبسة) كان قائد الولاية الأولى سابقا.

1989/6/20 م بنزل «السفير» حيث صرح لي بهذه الحقيقة التي ستبقى تقلقني وتظل تؤرقني فلا أشعر بالراحة إلا إذا بحت بها إلى القارىء فقد قال لي فيما قال : «كنت أحاور المجاهد / مسعود بنعيسى (1) في مدينة «تالة» بالقطر التونسي عام 1957 م في موضوع الخلاف الذي نشب آنذاك بشأن أولوية العمل السياسي على العمل العسكري المتمخض عن مؤتمر الصومام عام 1956 م أو ما عرف بالخلاف بين جبهة التحرير وجيش التحرير الوطني، وما أدى إليه ذلك النزاع من مقاتلات هامشية وصراعات دموية كادت تستهدف ضرب الوحدة الثورية آنئذ». قال : «فرد علي مسعود بنعيسى يقول : «يلعن الله الجبهات كلها حاشا جبهتي أنا. إن جبهة التحرير الوطني انضوى تحت لوائها كل ذي ميول سياسية مناوئة. وادعى حبها كل من له أهداف معادية لأهدافها، وإني أؤكد لك أن هؤلاء وأولئك جميعا سينفلتون من الجبهة كما تنفلت الطيور تذكر أوكارها فتعود إليها».

هل ذكرت الطيور أوكارها فعادت إليها ؟ ذلك ما نترك أمره للقارىء يحكم له أو عليه خاصة إذا أضفنا إلى علمه أن قائل هذه الكلمة منذ اثنتين وثلاثين عاما كان رجلا أميا لكنه كان مؤمنا بالله مخلصا في إيمانه فكان ينظر إلى الأشياء نظرة المؤمن الصادق الذي لا يكذبه الله.

كما حدثني الراوي نفسه قال : «وعندما شق مسعود بنعيسى عصا الطاعة على جبهة التحرير الوطني قلت له ذات يوم في مدينة «تالة» عام 1957 م : «يا مسعود ! ألا تخاف الله في هؤلاء المجاهدين الذين فضلوا أن ينضوا تحت لوائك على أن يكونوا مع النظام» ؟ قال : «فدهش الرجل وسألني متعجبا : «كيف أخاف فيهم الله وأنا أحسن إليهم؟ إني أعاملهم كما أعامل أبنائي، بل إني في أحيان كثيرة أفضلهم على نفسي يأكلون ولا آكل ويستريحون ولا أستريح، يلبسون ولا ألبس، إني أشعر بمسؤوليتي الجسيمة نحوهم» قال : فقلت له : «أنت لا تطعم جنودك هؤلاء إلا الخبز اليابس وقليلا من البصل والتمر وتدعى أنك تحسن إليهم فأي إحسان هذا يا رجل؟ إن هؤلاء الجنود يحاسبونك أمام

---

(1) كان من الذين شقوا عصا الطاعة على الثورة في الولاية الأولى سابقا ولكنه كان يقاتل العدو إذا حاصر هذا الأخير فرقة من المجاهدين.

الله ويخاصمونك على أنك قصرت في إطعامهم» قال : «فسكت مسعود قليلا وأطـرق إلى الأرض كمن يفكر في أمر ذي بال ثم رفع رأسه إلي وقال بحدة وبصوت عال : «يا صالح ! إن شخصا مثلي ومثلك، وجنودا مثل هؤلاء الذين تدافع عنهم يجب علينا جميعا أن نقتر على أنفسنا وأن ننفق عليها كارهين، إن علينا أن نأكل الخبز اليابس والبصل والتمر لكي نوفر الفلوس لمسؤولين سيأتون من بعدنا إذا لم يجد الواحد منهم مائة مليون سنتيم يتصرف فيها بحرية فإنه يبيع الجزائر. أما نحن فإننا لن نبيع الجزائر ولو اقتصرت حياتنا على أقل من الخبز اليابس والبصل والتمر».

صـور من الحياة الروحية في الثورة الجزائريـة *
(5)

لقـد كان مما أكـرم الله ـ سبحانه وتعالى ـ به عباده المجاهدين في الثورة الجزائرية أنهم تجاوزوا واقع المادة ليصنعوا بذلك واقعا آخر لأنفسهم هو من صنع إيمانهم بالكبير بالله وصلابة معتقدهم الديني والوطني على السواء، ذلك أن المجاهدين الحقيقيين يتجردون من حيوانيتهم حتى لا يكاد يبقى لهم منها شيء إلا ما يحفظون به استمرار الحياة الطبيعية في أجسامهم فترتاض نفوسهم على ترك الشهـوات وتتعلق بباريها. من ذلك ما حدثني به الأستاذ الشيخ / محمد الشبوكي (1) يوم 13/05/1989 في منزله بالشريعة حيث قال لي يصف بعض الأجـواء الروحية التي كانت تهز مشاعره وتملأ عليه جوانحه في الأيام الأولى للثورة التحريرية عندما قال : ذات يوم من أيام صائفة عام 1955 م وقع اشتباك في جبل «القعقاع» بالشريعة كان ممن استشهد فيه : المجاهدان : أحمد بن ساعي فرحي وشهيد آخر (2) .

وقـد منعت السلطة الفـرنسية الأهالي من أن يقتربوا من جثتي الشهيدين ليدفنوهما، بل إنها نقلت تينك الجثتين من ميدان المعركة وسجتهما على قارعة الطريق الرابط بين الشريعة وتبسة ليراهما الناس؛ وهي إنما كانت تستهدف من ذلك الضغط النفساني على أولئك الأهالي المدنيين لكي يمتنعوا عن تأييدهم للمجـاهدين ولكي لا يلقوا مثل ما لقي هذان الشهيدان اللذان مضى على

---

* *نشرت في جريدة (الشعب) عدد 8088، سنة 1989 م*

(1) هو شاعر الثورة وصاحب النشيد المعروف (جزائرنا).

(2) هما من شهداء الشريعة المعروفين.

استشهادهما أربعة أيام وهما على تلك الحال من التسجية. واستطرد الشيخ يقول : وقد أردت أن أرى ذينك الشهيدين رأي العين وأقف أمام جثتيهما وقوف المتمعن. فطلبت من بعض من كانت له سيارة من نوع «بريري» في هذا الوقت أن يصحبني في هذه الرحلة الروحية على متن سيارته تلك. لكنه اعترض علي قائلا : هل نجازف بحياتنا ؟ إنها مخاطرة بالنفس لا يمكن الاقدام عليها. فقلت له : إن الشهيدين مسجيان على حافة الطريق العمومية فلنتظاهر بأننا ذاهبان إلى تبسة وعندما نحاذيهما فإننا نتأملهما عن بعد دون أن ننزل من السيارة. قال : فاقتنع صاحبي بالفكرة وإن شئت فقل : إنه نزل عند رغبتي تطييبا لخاطري. فانطلقنا إلى هدفنا نطوي المسافات. وما إن وصلنا إليهما حتى طلبت من مرافقي أن يوقف السيارة فامتثل للأمر. عندئذ نزلت منها وذهبت إليهما ونزعت الغطاء عن كل منهما لا أكاد أشعر بشيء من حولي حتى أنني نسيت رجال العدو أنفسهم وما سنتعرض له من نقمتهم إن هم رأونا على تلك الحال ولكنني كنت أمام مشهد روحي كبير أستلهم منه الشعور بالحياة وأستشف منه معاني التضحية بالنفس في أجمل وأروع صورها ؟

كان الشهيدان باسمي الثغر وضاحي الوجه متوردي الخدين تعبق منهما رائحة كرائحة الياسمين.

وقد أثر في نفسي هذا الموقف فأثار كوامنها منظر هذين الشهيدين المسجين تحت لفح الشمس وشدة حرارتها. عندئذ تجمعت في ذهني روافد هذه الصورة الانسانية الرائعة التي تركها لنا رسول الله ﷺ عندما مر بأسرى قريش في غزوة حنين وهم مكبلون بالأغلال فقال ﷺ لبعض من كان معه : لا تجمعوا عليهم حرين : حر الشمس وحر السلاح وأمر بفك القيد عنهم.

تذكرت هذا الموقف وقارنته بحالة ذينك الشهيدين المسجين تحت حر الشمس منذ أربعة أيام فبقدر ما أكبرت في رسول الله ﷺ إنسانيته بقدر ما استصغرت وحشية أولئك الأوغاد الذين ينتقمون من الأموات أكثر مما ينتقمون من الأحياء.

قال الشيخ : عند هذا أيقنت أن أرض الجزائر تطامنت للمس أقدام المجاهدين وأن هواء هذه الأرض خفقت بتضاعيفه أجنحة الملائكة تبارك هؤلاء

المجـاهدين الذين لا تخفق أفئدتهم وقلوبهم إلا بحب الله والوطن. وواصل الشيخ حديثـه فقـال: كما أنني عرفت في تلك اللحظة أن لبعض الأموات سلطانا على نفوس الأحياء يجذبهم إليه فينجذبون ويؤثر في حواسهم فيتأثرون يستلهمون منه الحقائق فيلهمهم، ويستشفون منه المعاني فتفيض بها جوانحهم وتمتلىء بها عبراتهم فتفيض من الدمع.

كذلك كان حال الشيخ وهو يتأمل ذلك المشهد الخالد الذي عمق إيمانه بأن أرواح الشهداء لا تجول مداركهم في الكدرات.

وقد شمل نفس الشيخ في تلك الأثناء هذا الهدوء الحالم الذي تخلد إليه كل نفس إذا تراءت لها طلائع عالم الروح وتجلت لها الأطياف التي تحلق بالنفس في دنيا المكاشفات الخاصة.

قال الشيخ: وغمست ريشتي في عالم ذينـك الشهيدين فرسمت لي هذه اللوحة التي تفيض إشعاعا وإيحاء تغلغل في أعماق نفسي فحفر فيها خطوطا يجمع بينها هذا الخيط الذهني الذي ولد فيها الاشعاع الروحي الذي أنساني كل شيىء من حولي إلا هذا الموقف المتملي الهادى الساحر.

وما كاد الشيخ ينتهي من حديثه حتى كانت الدموع تترقرق في عينيه، لكنه استعصى عليها فكان قويا في استعصائه عليها شديدا في ردها إلى مآقيها. أثر في نفسي منظر الشيخ وهو يغالب دموعه فطأطأت رأسي أنظر إلى الأرض لكي أمنحه هذه اللحظة التي يجمع فيها قواه ويستعيد فيها حضوره الذهني والمادي على السواء.

صـور من الحياة الروحية في الثورة الجزائريـة (6)

تعد الذكريات الروحية من أشد الأحوال ملازمة للنفس ومن أكثرها تشبثا بالعقل فلا نستطيع لها نسيانا مهما تقادم عهدها وطال أمدها فهي لا تفتأ تحفر خطوطا عميقة في صدورنا لا يمحيها الدهر ولا تزيلها الأيام.

وما حدثني به الأستاذ الشيخ / محمد الشبوكي صورة حية تعبر عن هذا المعنى قال لي ذات يوم يصف شيئا من ذلك والتأثر باد على وجهه والألم الممض يقطع نياط قلبه : كان ذلك في معتقل، الجرف (1) عام 1956 م حيث كنا نعيش في ظل نظام قمعي يحرم علينا ممارسة أبسط مبادىء الانسانية ويمنعنا من القيام بشعائرنا الدينية على وجهها الصحيح.

وكان أن حل عيد الفطر المبارك من ذلك العام فقررنا أن نؤدي صلاة هذا اليوم في جماعة إلا أن تنظيم مثل ذلك التجمع العام كان مما لا يسمح به النظام الداخلي للمعتقل ويمنعه بقوة، لكننا عقدنا العزم على مخالفة هذا النظام وتحديه مهما عرضنا ذلك لعقوبات أشد قساوة وأكثر إمعانا في التنكيل.

وأخيرا تجمعنا كلنا في ساحة كبيرة وكنا سبعمائة مصل وانتظمنا في صفوف متراصة لأداء الصلاة وكان علي أن أؤم هذه الجموع من المصلين، إلا أنني ما كدت أكبر في الركعة الأولى حتى أظلتنا دورية عسكرية يتقدمها كلبان مروضان يقف أفرادها المسلحون أمام تلك القوة البشرية الحاشدة من المصلين يأمروننا بوجوب قطع الصلاة ووجوب التفرق بسرعة، ولكننا لم نكترث بهم فلم نقطع صلاتنـا ولم نتفـرق. كان نباح الكلبين وفرقعة البندقيات يملآن علينا الدنيا

---

(1) بنواحي ولاية المسيلة.

صخبا إلا أن ذبذبة تلك الأصوات المعربدة كانت تتلاشى صاغرة أمام الآيات البينات التي كنت أتلوها تلاوة المتمعن في معانيها والتي اخترتها عن عمد لهذا الموقف الروحي العصيب أستلهم منه الصبر والثبات وأستشف منه معاني السمو والارتفاع بالنفس إلى عالم الملكوت والنفحات القدسية. نعم كنت أذوب في جلال تلك الآيات وأعيش في دنياها لا أكاد أشعر بشيء من ذلك الجو المعربد من حولي.

وقد ظلت «الله أكبر» أرددها في كل مرة هذا الخيط الناري المتوقد إيمانا؛ الذي يتجدد مع كل ترديد، ويسري في قلوب أولئك المصلين وينتقش في نفوسهم المؤمنة فيرن صوته في أعماقهم رنينا تتساوق نغماته، وتتناسق ترانيمه فيلهمهم الثبات، ويوحي إليهم الايمان بالموقف أمام أولئك العساكر المدججين الملتهبين.

وكان قبس هذه الاشعاعات الروحية قد نحت في نفوسنا مشهدا خالدا لهذه الصورة الحية للصبر والثبات. كما أن الأصباغ التي تلون ذلك الموقف الكبير قد تشكلت من معان كثيرة كان من أهم ما استحضرته منها في تلك اللحظة الحرجة فشد أزري وقوى من أمري ما كانت قريش تقوم به من صنع قبيح مع رسول الله ﷺ وهو ساجد في الصلاة.من ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود من رواية البخاري قال: «كنا مع رسول الله في المسجد وهو يصلي فقال أبو جهل: ألا رجل يقوم إلى فرث جزور بني فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد؟ فقام عقبة ابن أبي معيط بن عمرو بن أمية بن عبد شمس وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبي ﷺ وهو ساجد فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوهم، ولم يزل عليه السلام ساجدا حتى جاءت فاطمة بنته فأخذت القذر ورمته، فلما قام دعا على من صنع هذا الصنع القبيح فقال: اللهم عليك بالملا من قريش وسمى أقواما. قال ابن مسعود فرأيتهم قتلوا يوم بدر».

قال الشيخ وهو يصف ذلك المنظر المخزي لأولئك الأقوام: كان منظرهم يوحي بمعاني الذلة والانكسار عندما وقفوا حيارى مشدوهين لا يدرون ماذا يفعلون وأيدينا مرفوعة إلى السماء نتضرع بها إلى الله العلي القدير أن يثبت

أقـدامنـا، ويطمئن قلوبنـا أمـام جنـون هؤلاء الذين فقدوا ثقتهم بأنفسهم وبـأسلحتهم النـارية فراحـوا يخوفوننا بالكلاب ويهددوننا بانقضاضها علينا. ولكن القوم قدفاتهم أن القوة الحقيقية إنما تكمن في النفوس المؤمنة والقلوب التي دخل فيها الايمان فدغدغها وسما بها إلى عالم المكاشفات الخاصة حيث تستلهم منه الخير، وتستكنه منه النور ذلك النور الذي ينبجس من الحقيقة الكبيرة تلك الحقيقـة التي وجـدنـاهـا في هذه البيئة الروحية التي كوناها لأنفسنا على بينة وأوجـدنـاهـا على بصـيرة فكانت لنا خير الزاد وأكبر العون في محنتنا القاسية الشـديدة وموقفنا ذلك العصيب ونحن نواجه أكبر قوة مادية دفاعا عن الحق وذودا عن المقدسات الدينية والوطنية.

وما كاد الشيخ ينتهي من حديثه حتى تسللت يده إلى مجموعة من الأوراق كما يتسلل المقاتل الحذر فأخذ منها صورة قديمة تآكلت جوانبها تآكلا خفيفا وقدمها إلي وقال : أنظر؛ هذه صورة تذكارية لذلك المشهد الخالد كان أحد المصلين قد التقطها لنا. حدقت مليا في الصورة كما حدق فيها الشيخ وهو يتأوه على تلك الأيام الخوالي. عندئذ تجمعت الدموع في عينيه تريد أن تتدفق على خديه لتزيد في تعميق الذكرى لكنه غالبها فكان قويا عليها.

صـور من الحياة الروحية في الثورة الجزائريـة
(7)

بين دك قنـابـل مدفعية العدو ودمدمتها الغاضبة وبين صوت «الله أكبر» ينطلق منسابا من حنجرة (1) «كمال» خيط ناري متوهج لا يزال يرسل شواظا من ناره؛ يتلظى في قلب الأستاذ الشيخ / محمد الشبوكي.

قال الأستاذ الشيخ : كان ذلك عندما يقوم كمال على إحدى هذه الربى القريبة من المعتقل (2) حيث يعلن للمؤمنين الصائمين أذان المغرب. كان مؤذننا طيلة شهر رمضان من عام 1957 م.

كان صوته الجهوري الرخيم وهو ينساب في هذه الآفاق البعيدة يهزنا إلى عالم الـروح، ويسبـح بنـا في دنيا النفحات الربانية والمكاشفات الملكوتية التي لا يسبغهـا الله إلا على الخاصة من عباده المؤمنين فلا نستعيد وعينا بأنفسنا في أحيان كثيرة في خضم هذا الجو الروحي إلا على هذا التفجير الشديد والدك المهول لقنابل مدفعية الميدان التي يطلقها العدو مدمرة ساحقة ماحقة من الحدود المغـربية، لكني كنت أشعـر بها تذوب وتذوي - بين ترانيم صوت الله أكبر وتتلاشى فيه.

كانت تلك الدمدمات القوية الشديدة تتناغم وتتساوق مع نداءات كمال المتكررة فأتمثلها تتموج تموجا خافتا وأتخيل دويها صوتا باهتا يضمحل ويتحلل منهزما أمام صوت مؤذننا الذي لاتعلو عليه تلك الأصوات مهما كانت قوية ومهما كانت مؤذنة بالخطر ومنفردة بالشر.

---

(1) الحنجرة : ينطق بها مفتوحة الحاء والجيم، لا مضمومتها. كما يقال : الحنجور بضم الحاء والجيم (الكاتب).

(2) هو معتقل بوسوى على الحدود المغربية الجزائرية.

كان صوت كمال يشـدني إلى مخارج حروفـه فأصغى إليه باسـترواح نفس وطمأنة بال وراحة ضمير متفاعلا مع هذا الجو الروحاني الذي يحدثه بيننا في تلك اللحـظات المتميزة وبقـدر ما كنت أكـبر صوته بقدر ما كنت أستصغر أصوات قنابل مدفعية العدو. كان صوته ينساب في تلك الربى والحزون (1) ويتموج مع تلك الفجاج والوهاد والشعاب فيذوب فيه ذلك الدوى الهائل الذي تحدثـه فوهات المدفعية ومواسيرها فينصهر في دنيا العدم لا تكاد تردد الآكام أصـداءه. لقد طغى عليه صوت الله أكبر، ذلك الصوت الذي تتدفق منه أمواج الحياة متلاطمة زاخرة بالآمال طافحة بالأماني.

ترى أي قوة باطنية يضمحل في تكسرها الفاتر وتموجها الحالم ذلك الارتطام الشديد لتلك القذائف التي تقذف الرعب والهلع والفزع في النفوس فلا تحدث أي أثر في هذه النفوس المؤمنة الراضية بقدر ربها؟

كنت أجدني في كل مرة يؤذن فيها كمال أسمع إليه وهو يغنى للأفق ويشدو للجميع مبشرا بالمستقبـل الذي يحلم به هذا الجميع وينتظره الكل كما كنت أنتشي بخمرة ذلك الصوت الذي كان يملأ شغاف قلبي ويقطع نياطه.

قال الشيخ : وبعد أن نتناول طعام الافطار المتواضع كنا نجتمع في حلقة غاصة بهذه الكثرة من المصلين المعتقلين فيتقدم أحدنا لالقاء درس في الوعظ والارشاد يلقيه أساتذة أفاضل وعلماء أجلاء من أمثال : الشيخ / محمد الصالح بنعتيق، الشيخ / أحمد سحنون، المرحوم الشيخ / السعيد صالحي، الشيخ / عمر شكيري والشيخ / عبد القادر الياجوري (2) إلى غير هؤلاء من المشائخ الكثيرين الذين كنا نستفيد كثيرا من علمهم الواسع، ونستلهم منهم الصبر في المـواقف والثبـات من أجـل الـدفاع عن المبادىء التي فرغنا أنفسنا لخدمتها ووقفناها للدفاع عنها بمهجنا وأرواحنا.

---

(1) الحزون : جمع حزن بسكون الزاي : ما غلظ من الأرض وارتفع منها. (الكاتب)

(2) هؤلاء المشائخ كلهم أعضاء سابقون في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وبعـد أن ننتهي من سماع الدرس يتقدم الشيخ / «مصباح» ليؤمنا في صلاة التراويح فيهزنا بصوته العذب الرخيم إلى مهابط الوحي ويطوف بأرواحنا في مساقط التنزيل في كل ليلة من ليالي ذلك الشهر التعبدي الروحي بجوه المنعش الخاشع وعالمه المتدفق تجليا وإشراقا.

قال الشيخ : لقد سمونا بأنفسنا إلى عالم الملكوت فأضفى الله علينا من فيوضاته المباركة طاقة قدسية روحية قربتنا من عالمه العلوي وأشعت علينا قبسا يوحي بالتواصل بين عالم المادة وعالم الروح الذي نستمد منه القوة كلما أنسنا من نفـوسنا ضعفا ونشد به أزرنا ونقوى به ساعدنا دفاعا عن المبادىء والأصول وتلقينا للعدو دروسا في الميدان لن يجد لها مثيلا إلا في تلك التضحية الفذة التي تعلمها من أبناء الجزائر.

صور من الحياة الروحية في الثورة الجزائرية *
(تتمة)

الثورة الجزائرية تشكل عالما روحيا توحدت ملكاته، وتقاربت نظراته فأراد الله لها بذلك أن تكتب صفحات وضاءة وتسجل غرر الأعمال، وتحقق للشعب أعز الآمال، فكانت بنصرها المبين تشنيعا على الاستعمار الفرنسي، وقهرا له في أوج عظمته وأشد مراحل غطرسته وجبروته. من هنا يجمل بي أن أقول : إن جمع المعلومات المكثفة والصحيحة عند التعرض للحديث عن بعض تلك النواحي الروحية السامية في الثورة الجزائرية هو واجب يفرضه إقناع المتشككين قبل أن يصرحوا بذلك، وهو أيضا ضرورة علمية وعملية في الوقت ذاته للرد على الذين جعلوا من أنفسهم أعداء ألداء ومهاجمين أشداء على ماهو روحي خالص الروحانية أو وطني صادق الوطنية، فلقد أصبح من الحقائق المقررة والثابتة في الثورة الجزائرية أن ما تزخر به هذه الثورة من تلك الجوانب الروحية الفذة والأبعاد الخفية قد هيأ أسبابها في النصر وبوأها مكانتها التي يجب أن تحتلها بين ثورات العالم في القرن العشرين.

والحق أقول : إن الحديث عن هذه الأبعاد القدسية والكرامات الالهية يدعو إلى كثير جدا من التأمل والتدبر. من أجل ذلك كله فإنني أكون شديد الحذر كثير التريث عندما أكتب عن هذا الركن المهم في تاريخ الثورة الجزائرية.

أليس البعض من الناس يقفون منه موقف المتشكك في صحة وقوعه مرة أو موقف المنكر لهذا الوقوع مرة أخرى، ذلك أنهم تعودوا أن يؤمنوا بالأشياء المحسوسة ويصدقوا الأمور الملموسة خاصة في أيامنا هذه التي طغت فيها المادة

---

* نشرت في جريدة (الشعب) في حلقتين : عدد 7841 وعدد 7843، سنة 1989 م

على الـروح. إن البعض من أولـئـك الـذين يؤمنون بالقيم المعنوية أصبحوا يتحرزون اليوم في الجهر بذلك ويتحرجون من الخوض فيه لا لشيء إلا لأنهم يراعون المشاعر أكثر مما يراعون الأهمية المقررة في تلك الكرامات. ففي مقر وزارة الشؤون الدينية التقيت الشيخ (م.ك) ذات مرة فبادرته بهذا السؤال :

ياشيخنا! إني كنت سمعت منك حديثا عن إحدى الكرامات الربانية التي عشتها في أحد المعتقلات الفرنسية خلال الثورة الجزائرية فهل تتذكر ذلك؟ فأجـابني الشيخ قائـلا : أفصـح عما تقـول فإني لم أفهم من حديثك شيئا. فأجبته : أذكر أنك رويت لنا قصة في مقر الاذاعة الوطنية (القناة الأولى) عام 1979 م نسيتها في تفاصيلها! : إنني أتذكر جيدا أنك كنت قد استشهدت فيها بآية قرآنية كريمة في سورة يس هي قوله تعالى : «وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون»(1) . عندئذ تنهد الشيخ تنهيدة عميقة وقال : الآن تذكرت ما تقصد إليه، ولكني أنصح لك إن أنت أردت أن تعرف القصة على حقيقتها أن تتصل بالشيخ (حمزة بوكوشة) (2) فهو المرجع الصحيح في هذه القضية، فقلت له : لابأس أن أسمع منك فأنت ثاني اثنين عرفا السر الكامن في هذه الحقيقة وجاسا خلالها، وأقرا بأمرها واعترفا بوقوعها. فقال لي : ياسيدي، عندما كنا في معتقل (بول قازال (3)) عام 1957 م كنا مقسمين إلى مجموعات منفصلة عن بعضها البعض أقيمت على كل واحـدة منهـا حراسة بالليل وأخرى بالنهار تمنع أي واحد من أفراد هذه المجموعة أن يتصل بأي كان من مسجوني المجموعة الأخرى. وقد سمعنا ذات يوم أنا والشيخ / حمزة بوكوشة أن ثلاثة أشخاص (أخوان وابن أختهما) ممن كانوا في الجمعية المحلية التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة الأصنام قد زج بهم في إحدى تلك المجموعات بالمعتقل فعقدنا العزم أن نتصل بهم لكي نسألهم عن أخبار الثورة وسيرها خارج أسوار هذا المعتقل الكبير، إلا أننا وجدنا صعوبة كبيرة في كيفية الاتصال بهم؛ أليست الحراسة المشددة قائمة على ذلك

(1) سورة يس الآية : 9

(2) هو أحد أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سابقا.

(3) هي عين وسارة اليوم.

تحول دون وقوعه وتمنعنا من اجتياز حدود مجموعتنا إلى تراب أية مجموعة أخرى ؟ إن الامر لكذلك، وإن أية محاولة نقوم بها في هذا الشأن ستعرضنا لتسليط أشد وأقصى العقوبات علينا، ولكننا مع ذلك فاعلون وعلى الأمر مقدمون؛ فقد قررنا أن نجري ذلك الاتصال بأولئك الثلاثة الوافدين إلينا لكي نتزود منهم بأنباء الثورة ولكي تطمئن قلوبنا على صحة وسلامة هذه الثورة. وتحاورنا في الأمر وتجادلنا فأكثرنا الجدال، عندئذ طلع علي الشيخ حمزة بوكوشة بفكرته العجيبة بل برأيه الصائب فقال : أماترى أننا نمر أمام الحارس فلا يرانا ولا يمنعنا من الوصول إلى هدفنا ؟ فقلت له : وكيف الحيلة في ذلك ياشيخنا ؟ فقال : هذا الموقف عصيب بحق إلا أنه يمكننا أن نلجأ فيه إلى الاستعانة ببعض الآيات القرآنية التي وردت في كتاب الله وببعض ما صح في ذلك عن رسول الله ﷺ. فعجبت لأمر الشيخ ورجوته أن يساعدني على الخروج مما نحن فيه فأجابني الشيخ وهو واثق النفس مطمئن القلب لسهولة الأمر ويسر المشكلة قائلا : الحل يتمثل في تجربة صحيحة سنقوم بها بحول الله، فقلت له : ماهي هذه التجربة ياسيدي؟ أسرع بذلك فأنا لا أطيق عليه صبرا فقال : هي تجربة من الكتاب، وأعتقد أنك تصدقها لأنك تؤمن بذلك؛ فقلت له : أفصح عن ذلك وأبن عنه فما أشد غموضك منذ اليوم، فقال : الآن، سأبرهن لك عن صحة و صدق ما أقول. ألم يقل الله سبحانه وتعالى في سورة يس : «وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون»؟ فقلت له : نعم. فقال : «أما تعلم أن هذه الآية الكريمة قرأها رسول الله ﷺ على جماعة من المشركين فيهم أبو جهل فأخذ الله تعالى على أعينهم دونه وجعل ﷺ يذر على رؤوسهم حفنة من تراب كانت في يده فلم يبصروه، وانطلق إلى حاجته، وباتوا رصداء على بابه». أما مصدرنا على ذلك من سنة رسول الله ﷺ فقد قال عكرمة : قال أبو جهل : لئن رأيت محمدا لأفعلن ولأفعلن، فأنزلت : «إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا - إلى قوله - فهم لا يبصرون» قال : وكانوا يقولون : هذا محمد، فيقول : أين هو؟ أين هو؟ لايبصره. رواه ابن جرير.

وما إن أتم الشيخ حمزة أدلته وشواهده من الكتاب والسنة حتى بادرني يقول : «والآن علينا أن نجرب هذه الحقيقة فوافقته على ذلك، ويممنا وجهينا

شطر ذلك الحارس المنتصب في مكانه لا يجرؤ على الاقتراب منه أحد وكل واحد منا يقرأ سورة يس إلى قوله تعالى « . . . فأغشيناهم فهم لا يبصرون» وجعلنا نكرر قراءة هذه الآية الأخيرة مرات كثيرة.

قال الشيخ / م.ك : وفعلا فقد مررنا أمام ذلك العساس فلم يبصرنا ووصلنا إلى حيث إخواننا فسلمنا عليهم، وسألناهم عن أخبار الثورة فزودونا بالكثير منها فطابت نفسنا لذلك، ورجعنا على أعقابنا تحرسنا رعاية الله ولسان حالنا يردد دائما هذه الآية القرآنية الكريمة : «وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون».

وأذكر أني لقيت الشيخ مرة أخرى في مقر وزارة الشؤون الدينية فطلبت منه أن يزودني بتوضيح أكثر في الموضوع فأنا أريد إذاعته في الناس ونشره في القراء، ولكنه فاجأني قائلا : لا ! لا تنشر ذلك في الناس ولا تبثه فيهم، إن هذه كرامة ربانية، ونفحة قدسية يفهمها الخاصة من دون العامة، وتسيغها عقول المثقفين ولا تتقبلها عقول الناس جميعا، إذ ليس كل شيء مما ينشر ولا كل شيء مما يذاع، وإن بث هذه الأسرار الملكوتية مما يعرض بعض القيم الأدبية لأن يسخر الناس منها.

ولما ألححت عليه في ذلك فإنه رفضه بشدة فقلت له : إذا كان لابد من إفشاء هذا السر الذي لا أصبر على عدم إفشائه تعميما للفائدة منه فإني أعدك أن لا أذكر اسمك إلا رمزا. أما الحقيقة التاريخية التي تتوافر على عناصر الحياة فإني قررت أن أقدمها إلى الناس خدمة لتاريخ الثورة في جانب يعد من أهم جوانبها الروحية طالما أن الكتاب والدارسين أغفلوا ذكر الكثير من تلك الحقيقة.

ولكي أتحرى الأمان في النقل الشفوي، وأتوخى الصدق فيما أفاجىء به الناس - خاصة المتشككين منهم - فقد قررت أن أجري مقابلة شخصية مع الشيخ / حمزة بوكوشة الذي استقبلني في منزله حيث أكد لي ما رواه زميله الشيخ / م.ك لم يختلف عنه في شيء بل إنه أثرى الموضوع بمسائل أخرى من جنسه لا نرى فائدة في ذكرها في هذه العجالة. ذلك أن للشيخ حمزة - رغم تجاوزه الثمانين عاما بقليل - ذاكرة لا تزال أقوى من النسيان فقد تخلل حديثه تركيز

قوي على استحضـار التفاصيل، ودقة في الوصف، وجمال في العبارة. وكان حديث الشيخ عن الأيام الخوالي، وإغراقه في رسم ملكاتها الروحية الساحرة إيذانا بإنتهاء كلامه عندما ختمه وهو يتنهد قال : كان ذلك عالما سرمديا خلد فيه الانسان إلى دنيا الملكوت لا يستهدف شيئا في هذه الحياة الدنيا إلا إحياء الـدين باسـترجـاع الوطن السليب. فلقد تسلحنا في هذه الظروف الصعبة بسلاح كثير النفع، شديد التأثير على النفوس. وهل ثمة سلاح أعظم حدة، وأشد فتكا من سلاح الايمان بالله خالق كل شيء؟ إننا لم ننتصر على الاستعمار إلا لأننا قررنا أن ننتصر عليه فألهمنا الله أنجع الوسائل في ذلك وهيأ لنا من أمرنا رشدا.

رمضان في الثورة الجزائرية *

إن أقصى ما يتميز به الفرد الجزائري تعلقه الشديد بالدين وتشبثه الكبير بالايمان.

وإذا كانت وسائل القربى من الله متعددة الجوانب فإن أشد هذه الوسائل وأكثرها تقربا منه سبحانه تعالى هو الجهاد بالمال والنفس. والجهاد يعد ترويضا للنفس المؤمنة وتحميلا لها ما تكره وإخضاعها لما ينفر منه الطبع الانساني ذلك أن من خلق الانسان أن ينأى بنفسه عما يجر لها ويسبب لها مكروها. اللهم إلا إذا تأكد صحة وجوب هذا المكروه شرعا وآمن بإجزال الثواب عليه من الله. ولذلك لزم تزيين كثير من المكاره للنفس المؤمنة بإظهار الغايات السامية منها لتتقبلها هذه النفوس راضية بها مرضية وتطمئن إليها آمنة بنتائجها الطيبة وعواقبها المحمودة.

وقد عرف عن المجاهدين الجزائريين في الأيام الأولى للثورة بصفة خاصة أنهم كانوا شديدين على أنفسهم يحملونها على المكاره التي ربت فيهم حياة روحية وقوت فيهم روح مقاومة النفس من داخلها ومن خارجها على السواء فأقلعوا عن فعل كل عمل لا يقوى صلتهم بالله ولا يحسن علاقتهم به فتجردت نفوسهم عن كل ذميمة محضة وازينت بعمل كل مكرمة قائمة على القوة التي تكمن في النفس تلك القوة التي تتصدى لمقارعة عناصر الشر و مصالحة عوامل الخير، إيمانا منها بوجوب أن تلقى الله على هذا الصفاء الروحي الذي يقوم أساسا على هذا الجهاد المضاعف أعني به جهاد العدو والنهوض بأداء

---

* *بثت في التلفزة الوطنية في اليوم الثالث من شهر رمضان المعظم 1414 ه الموافق لـ 15 فيفري 1994 م*

شعيرة الصيام في آن واحد؛ فقد كان من الحقائق الدينية التاريخية التي تقررت في أثناء الثورة أن المجاهدين كانوا يلقون العدو وهم صائمون اعتقادا منهم أن ذلك أفضل الأحوال الشرعية التي يكون عليها المؤمن المجاهد بنفسه؛ فقد كان المجاهدون يفضلون الصوم على الافطار لأنهم يؤمنون بهذه الخيرية التي أشار إليها الله تعالى في كتابه الكريم : «وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون» (1) . إن قوما وطنوا أنفسهم على هذا النهج القويم في حياتهم الجهادية لجدير بهم أن يستشعروا الوقوف بين يدي الله في كل لحظة من لحظات جهادهم الروحي. من هنا سمت نفوس المجاهدين المؤمنين وهم ينهضون بركن الجهاد إلى أقصى درجات الكمال وأسمى مراتب عالم الملكوت.

وإذا كان الجهاد بالمال والنفس يمثل الدرجات العليا التي تقرب العبد المؤمن من ربه فما ظنك بهذا الجهاد إذا كان مقرونا بجهاد آخر قد يكون أكثر مشقة منه للنفس وكبحا لزمامها عن الاسامة في الشهوات والوقوع في الملذات وأعني به الصوم الذي يعد هو الآخر جهادا لهذه النفس وقهرا لها ومغالبة لنزواتها.

من هنا يتبين لنا أن الثورة الجزائرية عرفت الجهاد في أروع صوره وأكثر معانيه تقربا إلى الله فقد كان القائمون بهذا الركن والناهضون بأعبائه ممن ارتاضت نفوسهم بالاخلاص على تطهير حياتهم من الأدران وتنقيتها من الشوائب يتعرضون لأشق امتحان تبتلى به النفوس المؤمنة وأعني به النهوض بركن الجهاد مقرونا بركن الصيام.

وإذا كان الشارع الحكيم قد رخص لعموم المسلمين أن يفطروا في رمضان في بعض الحالات التي تعتريهم كالمرض والسفر وغيرهما فإن المجاهدين الذين يجابهون العدو هم أولى بهذا الترخيص مادام جهادهم يتوقف أساسا على وجوب استشعارهم بالقوة الجسمانية لكي يتسنى لهم مجابهة العدو. ولكن الكثير من المجاهدين في الثورة الجزائرية كانوا يفضلون الصيام على الافطار. اللهم إلا اذا استيقن الواحد منهم أن لا طاقة له على الجمع بين هاتين الشعيرتين اللتين يتمثل فيهما الوجود الروحاني الذي يدفعهم إلى طلب الشهادة بكل أبعادها وخصائصها العظيمة.

---

(1) سورة البقرة، الآية : 184

وإذا أردنـا أن نتـدبر هذا الكلام من منظور آخر قلنا : لقد تخلل مسيرة المجاهدين في الثورة الجزائرية انغماس في هذه الحياة الروحية التي يمكننا أن نلتمس معانيها في شقين اثنين : حياة روحية قائمة على جهاد العدو جهادا مبنيا على العقيدة الـدينية والوطنية مدة سبع سنوات ونصف وحياة روحية أخرى مؤسسـة على الجمـع بينها وبين تلك الحياة. هذه الحياة الروحية الثانية هي أداؤهم فريضة الصيام كلما أظلهم شهر رمضان خلال سنوات جهادهم للعدو.

ونظرا إلى كل ما تقدم فإن المجاهدين في الثورة الجزائرية كانوا يحيون حياة روحية مضـاعفـة مصدرها جهاد العدو والنهوض بشعيرة الصوم وبذلك فقد أخـرجتهم هذه الحياة الـروحانية المضاعفة من الأحوال البشرية الاعتيادية، والـطبـائع الانسانية البهيمية فانخلعوا من حياة المادة، وانجذبوا إلى التعلق بأهداب الروح العليا. و قد كان لهم في ذلك مآثر، وحظ لا يعرف القيد إليه سبيلا.

لقد سجل المجاهدون والمناضلون هذه المشاهد الخالدة التي تصور جهادهم المستلهم من معين تلك الحياة الأدبية السامية. على أننا لا نستطيع حصر تلك المشاهد الأدبية التي تطلع علينا كل واحدة منها بمنظر يشف عن حقيقة كامنة فيه، منظر يلقى الشعل في النفوس المؤمنة، ويلبسها زينتها النورانية، فينبلج لها الغد المشرق، ذلك الغد المخبوء في طيات حياتها التي يصطرع الحق والباطل على الظفر بها. ومن تلك النفوس النورانية الصافية العطشى يتكشف العالم العلوي بأسراره الساحرة الجميلة ومعانيه السامية النبيلة. فما أكثر ما تبدو تلك النفـوس الكبار في هذه البيئة الجهادية المخلصة في جهادها كأنها تفسير كبير لمعـاني هذه النفوس التي تجاهد العدو، وقد نهكها الجوع، ونال منها التعب فتعتريها حالة من الضعف البشري ولكنه ضعف إلى حين، إذ سرعان ما يتحول إلى طاقـة روحية تقوى بعد خور، وتشتد بعد ذلك الضعف الذي سرى في كيانها، ولكنه سريان إلى حين كما قلنا ذلك آنفا.

وبسبب هذه القوة الروحية النادرة كان المجاهدون الجزائريون أقوياء على العدو مهما كان هذا العدو قويا، فقد اجتمعت لهذا الأخير قوة الحلف الأطلسي إذ جاءته يؤازر بعضها بعضا لترهب نفوس أولئك المجاهدين بقوتها ولكنها لم

تلق منهم إلا رجالا كأنما أفرغت نفوسهم من المادة وملئت بهذه القوة الساحرة التي لا يأكل الحديد منها.

إننا نرى في جمع المجاهدين بين فضيلتي الجهاد والصيام عملا صالحا تطابق عليه الكثير منهم خاصة من أدى منهم تينك الشعيرتين وجمع بينهما ما استطاع إلى الجمع بينهما سبيلا. ذلك أن من المجاهدين من لم يتيسر له أن يجمع بين ركن الصيام وفريضة الجهاد فقد كان ذلك يختلف من مجاهد إلى آخر أو بالأحرى يختلف من حالة يكون عليها ذلك المجاهد إلى حالة أخرى ينتفى معها هذا الجمع.

هكذا كانت حياة المجاهدين في الثورة الجزائرية بصفة عامة وإذا أظلهم شهر الصيام بصفة خاصة : جهاد مقرون بالصوم، تنحل فيه معاني النفس فيتحول إلى نار مضطرمة مضطربة لا تعرف الخمود والهمود، جهاد للعدو تنهض به هذه الأجسام الغرثى (1)، والحلوق الظمأى ثابتة في جهادها هذا ثباتا قدمن جبالها الرواسى.

هكذا كانت حياة المجاهدين إذا وافاهم شهر رمضان من كل أعوام الثورة : شهداء آثروا الصيام على الافطار فلقوا ربهم وهم صائمون جائعون عطاش، فكتب لهم بذلك الثواب بغير حساب، ومجاهدون آخرون يعذبون في الله ليغلق عليهم العدو أخيرا في هذه الزنزانات حيث يواصلون صومهم لانقطاع الأسباب بينهم وبين الحياة، وبذلك يظلون هياكل عظمية تفتقر إلى الطعام وحناجر تحسب الماء في كل دورق (2) حتى إذا جاءته لم تجده شيئا. إن بينهم وبين سبل الحياة هذا التعذيب النفساني الذي يتصدون له بالصبر والثبات وترويض نفوسهم على مكاره العدو - وما أكثر مكاره العدو - كما أنهم على ما وصفت لك من هذه الروحانية، والقوة والايمان بالحياة، وهذا هو السر الذي ضمن لهم النصر على العدو.

لقد كان رمضان في الثورة الجزائرية تهجدا بالقرآن ترتله هذه الأصوات الرخيمة التي تشق سدفة (3) الليل، وتمزق حجبه الصفاق إذا تعالت مكبرة

---

(1) الغرثى بمعنى : الجائعة

(2) الدورق : ميكال للشراب وأراه فارسيا معربا (مختار الصحاح).

(3) السدفة، بضم السين وفتحها : ظلمة الليل (الكاتب).

تعلن الهجوم على العدو فمنها من يلقى الله مستبشرا بإخوانه الذين سيواصلون الجهاد من بعده، ومنها من يقع في الأسر، ومنها من يكسب النصر.

وقد كان أول صوم شرعي صادف المجاهدين الجزائريين في الثورة، وهم يؤدون فريضة الجهاد هو رمضان من عام 1955 م.

وقد أصدرت قيادة المجاهدين تعليمات إليهم تأمرهم فيها بوجوب الافطار. ولكن الكثير منهم كانوا يفضلون الصيام على الافطار اعتقادا منهم أن ذلك يزيدهم ثوابا عند الله.

وقد كان لهذا الانغماس الكلي في الحياة الروحية أثره الكبير في تربية هذه النفوس المجاهدة التي استقامت فتطامنت لها الأرض وتواضعت لها كل المفاهيم الدنيوية المادية لا لشيء إلا لأنها نفوس قرنت جهاد العدو بجهاد النفس التي تجاهـد ذلك العدو، وهذا لعمري هو أقصى درجات الابتلاء الروحي والمادي الذي لا تثبت له إلا النفوس التي تخلصت من القيود والآثام فأسبغ الله عليها فيوضاته الملكوتية وخصها بهالته القدسية.

وإذا كان يتعـذر علي أن أروي للقارىء الكثير من الصور التي تمثل هذا النوع من الجهاد المقرون بالصوم، فإني أحيله على هذا المشهد الذي جمع فيه العـدو هذه الجمـوع الغفيرة من المؤمنين المناضلين في مدينة «بسكرة» (1) في إحدى الساحات العامة بهدف تفتيشهم فكان اعتداء وإهانات بالغة تحملها القوم وهم لها كارهون وعليها وعلى أصحابها ساخطون.

وبعـد أن انتهى العدو من هذه الحملة التفتيشية المسعورة على الأهالي، سارع الكثير من هؤلاء إلى المسجد الجامع بالمدينة لأداء صلاة الجمعة.

وعندما صعد الامام على المنبر فإنه حاول أن يخفف عن نفوس المؤمنين بعض ما كانوا يعانونه على أيدي العدو فافتتح خطبته بقوله تعالى: «فإن تكونوا تالمون فإنهم يالمون كما تالمون وترجون من الله ما لا يرجون» (2).

---

(1) كان ذلك في شهر رمضان عام 1956 م. وقد روى لي ذلك الحاج / محمد الطاهر بوزاهر.

(2) سورة النساء، الآية 104

لقد عبرت هذه الآية عن هذا الموقف الذي كان المؤمنون وأعداؤهم يتعرضون فيه للآلام النفسانية على حد سواء. فإذا كان المؤمنون يتألمون لما يلقون من الظلم والهوان، والبطش والحرمان فإن أعداءهم كانوا يعانون هم الآخرون ذلك الألم النفساني ذاته وذلك بسبب ما يلقون من صبر وثبات يواجههم به أولئك المؤمنون المستضعفون لأجل ذلك فإنهم يتألمون لأنهم لم يحققوا أملهم في تركيع أفراد هذه الطائفة المؤمنة الصابرة.

وإذا كان ذلك الألم النفساني هو الجامع المشترك بين الفريقين في الحياة الدنيا فإن هناك ما لا يجمع بينهما في الآخرة وأعنى به ما يترتب على هذا التمزيق النفساني من نتائج لا يشترك فيها الفريقان عند الله. فإذا كان فريق المؤمنين يرجو من الله الثواب والنعيم على هذا العذاب والنكال الذي يبتلى به في الحياة الدنيا فإن الفريق الآخر لا يرجو من الله مثل ما يرجو المؤمنون وذلك كله توحي به الآية الكريمة : «فإن تكونوا تالمون فإنهم يالمون كما تالمون وترجون من الله ما لا يرجون».

إنني لا أريد أن أثقل على القارىء بإيراد شواهد كثيرة تدل كلها على مدى ما كان يتعرض له المجاهدون والمناضلون والمخلصون من عامة الشعب خلال رمضانات الثورة كلها من تعذيب يسلط عليهم وهم كلهم إيمان راسخ بعدالة قضيتهم الدينية والوطنية.

كم تبهرني وتسحرني هذه الوقائع التي وقعت في الثورة خلال شهر رمضان على امتداد السنوات السبع لهذه الثورة فهل أحدثك عن المجازر والمذابح، والتقتيل والتعذيب الذي صمد له عباد الله المؤمنون وهم صائمون؟ وهل أقص عليك بعض هذه الكرامات الربانية التي تجلت للمجاهدين في شهر الصيام؟ وهل أنبئك بهذه الخوارق المطبوعة بالطابع الديني الروحاني التي تدل كلها على أن أولئك المجاهدين عاشوا كثيرا من لحظات حياتهم مواقف تنسرح فيها أرواحهم من أجسامهم لتتصل بهذا النور الرباني الذي يمدها بقوته الخفية فتقوى بها على كل قوة مادية أخرى؟

كم ليلة من ليالي القدر نزلت فيها الملائكة تبارك نهاية حياة مجاهد سقط شهيدا أو تلوح بتباشير النصر لهذه الفئة أو تلك من وحدات المجاهدين الذين

أحيا بعضهم تلك الليلة يقذفون قنابل مدافعهم على العدو، وأحياها بعضهم الآخر يتلو قرآن الفجر أو يسمعه من هذه الأصوات الغردة فلا يتمثل الدنيا إلا في حلاوة وطراوة القرآن وفي دمدمة تلك الأصوات التي تنبعت مع دوي القنابل التي تدك حصون الأعداء دكا وتدمرها تدميرا.

كم من مجاهد تكشف له السر الأعظم في هذا الظلام النوراني في إحدى ليلة من ليالي القدر على طول سنوات الثورة. أو تدرون ماذا كان طلب هذا المجاهد من الله في تلك الليلة؟ إنه طلب السلام في ليلة السلام، بل إنه قال: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام وإليك يعود السلام، اللهم أعد السلام إلى أرض السلام».

والحديث عن رمضان في الثورة الجزائرية يقودنا حتما إلى الحديث عن العيدين: عيد الفطر وعيد الأضحى فقد عاد هذان العيدان على الشعب الجزائري سبع مرات متشابهة في الجرائم البشعة التي يقترفها العدو في حق الشعب. فقد كانت هذه الأعياد لا يكاد يفرق بينها إلا هذا الامتداد الزمني بما يتخلله من دماء ودموع فهي تتشابه وتتماثل، وتتساوق وتتناغم مع بيئة هذه الثورة الغارقة في جوها الكئيب الحزين فلم يكن بد لتلك النفوس الكلمى (1) أن تبتهج بالعيد لأنه لم يعد عليها بأي جديد إلا بما يحمله إليها من هذه المآسي والأحزان في أثناء تلك الفترة العصيبة. ولعل البيت الشعري المعروف لأبي الطيب إنما قاله ليعبر به عن هذا الوضع العام الذي كان الشعب الجزائري يمر به خلال الثورة:

عيد بأية حال عدت ياعيد

بما مضى أم لأمر فيك تجديد

إن ما مضى من الآلام والأحزان والشقاء والحرمان هو كل ما كان يعود على شعب الجزائر كل عام من أعوام ثورته المظفرة، ولكن إرادة الله والشعب في التغيير سرعان ما تبدل الجو العام لتلك الأعياد فيكون التجديد فيها.. إنه مولد الاستقلال الذي يتفجر على إدبار المستعمرين المنهزمين، وإقبال المجاهدين المنتصرين.

---

(1) الكلمى يعني: الجريحة.

وكـما حدثتك عن الوقائع الجهادية في أثناء شهر رمضان فإن ذلك ينطبق عليها في أيام العيد. أليس رجال كثيرون استشهدوا في يوم العيد أو زج بهم في السجن أو عذبوا في الله فكان ألمهم شديدا في هذا اليوم الذي يفرح فيه المؤمنون فرحتين، ولكن المجاهدين المؤمنين في الثورة الجزائرية لم يفرحوا بالعيد كما كانوا يفرحون بهذه الانتصارات التي يسجلونها على العدو في كل عيد من أعيادهم الدينية تلك.

لقـد مرت الأعياد بالشعب لا يقيم لها وزنا إلا من خلال ما يطبعها من الأعمال الجهادية التي تقربه من ساعة الخلاص، فلطالما مرت أعياد كان الدفاع فيها صدى لصيحات هذه الكباش التي تذبح لصغار الأبناء، ولشد ما تطايرت شظايا القنابل تحمل معها رائحة عبقة لقطع من اللحم المشوي والممزوج برائحة البارود إلى أولئك الصغار.

كل شيء في أعياد الثورة غير ما ألفه الناس في العيد أو تعودوه إلا هذا الأمل الذي يتجدد في نفوسهم بقدر ما يتبدد في نفوس العدو إذا كان كل عيد يقول المؤمنـون لبعضهم البعض : سيكـون عيدنـا في العـام المقبـل إن شاء الله عيدين : عيد الفرحة بالاستقلال، وعيد الفرحة بالصيام والافطار.

أخلاقيات المجاهدين في الثـورة الجزائرية *

إن أهم ما يتميز به المجاهد المؤمن عن غيره من المقاتلين صفتان كبيرتان متى اجتمعتا فيه بلغتا به أسمى درجات الكمال، وهيأتـا له من الأسبـاب ما يؤهلـه لمجابهة أعتى قوة والتصدي لأكثر وسائل الدمار شراسة؛ هاتان الصفتان هما: الأخلاق الاسلامية والجهاد الشرعي المؤسس على هذه الأخلاق. إن التكامل بين هاتين الصفتين هو الذي ضمن للثورة عملية التواصل الروحي.

وإذا أردنا أن نقدم تعريفا للأخلاق ننطلق منه في تصورنا العام لما كان يتحلى به المجاهدون من سمو في هذه الأخلاق وتسامق في معانيها التي أضفت عليهم هالة من الاجلال والاحترام فإننا نقول: الخلق هو الطبع الذي جبلت عليه النفس من خير أو شر يغلب على هذه النفس وهو ينقسم إلى قسمين: جبلي وكسبي. فالأخلاق الجبلية هي ما استقر في النفوس وتمكن منها فصار سجية لها وطبعا متأصلا فيها. وأما الأخلاق الكسبية فهي التي تنشأ عن إعمال الفكر وتمرنه على صفات يستحسنها من خلال التجربة والتقليد.

وقد نوه الله سبحانه وتعالى بالأخلاق الفاضلة فقال مخاطبا رسوله ﷺ: «وإنك لعلى خلق عظيم» (1)، وقال رسول الله في هذا الشأن: «إنما بعثت لأتمم مكـارم الأخـلاق» فقـد جعل (ﷺ) من مبادىء رسالته إتمام الأخلاق وتهذيب النفوس وصقلها وتربيتها، كما قال رسول الله ﷺ «حسنوا أخلاقكم»

---

* *ألقيت محاضرة في الملتقى الوطني الثاني لجمع مادة تاريخ الثورة المنعقد في باتنة في العشر الأوائل من شهر نوفمبر 1990 م*

(1) سورة القلم، الآيـة: 4.

وهذا يعني أن الانسان في تهذيب دائم للنفس وترويض لها وتوطين على فعل الخيرات وأنه مالك زمامها أو هكذا يجب عليه أن يكون.

إن الانسان يمكنه أن يكتسب أخلاقا حسنة جديدة يستطيع أن يقمع بها كثيرا مما يرين على قلبه من الرذائل.

إن للوسط الاجتماعي دورا كبيرا في تهذيب الأخلاق أو في إفسادها فكلما عرف المجتمع فترات يطغى فيها جانب الحياة الروحية الدينية والوطنية انعكس ذلك إيجابا على حياة أفراده والعكس صحيح.

من هذا يتبين لنا أن الأخلاق الفاضلة هي حجر الزاوية التي يمكن أن يجتمع عليها الناس بسبب سلامتها من الضلال والأوهام الفاسدة. والأخلاق هي مجموع ما اعتصم به الانسان من صفات، جبلية كانت أو مكتسبة بقصد إصلاح حاله وتقويم عقله ذلك أن في أصول الأخلاق وقواعدها الصحيحة تربية سليمة للنفوس تحول بينها وبين خواطر الشرور.

على أن مما تستهدفه الأخلاق الفاضلة أنها توقظ النفس وتوصي بالخير. ذلك أن المتخلقين هم أكثر الناس اعتصاما من الوقوع في الغلط والضلال وذلك بمقدار مبلغ درجتهم في التخلق والتهذيب.

وإذا كانت الأخلاق في المجتمع الجزائري قبل الثورة التحريرية مخلوطة بالأوهام والضلالات فقد هذبتها الثورة وأبدعت في ذلك، وتوخت الخلق القويم ما استطاعت إلى ذلك سبيلا فأزالت أوهاما عظيمة وحررت عقولا كثيرة من البدع والخرافات. وإذا نحن قارنا بين منزلة الأخلاق الاسلامية الثورية وبين الأخلاق العالمية الأخرى يتبين لنا الفارق الكبير في ذلك وهو أن الخلق الاسلامي الثوري أقوى منه وأشد بالقياس إلى غيره من الأخلاق الأخرى، وأكثر تغلغلا في النفوس وأعظم تمسكا بفضائلها وذلك بسبب ما تدعو إليه التعاليم الاسلامية والأحكام الشرعية من وجوب التخلق بالخلق القويم الذي يشتمل على الحق ويدعو إلى الجهاد بالمال والنفس من أجل إعلاء شأنه والذود عنه في كل الظروف ومختلف الأحوال.

وعندما دخل الناس في الثورة أفواجا فإنهم أخذوا يتعارفون أكثر وتقوى بينهم الوشائج وتتمتن العلائق بسبب تجنيدهم العام في الثورة إذ جعل لهم ذلك حظا

من التفتح الفكري وتقاربت عوائدهم وتوسعت معلوماتهم وتمت مداركهم وقد انعكس هذا أخيرا على أخلاقهم الاسلامية الثورية التي توحدت توحدا تاما بسبب توحدهم في الهدف الوطني الكبير وفي الوسيلة لتحقق ذلك الهدف.

وقد عمل هذا النمط الجديد من الأخلاق الاسلامية الثورية التي ظهرت بظهور الثورة على تحديد العلاقات الاجتماعية وشمولها شمولا وسع معناها وأحكم الربط بين أفراد مجتمعها الجديد.

من هنا تكون المجتمع الجهادي الأول تكونا حقيقيا ينطلق من القول بهذه النظرية؛ وهي أن الجهاد يستمد حقيقته من المفهوم الصحيح للأخلاق. كما أن الأخلاق تستمد هي الأخرى كنهها من قواعد وأصول عملية الجهاد. وبناء على ذلك فقد سميت الطلائع الأولى للمقاتلين الذين ألفوا هذا المجتمع الجهادي المثالي، بالمجاهدين. على أن هناك علاقة عكسية بين الأخلاق الفاضلة وبين الجهاد ذلك أن كلا منهما يكمل الآخر ويدعمه دعما قويا. فلا يمكننا أن نتصور أخلاقا فاضلة لا تحمل صاحبها على رياضة نفسية وتنقيتها مما علق بها من الشوائب، كما أنه لا يمكننا من جهة أخرى أن نتصور جهادا مبنيا على الاعتقاد الديني لا يقوم أخلاق القائمين به ولا يؤثر في سلوكهم بما يخدم أهدافه السامية ومبادئه الكبيرة. وقد ركزت الثورة بقوة على الجمع بين إصلاح النفوس بتهذيبها وترشيدها وبين تشريع نظام جديد للحياة يتماشى والأسلوب الجديد من الأخلاق الفاضلة القويمة التي اهتمت بها هذه الثورة اهتماما منصرفا إلى التفتح على عالم ثوري جديد متحرر من القيود الآثمة ومتمرد على الأوضاع الفاسدة.

وقد نتج من إصلاح الخلق الثوري في المجتمع الجزائري ظهور نظرة جديدة للأخلاق تستهدف خدمة المصلحة العامة وتضحى بكل غال ونفيس في سبيل ذلك.

من هنا أصبحت الأفكار متهيئة لقبول التغيرات العميقة والقوية، فتهيأ الشعب إلى العمل بهذه الأخلاق والعوائد الجديدة التي أحيتها الثورة بل ونمتها

والتي لم تكن غريبـة عن المفـاهيم الصحيحـة لعـادات وتقاليد هذا الشعب فتساوت الأفكار وتقاربت في المفهوم الصحيح للأخلاق وإن تفاوتت في درجة العمل بها تفاوتا أهل بعضها للاقدام على طلب الشهادة وتقهقر بعضها الآخر عن ذلك.

وقد امتازت أخلاق المجاهدين الأوائل بأنها كانت مسخرة لخدمة أهداف الشعب لأنها أخلاق لا يشوبها التردد ولا تعرف الأفكار الانهزامية إليها سبيلا.

لذلك فإن إصلاح الخلق كان أهم ما عالجته الثورة وتعرضت له بالتقويم إيمانا منها بأن إصلاح الخلق وتهذيبه هو مبدأ كل إصلاح ومنطلق كل عمل رشيد إذ ليس يرجى صلاح لقوم تلطخت عقولهم بالعقائد الضالة وخسيئت نفوسهم بالأوهام والخرافات.

على أننا إذا تتبعنا ما يعانيه الناس من انحطاط في الفكر نجد أن معظم ذلك ناتج من الجهالة وأفن الرأي. إن الله يقذف في قلب المجاهد المؤمن نورا يربط بين نفسه وبين عالم الروح. عندئذ تسبح نفسه في عالم القدس ولا يصدر عنها إلا الأعمال النافعة فقد جاء في الحديث «قد يكون في الأمم محدثون (١) فإن يك في أمتي أحد فعمر بن الخطاب».

إن النفوس العالية تتهيأ للذات الكمالات الروحية والانصهار في مقاماتها الـربـانية، ومقدار الانغماس في مباهج الحياة يكون بمقدار التهيؤ إلى الحياة الآخرة. وهذا ليس يعني أن الانسان يعرض عن الحياة الدنيا فقد جاء قول بعضهم: «اعمـل لدنياك كأنـك تعيش أبـدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا». (٤)

لقد أكرم الله تعالى عباده المجاهدين في الثورة الجزائرية بأن حبب إليهم الأخـلاق الحسنـة وزينها في نفوسهم. وقد ترتب على ذلك حبهم للخيرات وإتيانهم بالأعمال الصالحة التي ظهرت في سائر أحوالهم ما خفي منها وما ظهر، ذلك أن المجاهد المؤمن يكبح جماح نفسه ويفرض عليها قيودا معنوية تحد من

---

(١) محدثون، بمعنى: ملهمون الصـواب.

(2) أكد لي الشيخ / محمد الصالح الصديق أنه حقق هذا الكلام فتبين له أنه أثر لا حديث نبوي.

غريزتها البهيمية إيمانا منه بأن الله يرقبه في كل حالاته وبذلك لم يبق في نفوس المجاهدين خاصة منهم الأوائل مسلك للشيطان ولا مجال للخذلان كبير.

وإذا كان المجاهـدون قد اشتركوا في التحلي بالأخلاق الفاضلة فإنهم لا يخلون من أن يكون بعضهم أفضل من بعض بما لهذا البعض من صفات حميدة زائـدة على الصفة المشتركة بينهم. وهؤلاء المجاهدون قد امتازوا بالسبق إلى العمل بالأخلاق الحسنة في حياتهم اليومية والتشبث بأجمل معانيها وذلك يعني أنهم روضوا أنفسهم على التعاليم الجهادية قبل أن يستشهدوا في ميدان الجهاد.

فالمخاطر المحدقة بهم في كل آن وحين من شأنها أن تنمي فيهم عامل الدين وتقوى الشعور بالتضامن والتراحم بينهم والتواصى بالحق والتواصى بالصبر.

إن المجاهـدين يسارعون إلى طلب الشهادة إيمانا منهم بأن حياة الذين استشهدوا في سبيل الله هي حياة تشتمل على كثير من الادراك والاحساس بالتنعم بلذات الجنـة والعيش في عوالم علوية حيث تتجلى لهم الانكشافات الروحية الكاملة، فقد جاء في سنن الترمذي عن عبد الله بن مسعود «إن أرواح الشهداء تجعل في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش» إلى آخر الحديث. إن المجاهد المؤمن المتخلق بأخلاق الجهاد يتعالى عن الحضيض ويترفع عن التوافه لأنه يشعر أنه أقرب الناس إلى ملاقاة ربه بسبب تعرضه الدائم لخطر الموت. إنه يعمل عملا صالحا. لذلك فإنه في مناجاة دائمة مع الله يشعر من خلالها أنه جسم بشري مشحون بالايمان لا يتحرك إلا لخدمة ما آمن به من مبادىء سامية وأهداف نبيلة.

لقد تجرد المجاهدون لأداء مهمتهم الوطنية الكبيرة فأخذوا أنفسهم بأقصى وأشد ما يأخذ به الانسان نفسه من فرض القيود عليها وحملها على التمثل بأجمل الخلق وأكمل الصفات. من هنا أصبحت الحياة بالقياس إلى هؤلاء المجاهدين وعموم المناضلين جهادا متصلا حملوا أنفسهم على الصبر عليه كما تأمرهم بذلك أخلاقهم الاسلامية السمحة وتحملوا فيه من ألوان الجهد والمشقة ما ينوء بحمله أولوا العزم من الرجال.

لقد مثلت الأخلاق مصدر الحياة الروحية للمجاهدين الذين كان عليهم أن يشيعوا الأمل في نفوس الشعب ويعصموه من الخوف وهم لن يبلغوا ذلك

إلا إذا لاءموا بين الأخلاق التي تزينهم وبين الممارسة الفعلية لهذه الأخلاق فيتأهلون بذلك لأن يكونوا مثالا يحتذى وقدوة يقتدى بها الشعب. وكذلك كانوا. وكان هؤلاء المجاهدون في حاجة إلى أن تتوسع عقولهم، وتتهيأ لفهم النظرة الجديدة للحياة، ويتغير تكوينهم عما كان عليه تغييرا كبيرا، إذ كان عليهم أن يتكيفوا مع الواقع الثوري الجديد وما يتطلبه هذا الواقع من ثقوب في الذهن، وسرعة في البديهة وإتقان جيد لكل هذه الوسائل الحربية التي لم يكن لهم بها سابق عهد والتي يجابهون بها العدو دفاعا عن المقومات الأساسية للشعب.

لقد كانت أنوار الجهاد سارية في نفوس المجاهدين سريانا قويا وواسعا فطغت فكرة تحرير الدين والوطن على كل شيىءآخر عند المجاهدين الذين كان همهم الأكبر النظر إلى الأشياء من خلال ما يخدم القضية الوطنية ويعجل بساعة التحرير من ربقة الاستعمار البغيض.

إنه لا يمكن تصور جهاد مبني على الاعتقاد الديني والوطني لا يتحلى القائمون به بأنبل الصفات الأخلاقية ذلك أن مجتمعا يغلب عليه طابع الجهاد - كما هو الحال بالنسبة إلى المجتمع الجزائري في أثناء الثورة التحريرية - يعد من أكثر المجتمعات استعدادا لتقبل التجرد من المادة تجردا لايبقى منها إلا ما يحافظ على استمرار الحياة في الكيان البشري. ويتفاوت المجاهدون في الاتصاف الكامل بالأخلاق الفاضلة وفي ممارستها والعمل بها وذلك بحسب اختلاف رجاحة عقولهم، وتصورهم لمفهوم الأخلاق التي من لوازمها الصبر والابتلاء. وبذلك فقد شكلت الأخلاق الاسلامية في الثورة الجزائرية أحد الروافد الهامة التي زودت المجاهدين الجزائريين بكثير من القيم الروحية التي تأسس عليها جهادهم للعدو والتي ظلت زادهم الذي لاينضب له معين إلى أن كتب الله لهم النصر الذي هيأوا له أسبابه المعنوية التي ركزوا عليها أكثر مما ركزوا على غيرها من الأسباب المادية الأخرى.

لقد عاش المجاهدون حياة إن امتازت بالبساطة والتواضع من جهة فإنها من جهة أخرى سمت بنفوس أصحابها إلى دنيا النفحات الملكوتية وكان هذا هو السر الكامن في نجاحهم وفي تصديهم بقوة وعزم للعدو.

إن الله لما أراد الخير لهذه الأمة هيأ نفوس أبنائها المجاهدين بأن قذف في قلوبهم حب التضحية بالمـال والنفس فجعلهم بسبب ذلـك في جهـاد دائم ومكابرة للعدو متواصلة، فقد أراد الله تطهيرهم في الدنيا ليكونوا بذلك قدوة لغيرهم من أفراد المجتمع. وهؤلاء المجاهدون لهم مسلاة عن الرزايا والخطايا بما يرجون من الثواب على تضحيتهم وصبرهم على هذه التضحية.

والمجاهدون المتخلقون العاملون هم الذين يرون الحياة الدنيا حياة ناقصة لاتخلو من الأكدار لذلك تتعلق همتهم بإعمال النظر في الحياة الآخرة والتعلق بأهـدابهـا. وأمـا الـذين لم يتحلوا بالخلق الفاضل ولم يعملوا بأصول الجهاد وقواعده فإنهم سادرون (1) في غلوائهم (2).

والأخلاق بقسميها : الجبلي، والكسبى لم تجعل منها الثورة الجزائرية غاية تنتهي إليهـا الارتبـاطات بين أفراد المجتمع ولكنها جعلتها وسيلة تعمل على تحقيق أنبل الأهداف، وتصل بالمجتمع إلى غايته المنشودة في الحرية والاستقلال.

لقـد كانت أخـلاق المجاهـدين قرين صدق نفـوسهم وصلاح نياتهم، فانعكس ذلك على صلاتهم بمجموع الأمة فكانت هذه الصلات قوية ومتينة إذ التف الشعب حولهم يدعمهم وكان ذلك دليلا على مدى التلاحم بينهم وبين الشعب.

إن الأخـلاق الفاضلة مدعاة للتقويم الانساني و قوام للسلوك، وهذا مما اختص به المجاهدون لا يشاركهم فيه غيرهم، إلا القلة القليلة من المناضلين الذين آمنوا بمبادىء الثورة وضحوا بأرواحهم من أجل الدفاع عنها. كما أن الأخـلاق الجهادية أهلت المتحلين بها تأهيلا ذاتيا متناسبا مع عظمة الرسالة الدينية والوطنية التي شرفهم الله سبحانه وتعالى بالنهوض بأعبائها. إن الأعمال الصـالحـة لاتصـدر إلا عن الادراك القويم للانسان ونظره العقلي الصحيح وبخاصة إذا كان هذا الادراك والنظر العقلي مؤسسين على خلق إسلامي عظيم متمم لهذا التقويم الذي يلهمه العمل على الطريق القويم، ومن هنا تكون

---

(1) السادر : المتحير. وهو أيضا الذي لا يهتم ولا يبالي. ماصنع (مختار الصحاح).

(2) الغلواء : سرعة الشباب وأوله (مختار الصحاح).

المعاملة بين المجاهدين والشعب سالمة من اعتداء المسلح على الأعزل ومطبوعة بطابع التراحم، لأن الجميع على توافق في الحق وهذا هو أصل التنظيمات الثورية التي يجمع بين أفرادها المفهوم الصحيح للدين والوطن والانسانية.

وإذا كان لكل فئة مقاتلة عناصر إمدادها المختلفة من أكل وسلاح ولباس ومال ومأوى تضمنها لها الدولة أو أي جهة أخرى مسؤولة عليها وعلى مواصلة ضمان قتالها. فقد كان الشعب الجزائري ضامنا لتوافر هذه العناصر المادية التي يتوقف عليها جهاد أبنائه والتي تشكل إمداده الذي واصل به جهاده طيلة سبع سنوات ونصف.

وقد كان هذا التأييد التلقائي ناتجا من الثقة المطلقة التي وضعها الشعب في المجاهدين من أبنائه بسبب تحليهم بالأخلاق الفاضلة التي انعكست آثارها على أعمالهم وظهرت في سلوكهم. ألم يكن الواحد من أفراد الشعب. ينزع قميصه أو حذاءه أو يقدم أي عزيز آخر عليه إلى هذا المجاهد أو ذاك ممن هو في حاجة إليه؟ نعم كان ذلك كذلك ولو لم يكن كذلك فمن أين لهؤلاء المجاهدين أن يتسلحوا، ويتمونوا، ويتقووا بالتالي على أعدائهم الأقوياء وخصومهم الأشداء؟

لقد كانت ثقة الشعب كبيرة في أبنائه المجاهدين كما كانت ثقة المجاهدين كبيرة هي الأخرى في أفراد الشعب وهذه العلاقة الجدلية ناتجة من الايمان بصدق وإخلاص كل طرف بالآخر ونابعة من حقيقة تاريخية هي أن الشعب الجزائري شعب التضحيات والفداء وأن أبناءه من المجاهدين لا يكونون إلا كذلك. إن من عوامل الثقة التي وضعها الشعب في المجاهدين سببا مهما هو موافقة أخلاق هؤلاء المجاهدين للأعمال التي يقومون بها. وقد حافظ المجاهدون على هذا الخيط الروحي الذي ظل يربطهم ربطا قويا بصفوف الشعب طوال جهاده المرير وخلال سنواته السبع الشداد.

إن من ثوابت الشعب الخلقية ومن تقاليده الراسخة أنه شعب متمسك بالأرض وغيور على المرأة. أما الأرض فأوكل الدفاع عنها إلى المجاهدين من أبنائه. وأما المرأة فآمن هؤلاء المجاهدين عليها من اعتداء على الحرمة وانتهاك

للعرض. وقد حافظ المجاهدون على هذه العلاقة الروحية بينهم وبين الشعب عندما كبحوا جماح أنفسهم وقيدوها بالقيود الدينية المغلفة بطابع الجهاد فكانوا خير مؤتمن يخلي الواحد من الشعب مكان نومه للواحد منهم ممن أضناه التعب وداعب النوم جفنيه ليحرسه من العدو وهو نائم في مكانه ذلك؛ كل ذلك دليل على الثقة المتبادلة والتعاطف العفوي بين أفراد الشعب وبين المجاهدين من أبنائه. وباختصار فإننا نقول: إذا كانت الثورة الجزائرية قد حملت المجاهدين بالعنف في بعض الأحيان على التحلي بالأخلاق الفاضلة قصد كسب تأييد الشعب والتفافه حولها؛ وإذا كانت هذه الثورة قد نجحت نجاحا كبيرا في هذا المجال الحيوي الذي يعد أكبر سلاح معنوي يمكنه من أن يصمد أمام أعنف قوة فإن الاستعمار الفرنسي قد تفطن للدور الذي تؤديه الأخلاق في إذكاء روح الجهاد وفي تصعيد الثورة والتفاف الشعب حولها فقاوم هذه الأخلاق بقوة وبشتى الوسائل.

ألم يكن نظام «لاصاص»(1) الذي أحدثه العدو قد جعل من أهدافه الكبيرة استمالة عقول الجماهير إليه وإبعادها عن الثورة وذلك ببث الدعايات ومحاولة النيل من قيمة المجاهدين بوصفهم تارة بالخارجين على القانون والمتمردين وقطاع الطرق وتارة أخرى بأنهم لا يلقون تأييدا من الشعب وأنهم معزولون عن هذا الشعب.

إن الأخلاق الفاضلة هي عون للنفس على عظيم الأعمال، وهي أقوى وأشد ما يحمل عليه الانسان نفسه وأعظم ما يصر عليه، وهذا الصبر ينقلب شكرا عندما تتحقق للمجاهد أهدافه وعندما يوقن أنه سيقرر مصيره بنفسه.

وإذا كان الاعتقاد بالشيء يقوى بالتصريح به وبممارسته فإن الثورة الجزائرية قد عملت على تقوية الجانب النظري للأخلاق في الناس انطلاقا من الفكرة التي ترى وجوب التكامل بين الأخلاق كصفات مجردة وبين الممارسة الفعلية لهذه الأخلاق.

---

(1) أي ضباط الشؤون الأهلية وأصلها الفرنسي Section Administrative Spéciale

إننـا لا نستبعـد أن يكون الله سبحانه وتعالى قد جبل المجاهدين وطبع نفوسهم على التفاني في بذل المال والنفس وهيأهم تهيؤا «خاصا» لهذا الظرف الـذي غلى فيه المجتمـع غليانه الشديد. وليس هذا الكلام يعني أننا نبرئى المجـاهدين كلهم من ارتكاب بعض الآثام التي يتوقعون العقاب عليها من الله؛ إلا أنهم يرجون أن يكون مآلهم إلى النعيم.

وقد كان للتأليف بين قلوب المجاهدين من أزكياء النفوس وبين عامة أفراد الشعب منة عظيمة امتن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها عليهم إذ جعلهم متحابين كأنما هم على قلب رجل واحد، ألم تنزع الأحقاد من قلوبهم والاحن التي دأبوا عليها كذلك؟.

لقـد تضـافر عامل الارشاد الديني وعامل التكوين السياسي الثوري على عقـول المجتمـع فهذبها وكونها تكوينا خلقيا ثوريا طغى عليه تغليب نكران الذات وعدم الاهتمام بها وعدم الانصراف إلى اللذات.

على أن مما استهـدفتـه الأخلاق الاسلامية في أثناء الثورة التحريرية نشر الفضائل وتعميم الآداب العامة بين المجاهدين، وإقامة هياكل نظامية لتكوين مجتمـع جديد يحرص على تثقيف الأذهان، وتوسيع المدارك، وبلورة الأفكار لكي يبلغ الشعب أهدافه.

والمجـاهدون استعانوا بالصبر الذي يقمع شهوات النفس ويحد منها، كما أنهم استعانوا بالصلاة مع ما في هذه من التزام خلقي دقيق وما تشتمل عليه من النهوض بأسمى المعاني التي هي طهارة تكاد تكون دائمة في أوقات قد لا يتهيأ لهم فيها ذلك بسبب اشتغالهم بمقاتلة العدو.

وإذا كانت الأخلاق قدرا مشتركا بين الأمم والشعـوب فإنها في المجتمعـات الأقـوى تدينـا أكثـر تغلغلا في النفوس وأشد ترويضا لها على اتباع الخيرات والعمل بالمقومات الأساسية التي تهدى إلى الصلاح وتنير الطريق.

إن الـظروف الاستثنـائية للثورة قد أكسبت المجاهدين طبيعة تسمو على الظواهر الطبيعية إذ تتلاشى طاقتهم المادية ولا يبقى لهم منها إلا ما يحفظون به استمرار الحياة في أجسامهم. أما ماعدا ذلك فإن لهم عالمهم الروحي الخاص حيث تتكشف لهم الكـرامـات الـربانية وتتجلى لهم النفحات الملكوتية التي

تطهرهم من القيود وتخلصهم من الشرور عندما تصادف قلوبا قذف الله فيها الايمان وعقولا سليمة لم تدنسها قوة الشيطان.

وإذا بحثنا عن مظاهر الأخلاق الحميدة في الحياة اليومية للمجاهدين وعموم المناضلين في أوساط الشعب فإننا نجد هذه العلاقة الروحية العفوية. وهذا التكامل التلقائي بينهم في الكثير من المواقف والمشاهد التي عاشها هؤلاء المجاهدون وغيرهم من سائر المناضلين فقد تفرد هؤلاء وأولئك بصفات حسنة كثيرة كالزهد، والتواضع، والعفة، وحب التضحية، والايثار وبذل النفس، والصبر، والثبات، والاحتكام إلى شريعة الله، وذلك بالاضافة إلى ما استحدثته الثورة من هذه الصفات والفضائل الكثيرة التي تعد ملاك (1) الأخلاق. أليست الطاعة، والانضباط، والامتثال للأوامر تنفيذا ونهيا، والتمرد على العدو وزوال مركب الخوف منه مفاهيم جديدة استنبطتها الثورة وعممتها في أوساط المجتمع فظهر بذلك هذا المجتمع الجديد الثائر، المتمرد على الأوضاع الفاسدة، هذا المجتمع الذي يستهدف إصلاح الاعوجاج وتقويم الفساد الذي أظهره النظام الاستعماري المتعفن في البر والبحر وكل مجالات الحياة الأخرى. على أن هناك عاملين أساسين عمقا المفاهيم الخلقية في نفوس المجاهدين. أما أولهما فهو الصرامة الشديدة للثورة في تنفيذ أوامرها اليومية التي تدعو إلى وجوب الاخلاص لله وللوطن، ومتى توافر هذان العاملان في سلوك المؤمن المجاهد فإن حياته تتسم بالاستقامة والمثالية في كل ما يأتي به من أعمال ويصدر عنه من سلوك.

وأما العامل الثاني فهو الطبيعة الخاصة للحياة التي يحياها المجاهدون تلك الحياة التي يغلب عليها طابع البساطة والتواضع بسبب بعدها عن العمران وما يدعو إليه ذلك من تواضع في العيش، وبساطة في الأخذ بأسباب الحياة.

وإذا أردنا أن نضع خطا بيانيا لأخلاق المجاهدين خلال ثورة التحرير وجدنا أن هذا الخط وصل إلى قمته الشامخة في الفترة الممتدة من فاتح نوفمبر 1954 م

---

(1) ملاك الأمر بفتح الميم وكسرها ما يقوم به يقال: القلب ملاك الجسد (مختار الصحاح).

إلى بداية انعقاد مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956 م. وفي رأينا فإن أسباب هذا الرقي الأخلاقي الروحي الكبير ترجع في مجملها إلى ما يأتي :

1) التركيز الكبير في العمل الثوري اليومي على إلحاق خسائر عسكرية بالعدو أغرت نتائجها المجاهدين على المزيد منها فاقتصر نشاطهم الفكري والعملي على الاكثار من ذلك.

2) توحيد النظرة العامة بالنسبة إلى الهدف الذي يسعى الجميع إلى تحقيقه ألا وهو الاستقلال السياسي للبلاد الذي كان لا يزال إلى ذلك الوقت مجردا عن المفاهيم العقدية المعقدة والمختلفة في آن معا تلك المفاهيم التي تدعو بطبيعتها إلى الاختلاف في وجهات النظر كما وقع ذلك فعلا بعد مؤتمر الصومام الذي انبثق عن نظريات سياسية واقتصادية مستقبلية لم تتقبلها عقول المجاهدين كلهم عندئذ بدأ التباين في الآراء والتباعد في الأفكار يطفو على السطح الذي عرف استقرارا عاما تميزت به هذه الفترة من تاريخ الثورة فانعكست آثاره الايجابية على أخلاق المجاهدين التي اتسمت في هذه المرحلة بالوحدة والتآخي والتآزر والتكاثف.

3) ظل المجاهدون إلى هذا الوقت يعيشون في أرض الجزائر حيث يطغى عليهم طابع الجهاد الروحي المفعم بالايمان. أما عندما التحق الكثير منهم بالحدود الشرقية والغربية فإنهم وجدوا أنفسهم في بيئة جديدة أغرت البعض منهم فانغمسوا في لذات الحياة الدنيا وبذلك أخذت سيرة البعض منهم تتغير تغييرا لم تألفه من قبل.

أما بعد مؤتمر الصومام فيمكننا أن نتحدث عن مرحلة جديدة في تاريخ الأخلاق في الثورة الجزائرية إذ عرفت هذه الأخلاق شيئا من التردد أو قل من التردي نرجعه إلى ما يأتي :

1) بعد مؤتمر الصومام مباشرة بدأ الناس يخوضون في الحديث عن السياسة من زوايا ملونة بأصباغ مختلفة ويتصورون مستقبل البلاد السياسي بالقياس الى القوتين اللتين تقتسمان العالم واللتين تقف إحداهما موقف المؤيد غير المتحفظ

لكفاحهم المشروع أعني بذلك الاتحاد السوفييتي (1) الذي كان جناح كبير من المجاهدين يقـدر تعاطفه وتأييده المطلق لجهاده الوطني، من هنا بدأت الأفكـار السياسية تنحاز إلى هذه الكتلة أو تلك وقد كان لهذا الانحياز العقدي أثره السلبي على أخـلاق المجاهدين الذين بدأت الخلافات بما تنطوي عليه من تشكيك وعـدم ثقـة بل وانخفاض في الروح المعنوية تدب في صفوفهم قال تعالى : «ولا تنازعوا، فتفشلوا» (2)

2) أسفر مؤتمر الصومام كذلك عن بعض النتائج ذات الصبغة المادية كظهور الرتب العسكرية التي أوصى بتقليدها المستحقين من المجاهدين وهذه الرتب تعني أول ما تعني التمييز بين المجاهدين وما ينتج من هذا التمييز من فروق اجتماعية تؤدي في نهاية المطاف إلى تفشي ظاهرة «الغيرة والحسد» وغيرهما من ذميم الصفـات وقبيح الأفعـال التي لا تتـماشى والأخـلاق الفـاضلة وتتنافى والمبادىء النبيلة التي وقفوا أنفسهم لخدمتها. وكان الشهيد مصطفى بنبولعيد (3) قد تفطن مبكرا للعواقب الوخيمة التي يسببها حمل الرتب العسكرية فكان يقول : «اللهم توفني إليك قبل أن يظلنا عهد الرتب بما يحمل من رتب» (4) وقد حدثني بهذا من أثق في صدق كلامه أيام كنا في صفوف جيش التحرير الوطني أي خلال الثورة المسلحة.

وإذا كان لزاما علينا أن نستدل ببعض الأمثلة الحية على مدى تأثير الخلق الاسـلامي المبني على الاعتقـاد الـديني في نفـوس المجـاهدين خلال الثورة التحريرية فإننا نورد بعض الصور الحية عن ذلك. فقد حدثني المجاهد الطبيب / «صـالح علية» (5) في مكتبه «ببئر الخادم» عام 1986 قال : «عندما كان المجاهد / «الازهر شريط» (6) ينتظر تنفيذ حكم الاعدام فيه سأله المسؤولون على تنفيذ هذه العملية، إن كان له مطلب أو أي شيء من ذلك فأجاب :

---

(1) هي الكتلة الشرقية التي انهار نظامها اليوم.

(2) سورة الأنفال، الآية : 46.

(3) هو قائد الولاية الأولى سابقا معروف بإخلاصه رحمه الله.

(4) الرتب يعني : الشدة وقد أثبتناها للتمليح فقط، وينطق بها براء وتاء مفتوحتين.

(5) من مجاهدي نواحي تبسة توفي رحمه الله.

(6) هو أحد المجاهدين الأوائل، معروف ببطولته وشدة إخلاصه وأصله من الشريعة (تبسة).

«نعم إن لي طلبا واحدا أرجوكم أن تحققوه» قالوا : «وماهو» ؟ قال : «أن تأتوا إلي باستقلال الجزائر على طبق من ذهب».

وفي يوم 1990/10/17 حدثني المجاهد / «محمود الواعي» في مدينة الجزائر قال : «عندما كان المجاهد المرحوم / عباس لغرور (1) في السجن بمدينة تونس ترجاه بعض أصدقائه أن يهربوه ولكنه رفض ذلك العرض قائلا : «لن أهرب من نظام الثورة ولو كان في ذلك الحكم بإعدامي».

إن هاتين الصورتين الفذتين تظهران مدى ما بلغه بعض المجاهدين من إخلاص شديد للثورة وإيمان كبير بأحكامها ولو كانت هذه الأحكام شديدة وظالمة في بعض مواقفها. ولعل هذا هو السر الكبير في عظمة الثورة الجزائرية، هذه العظمة التي تستلهم كنهها وتستشف حقيقتها من عظمة نفوس أبنائها المخلصين لله وللوطن.

وحدثني الأستاذ المناضل / محمد الصالح الصديق (2) قال : «كنت ذات يوم من سنة 1957 م في مكتب جبهة التحرير الوطني بـ «الصادقية» في مدينة «تونس» أكتب كلمة عن الشهيد «باجي مختار» (3) وإذا بالعقيد «عميروش» (4) رحمه الله يدخل علي، وبعد أن تبادلنا التحية سألني : «أي شيء تكتب يا شيخنا» ؟ فأجبته : «أكتب كلمة عن الشهيد باجي مختار. قال الأستاذ الشيخ : «عندئذ أخذ صاحبي يذرع المكتب جيئة وذهابا ثم قال لي : «وهل تكتب عني أنا أيضا كلمة عندما يوافيك خبر استشهادي ذات يوم» ؟ قال : فقلت له على الفور : «بل أدعو الله أن يطيل عمرك وينفع شعب الجزائر ببطولاتك وعظيم تضحياتك حتى ترى ثمرة جهادك، وتقطف نتائج أتعابك». فأجابني : «إذا لم يستشهد عميروش وكثيرون من أمثال عميروش فكيف تنتزع الجزائر حريتها واستقلالها ؟ قل لي بربك : «هل تكتب عني كلمة تذكرني بها إذا استشهدت ذات يوم» ؟ قال الشيخ : «عندئذ اضطررت لأن ألبي رغبته

(1) هو أحد النواب في قيادة الولاية الأولى سابقا استشهد رحمه الله.
(2) هو المناضل والكاتب المنتج المعروف بتآليفه الكثيرة.
(3) هو واحد من جماعة (22) المعروفين.
(4) هو قائد الولاية الثالثة سابقا رحمه الله.

الملحة في ذلك فقلت له : «نعم سأكتب عنك الكثير إن لم أستشهد أنا أيضا في سبيل الجزائر». إن هذا النموذج الزاخر بالمعاني الثورية التي تترقب الاستشهاد في كل لحظة من أجل الوطن لهو وحده الكفيل بإعطائنا صورة حية عن هؤلاء القوم الذين سمت نفوسهم فراحت تبحث عن دنيا الملكوت بما قدمت من أعمال أخلصت فيها لله وللوطن.

لقد تخطت الثورة الجزائرية حدودها الوطنية فباتت حديث الناس وأضحت مثار جدلهم الذي لاينقطع إلا ليثور من جديد. وقد عبرت عن هذه الحقيقة إحدى الأمهات الليبيات في هذا الحديث الذي سمعته في إحدى المحاضرات عام 1986 م التي ألقاها المناضل / «عمار بنعودة» في قصر الثقافة قال : في عام 1956 م صدمت شاحنة طفلا ليبيا في أحد شوراع مدينة طرابلس فقتلته. ولما حضرت أمه قيل لها : «إن الشاحنة كانت تحمل السلاح إلى المجاهدين في الجزائر فما كان من الأم إلا أن أطلقت زغرودة وقالت : «الحمد لله الذي خصني بالمشاركة في جهاد الجزائر بحياة ولدي».

إن من أجمل الصور الجهادية التي تقدم لنا نموذجا نابضا بالحياة على مدى ما وصل إليه الخلق الحسن من تطور عام في الثورة الجزائرية ما رواه لي المجاهد / «أحمد كروشي» (1) قال : وقف نقيب فرنسي يؤدي التحية العسكرية لجثمان مجاهد شهيد ثم التفت إلى أفراد جيشه وقال : «إن قوما في مثل عظمة هذا الرجل إخلاصا لقضية وطنهم لجديرون حقا أن يغتصبوا منا حريتهم» ثم استطرد ذلك النقيب يقول : «إنني لم أجد مع هذا الرجل بعد أن فتشت جيوبه إلا هذه الحفنة من التمرات اليابسة، وهذه الكسرة من خبز الشعير، وهذا العلم الجزائري الصغير الذي استشهد من أجله، أو ما ترون من هذه الخراطيش الفارغة والمتناثرة حوله التي أحصيتها فكانت مئة وعشرين خرطوشة أصابت مثلها عددا من رجالنا في مكان واحد من جبهة كل واحد منهم».

---

(1) أصله من وادي سوف وكان من المجاهدين في نواحي تبسة.

حمزة سيد الشهداء وعم رسول الله
يساعد المجاهدين الجزائريين

إن الذين واكبوا الثورة الجزائرية، وتعمقوا فهم مبادئها والأسس القويمة التي قامت عليها هذه المبادىء، يمكنهم أن يؤكدوا حقيقة كبيرة هي أن هذه الثورة في أيامها الأولى قد تركزت جهودها على تحقيق عنصرين أساسين هما : توفير السلاح لمجاهديها توفيرا يضمن لهم مواصلة جهادهم حتى انتزاع النصر، وتكوين هؤلاء المجاهدين تكوينا يتماشى وعظمة الأهداف التي رسمتها لنفسها.

لقد استخلصت الثورة من التجارب الكثيرة التي بلاها الشعب أن إحراز النصر لا يتوقف أساسا على مدى ما يتوافر لها من سلاح مادي متنوع بقدر ما يتوافر على السلاح المعنوي، وعلى مدى ما تضمنه لنفسها من نجاح في تكوين المجاهد الجزائري تكوينا يكره إليه التخادل أمام العدو، ويحبب إليه أن يضحي بماله ونفسه في سبيل هذه الحرية.

إن من بين النماذج الفريدة في التضحية ونكران الذات التي سيذكرها التاريخ ذكر فخر واعتزاز لأصحابها بعض هذه المواقف الحاسمة لبعض أولئك المجاهدين من أنفسهم في أرض المعركة بالذات، فكم مرة أصابت قذيفة مجاهدا في ذراعه فبترته فعض على نواجذه وقطعه بمدية من حديد أو غير ذلك مما توافر له من أسباب القطع والبتر بعد أن تأكد له يأسه التام من برئه وشفائه.

كما أن من بين الصفحات الغر وما توحيه من معان لا يرقى إليها الشك ما حدثني به أحد المجاهدين (1) ممن لا يزالون على قيد الحياة قال : في شهر مارس

(1) هو المجاهد / أحمد كروشي. تقدمت ترجمة حياته.

عام 1956 م فقدنا شهيدا في معركة مع العدو في الحدود التونسية الليبية عندما كنا ذاهبين إلى ليبيا لجلب السلاح إلى الجزائر وقد أمضينا ستا وثلاثين ساعة في محاولة يائسة للعثور على جثمانه. وبعد ستة عشر يوما وجدنا جثمانه مصادفة حيث اشتبكنا مع المستعمرين عندما كنا راجعين إلى الجزائر بعد انتهاء مهمتنا في ليبيا. كان متكئا على جذع شجرة وإلى جانبه بندقيته.

هالنا منظره الجميل فوقفنا أمامه وقفة إجلال وإكبار نهفو إليه بقلوبنا، ونرنو إليه بعيوننا، وإذا قطرة من الدم تسقط من مكان ما في جسمه على الأرض فدهشنا لذلك واستغربناه كثيرا، ولكن دهشتنا هذه سرعان مازالت عندما تكرر ذلك مرات كثيرة تفصلها عن بعضها البعض خمس دقائق أو ما قارب ذلك زيادة أو نقصانا.

وواريناه في قبره.. وبعد ثمانية أشهر من ذلك أزحنا عليه التراب فوجدنا جسمه رطبا غضابضا كأنما دفن من أمد قريب، ولا ينكر ذلك إلا معاند مكابر أو من في قلبه مرض.

إن هذه الصفحات المشرقة من الحياة الواقعة في الثورة الجزائرية ـ وأمثالها كثيرة ـ هي التي أعانتني على الاستيعاب الصحيح، والفهم الواعي لهذه الفقرات التي أنقلها حرفيا:.... فإن أجسام الشهداء قد وجدت رطابا كشأنها يوم دفنت. ولقد كانت تحمل من مكان فتنثني وتضطرب رخصة كأنما هي مغرقة في النوم لم يلم بها الموت، وأكثر من ذلك فإن المسحاة أصابت رجل سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب فجرى منها دم زكي كما يجري دم أحدنا حين يصيبه الجرح اليسير وقد مضى على مصرع هؤلاء الشهداء أكثر من أربعين عاما، وقد رأى الناس ذلك وأحسوه وتأثرت به نفوسهم، واضطربت له قلوبهم، وازداد له إيمانهم، فهم بين الحزن لما كان من تحويل هؤلاء الشهداء عن قبورهم، والاعجاب بما كان من هذه الآية» (1)

---

(1) طه حسين، على هامش السيرة. دار الكتاب اللبناني: بيروت، الجزء 2، المجلد 3، 1981، ص 458.

إن العظمة التي تكمن في الثورة الجزائرية ستكشف للأجيال القادمة عن الشأو البعيد الذي بلغه أبناؤها المتفانون في حبها إيمانا ثابتا منهم بهويتهم الوطنية، وتفانيا منهم كذلك في التضحية في سبيل هذه الهوية. وقد سجلوا في ذلك صفحات خالدة سيكون إسهامها كبيرا في تأكيد بعض الظواهر التاريخية الغريبة، وتفسيرها للحقائق عاملا مساعدا على هضمها وتمثلها تمثلا واعيا، تماما كما أثبتت لنا قصة هذا الشهيد ما سقناه من حديث حمزة سيد الشهداء.

إن جوانب التفكير في الكثير من النماذج الحية للثورة الجزائرية التي يسمو فيها الروح القتالي لدى المجاهد الجزائري سموا عاليا كثيرة لا تحصى، ومتنوعة لا تعد، فقليلون جدا هم الذين يرون الموت الزؤام رأي العين ويكرون عليه مهللين مكبرين، اللهم إلا أن يكونوا قد تخرجوا في مدرسة الثورة الجزائرية ونجذتهم تجاربها القاسية الشديدة.

إننا إذا رجعنا إلى المجاهدين الذين يعدون المصدر الوحيد في هذا الشأن فإننا نجد الكثير من هذه المواقف التي تهز عواطف الانسان هزا وتملأ عليه جوانحه غبطة فلا تلبث أن تفيض عيناه من الدمع إذا استمع لمثل هذا الذي ألقاه على مسامعنا الشيخ / «محمد الطيب قريشي» (1) في مسجد التوبة بالأبيار يوم الجمعة ما قبل عيد الفطر (1991) عندما قال: «كنت في عام 1957 ـ 1958 م طالبا في الجامع الأزهر حيث كان الشيخ / صالح الجعفري السوداني الأصل إماما به وهو رجل من أهل الكشف كان كثيرا ما يتردد إلينا في «رواق المغاربة». وفي صباح أحد الأيام بادرني الشيخ يقول: «أبشر يا بني فقد رأيت الليلة البارحة رؤيا صالحة» فقلت له: «خيرا إن شاء الله» فقال: «رأيت سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب يمشي مسرعا فغذذت السير إليه ولما وصلته سلمت عليه فحياني بأحسن من ذلك، فقلت له: «مالي أراك تسرع الخطى يا عم رسول الله ﷺ ؟» قال: «فقال لي: «إنني ذاهب إلى المجاهدين في الجزائر لأساعدهم». وعندما انتهى الشيخ من قص رؤياه على المصلين ودخلنا مقصورة المسجد قلت له في حديث خاص: «هل تسمحون لي بنشر هذا الكلام وإذاعته في الناس ؟» فأجابني يقول: «أذع ذلك في الناس وانشره في

(1) هو المقرىء المعروف ومفتش المساجد والتكوين بنظارة الشؤون الدينية ـ ولاية الجزائر.

القراء وإني على ما أقول شهيد». هزني إيمان الشيخ بما يقول، وأثار شجون نفسي ولواعجها ومواجعها فرحت أستشف بعض المعاني الخالدة في الثورة، وأستحضر بعض صورها لعلي أحقق بذلك غرضين اثنين: أما الغرض الأول فهو تأكيد صحة تلك الرؤيا بالتدليل عليها بمواقف عملية ربانية من الحياة الواقعة في الثورة الجزائرية. وأما الغرض الثاني فهو جمع لبعض الوقائع والحوادث العجيبة التي لا يكتمل التاريخ العام للثورة إلا بها. قلت: هزني حديث الشيخ فرحت أرسم للماضي لوحة إن تشابكت خطوطها وتداخلت، فقد توحدت معانيها، واجتمعت صورتها الصادقة على أنها الكلمة الناطقة بصحة وصدق ما رواه بعض المجاهدين في الثورة الجزائرية عن تلك المواقف الروحية والمشاهد الملكوتية التي لن تجد لها مثيلا إلا في مثل ما رواه لي المجاهد / «مقداد جدي» في 13/05/1989 قال: في إحدى الليالي من عام 1957 م كنا متمركزين في المكان المسمى «الحوية» بنواحي «الشريعة» ولما أصبحت قلت لبعض من كان معي من المجاهدين: «إننا سندخل اليوم في معركة ضارية مع العدو تكون له فيها الغلبة في البدء، ثم ننتصر عليه فنكسب المعركة في آخر المطاف» وواصل حديثه فقال: «وما كدت أنتهي من كلامي حتى بادرني بعض المجاهدين فقال: «وكيف عرفت ذلك»؟ فأجبته: «كان ذلك في مكاشفة نومية، إذ رأيت فيما يرى النائم أننا اشتبكنا مع العدو اشتباكا عنيفا عندما اشتدت وطأته علينا في البداية وجدتني أقرأ قوله تعالى وأنا نائم: «إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا» قال: «وفعلا ما كادت الساعة الخامسة صباحا تدق حتى رأينا العدو يحاصرنا من جميع أقطارنا. وعلى الساعة الثامنة بدأت المعركة كأشد وأعنف ما تكون فدارت الدائرة علينا في البدء لكن سرعان ما تبدل الموقف فأخذت فلول العدو تنسحب تاركة وراءها قتلى كثيرين ومغانم أكثر. وقد جرت تلك الرؤيا على الصورة التي حصلت في واقع المعركة». أما المجاهد / «الوردي قتال» فقد قال لي في هذا الموضوع ما يأتي: «كان ذلك قبل معركة الجرف بأربعة أيام عندما كنت أنام القيلولة إذ سمعت صوتا يأمرني بالنهوض من النوم وكرر ذلك ثلاث مرات فنهضت لعلي أرى أحدا فلم أر شيئا

فعدت إلى النوم فعرض لي الشخص نفسه يأمرني بالنهوض من النوم وكرر ذلك ثلاث مرات فنهضت فزعا أتصنت لعلي أرى أحدا فلم أر شيئا فرجعت إلى النوم مرة ثالثة فجاءني هذه المرة كما في المرتين الأوليين وقال لي : «إنهض وأزح الصخرة من مكانها» قال : «فنهضت من نومي وجمعت عددا من المجاهدين وتعاونا جميعا على اقتلاع تلك الصخرة من مكانها فكانت صخرة عظيمة احتميت بها في الأيام الثلاثة الأولى في معركة الجرف فلم يلحقني أي شر أو يصيبني أي مكروه من العدو ».

وفي اليوم الرابع عندما أخليت مكاني حيث تلك الصخرة فقد أصابني العدو ببعض الجروح .

وأذكر أني لقيت الصحافي / «الزبير بوالشلاغم» في يوم 1989/06/06 م في قاعة اجتماعات المجلس الشعبي بمدينة الجزائر حيث ألقيت عليه سؤالا في هذا الموضوع لكونه قام بتحقيقات كثيرة عن الثورة فقال لي على الفور : «أذكر أن المجاهد / «حميدة فرحات» كان قد روي لي مامعناه : «كنا في عام 1957 م مجموعة كبيرة من المجاهدين نقطع طريقنا في مكان ما من المنطقة التاسعة بالولاية الخامسة تحت قيادة المجاهد / «إدريس عمر» وفجأة صدر الأمر إلينا من قائدنا المذكور بتغيير الطريق الذي كنا نسلكه . وبعد مدة من السير سألناه عن سبب ذلك التغيير المفاجىء لوجهتنا فقال : «لقد أخذتني سنة في أثناء الطريق فسمعت صوتا يقول لي وأنا بين اليقظان والنائم : «بدلوا طريقكم» . لذلك أصدرت الأمر بتبديل الطريق قال : «وفعلا فقد علمنا من الغد أن العدو قد حاصر تلك المنطقة التي غيرنا وجهتنا عنها إذ طوقها الفيلق السابع للفيف الأجنبي المعروف آنذاك ، وقد كان تطويقها عاما ، وإحكام الحصار عليها شديدا و أننا لو لم نغير طريقنا تلك فإننا كنا سنتعرض لذلك الحصار الشديد علينا الذي يعلم الله وحده نتائجه علينا ولكن الله وقانا شر الوقوع فيه بفضل تلك السنة التي أخذت المجاهد المسؤول وهو يسير يتابع طريقه لا يلوي على شيء .

من أسباب النصر «الخفيــة» في الثورة الجزائرية

المجاهدون في الثورة الجزائرية انتصروا لله، وعلى أنفسهم قبل أن ينتصروا على العدو في ميدان المعركة، وانتصارهم لله تعالى هو إمضاؤهم العقد معه على أن ينصروه مخلصين له الدين وذلك عندما نهضوا بشعيرة الجهاد فأدوها كأحسن ما تؤدى هذه الفريضة. كما أن انتصارهم على أنفسهم قد أهلهم للسمو بهذه النفوس فتخلصوا في كثير من أوقات جهادهم من الطبيعة البشرية التي تغلب عليها البهيمية فراضوها ارتياضا سما بها سموا بعيدا.

وقد كان لهذين العاملين : الانتصار لله والانتصار على كبح ملذات النفس أثرهما البعيد في تحقيق النصر على العدو بعد ذلك. إن الجهاد الصحيح يقوم أساسا على مجاهدة النفس، ولكي تتغلب هذه الأخيرة على نزواتها فإن على المجاهد أن يتصف بحميد الصفات التي تقربه من الله وتقوى صلته به. وإذا حقق لنفسه هذا المقصد الشريف فإن الله سيكون له نعم النصير في حالتي الشهادة والانتظار (1).

ولأن الله سبحانه وتعالى لا يتخلى عن عباده المؤمنين العاملين بصدق وإخلاص فإنه لم يتخل عن المجاهدين في الثورة الجزائرية إذ أمدهم بأسباب النصر الخفية التي لا يعلمها إلا هو والذين طالت تجربتهم في الثورة فأيقظ فيهم الشعور بالتفطن إلى معرفة شيء من بعض تلك الأسباب التي أراد سبحانه وتعالى أن يطلعهم على جليتها لكي لا تبقى سرا مكتوما ينفرد هو بعلمه من دون عموم المؤمنين، وبذلك ينتفي شكره وثناؤه على إسباغها عليهم بسبب

---

(1) اقتباسا من قوله تعالى : «فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر» سورة الأحزاب، الآية : 22.

جهلهم إياهـا وعـدم اطلاعهم على حقيقتها. ذلك أن من مقاصد الشريعة الاسـلامية توضيح الأحكـام للمؤمنين، وفك لغز ما تشابه من بعض آيات القرآن ليستفيدوا من مواعظه وعضاته.

وبعد هذا الاستطراد الذي يتطلبه التوضيح فإني أقول : إذا كان علي أن أبين بعض تلك الأسباب الخفية فإني أؤكد أنها تتمثل أساسا في هذا العامل الخلقي المهم في حياة الفرد والجماعة وأعني به صفة الصبر الذي فاق كل تصور، وسما على كل تمثل لمعانيه.

نعم، لقد سجل تاريخ الثورة الجزائرية مواقف في الجهاد تعبر عن الصبر في أروع صوره. وإذا كانت النفوس المؤمنة تزلزل أحيانا لشدة المكاره التي تلقاها في بعض المشاهد والمواقف فإنها سرعان ما تتغلب على هاجس الخوف الذي يكاد يزعزعها، وهذا لعمري هو الثبات الصحيح أمام العدو، وهو أن تأخذ الانسان رهبة من عدوه، ولكنه يشتد على نفسه ويقوى عليها فيتجلد ويتصبر إلى أن يكسب النصر، فهذه الصورة من الثبات لن يؤتيها الله إلا من يشاء من عباده الذين رفعوا لواء الجهاد لا يريدون من وراء ذلك إلا ابتغاء مرضاته.

والحديث عن الصبر في الثورة الجزائرية يقودنا حتما إلى ذكر خلة أخرى من خلل هذه الثـورة المبـاركـة وأعني بها «الايثـار» الـذي عرف به المجـاهدون الجزائريون فقد اشتهر هؤلاء بتمسكهم الشديد بهذه السجية النبيلة التي تفردوا بها على من سواهم، والتي أهلتهم لأن يحتلوا بذلك المقام المحمود.

وإذا كان الله سبحـانه وتعالى قد ذكر الايثار في معنى الخصاصة والفاقة والحاجة إلى المال فإن الايثار الذي نتحدث عنه في الثورة الجزائرية يشمل هذا المعنى الذي ذكره القرآن فيما يشمل ولكنه يسمو عليه أحيانا سموا باسقا إذ يتجاوزه إلى مضامين أخرى أكثر سموا و نبلا وإيغالا في أعماق النفس البشرية، تلكم هي التضحية بالنفس في سبيل إنقاذ حياة الآخرين. وليس هذا الكلام غلوا في القول ولا إسرافا فيه، ولكنه الحقيقة الواقعة التي عاشتها الثورة أو قل عاشها أبطال هذه الثورة الذين يؤثر الواحد منهم على نفسه إخوانا له في الجهاد من أجل أن يحافظ على حياتهم، ويلقى الله عنهم استبقاء لأرواحهم لا لشيء إلا لأنه يعتقد أنهم أكثر نفعا منه للثورة ولأن حاجة هذه الثورة آكد إليهم منه.

وقد حدث ذلك أكثر من مرة فكم رأينا مجموعة من المجاهدين أو سمعنا منهم أو عنهم أنهم يسـارعون إلى قائدهم يريد كل واحد منهم أن يدرأ عنه الموت بنفسه إذا اشتبكوا مع العدو، ويعرض نفسه هو للهلاك إيمانا منه بأن أمثاله هو من المجاهدين الذين يقومون مقامه كثيرون وأن حاجة الثورة إلى القائد أكثر منها إلى غيره ممن يحمون رئيسهم بمهجهم وأرواحهم.

إن قوما يقدمون أنفسهم رخيصة للموت ـ وهي عند الله غالية ـ استبقاء لحياة قائدهم ليمثلون بحق هذا الايثار الذي ليس بعده إيثار.

إن التلقائية بين الرئيس والمرؤس تبدو واضحة المعالم في هذه الأمثلة الحية التي تتكرر كلما دعا إليها المشهد، وتطلبتها حاجة الثورة إلى الحفاظ على قادتها الذين لم يتميزوا عن مرؤوسيهم إلا بمثاليتهم في حسن تعاملهم مع أولئك المرؤوسين.

لقد كان القائد في نظر مرؤوسيه رمزا للشخص الذي يتفانى في خدمة أفراده اعتقادا منه أن الثورة هي عدل اجتماعي قوامه الأخوة التي لا تميز فردا عن فرد وأن عظماء الرجال فيها هم الذين أشربوا في قلوبهم حب الآخرين.

من هنا رأينا العطف الكبير من القائد على مجاهديه، وحنوه الشديد عليهم. أليس يقدمهم على نفسه ويؤثرهم عليها في كل ما يتصل بشؤون الحياة اليومية. إنه لا يأكل مثلا إلا بعد أن يطمئن إلى أن جنوده قد أكلوا كلهم جميعا، كما أنه يحاول دائما أن يطلع على أوضاعهم الاجتماعية ليقدم لها من الحلول ما يلائمها حفاظا منه على روحهم المعنوية الكبيرة.

وقد حدثني أحد المجاهدين (1) قال: «رأيت أحد المسؤولين في الثورة يخلع نعليه ويقدمهما إلى مجاهد بسيط أدمت المسافة الطويلة قدميه».

كما كان مما تعوده المسؤولون في الثورة أنهم كانوا عندما يزورون الوحدات المقـاتلة فإنهم يبـادرون بإلقـاء هذا السؤال على القـائد المحلي: كيف حال المجاهـدين؟ ماهي درجـة معنـوياتهم القتـالية؟. وعنـدمـا يتأهب أولئك المسؤولـون لمغـادرة تلك الوحدة فإنهم يوصون القائد خيرا بالمجاهدين. وقد كانت هذه العبارة معروفة: «حافظوا على المجاهدين».

---

(1) هو المجاهد / أحمد كروشي (سبق التعريف به).

كانت هذه هي العلاقة الروحية بين الرئيس والمرؤوس : شعور بالتضامن العفوي متبادل بينهما وبسبب هذا التلاحم العفوي بين أفراد المجاهدين على اختلاف مستوياتهم الفكرية والقيادية فقد كان واضحا لهم أن النصر آت لا ريب فيه، لأنهم كانوا مصممين على انتزاع هذا النصر الذي أعدوا له العدة المـادية، كالاستعداد للحرب استعدادا معنويا كتزكية النفس والسمو بها إلى المعاني التي تضفي عليها هالة من القدسية الربانية. عندئذ تبلغ مرتقى الكمال أو قريبـا من ذلك فلا توهنها الهزيمة ولا يضعفها الخذل لأن الله سرعان ما يتداركها بلطفه فإما أن تقتل في سبيل الله وإما أن تغلب. وفي كلتا الحالتين فإن الله يكشف لها عن مسرتها بالنصر في الدنيا والنعيم في الآخرة. وإذا كانت خلة الشجـاعـة تقوى في الجهاد إذا تكررت انتصاراته، فإنها تنزوي فيه إذا تعددت انكساراته كذلك، لكن هذا الانزواء لايلبث أن يختفي باختفاء أسبابه فيعود إلى النفس بأسها وشجاعتها المعهودة فيها. على أن النصر إنما يؤسس على الاعتقـاد الـديني والوطني الواسع ذلك أن اليقين الجازم بصحة الهدف ونبل الغرض والقصد يعد عنصرا أساسا في كسب النصر وإلقاء الرعب في النفوس التي لم يتمكن منها ذلك الاعتقاد. عندئد يكثر فيها القتل ويتسرب إليها الوهن والاضطراب فلا ترى فيهم إلا الفل والطريد المثقلين بالجراحة.

وإذا كان الله قد وعد المسلمين بالنصر فإن هذا الوعد لا يسقط في حقهم تطلب الأسباب المفضية إلى هذا النصر فيبذلون جهودهم للحصول على وسائله المعروفة التي تتطور بتطور الزمان وتختلف باختلاف مدى التقدم العلمي ودرجة تملك ناصيته قال تعالى : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة. . .» (1)

وإذا كنا نستهدف بلوغ الغايات والأهداف دون إعداد العدة، لدلك فإننا سنكون عندئذ كمن كانوا من قبلنا في التقاعس عن الجهاد فقال الله عنهم : «فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون» (2) .

وإذا كانت النفـوس تسكن فيهـا صفـات لا تظهـر إلا بداعي ظهـورها كالشجـاعة التي ميدان ظهورها مجاهدة العدو في الميدان والكرم الذي مجاله

(1) سورة الأنفال، الآيـة : 60 .
(2) سورة المائدة، الآيـة : 24 .

المناسبة الداعية إليه فإن النصر تبدو بوادره إذا صح عزم المجاهدين المؤمنين على ذلك عزما قويا، وهذا العزم يتمثل في التحلي بصفات حميدة كثيرة من أهمها التصميم على تخضيد (1) شوكة العدو والطاعة العمياء للقادة، والثبات في الموقف إذا بدأت القلوب الوجلة تتزلزل عندما يتلاحم القتال ويشتد النضال.

وإذا نحن تتبعنا أسباب النصر في التاريخ الاسلامي فإننا نكبر هذه الانتصارات التي لم يكن فيها حظ كبير للقوة المادية الهائلة بقدر ما مثلت القوة المعنوية فيها عنصر الحسم. من هنا يتبين لنا أن حظ الضعفاء والأقوياء في كسب النصر موكول أمره إلى عمق الايمان بذلك وشدة رسوخ هذا الايمان في النفوس.

إن الانتصار الذي حققه المؤمنون المستضعفون في عهد رسول الله ﷺ هو عين النصر الذي حققه المجاهدون في الثورة الجزائرية وذلك بسبب ما كان عليه هؤلاء وأولئك من دفاع عن الحق يمثل قوتهم في ذلك، فقد زادهم إيمانهم بنبل مقاصدهم ثباتا في النفوس وصمودا أهلهم لانتزاع ذلك النصر فكانوا بذلك أحرياء أن ينالوا أهدافهم ويحققوا مطامعهم وقد شاء الله أن يجعل شرف هذا النصر على أيدي جيل ثورة نوفمبر 1954 م التي تجمع لها من عوامل النصر المعنوية والمادية ما لم يتجمع لغيرها من هذه الثورات الكثيرة التي استخلص الشعب الجزائري منها الدروس واستفاد كثيرا من تجاربه القاسية في خصمها.

لقد أهل الله هذا الجيل لنصر عظيم لم يؤهل له غيره من الأجيال السابقة فخصه بهذا النصر الكبير لأسباب لا يعلم حقيقتها الكامنة إلا هو سبحانه وتعالى.

وإذا نحن حاولنا أن نعرف شيئا عن حقيقة تلك الأسباب فإن الكثير منها سيبقى أمره خفيا علينا إن أطلعنا الله على بعضه فإن بعضه الآخر يظل غيبيا لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى.

على أننا إذا قارنا مثلا بين عملية الجهاد التي خاضها الشعب الجزائري بقيادة الأمير عبد القادر وبين هذه العملية الجهادية خلال الثورة التحريرية فإن وجوها

---

(1) التخضيد بمعنى: القطع (مختار الصحاح).

كثيرة الشبه بين الجهادين تجمع بينهما في الفكرة والهدف، فإذا كانت ثورة الأمير عبد القادر مطبوعة بطابع الجهاد الديني المقدس والفكر الوطني المحض فإن الثورة التحريرية اليوم كانت هي الأخرى كذلك. ومع ذلك فقد فشلت ثورة الأمير وما أعقبها من ثورات أخرى وكان النصر الكبير مقدورا للثورة التحريرية. وإذا كنت لا أريد أن أناقش الأسباب الداخلية والخارجية لهذا الانتصار اليوم وذلك الانكسار بالأمس، مما تعارف عليه الناس فإني أريد أن أجلب انتباهك عند الحديث في هذا الموضوع بصفة خاصة إلى أن الأشياء مقدورة في علم الله سبحانه وتعالى إذا جاء أجلها فإنها لا تستأخر ساعة ولا تستقدم ضبطت من حيث الزمان والمكان ضبطا روعيت فيه معايير وحددت فيه مقاييس لايمكن إخضاعها لعوامل أخرى وذلك لحكمة أرادها الله ومشيئة شاءها ليتقرر من خلالها نتائج تنتج من تلك المعايير والمقاييس فقد جعل الله لكل شيء قدرا وحدد له الزمان والمكان اللذين يتم فيهما. فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ لحكمة أرادها كان الخامس من شهر جويلية 1830 م يوم نكبة وحزن على الشعب الجزائري، ولكنه لحكمة أخرى أراد أن يكون الخامس من الشهر ذاته عام 1962 م يوم فرحة ونصر للشعب الجزائري، مع ما تخلل هذه الفترة الزمانية الطويلة من ثورات لم تكتب لها أسباب النصر، كما سجل التاريخ ذلك لثورة الفاتح من شهر نوفمبر 1954 م. فقد قال الله العظيم في كتابه الكريم: «ويومئذ يفرح المومنون بنصر الله ينصر من يشاء». (1) إن هذه الآية صريحة في أن النصر موكول أمره إلى الله وحده يؤتيه من يشاء وينزعه عمن يشاء على أن إتيانه ونزعه خاضع لجملة من العوامل متى توافرت استجاب الله طلب عباده المجاهدين، بالنصر وإذا انعدمت تلك العوامل كلها أو بعضها كان تأخير عملية النصر تعبيرا عن مشيئة الله في ذلك إلى أن تتوافر الأسباب وتتجمع الشروط عندئذ يؤذن الله بمجيء النصر.

إن التعرف إلى أسباب النصر والهزيمة بهدف التعمق في استجلاء حقيقة تلك الأسباب لتبين الايجابي منها وتجنب سلبيها المفضي إلى الخذل هو واجب تحتمه علينا طبيعة النصر والهزيمة على حد سواء.

---

(1) سورة الروم، الآية: 4 و5.

لقد كان تطلب أسباب النصر المادية والمعنوية فرضا مشروعا على كل مسلم أوقف نفسه لخدمة غرض نبيل كما كان تجنب الأسباب المادية والمعنوية التي تقود حتما إلى الهزيمة مما يأمر الشرع باجتنابه وينهي عن الوقوع في مزالقه.

وانطلاقا مما أسلفنا الكلام عليه في وسط هذا الحديث فإننا نؤكد صحة المعني الذي قصدنا إليه وهو اشتراك المستضعفين من المؤمنين في كسب النصر من الأقوياء وذلك في عهد رسول الله ﷺ وخلال ثورة التحرير في الجزائر على حد سواء. فالانتصار الذي ازدهى به بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي على الأقوياء من قريش كالوليد بن المغيرة وأبي جهل بن هشام وعتبة هو عين النصر الذي يباهي به اليوم المجاهدون الجزائريون الاستعمار الفرنسي في الخارج وعملاءه في الداخل.

وإذا كان ضعاف المؤمنين ينادون على الأعراف يوم القيامة : يا وليد بن المغيرة يا أبا جهل بن هشام يا فلان ويا فلان فإن المجاهدين في الجزائر المستقلة ينادون اليوم : إن المستضعفين بالأمس هم الأقوياء اليوم لأن الله أراد لهم ذلك ولأنهم غيروا المنكر مخلصين فسدد الله خطاهم في ذلك. على أننا لا نملك أخيرا إلا أن نعلن أن الله أمد المجاهدين الجزائريين بأسباب النصر الظاهرة والخفية والذي نعتقده مخلصين كذلك هو أن الأسباب الخفية هي أكثر من الأسباب الظاهرة بكثير.

التكوين الثوري في الثورة الجزائرية

من أخص ما يتميز به المناضل الثوري صفتان متى اجتمعتا فيه بلغتا به أسمى درجات الفهم الواعي لحقائق الأشياء، وهيأتا له من الأسباب ما يؤهله للخوض في الكثير من مشكلات الحياة، هاتان الصفتان هما : الذكاء الفطري، والتكوين الثوري.

من هنا يمكننا أن نقول : إن الثورة الجزائرية حرصت منذ أيامها الأولى على إعطاء التكوين في صفوف رجالها ما يستحقه من الاهتمام الكبير، والعناية البالغة. وقد جندت طاقاتها المادية والأدبية لتحقيق هذا الغرض النبيل الذي يضمن لها عملية التواصل الروحي بين مجاهديها في الجبال ومناضليها في صفوف الشعب.

من هنا أيضا تتضافر الجهود الثورية المخلصة على تقديم الاستعمار في أبشع صورة وأكثرها معاداة للانسانية، كما أن الفكر الثوري الثابت يتركز على وجوب التحكم في أكثر الوسائل نجاعة بهدف تحطيم الروح المعنوية للعدو، فالبحث عن أنجع السبل لتحقيق التفوق عليه في الميدانين : السياسي والعسكري يصبح إحدى المهام الأساسية، وأحد الأهداف الكبيرة لكل مجاهد عزم على تحرير أمته وشعبه من الهيمنة الاستعمارية.

وتحضرني بهذه المناسبة هذه الطرفة التي استشهد بها أحد المجاهدين(1) في معرض حديثه عن بعض ذكرياته في الثورة عندما قال : في عام 1955 م كنا مجموعة من المجاهدين قد التجأنا إلى منزل أحد المناضلين، وفي أثناء الحديث

---

(1) هو عمار بنعودة واحد من جماعة (22) التاريخيين.

معه قال : «إذا كان المجاهدون قد توصلوا إلى تعطيل تقدم الدبابة عليهم بواسطة أسلحتهم الخفيفة فإن عليهم أن يبطلوا مفعول الطائرة عليهم كذلك، ولو كان ذلك برمي الحجارة عليها».

وفعلا فقد صدقت نبوءة ذلك المناضل المتحمس عندما أسقطت الثورة من حسابها الخوف من طائرات العدو الذي توالى إسقاط أجهزته هذه بعد ذلك في ميدان القتال ذلك أن عزم الثورة على إبادة العدو كان أشد رسوخا من تلك الطائرات المقنبلة، وإيمانها بنفسها كان من العمق بحيث إنه لم يتزعزع أمام دوي تلك القنابل التي تسقطها عليه الطائرات من السماء.

لقد ظهر العدو للثورة حقيرا عندما حررت نفسها من الخوف منه وعندما عبأت جماهير الشعب تعبئة فكرية عمادها التكوين وأساسها تلقين المبادىء التي تزود المجاهدين فكانت لهم خير زاد وأكبر معين على دحر العدو وتحقيق النصر عليه.

إن للثورة من قوة الشخصية والمنعة الذاتية ما يدفع عنها كل طارىء ويحميها من كل دخيل ذلك أن عنصر الحياة فيها يتوقف على مدى تلاحمها بالشعب، والتلاقي العفوي لأفكارها مع أهدافه، كما أن انعدام هذا التلاحم يفقدها عامل الحركة، ويوقفها عن العمل ذلك أن الثورة تتحصن به فهو الذي يقدم لها من أسباب الاستمرارية ما يضمن لها البقاء والثقة في ذاتها حتى النصر المؤبد.

إن الثورة تنطلق في تصورها لحقائق الأشياء انطلاقا من مدى ترابطها العضوي بالشعب الذي يعد رافدا أساسا من روافدها الكبيرة فكلما وسع الله على الشعب في الرزق وأتاه بسطة في ذلك اطمأنت الثورة إلى مستقبلها وتفاءلت خيرا بذلك.

وقد عبر عن هذه الحقيقة أحد المناضلين (1) عندما قال في أحد الاجتماعات : «إن أكبر حليف طبيعي للثورة هو «الصابة» أي (المحصول الزراعي السنوي الوفير).

---

(1) هو الأخضر بنطوبال، تقدمت ترجمة حياته.

إن البعد الكبير لهذه الكلمة المعبرة واضح المعاني لا يحتاج إلى إطناب في الشرح أو إطالة في التحليل فإذا كان للثورة حلفاء طبيعيون كثيرون فإن من أهم هؤلاء الحلفاء الطبيعيين هو المحصول الزراعي السنوي متى توافر أمره للشعب وأنعم الله به عليه.

ولعل الكثيرين منا لا يزالون يذكرون السنة المباركة التي سجل فيها التاريخ السياسي والاقتصادي في الجزائر ظهور حدثين كبيرين تمثلا في أمرين مهمين هما : استرجاع الاستقلال الوطني عام 1962 م والوفرة الكبيرة للمحصول الزراعي في تلك السنة بالذات.

إن البساطة في الهياكل التنظيمية، والخفة في الحركة والتنقل السريع تعد كلها من السمات الأساسية للثورة التي تعتمد بسبب ذلك على الشعب أساسا في حياتها اليومية فهي تتفاءل لسنته الزراعية إذا أخصبت وتتشاءم لها إذا أجدبت.

إن الثورة إذا فقدت الاتصال المباشر بالجماهير كان ذلك عاملا رئيسا من عوامل هزيمتها وتقوقعها على نفسها ومؤشرا كبيرا من مؤشرات نكستها إن لم يكن سببا أساسا من أسباب هزيمتها.

إن المناضل الثوري بفكره الثاقب يقدم لنا حقائق الأشياء في صيغة أقرب ما تكون إلى القواعد الثابتة والأصول العامة التي ينطلق منها الناس في تصورهم للأمور وحكمهم عليها، فالتجارب التي نكتسبها في الحياة هي أشد ما يفتقر إليها الكثير من الكتب التي نلتمس المعرفة في بطونها لنواجه بها تعقيدات الحياة ذلك أننا لا نذهب إلى المدرسة إلا لكي نتلقى أصولا نظرية في التربية والأخلاق والقراءة والكتابة. أما الثقافة التي تعي واقع الحياة وتضع لها ثوابتها، وتقعد لها قواعدها فإننا نقتنصها في هذه الحياة الواقعة عندما نتأملها تأمل المستقرىء ونتفحصها تفحص المدقق المحقق.

إن من أشد المواقف انبهارا للنفس هذه التي تنتصر فيها تجارب الحياة الواقعة على المعرفة المجردة، وتنحني فيها الأفكار والنظريات أمام الدروس العملية والعبر الحياتية، وما توحيه هذه من تصور للأشياء وتمثل دقيق لجوهر الأمور.

ولعل أبلغ الصور التي تعبر عن هذه الحقيقة من جهة وتؤثر في النفس من جهة أخرى مثل هذا الجواب المفحم لهذا المجاهد (1) الأمي عن سؤال صحافي ألماني عندما دار بينهما هذا الحديث في إحدى القهوات بمدينة (فرانكفورت) في ألمانيا الغربية عام 1957 م وإليك هذا الحوار.

الصحـافي : يظهر أنكم تبالغون كثيرا عندما تتحدثون عن خسائر فرنسا في حرب الجزائر.

المجاهد : إننا نقلل من ذكر خسائر فرنسا ليصدقنا العالم فيما نقول.

- إن فرنسا تملك الطائرات والدبابات فما هي أسلحتكم المضادة لها؟
- إننا نملك سلاحا أشد فتكا من الطائرات والدبابات
- ماهو هذا السلاح ؟
- إنه القنبلة الذرية التى صنعها الشعب بامكانياته الخاصة.
- أنتم صنعتم القنبلة الذرية ؟ إذن فأنت تخرف وتهرف.
- نعم أؤكد لك أننا صنعنا القنبلة الذرية في الجزائر واستعملناها في حربنا على فرنسا.
- لنفرض أنكم صنعتم القنبلة الذرية فماهي المادة الأولية التي استعملتموها في ذلك ؟.
- إن المادة الأولية التي استعملناها في ذلك تتمثل في أشياء ثلاثة.
- ماهي هذه الأشياء الثلاثة ياترى ؟
- هذه الأشياء الثلاثة هي : الجهل، الفقر، والمرض.

وقد كان وقع هذه الكلمات الثلاث شديدا على نفس الصحافي فاكفهر وجهه الوضاح وسكت عن الكلام المباح. ودون أن يودع محدثه الذكي انطلق كالسهم مختفيا عن الأنظار.

إن أبعـاد هذا الجواب غزيرة المعنى، متعددة المفاهيم متنوعة المضامين، يظهر ذلك جليا في الحقيقة الكامنة في نفسها وهي أن الشعب الذي سلبت منه حريته، وانتزعت سيادته وما يتبع ذلك عادة من آثار وخيمة على مجرى حياته في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، هذا الشعب سرعان ما

---

(1) هو المجاهد / أحمد كروشي (سبق التعريف به).

يتحول في فترة من فترات بحثه الجاد والمتواصل عن الحقيقة إلى شواظ من نار يصيب العدو أينما كان، ويدرِكه حيثما حل. عندئذ يصبح الموت وسيلة الشعب الوحيدة لتحقيق حلمه الغالي في الحياة الحرة الكريمة.

وقد عبر ذلك المجاهد الذي تخرج في مدرسة الثورة عن هذه الظاهرة التاريخية الكبيرة فأجاد التعبير، وفكر في أمرها فأحسن التفكير، كيف لا! وهو لا ينطلق في تحليله للأشياء وتعليله لها إلا مما يمليه عليه الواقع المعيش، وتفرضه عليه الممارسة اليومية للحياة لكي يصل في نهاية ذلك إلى تقرير حقائق حياتية كبيرة يقتنع بوجاهتها، ويعترف بسداد تفكيرها العدو : والثورة الجزائرية أعدت رجالها إعدادا ثوريا متماسك الجوانب متكامل النواحي وكونتهم تكوينا ثوريا راقيا انعكست آثاره الفكرية الايجابية على سلوكهم اليومي منذ أن قمعوا شهوات نفوسهم وغرائزها وثاروا عليها قبل أن يثوروا على العدو.

الصـراع الثقافي في الثـورة الجزائريـة

إننا نريد أن نعطي الثقافة في الثورة الجزائرية مفهوما خاصا نعني به مجموع الأساليب العملية التي واجه الشعب بها أساليب الاحتلال خلال هذه الثورة فنحن إذا نظرنـا إلى الثقافة من ذلك المفهوم وجدنا أنها تأتلف من عنصرين اثنين : أولهما داخلي يأتيها من داخل النفس، ومن طبيعة البيئة التي أنتجت تلك الثقافة . فقد كانت هذه البيئة طافحة بالآلام، مليئة بالحرمان، يطبعها الظلم السياسي والتعسف الاجتماعي الذي كان المستعمر يسلطه عليها . وما ظنك بالقوة الأجنبية إذا قدر لها أن تسيطر وتتحكم في رقاب المستضعفين من الناس خاصة إذا كانوا يخالفونها في المعتقد الديني والانتماء الحضاري؟ إنهم لا يلقون منها إلا فسادا في السياسة، وظلما في المعاملة وتجاوزا للحدود الذي يملأ الأرض جورا وإهانة للكرامة الانسانية . وقد مثل الشعور بالظلم وغيره من هذه العوامل التي أشرنا إليها ذلك العنصر الداخلي النابع من أغوار النفس المشكل لهذا النـوع من الثقـافة التي مأتاها داخل النفس ومبعثها الاحساس الدائم بالتسلط والاستبداد .

وثانيهما خارجي يأتيها من جملة هذه المعارف التي يسمح لها العدو بأن تتلقى قدرا محدودا منها في المدرسة، ويأتيها من اتصالها اليومي بهذه الوسائل الكثيرة والمختلفة التي تبث فيها عناصر المعرفة وتدفعها إلى الاستزادة من ذلك مادامت لا تتلقى من العلم على أيدي المستعمر إلا هذا القدر الضحل الذي لا يسلك بها طريق الترقي .

إن الثـورة الجـزائـرية حركة شعبية لا ريب في ذلك، لها طابعها الثوري الخصوصي الذي يميزها عن ثورات العالم كلها .

إن الصراعات الدامية مع الاستعمار أنتجت لنا ثقافة شعبية هي إرادة الشعب في التحرر، ثقافة تستلهم عناصر تكوينها من التلاحم المستمر مع العدو. وإذا صح هذ المعنى فإن الثقافة في الثورة الجزائرية هي خلاصة التجارب التي تشحذ العزائم دوما إلى البحث المخلص عن الذات.

إن للثقافة معنى خاصا في مسيرة الشعب النضالية فهي التي تلهمه أخذ زمام المبادرة للاطاحة بنظام العدو، وهي التي تبعث فيه الأمل على الصبر والثبات في هذه المواجهات غير المتكافئة التي لا تزيده هزائمه فيها إلا عنادا على إشعال نارها التي لا تخمد إلا ليذكو أوارها من جديد. ولذلك فإن الثورات المتتالية قد عمقت عنصر الثقافة الشعبية الناتجة من معاناة الشعب ومن هزائمه وانكساراته التي لا تنكسر لها نفسه.

وإذا كانت الثقافة الثورية شعورا صادقا بالانتماء إلى كل ماهو وطني فماهي طبيعة هذا الانتماء الذي تكونه تلك الثقافة الثورية بين مختلف أفراد الشعب ؟ وللاجابة عن ذلك فإننا نؤكد أن طبيعة هذا الانتماء تظهر في هذه الوحدة البشرية والترابية التي صنعتها روح المقاومة المتكررة للاستعمار فقد كان لتلك المقاومة بانتصاراتها وهزائمها تأثير على النفوس إذ أوجدت بينها شعورا مشتركا بالآمال والآلام شعورا شكل هذا الرباط القوي الذي يشدها إلى بعضها البعض فزادها بذلك تلاحما وصهرها في بوتقة واحدة هي تنامي الشعور العام بالظلم الذي تسلطه عليه قوة أجنبية أصبح وجوب التخلص منها ضربة لازب.

من هنا يمكننا أن نثبت أن الثورة في المفهوم الجزائري هي عمل ثقافي يستكمل عناصر تكوينه داخل النفس المعذبة التي تنتهي إلى الثورة حتما في وجه الاستعمار.

وإذا كان لنا أن نحدد المعاني النبيلة لمضمون تلك الثقافة في بعض جوانبها فإننا نعني بتلك المعاني والمضامين : الحرية، العدالة الاجتماعية، الشجاعة، التضحية وأخيرا استخلاص الدروس من الانتصارات والانكسارات. وقد ظلت معاني هذه المفردات هدفا يترصد الشعب خطاه إلى أن أشرب روح تلك المعاني في ثورة نوفمبر 1954 م.

إن الثقافة في الثورة عمل شعبي تتوزع أدواره على مختلف طبقات الشعب لأن الثقافة التي تلقنها الثورة تلك الطبقات تنشىء في نفوسهم روح التضامن وتكون فيهم الشعور بأداء الواجب الوطني لأن ذلك يقربهم من ساعة الخلاص ويقرب ساعة الخلاص منهم.

إن الثورة هي التعبير العملي عن مدى النضج الثقافي الذي فجر هذه الثورة في صفوف الشعب، ومدى ما وصل إليه هذا الشعب من وعي سياسي وتكوين ثوري هو حصيلته الثقافية التي تؤهله للمواجهة مع العدو؛ على أنه ليس شرطا أن تكون تلك الثقافة الثورية شكلا من أشكال القراءة والكتابة أو تعبيرا عن تلك القراءة والكتابة بالمفردات المنتقاة والكلمات المصطفاة ولو كانت الثقافة الثورية الشعبية خاضعة لهذه المقاييس لا انتفت شمولية الثورة انطلاقا من أن الغالبية العظمى لأفراد الشعب هم مثقفون ثقافة غير خاضعة لتلك المقاييس والمعايير بقدر ماهي نتاج مستخلص من حياته الثرية بالتجارب الناتجة من صراعه المتواصل مع العدو. وإذا كانت الثقافة الثورية بهذا المنظور فإنها أسلوب خاص لا ينتجه إلا الشعب الذي تكون له رصيد حافل من ذلك. إن المعاني الثورية هي روح الثقافة التي تختلج في نفوس المعذبين وتموج بها آمال المحرومين. إذن فالثقافة هي هذا التلاحم الذي أوجده المستعمرون بين المظلومين وبين ما يعانيه هؤلاء من آلام وشقاء. وبذلك تتنوع الثقافة الثورية وتختلف مصادرها من شعب إلى شعب.

إن جمجمة الشهيد المفعمة دما زكيا، ويده المبتورة المنغمسة في تلك الجمجمة المضرجة هي الأرواح التي حددها تاريخ الثورة بمليون ونصف المليون من هؤلاء الشهداء الذين يتشكل منهم هذا العدد من تلك الأرواح التي تمثل كل واحدة منها قصة شعب يتطلع إلى الحرية من جهة والتي تعد الرافد الأساس لكتابة الثقافة الثورية الشعبية الجديدة في الثورة من جهة أخرى.

من هنا يتبين لنا الأهمية البالغة للتراث الثقافي الذي يرتبط أساسا بهذه القوافل من الشهداء الذين سجل كل واحد منهم صفحة ناصعة كتبها بدمائه، وغرف تلك الدماء من جمجمته ووقع عليها بيده المرتعشة في أحيان كثيرة.

وإذا كنت قد طوفت بك في دنيا الثقافة التي مأتاها داخل النفس ومصدرها

الأغوار البعيدة لهذه النفس فإنني أعرج بك الآن على هذا الجانب الآخر من تلك الثقافة التي تأتيها عناصر تكوينها من خارجها أي من المدرسة كما أسلفت لك القول في ذلك وأعني بها المدرسة التقليدية.

وأول ما نلاحظه على هاتين الثقافتين ـ أو قل على هذه الثقافة الواحدة ذات الشقين الداخلي والخارجي ـ هو أن أولاهما ـ النابعة من داخل النفس ـ أكثر انتشارا في صفوف الشعب وأشد انبثاثا في مختلف طبقاته فهذا الوعي بالذات، والبحث الدءوب عن أنجع الوسائل للوصول بتلك الذات إلى تجسيد حقها المشروع في الحياة الحرة الكريمة وأخيرا هذه القائمة الطويلة من التجارب المريرة المستلهمة من المحاولة والمطاولة مع العدو قلت : إن ذلك كله يمثل مصدرا لن ينفذ معينه في تثقيف النفوس التي لاتزيدها تلك الثقافة إلا إيمانا ورسوخا بوجوب استرجاع الحق ولو طال عليه الأمد. على أننا نلاحظ أن هذه الثقافة الداخلية الحزينة هي جامع مشترك بين شتى الفئات الاجتماعية للشعب إلا أنها أشد وقعا وأكثر تغلغلا في نفوس الطبقات المحرومة منها في نفوس المتعاملين مع الأعداء المستعمرين. فإذا كانت الطبقات المحرومة من الشعب قد انعكست خيباتها على هذا النتاج الثقافي البئيس الذي يصور مرارة الظلم وبشاعة التعسف فإن أولئك الذين كانوا يتواطأون مع العدو على تلك الفئات الاجتماعية العريضة كانت نفوسهم تنتج لنا هذا اللون من ألوان الثقافة التي تجد سعادتها ونعيمها في شقاء وحرمان تلك الفئات الاجتماعية الحزينة.

من هنا نستطيع أن نؤكد أن هذه الثقافة المتأججة في نفوس الشعب إبان الاستعمار يمكن تقسيمها إلى ثقافتين : واحدة حزينة مظلمة تتطلع دوما إلى النعيم في ظل الحرية والكرامة وأخرى نعيمة تتطلب المزيد دوما من شقاء الكادحين المحرومين في ظل الاستغلال الطبقي والاستذلال السياسي.

وإذا كانت الثقافة الأولى تستمد مقوماتها من صراع الشعب مع الاستعمار فإن الثقافة الثانية تستلهم هي الأخرى أسسها من قداسة المدرسة التقليدية. ولنتفق منذ البدء على أن نسميها بـ «الثقافة العصرية» التي يمكن تقسيمها هي الأخرى إلى نوعين : ثقافة عربية وأخرى فرنسية.

أما الثقافة العربية فهي المعبرة عن إرادة الشعب؛ لذلك بادر الاستعمار

بمحاربتها ومطاردتها في عقر دارها ليوهن العلاقة العضوية بينها وبين الغالبية العظمى من الشعب، ولكن هذا الشعب قوى علاقته الروحية بها وعبر عن هذه العلاقة بإقباله على إنشاء المدارس من حر ماله لكي يتعلم أبناؤه لغتهم المحاربة وثقافتهم المطاردة.

وبذلك ظهرت هذه المدارس الكثيرة التي تقدم للسواد الأعظم من الشعب هذه الثقافة العربية التي كانت تحاول بقوة أن تتخلص من الجمود والقيود. وللحقيقة التاريخية فإننا نقول : إن ما كان يتلقاه المتعلمون في تلك المدارس الحرة هو ضرب من التعليم الذي كان يريد أن يخلص من التقليد إلى التجديد ومن القديم إلى الجديد فقد كانت الوسائل المادية والمعنوية التي تضمن له تحقيق أهدافه تعوزه في ذلك. ألم أقل لك : إن ذلك التعليم كان يمثل لغة مغلوبة على أمرها ومهما يكن من أمر تلك الغلبة ومهما يكن من ضعف مستوى تلك اللغة ونزوعها إلى القديم فإنها حافظت على كيانها كلغة وعلى كيان الشعب كأمة إذ تخرج في مدارسها الكثيرة أعداد هائلة من أبناء الشعب الذين كونوا الاطار الوطني الذي حافظ على اللغة كما حافظت هذه اللغة عليه من ذوبان كليهما في المدرسة الاستعمارية التي ظلت تناوىء اللغة العربية مناوءة لا يعرف الحياء إليها سبيلا. على أن هذه المناوءة لم تقف اللغة العربية مكانها، ولم تشرح للشعب صدره لكي يقبل على تعلم لغة الأعداء. فقد عرفت الأولى من الانتشار في الأوساط الشعبية ما سمحت لها به ظروفها الصعبة وانكمشت الثانية على نفسها بسبب ما كان يطبعها من طابع نخبوي يستهدف تكوين طبقة خاصة ممن تربطهم المصالح المادية الخاصة بالعدو.

وبذلك تكونت خلال العهد الاستعماري هذه الثقافة العربية والفرنسية التي تنظر كل واحدة منهما إلى الحياة نظرة مناهضة للأخرى. وقد نتج من هذا التناقض بين اللغتين ظهور طائفتين من المثقفين تذهب كل واحدة منهما مذهبا ناتجا من الثقافة التي كونت شخصيتها الثقافية اتصالا بالشعب أو شبه انفصال عن هذا الشعب.

وقد كان هذا هو الوضع السياسي العام للثقافة في الجزائر قبيل اندلاع الثورة : ثقافة عربية وأخرى فرنسية تشكل كل واحدة منهما طائفة متحمسة

لمنط ثقافتها تلك. وكلتا الطائفتين أرى أن نسميهما في هذا الفصل باسمهما الـذي تعـودنـاه ألا وهـو : «المعـربـون» و«المفـرنسـون». إذن فهؤلاء جميعا بمختلف مشاربهم الفكرية، وتنوع آرائهم السياسية الناتجة من طبيعة الثقافة التي تلقوها كانوا يمثلون الطبقة المتعلمة في المجتمع الجزائري عشية إلهاب فتيل الثورة وهم كما ترى طرفان متطرفان في المسألة الثقافية لا يجمع بينهما إلا أرض الجزائر حيث ينعم فريق منهم بخيراتها ويحرم الفريق الآخر من ذلك ولم يكن هذا الحـرمان وذلك النعيم إلا ثمرة من ثمرات هذه الثقافة التي ينتسب كل واحد منهما إليها أو من هذا الاستعمار الذي يجثم على صدور المعربين بقدر ما يحنو على أعناق المفرنسين. لذلك نشأ هذا التنافر والتدابر بين الفريقين وكذلك تقتضي طبيعة الأشياء أن يكون هذا التناحر والتنابز بالألقاب بين بني الجلدة الواحدة ماداموا كلهم خاضعين لقوة مستبدة بهم إن فتحت مجالا ثقافيا ضيقا لفئة معينة من المقربين إليها فلكي توصده نهائيا في وجه الكثرة الكاثرة من أفراد الشعب.

وإذا كان كل من المعربين والمفرنسين قد تعودوا إصدار أحكام عامة تسيىء إلى بعضهم البعض فإنني لا أميل إلى هذا الرأي الذي يعمم ولا يخصص ذلك أن الواقع الذي عشناه كمعربين وبلونا من أمره الكثير من المفرنسين يكذب تلك التعميمات ويصحح ما نذهب إليه من قول فقد تعود المعربون أن يصفوا المفـرنسين بأنهم دعاة الاحتلال العسكري والثقافي، وأنصار التبعية الفكرية والمتواطئون مع العدو على مسخ وفسخ الشخصية الوطنية، كما أن المفرنسين هم الآخرون يتهمون المعربين بالتخلف الثقافي والجمود الفكري ويقولون عنهم : إنهم المتخلفون الذين لا يستطيعون مواكبة التقدم الحضاري لأنهم مقيدون بهذه القيود التي تفرضها عليهم اللغة العربية الجامدة التي لم تعرف التطور ولم يعرف التطور طريقا إليها. وقد غاب عن أنصار هذه الفكرة أن لغة آبائهم وأجدادهم إنما أصابها ما أصابها من التخلف لأن العدو الذي قهر شعبهم قد قهر اللغة بقهر هذا الشعب، وأنهم هم أنفسهم ضحية لهذا العدوان الذي عدا عليهم وعـلى شعبهم وعـلى لغتهم كذلك؛ ولكن الانسان تطرأ عليه أحيانا ظروف يفقـد فيهـا وعيه بذاتـه متى كانت مقـوماته الوطنية ضعيفة أو تجنح

للضعف. وقد كان أولئك القوم من هذا الصنف الذي فقد وعيه بنفسه فويل لهم من أنفسهم وويل للثقافة الوطنية منهم؛ أليسوا سيشكلون عقبة كأداء في وجه اللغة العربية عبر مراحل حياتهم مع الاستعمار وحتى بعد الاستقلال بأربعين عاما من ذلك.

وإذا كنت لا أومن بإصدار الأحكام الجزافية فإنني أرى أن «الوطنية» ليست وقفا على المعربين لأنهم تعلموا اللغة العربية، كما أن التنكر لهذه المسألة - أي الوطنية - ليس هو الآخر خاصا بالمفرنسين لأنهم تعلموا لغة العدو ذلك أننا نجد بين المثقفين باللغة العربية من كانوا يتعاملون مع الاستعمار قبل الثورة، وفي أثناء هذه الثورة كما أننا نجد بين المفرنسين من ناصبوا العدو لعداء قبل الثورة وفي خلالها. إذن فالتناقض ماثل في حياة البعض من الطرفين : المعرب والمفرنس؛ يتعاطف بعض المعربين مع العدو كما يتعاطف بعض المفرنسين مع القضية الوطنية، كلاهما يحاول أن يخلص للطرف الذي تحمله مصلحته الخاصة على التعامل معه لا يهمه أمر اللغة العربية وهو المعرب ولا يهمه أمر اللغة الفرنسية وهو المفرنس.

وإذا كانت المسألة على هذا التناقض الكبير والتباين الواضح الذي يشهد به واقع الحياة فما هو تعليله وماهي أسبابه العميقة؟ ولكي نجيب عن ذلك الاجابة التي نطمئن إليها فإننا نعلن أننا لا ننفي العلاقة الوطيدة بين اللغة والمسألة الوطنية ولكننا ننفي أن تكون اللغة هي كل شيء في بلورة الفكر الوطني بصفة عامة والفكر الوطني الثقافي بصفة خاصة. وإذن فعلينا أن نتوصل إلى تقديم تفسير منطقي يسيغه العقل، وهذا التفسير لن يكون في رأينا إلا ما نسميه بـ «المنعة الذاتية» أو هذه المقاومة المكتنة في داخل النفس التي أودعها الله في الانسان وفطره عليها قصد التصدي لكل طارىء من شأنه أن يضعف أو ينقص من تأثير الصفات الحميدة ومفعولها في توجيه حياة الانسان. فالايمان، والصبر، وحب الوطن وغيره يعد إحدى تلك الصفات الحميدة التي تزيدها المنعة الذاتية رسوخا وثباتا في نفس الانسان أو تنقص منها مثلا.

من كل ما تقدم يتبين لنا أن الوطنية هي هذه الصفة الغريزية في الانسان - أيا كان هذا الانسان - التي يمكن الثقافة الوطنية أو الأجنبية أن تنميها أو تخفق

في إحداث هذا النمو فيها وذلك راجع أساسا إلى درجة المنعة الذاتية قوة وضعفا في الفرد المثقف.

إن الشخص المثقف الذي أوتي الاخلاص في وطنيته والذي أوتي الضعف فيها يجد كل واحد منهما نفسه واقعا تحت تأثير عامل الثقافة التي تلهب مشاعره الوطنية أكثر أو تعرضها للخمود والجمود والهمود خاصة إذا تعرضت تلك المشاعر لعوامل الابتلاء المختلفة. هذا إذا لم نضف إلى ذلك عوامل خارجية أخرى كتأثير البيئة وما ينجر عنها من مصاعب ومتاعب أو ينجم عنها من إغراء وإغواء يبتلى بها ذلك الشخص في درجة وطنيته. عندئذ تظهر منعته الذاتية التي تصقلها الثقافة وتهذبها فيحكم عليه المجتمع بأنه وطني مثقف أو مثقف غير وطني أو ناقص الوطنية في أحسن أحواله.

ونحن نعتقد أن فضل المعربين على اللغة العربية وعلى الشعب كان عظيما إذ لولا وقوف هؤلاء هذه المواقف الثقافية الوطنية المخلصة في وجه الاستعمار لكان الوجه العام للجزائر قد تبدل؛ ولكن الله جعل لهذه الأمة رجالا يدافعون عن حياضها رغم ما تخلل مسيرة القليل منهم من انحراف وزيغ، ولكن قل لي بربك: أي كتب التاريخ التي تحدثنا عن هذه الحركات الرائدة في تاريخ الشعوب التي لا يأتي الانحراف بعض رجالها فيسيئون سبيلا ؟ إنها سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وعندما اندلعت الثورة التحريرية فإنها استقطبت تلك التناقضات الفكرية والثقافية جميعا إلا أن هذه التناقضات قد انكمشت على نفسها حفاظا من القائمين بأمر الثورة على سلامة مسيرة تلك الثورة، وسنرجىء الحديث عن ذلك في آخر هذا الفصل؛ قلت: في ظل هذا الانكماش المؤقت كانت السيادة للغة الفرنسية فهي كانت لغة التسيير العمودي لشؤون تلك الثورة طيلة سنواتها السبع.

وإذا سألتني عن السبب في أن اللغة الفرنسية كان لها تلك السيادة العمودية من دون اللغة العربية والحال أنهما - اللغة العربية والفرنسية - هاجرتا معا من هذه البيئة التي كان الاستعمار يتحكم فيها إلى هذه البيئة الثورية الجديدة التي أنشأتها الثورة والتي لا سلطان للاستعمار وعملائه عليها أجبتك بأن هذا الوضع

الشاذ إنما تمتد جذوره إلى ما قبل الثورة فكما كانت اللغة الفرنسية لغة الادارة والمعاملة اليومية الرسمية خلال تلك الفترة بحكم تأصلها في التسيير من جهة ولأن المسؤولين على الثورة في هرمها الأعلى كانوا كلهم مفرنسين فكان منطقيا أن تسود تلك اللغة الأجنبية ويظل حال اللغة العربية أشبه ما يكون بحالها قبل الثورة. ولكن أهم ما ميزها في عهد الثورة هو أنها كانت لغة الاتصال بالجماهير الشعبية، هذا الاتصال الذي يقوم به هؤلاء المعربون بوصفهم قادرين على استمالة تلك الجماهير إلى التعاطف معهم في القضية الوطنية التي يجاهدون جميعا من أجلها. على أن الانصاف في القول يفرض علينا أن نثبت أن اللغة العربية كانت الأكثر انتشارا في داخل أنحاء الجزائر كلها وذلك منذ اندلاع الثورة إلى اليوم الذي وضع فيه حد للجانب المسلح فيها والسبب في ذلك راجع إلى أن المسؤولين على الثورة في الداخل كانوا كلهم تقريبا ممن يحسنون اللغة العربية أو أنهم كانوا أميين يفضلون استعمال اللغة العربية التي ينهض لهم بها هؤلاء الكتاب المعربون الذين يختارونهم لهذا الغرض ذلك أن هؤلاء الكتاب يعدون أقرب إلى نفوسهم من حيث التواصل الروحي. أما الذين يعرفون الفرنسية في الداخل فقد كان عددهم قليلا بالقياس إلى أولئك المعربين، ولذلك لم يشكل أمرهم مشكلة بالنسبة إلى هذه القضية ولذلك أيضا فقد ظل المجال الثوري في التسيير الاداري مفتوحا في الداخل أمام اللغة العربية. على أن هذا الكلام لا يعني انتفاء حدوث شيء من الصراع الخفي بين المعربين والمفرنسين بين الفينة والأخرى فقد كان ذلك الصراع مما يعيشه هؤلاء وأولئك ولكن الجميع كانوا يتغلبون عليه لأنهم قد حددوا لأنفسهم هذا الهدف الكبير الذي جمعهم كلهم وهو العمل بإخلاص وتفان من أجل استرجاع الحرية والاستقلال. على أن ما نلاحظه على هذه الكتابات باللغة العربية في داخل التراب الوطني خلال الثورة هو ميلها إلى البساطة في كل شيء أي في اللغة ذاتها والوسائل التي يتوسل بها الناس في كتاباتهم هذه. وإذا كان علينا أن نجد المعاذير لهذه الملاحظة فإن ذلك راجع في نظرنا إلى أن اللغة العربية لم تكن قبل ذلك الوقت لغة الادارة بقدر ما كانت لغة التعليم على الطريقة التقليدية لم يكسبها عدم الاستعمال في الادارة هذا الايجاز في التعبير، والوضوح في الهدف من الموضوع، والدقة في تنظيم

المراسلات واعتماد الطرق العصرية في هذه الكتابات الادارية التي جاءت صورة حية لنمط التعليم الذي أنتجها.

وإذا كان هذا وضع اللغة العربية إبان عهد الثورة داخل التراب الوطني فما هو وضعها في الخارج ياترى ؟ وإن شئت الدقة فقل : ماهو وضعها في الأقطار العربية التي هاجرت إليها خدمة لأغراضها الثورية، وعملا منها على تحقيق مبادىء وأهداف تلك الثورة ؟ وللاجابة عن ذلك نقول : كان وضع اللغة العربية في تلك الأقطار أقل انتشارا منه في داخل التراب الجزائري ولكن مفعوله كان بالغ التأثير، فقد انحصر نشاط اللغة العربية في وسائل الاعلام كالصحافة المكتوبة، والبث الاذاعي من بعض الأقطار العربية، وإلقاء الخطب على الجماهير الشعبية في هذه البلدان إلهابا لحماستها العربية، هذا إلى بعض الأنشطة الثقافية الأخرى التي لها علاقة بالتعليم العام والتكوين العسكري.

أما استعمال اللغة العربية في الادارة خارج التراب الوطني فيكاد يكون أمره معدوما. على أن هذا لا يعني أننا لا نجد أي أثر لها في تلك الادارة ولكنه يعني أنه أثر قليل جدا إذا نحن قارناه باللغة الفرنسية التي وجدت لنفسها مرتعا خصبا جديدا في هذه البيئة الجديدة التي هاجرت إليها.
على أن ما يجلب الانتباه هو أن ذلك الأثر القليل سيشكل نواة لهذه الادارة العربية التي ستظهر فيما بعد ولكنها ستتعثر بسبب العراقيل التي تلقاها من قبل الادارة الفرنسية التي كان لها السبق في ذلك والتي تتوافر على أعداد هائلة من المتمرسين على العمل بها منذ أن كان الاستعمار في هذه البلاد.

وإذا كانت اللغة العربية في أثناء الثورة على ما صورت لك من هذا الانتشار في داخل البلاد، وهو انتشار مشوب بهذه البساطة التي حدثتك عنها في اللغة والوسائل جميعا وتقلص في الشعوب العربية وغيرها من الشعوب الأوربية الأخرى التي احتضنت الثورة، يأتيها من بين يدي اللغة الفرنسية ومن خلفها.
وإذا أنت سألتني عن السبب في بروز هاتين الظاهرتين المتنافرتين : انتشار اللغة العربية في داخل الجزائر، وسيادة اللغة الفرنسية في خارج الجزائر فإني أجيبك عن الظاهرة الأولى بمثل ما كنت قدمت لك من التجلية والوضوح.

وسأحاول الآن أن أجد لك من الجواب ما يمكن أن يقنعك عن السؤال

الثاني وهو في رأينا يتمثل أول ما يتمثل في هجرة قيادة الثورة إلى الخارج بعد مؤتمر الصومام (1) . ولا يفوتنك أني كنت لا حظت لك قبل هذا أن قيادة هذه الثورة كانت كلها مفرنسة اللسان عربية الفؤاد، وبهجرة تلك القيادة، وتمركزها في كل من تونس والمغرب الأقصى فإنها سارعت إلى إنشاء إدارة إن لم تكن ثقيلة في الوسائل المادية والامكانيات البشرية فإنها كانت ثقيلة بحق على اللغة العربية، وإن شئت الدقة فقل : إنها أخذت منذ ذلك الوقت تثقل كاهل اللغة العربية ثقلا يمتد عبر سنوات الكفاح ليتواصل هذا الامتداد الثقيل والبغيض إلى ما بعد الاستقلال بأربعين عاما كما قدمت لك الحديث عن ذلك.

وفي هذه المرحلة بالذات بدأت الادارة باللغة الفرنسية تتكون بسبب تلك الهجرة التي قامت بها قيادة الثورة إلى كل من تونس والمغرب حيث تخيم السلم في هذين البلدين، تلك السلم التي من شأنها أن تساعد على ظهور مثل هذه الادارة.وهناك سبب آخر يجب علينا أن لا نغفله وهو تقاطر قوافل هؤلاء القادمين على الثورة في البلدين الآنفى الذكر من فرنسا بصفة خاصة حيث يكثر المهاجرون الجزائريون ومن أوربا بصفة عامة فقد كان لأولئك المهاجرين دور كبير في تكوين تلك الادارة علما بأن معظمهم ذوو ثقافة فرنسية استعملتهم قيادة الثورة لهذا الغرض الاداري.

أريد أن أقول : لقد كانت هذه هي الفترة التي بدأت تظهر فيها سيادة اللغة الفرنسية على اللغة العربية في عهد الثورة فهي سيادة تأتيها من القمة بحكم أن رجال هذه القمة كلهم مفرنسون لا يصدرون من الأوامر المكتوبة إلا ما خط منها باللغة الأجنبية، ولا يتلقون الرد عليها إلا بمثل هذه اللغة.

ولكن الأوامر التي تصدر عن القيادة سرعان ما تتعرب إذا نزلت إلى المجاهدين في الوحدات المقاتلة. وكان أولئك المعربون هم الذين يتولون تقريبها إلى أفهام الناس لكي يستقبلوها أحسن الاستقبال وتلقي صداها في نفوسهم. ولذلك فقد شكل هؤلاء المعربون همزة الوصل بين قيادة الثورة والمجاهدين بصفة خاصة والجماهير الشعبية العريضة بصفة عامة.

---

(1) انعقد مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956 م في الولاية الثالثة من التقسيم العسكري آنذاك للثورة.

على أنني أتوقع منك أن تلقي علي السؤال الآتي : ما دام المعربون يمثلون مجرد واسطة في الابلاغ عن القيادة وليس لهم موقع قدم خطير في تسيير تلك الادارة فهل كانوا راضين عن ذلك الوضع أو ساخطين عليه ناقمين منه وعلى أنفسهم كذلك؟ . ولكي أجيبك بما أراه مقنعا فإني أقول : إن المعربين لم يكونوا أبدا راضين عن ذلك ولا مطمئنين إليه وإنما كانوا ساخطين عليه وعلى نفوسهم ، ولكنهم كانوا راضين عن الظروف الثورية الاستثنائية التي أوجدته وأقرته . إنها الثورة التي يجب الحفاظ عليها والتي يهون كل شيء آخر في سبيلها لأنها تمثل آمال الشعب ومحط رحاله .

إن المعربين وغيرهم ممن لا يحسنون كلتا اللغتين وقفوا كلهم وقفة الرجل الواحد إن تذمروا كلهم أو بعضهم من هذه السيطرة اللغوية تذكروا الجزائر بدمائها ودموعها فإذا هم مبصرون (1) .

وأكاد أعتقد أن المعربين ضحوا كثيرا من أجل أن يتجاوزوا هذه الأزمة النفسانية الثقافية الحضارية الكامنة التي كانوا يعانون الكثير من وقعها على نفوسهم ، فهم كانوا يشعرون أن ليس لهم وجود إداري إلا في البعض من هذه المناصب الثانوية التي تتنزل عليها التعليمات باللغة الأجنبية ، ولكنهم مع ذلك كانوا يراعون الآثار الوخيمة لهذا الجزء من ذلك الكل الذي هو وجوب الحفاظ على وحدة الثورة لكي تحقق أهدافها في الحرية والاستقلال .

وقد آن لي أن ألقي على نفسي السؤال الآتي : هل كان المفرنسون كلهم أو بعضهم على الأقل يحمدون للمعربين ذلك الموقف الوطني المسؤول الذي وقفوه طيلة سيادة اللغة الفرنسية على إدارة الثورة هذه الأخيرة التي تعد من صنعهم ومن تضحياتهم جميعا ؟ وإذا كنا نعتقد أن المفرنسين كلهم لا يحمدون للمعربين موقفهم هذا فإننا متيقنون أن البعض من أولئك المفرنسين يقدرون لاخوانهم المعربين مواقفهم الرزينة الرصينة هذه ويباركونها لهم فقد دلت هذه النظرة السديدة من المعربين على أنهم كانوا في مستوى المسألة الوطنية التي يجاهد الجميع من أجلها معربين كانوا أو مفرنسين أو حتى من الذين لا يجيدون إحدى

---

(1) اقتباسا من قوله تعالى : «إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون»، سورة الأعراف، الآية : 201 .

اللغتين. على أن الذي أريد أن ألاحظه في هذه العجالة هو أن الخصومة بين الفريقين إن لم تكن معلنة ولا ظاهرة للجميع فإن نارها كانت تضطرم في نفوس المعربين الذين كان حالهم أشبه ما يكون بحال «الجواد القارح يلوك اللجام».

على أن الأمـانـة العلمية تفـرض علينا أن نسجل الأهمية الكبيرة للادارة الثورية باللغة الفرنسية فقد أدت هذه الادارة خدمات جليلة للثورة لا يمكن أي عاقـل أن يجحدها أو ينكرها وذلك بسبب ما كان للغة الفرنسية من تأصل في الادارة الاستعمارية من جهة، وبسبب معرفة القائمين بأمر هذه الادارة ممن يحسنون اللغة الفرنسية من جهة أخرى.

وإذا كنا نعترف للمفرنسين بأنهم كونوا الادارة الثورية من جهة فقد كان ذلك من جهة أخرى نتيجة للظروف القهرية التي تطورت فيها اللغة الفرنسية في الجزائر تعليما واستعمالا بقدر ما اضطهدت فرنسا اللغة العربية في الجزائر تعليما وإبعـادا مقصـودا عن الادارة فاكتملت بذلـك اللغـة الفـرنسية تعليما واستعمالا على حساب اللغة العربية تعليما وعدم استعمال؛ كذلك فإننا نعيب على أولئك المفرنسين أو على بعضهم بالأحرى محاربتهم الخفية حينا والعلنية حينا آخر للغة العربية والناطقين بها، ذلك أن مما عشناه خلال الثـورة ما رأينـاه من بعض المسؤولين في قيادة هذه الثورة الذين كانوا يفاضلون بين المفرنسين والمعربين إذ يفضلون الأوائل على الأواخر كل ذلك بدافع التحيز اللغوي الذي يستهدف اختيار طائفة على أخرى من المجاهدين المثقفين قصد احتلال المراكز القيادية في إدارة الثورة والاعداد لما بعد الاستقلال وأنت تعلم من هم الذين كان يتم اختيارهم لهذا الغرض؟ إنهم المفرنسون طبعا.

وأخـيرا هل لي أن أحـدثـك عن هذه البعوث الثقافية الخاصة إلى بعض البلدان العـربية وغـير العربية قصد تكوين أفرادها تكوينا يمتاز عن تكوين المعـربين. وإن أنت سألتني عن السر من وراء ذلك قلت لك : إنه التمييز اللغـوي والتسلط الثقـافي الـذي لا تخفى مقاصده على من بلا أمره. وهذه الحقيقة مما سنتطرق إلى ذكر شيء عنها في غير هذا الفصل، فنحن هنا لا نؤرخ لوقائع الثورة بقدر ما نريد أن نقدم حقائق ناصعة تتصل بها يمكن الباحث المهتم والمؤرخ أن يتتبع تفاصيلها في مستقبل الأيام.

وإذا كان هذا الاصطفاء والانتقاء يتم وفقا لهذه المعايير اللغوية المتطرفة التي تحاول دائما أن تغلب المفرنسين على المعربين فإن هؤلاء الأخيرين ربطوا مصيرهم الثقافي بمصير اللغة التي ينتمون إليها. ولكن المفرنسين ظلوا دائما يتجاهلون هذه الحقيقة بل ويتنكرون لها لأن مصالحهم الخاصة هي التي تتحكم في نظرتهم لهذه المسألة الثقافة الوطنية التي تمثل إحدى ركائز الثورة وأحد أسسها القويمة والمتينة.

كان هذا هو الدور الذي أدته الثقافة بشقيها العربي والفرنسي في الثورة الجزائرية وهو دور كما ترى يغلب عليه إيثار المصلحة العامة على وجه العموم، فقد كان كل من المفرنسين والمعربين يشتركون في النظرة للقضية الوطنية التي جمعتهم ظروف الثورة للنهوض بأعبائها الثقال. ولكنهم كانوا يختلفون في تقويمهم لأحد مقومات تلك القضية الوطنية، هذا المقوم هو مشكلة اللغة العربية هذه المشكلة التي صنعها الاستعمار الفرنسي والتي ظلت تشكل حاجزا نفسانيا بينهم يرجع عهده إلى ما قبل الثورة وخلال هذه الثورة وحتى إلى يومنا هذا.

وإذا كان المعربون ينظرون إلى تلك المشلكة على أنها استكمال للمشروع الثقافي الوطني الذي يعد مبدأ أساسا من مبادىء الثورة الشعبية، وأن هذا المشروع الثقافي الحضاري يبقى ناقصا إذا لم تستعد اللغة العربية سيادتها المفقودة فإن المفرنسين ينظرون إلى ذلك المشروع الوطني على أن في تنفيذه نفاذا لمصالحهم وقضاء مبرما على امتيازاتهم التي تميزهم عن الشعب. لذلك عمل أولئك المفرنسون ماوسعهم العمل على تأجيل تنفيذه ما دام فيه خطر على مصالحهم المادية الخاصة ولكنهم يلوحون بأعذار غير هذه التي تكشف عن نياتهم، فهم تارة يعتذرون بفكرة التواصل الحضاري مع الغرب من خلال الثقافة الفرنسية، وتارة أخرى يقولون : هذه مسألة موكول أمرها إلى العامل الزمني الذي سيتولى حسمها عندما تنقرض الأجيال المفرنسة وتظهر هذه الأجيال المعربة الأخرى التي تنشئها مدرسة مابعد الاستقلال.

وإذا كان اختلاق الأعذار سهلا في هذه القضية فإن الرد عليها أكثر سهولة إذ يكفي أن يذكر المفرنسون أن اللغة التي فرغوا أنفسهم لخدمتها لا يمكنها أن

تكـون عامل تقدم حضاري مؤسس على المقومات الوطنية التي تنهض عليها حياة الشعب فقد سبق لهذا الأخير أن رفض اللغة الفرنسية والحضارة الفـرنسية الغربية وذلك في الوقت الذي كانت فيه تلك الثقافة والحضارة مفروضة عليه بالقوة ولكنه أحدث هذه القطيعة بينه وبين تلك الثقافة والحضارة فلم يتكون بينهما هذا التفاعل الذي يسهم في إنشاء الحضارة المسيطرة. وإذا كان هذا هو حال الشعب من الرفض الشامل والمعلن للثقافة الفرنسية فكيف بالقوم يريدون اليوم من الشعب أن يبعث حضارته العربية الاسلامية على أسس لا تمت إلى حياته الروحية في شيء ولكنها المنافع المادية الذاتية والأنانية المفرطة لهؤلاء المفرنسين الذين ارتبطوا باللغة الفرنسية في ظروف كان غيرهم قد تحرر منها فهل تتحرر نفوس المفرنسين في عهد الحرية ؟ سؤال نلقيه عليهم نرجو أن يجيبوا عنه ونفوس بعضهم حرة وأقلامهم غير مأجورة.

صور مما عانته الحيوانات في الثورة الجزائرية *

نشرت جريدة الشعب في ركن «ما قل ودل» بتاريخ 1988/12/25 م للأستاذ الشيخ / محمد الصالح الصديق ما يأتي : عثرت بين جرائد ومجلات قديمة على العدد السابع من مجلة «الشعلة» 26 جانفي 1950 م التي كانت تصدر بقسنطينة وقرأت فيها كلمة بلا إمضاء هذا نصها : (قرأت في إحدى الصحف المصرية أن الحكومة اليابانية أنعمت على بعض الكلاب بأوسمة ونياشين رفيعة جزاء لما قدمته هذه الكلاب من خدمات جليلة ومساعدات فعالة في الحرب. حتى الكلاب تخدم أوطانها وتنفع بلادها التي تعيش فيها، في الوقت الذي نجد (كذا) عندنا أناسا ينعم عليهم بمثل هذه الأوسمة والنياشين، ولكن لا لأنهم نفعوا وطنهم بشيء بل بالعكس، لأنهم أضروا به وخذلوه».

عندما قرأت هذا الكلام ألقيت على نفسي السؤال الآتي : لم لا أكتب أنا أيضا عن دور الحيوانات في الثورة الجزائرية ولي من كلام الشيخ ما أشد به أزرى وأشركه في أمري ؟

ولما رجعت إلى أوراقي الخاصة وجدتها بالأخبار عن ذلك غاصة، إلا أنني وقفت منها موقف المتحير لا أدري أيها أتخير ؟ هل أبدأ بالحديث عن الحصان والجمل، أم أقص خبر الذئب والحمل ؟

إنها على كل حال حقائق صادقة روتها لنا مصادر ناطقة لا يزال أصحابها أحياء يمكن الرجوع إليهم عند الاقتضاء. والحيوانات مخلوقات ذكرها الله سبحانه وتعالى بأسمائها المختلفة في مواطن كثيرة من القرآن الكريم يمدح

* نشرت في جريدة (الشعب) سنة 1989 م.

بعضها مرة ويذم بعضها الآخر مرة أخرى فقد مدح منها الخيل على وجه الخصوص عندما قال : «ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم (1)»، كما أنه مدح الكبش فقال : وفديناه بذبح عظيم (2) وقال عن الناقة : فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها (3).أما البقرة فإن أطول سورة في القرآن الكريم تحمل اسمها.

وأما الحيوانات التي ذمها الله تعالى فنذكر منها : الحمار والكلب والقرد ووصف كل واحدة منها بما يليق به من أقبح الأوصاف وذميم النعوت فقال عن الحمار : «إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» (4)، وقال عن الكلب : «مثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث» (5)، وقال عن القرد : «فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين» (6)

وبسبب الأهمية الكبيرة للحيوانات فقد استعملتها الشعوب قديما وحديثا في حروبها، إذ شن ملك الحبشة حملة على مكة كان الفيل قوامها، وعن تلك الحملة يقول الله : «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. . . .» (7)، أما في العصر الحديث فيكفي أن نعلم أن في كل جيش عصري سلاحا خاصا يسمى «سلاح الخيالة».

وقد أدرك المستعمرون الفرنسيون في الجزائر دور الحيوانات في الحروب خاصة منها الحروب التحريرية فراحوا يصادرونها من أهلها مرة، ويقتلونها أخرى ويمنعون أصحابها من التنقل بها في مناطق الرعي حيث يكثر تردد المجاهدين إليها قصد تجويع هؤلاء، وعدم استعانتهم بها ركوبا وحملا للأثقال وإنفاقا على حاجاتهم اليومية.

---

(1) سورة الأنفال، الآية : 60.
(2) سورة الصافات، الآية : 107.
(3) سورة والشمس وضحاها، الآية : 14.
(4) سورة لقمان، الآية : 19.
(5) سورة الأعراف، الآية : 176.
(6) سورة البقرة، الآية : 65.
(7) سورة الفيل، الآية : 1.

وإذا كانت كل حركة ثورية تعتمد أساسا على الشعب فكذلك كانت الثورة الجـزائـرية التحـاما بالشعب والتفافا حوله تقوى بقوته، وتتطاول على العدو بتـطاولـه. وإذا كان الشعب الجزائري قد دفع للمستعمرين الفرنسيين ثمن تأييده العفوي للثورة غاليا فإن الحيوانات في الجزائر لم تسلم هي الأخرى من تقديم هذا الثمن الباهظ والتكلفة الغالية التي اختلفت طبيعة ثمنها فهي تارة قتـل متعمد، وأخرى جراح مثخنة، وثالثة مطاردة تستهدف التسلية ورابعة مصادرة وسلب ونهب إلى غير ذلك من التفنن في هذه الوسائل البشعة التي لا تتصف بالانسانية والتي سجلها الاستعمار الفرنسي لنفسه في الجزائر وتذكرها له الأجيال ذكرا سيئا.

وقد كان لتلك الأخطار اليومية المحدقة بالانسان والحيوان على السواء خلال الثورة التحريرية أثرها السيء عليهما إذ تعلمت الحيوانات بغريزتها كيف تحذر، وتترقب وتتحيل، وكيف تقاوم وتنفلت من الخطر بأساليبها الخاصة وطرقها التي اهتـدت إليهـا بفعـل المـران والدربة والتواصل اليومي للغارات الجوية منها والأرضية وإصابة الطلقات المصوبة منها والشاردة على السواء. إنه لا يمكننا بأية حال من الأحوال أن نقدم صورة حية ولا أن نستوفي هذا الموضوع حقه من الدراسة والتحليل لكي نقرر هذه الحقيقة التاريخية الكبيرة وهي أن الحيوانات في أثنـاء الثورة الجزائرية قد عانت هي الأخرى الكثير من أخطار الاستعمار المتعمدة تماما كما عانى الانسان ذلك وإن اختلفا في شدة الشعور وتباينا في عمق الاحساس به والجهر بألمه والاعراب عن ذلك. إننا لم نعكف على كتابة هذه الحقائق هازئين ولا ساخرين من القارىء بقدر ما نريد جلب انتباهه إلى هذا الركن الحيوي في التاريخ العام للثورة الذي سيبقى ناقصا لو لم تتضافر الجهود على تدوين الجوانب الأخرى التي لا يكتمل ذلك التاريخ العام للثورة إلا بها.

إننـــا لا نعتني بتـاريخ الثـورة من خلال الـتركيز على المعـارك والكمنـاء والاشتباكات. وعندي أن هذه لم يخض غمارها المجاهدون إلا بعد أن تسلحوا بسلاح أشد مضاء وأكثر حدة ألا وهو سلاح الايمان بالمعتقد الديني والوطني من جهة والالتحام بالشعب والالتفاف العفوى حوله من جهة أخرى.

من هنا يتبين لنا مدى الأهمية القصوى بوجوب العناية بدراسة تلك العلاقة

العضوية بين المجاهدين وبين أفراد هذا الشعب وهو موضوع خصب متعدد ومتشعب الجوانب، لا يمكن الاقتصار فيه على جانب واحد وإهمال الجوانب الأخرى.

أعود إلى حيث توقفت فأقول: إن الانسان والحيوان لقيا الكثير من أوجال وأهوال الاستعمار وان اختلفا في شدة الشعور بذلك وتباينا في عمق الاحساس به، وكاتب هذا المقال يعد أحد الذين تأكدوا في أثناء الثورة المسلحة صحة هذه الحقيقة عن الجمل بصفة خاصة وهي أنه - أي الجمل - قد تعلم بغريزته مقدمات الأخطار فأنت تراه إذا سمع أزيز الطائرة يسرع إلى الاختباء ويهرول إلى الاختفاء.

وقد حدث ذلك أكثر من مرة إذ يبادر الجمل بالاستناخة عندما تملأ الطائرة عليه الجو بهدير محركها، وإذا رأى شجرة أو شيئا واقيا عن الأنظار فإنه يحتمي به بعد أن يستنيخ لا يتحرك أبدا إلا بعد أن تزول مظاهر الخطر. هذا عن الجمل.

أما عن الذئب فقد كتب لي الأخ «صحراوي محمد علي» (1) ما يأتي: «كان ذلك في شهر جويلية من عام 1956 م في جبل «إرقو» قرب الجبل الأبيض (ولاية تبسة) غير بعيد عن جبل الجرف حيث طوقنا رجال العدو عند بزوغ الفجر، وما كادت الساعة الثامنة صباحا تدق حتى بدأت المعركة، وقد اتفق أن كان ذئب داخل منطقة العمليات تطارده طلقات الرصاص الشاردة من الطرفين فلم يستطع أن يفلت من ميدان المعركة. فبقي مطاردا هنا وهناك لا يكاد ينجو بنفسه. ولما طالت المعركة واشتد لهيبها باشتداد حرارة شمس شهر جويلية اللافحة فإنه بعد أن أعياه الضنى واشتد به التعب آثر أن يحتمي بأحد الطرفين المتقاتلين فيلوذ به ويلجأ إليه، فإلى أي الطرفين سينحاز الذئب يا ترى؟ لقد اختار الهروب إلينا ولاذ بالفرار إلى جوارنا. وعندما وصل إلينا تأملنا جيدا ثم بسط ذراعيه تحت شجرة من العرار. كان يواصل تحديقه فينا كأنما يسألنا العطف عليه والرحمة به ولكن أحد رفاقي قال لي: «أأقتله»؟ ولما منعته من

---

(1) هو من مجاهدي الولاية الأولى في منطقة (تبسة).

ذلك بشدة أجابني : «إنه ذئب عدو لنا مثله في ذلك مثل هؤلاء الذئاب البشرية الأخرى التي تجمعت لقتالنا» فقلت له مداعبا : «هذا ذئب جزائري لاذ بنا فلا تمسه بسوء، أما أولئك فذئاب أجانب أكثر وحشية من ذئبنا هذا الذي احتمى بنا فلنكرم وفادته علينا». واستطرد يقول : وكأني بالذئب قد فهم ما كان يدور بيننا من حديث فكان يلقي علينا نظرات ذليلة الطرف، فأهملنا أمره. كان ينام مرة ويستيقظ أخرى قال الشاعر ·

ينـام بـإحدى مقلتيـه ويتـقي
بأخـرى المنـايـا فهـو يقظـان نائـم

وعندما تلفع الكون بظلام الليل فقد تسلل الذئب تحت جناحه الصفيق.

أما ما جاء عن الثعلب فقد كتب لي الراوي نفسه يقول : في سنة 1957 م قام العـدو بتجميع الأهالي بالقرب من مراكز الأمن فخلا الريف بذلك من السكـان أوكاد حتى أن الحيوانات غير الأليفة أصبحت تخرج من أوكارها في النهار بحثا عن قوتها اليومي. من ذلك أننا شاهدنا ثعلبا هاربة وطائرة تطاردها وقد دام ذلك أكثر من ساعتين إلى أن قتلتها بمدفع رشاش وقد تم ذلك في جبل «الدرمون» بالشريعة. وأما في سنة 1958 م فقد شاهدنا ثعلبا تطاردها طائرة والثعلب تروغ إلى أن وصلت إلى جبل كثيف الأشجار ملتف الأغصان حيث اكتشفت الطائرة عددا من الجمال لم تلبث أن صوبت عليها نيران رصاصها فلم تصب أي واحد منها فأعادت الكرة مرة ومرة إلا أنها ارتطمت في إحدى المرات بشجرة باسقة ثبت أصلها في الأرض وارتفع فرعها في السماء فمات طاقمها كلهم وتحطمت عن آخرها. عندئذ أسرع إليها المجاهدون فاستحوذوا على ما كان فيها من أسلحة ومتاع وذخيرة حربية ثم أشعلوا فيها النار، وكان ذلك بالقرب من سيدي «ظاهر» بجبل بوشبكة (1)، وكان سبب ذلك كله راجعا إلى عملية «الطائرة والثعلب».

وإذا رجعنا إلى معرفة الدور الذي أداه نوع آخر من الحيوانات في الثورة فإننا نجده هو الآخر قد قام بهذه الاستضافة العفوية للمجاهدين وأعني به «الكلب» فقـد حدثني المجـاهـد الوردي قتال. قال : كنا في إحدى الليالي نمر بأحد

(1) على الحدود التونسية الجزائرية.

الدواوير في نواحي تبسة (أولاد سي يحي) ولما تعبنا عرجنا على أحد الأهالي نريد أن نتناول قهوة نستعين بها على مواصلة طريقنا. وعندما اقتربنا من منزله اعترضتنا كلابه لكنها لم تنبحنا فتفاءلنا بذلك خيرا ثم استطرد يقول: «وبعد أن خرج إلينا صاحب الدار رحب بنا وقال لنا بتعجب بالغ: كلابي! كيف بها لم تنبحكم وقد كان عهدي بها تنزل الفارس عن فرسه؟ أي شيء عملتم لكلابي؟ كيف تعاملتم معها فلم تنبحكم؟ قال محدثي: وقد فسرنا هذه الظاهرة في ذلك الوقت فقلنا: «يمكن أن الكلاب عرفت حقيقة أمرنا وسلامة مقصدنا فهي لا تشي بنا ولا تنذر بنبحها عن مقدمنا رجال العدو».

كما حدثني أيضا قال: «كنت في إحدى المرات في زيارة أسرتي فقال لي جدي: أؤكد لك يا ولدي أن الثورة منتصرة بحول الله على أعدائها. فقلت له: وكيف عرفت ذلك يا جدي؟ فقال: «إني تيقنت ذلك عندما جاء كلبنا ذات يوم حاملا بين أنيابه كراع أحد العساكر الفرنسيين. لقد كان هذا بالنسبة إلى إيذانا بتباشير الاستقلال. أما الأخ / عبد الله ناصري (المدعو ابراهيم) فقال لي في الموضوع ما يأتي: عندما رجعت من تونس في الأيام الأولى للاستقلال جلب انتباهي ذات يوم ثقب واسع في برميل كبير للماء. وعندما سألت جدتي عن ذلك الثقب قالت لي: «إن ذلك سببه رمية رماها أحد جنود العدو على الكلب ليقتله فاخطأه فأصابت الطلقة البرميل فأحدثت به الثقب الذي تراه» فقلت لها: «ولم كان العدو يريد أن يقتل الكلب؟» فقالت تفصل ذلك: «كان لنا كلب من نوع «سلوقي» أخص ما يتميز به أنه إذا رأى رجال العدو فإنه ينبحهم وينقض على الواحد منهم يكاد يلقيه على الأرض. وبالتالي فإنه لا يترك لهم المجال للتفتيش والبحث داخل منزلنا. وقد كان هذا هو شأنه دائما مع أفراد العدو. أما إذا جاء المجاهدون فإننا لاحظنا عليه أنه لا ينبحهم أبدا بل يرحب بهم. وقد حدث ذات يوم أن طوق العدو الأهالي فراحوا يجوسون خلال الأكواخ والمنازل، ولما وصل بعضهم إلى منزلنا يريدون تفتيشه فإن الكلب كشر عن أنيابه وأنشب أظفاره في أحد العساكر يريد به شرا كدأبه في ذلك، فما كان من عسكري ثان إلا أن صوب بندقيته على الكلب لانقاذ حياة زميله. ولكن تصويبه لم يكن دقيقا فأصابت الطلقة البرميل فأحدثت به هذا

الثقب الواسع. ثم واصلت كلامها تقول: «ومنذئذ كلما رأينا العسكر يقترب من منازلنا لتفتيشها سارعت إلى إمساك الكلب وألقيته في مطمورة أحكمت غطاءها لكي لا يسمع عساكر العدو نبحه فينجو بنفسه من رصاصهم القاتل».

أما ما كان من أمر البغلة التي سددت إحدى الطائرات سلاحها عليها فأردتها قتيلة فأمرها معروف بنواحي الشريعة (تبسة) عام 1957 م، وبعد أيام قليلة من قتلها على هذه الصورة الفظيعة تحدث الناس عن موقف آخر أشد فظاعة وأكثر بشاعة وهولا لهذه البغلة الميتة التي عجنتها إحدى الدبابات عندما مرت على جثتها فاختلط لحمها وعظامها ودماؤها وجلدها بالتراب.

وحدثني المناضل / الطاهر بن محمود زرفاوي (1) قال: «في أواخر خريف عام 1958 م كنا ننتجع في «سطحية العرعار» (ولاية تبسة) حيث علم العدو أن بعض المجاهدين يكمنون في بعض المنازل بتلك الناحية، وما إن أصبح الصباح حتى كانت تلك المنطقة كلها معرضة لقصف الطيران. وكانت غنمنا التي كان عددها 400 نعجة و97 من المعز معرضة لقنبلة طائرتين أفرغتا على تلك الحيوانات كل ما في جوفهما من قنابل، وكان مما ساعد على الفناء التام لتلك الحيوانات أن سورا كان مضروبا عليها في حظيرة فلم تتمكن من الهروب والتفلت، وبذلك فنيت عن آخرها فلم ينج منها ولو رأس واحد».

وأخيرا هل لي أن أحدثك قليلا عن أمر الحمار الذي ألقي عليه العدو القبض في إحدى المعارك، بعد أن عرف أن لهذا الحمار سوابق ثورية خطيرة إذ كان يحمل معدات حربية وأشياء أخرى للمجاهدين في أحد الاشتباكات التي نجا منها بحمولته هذه. عندئذ ازداد سخط العدو وغضبه على الحمار فنصبوا له محكمة صورية أصدروا عليه فيها الحكم بالاعدام.

---

(1) هو من سكان الشريعة ومن مناضليها المعروفين.

وفي أحد الأيام جلب انتباه الأهالي تجمع عام لكلاب دشرتهم فعلموا أن العدو نفذ في الحمار الحكم الذي كان أصدره عليه ثم رمي بجثته إلى كلاب الدشرة تنهشها. وقد تغنى بعض شعراء الجزائر الذين واكبوا الثورة وكانوا معها بفضل الحيوانات على حركة التحرر الوطني فمما جاء في هذا الخصوص في قصيدة للأستاذ المجاهد / أحمد الطيب معاش تحت عنوان : «البغل الشهيد» قوله :

سقط البغل في الكمين شهيدا ... ونجونا بفضل ذاك الشهيد
قد حمانا بجسمه من شظايا ... سكنت في قوامه الممدود
كان يمشي بقربنا طول ليل ... ويهز السكون بالتنهيد
عندما صار حذو «خط مريس» ... سبقتنا خطاه كالصنديد
فرمى حافرا على شحنة الموت ... فأضحى في الحين كالجلمود
فعلت منه نهقة وأنين ... كنحيب اليتيم يوم العيد
وهممنا بدفنه كشهيد ... غير أن العدو غير بعيد

وإذا رجعنا إلى «إلياذة الجزائر» لصاحبها مفدي زكريا، فإننا نجده قد أنصف الحيوانات هو الآخر على ماكان لها من دور إيجابي في تحمل الأعباء والمشاق من أجل التحرير الوطني فقد خصص لها بعض المقاطع في إلياذته المذكورة لكي ينوه بها ويسجل للتاريخ ما قدمته من أياد وأفضال للثورة؛ إستمع إليه وهو يصف ذلك في هذا المقطع حيث يقول :

إذا الشعر خلد أسد الرهان ... أينسى مغامرة الحيوان ؟
أينسى البغال ؟ أينسى الحميـ ... ـر وهل ببطولاتها يستهان ؟
سلام على البغل، يعلو الجبـ ... ـال (1) ثقيلا ، فيكبره الثقلان
وعاش الحمار يقل السلاح ... ويغشى المعامع ثبت الجنان

(1) لولا البغال والحمير لما كانت الجبال معاقل حرة للمجاهدين، ولا كان في الامكان تزويد الثوار بالذخيرة والميرة والسلاح.

وبـارك فــأرا . . (2) يـوزع نــارا فيخلع بالـرعب قلب الجبـــان
وطوبـى لعنـز (3) يضلل جنـــدا ويخـــدع أحلاســـه بالأمـــان
وللكلــب (4) يهجــر طبع النبـــ ـــاح ويهـوي النميمـة بالطيـران
فلـــولاك يـــا حيـــوان الفـــدا لما أحرز الشعب كسب الرهـان
بـــذكـــراك تعتـــز إليـــاذتـــي فأزكـــى التحيـات : يا حيـــوان

(2) كان المجاهـدون يطلون الفئـران بالبنزين ويشعلونه فتنطلق في المزارع ساحقة ماحقة فتتلف المحاصيل وتشيع الرعب في أفئدة المستعمرين الرعاديد .
(3) كان المجاهدون يعلقون مصابيح صغيرة على جبهات العنز فتراكض فوق الطريق وتحت الطريق يحسبها جنود العدو تحركا للجيش (المجاهدين) فيصوبون نحوها طلقاتهم فيطوقهم الجيش الجزائري من الاتجاه المعاكس .
(4) لقد توصل المجاهدون بعد ترويض طويل لتعويد الكلاب عدم النباح ، ثم إن الحاسة المرهفة في الكلاب تجعلها تشعر بخطر الطائرات المطاردة والنهامة قبل وصولها برهة مديدة فيكثر هيجانها وارتباكها فيحتاط لها المجاهدون فإذا وصلت انبطحت الكلاب وليس أوفى من الكلب . (التعاليق : الأول ، الثاني ، الثالث والرابع منقولة حرفيا عن (إلياذة الجزائر) . الجزائر : المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، 1986 ص 81 .

يـوم الشعـــب
أو 11 ديسمبـر 1960 م *

يعد الشعب الجزائري من أكثر شعوب الأرض تعرضا للشدائد والمحن عبر تاريخه الطويل. ومن أشد هذه الشعوب اعتمادا على النفس في مواجهة هذه الاستشكالات وإيجاد الحلول الذاتية لها وذلك بفضل ما أوتي من قوة وعزم وما طبع عليه من تعويل على النفس. وهذا الأسلوب الخاص في تعامل الشعب الجزائري مع الأخطار يرجع إلى أسباب داخلية كثيرة لا يمكن حصرها في هذه السطور القلائل ولعلها تكون موضوع بحث خاص إن شـاء الله.

وإذا كانت الثورات الكثيرة التي فجرها الشعب الجزائري على الاستعمار الفرنسي لم تؤت ثمارها بسبب عوامل داخلية وخارجية لا يمكننا أن نخوض في ذكـرها في هذه العجالة فإن ثورة الفاتح من نوفمبر 1954 م قد تهيأ لها من الأسباب الداخلية والخارجية ما ضمن لها مواصلة جهادها إلى أن قطفت أثمار أتعابها باسمة.

وفي رأينـا فإن العمق الشعبي لتلك الثورة قد شكل حجر الزاوية فيها. وجعلها تختلف عن تلك الثورات السابقة. إن تغلغل الفكر الثوري في نفوس أفراد الشعب والايمان الكبير بهذه الثورة قد أكسبها منعة ذاتية وأحاطها بحجاب صفيق يقيها شر الهزات وويل الصدمات.

وإذا كان الشعب يشكل مصدر القوة المعنوية والمادية في كل ثورة رائدة فإن

---

* نشرت في جريدة (الشعـب)، سنة 1991 م.

الشعب الجزائري قد مثل هو الآخر مصدر القوة المادية والالهام الروحي في أثناء ثورتـه التحريرية الكبرى. إنه كان المعطاء السخي لهذه الثورة وكان الينبوع الذي لا ينضب له معين طيلة فترة جهده الشاق والمرير.

وقد كانت فرنسا تشكك دائما في صدق تمثيل جبهة التحرير الوطني لكفاح الشعب الجـزائري كما أنها كانت تعمل دوما على إيجاد قوة بديلة لهذه الجبهة تدعى لها التحدث باسم الشعب. لذلك لجأت جبهة التحرير الوطني إلى تفنيد هذا الـرأي وإبطال هذه الدعاوي الكاذبة عندما دعت الشعب الذي تنطق باسمه في المعارك في الداخل والمحافل الدولية في الخارج أن ينطق باسمها في شوارع المدن لتدلل بذلك للعدو والعالم أجمع على أنها القيادة الوحيدة التي لا بديل عنها للشعب.

وفعلا فقد نطق الشعب باسم الجبهة عندما استجاب دعوتها فقام بتنظيم مظاهرات 11 ديسمبر 1960 م يعلن فيها ولاءه لقيادته الثورية وربط مصيره بمصيرها إيمانا منه بأن هذه القيادة لن تتخلى عنه كما أنه لن يتخلى عنها وبذلك أظهـرت هذه المظاهرات مدى التلاحم والتلقاء العفوى بين جماهير الشعب وقيادة هذه الجماهير.

وإذا كان فضل الريف عظيما في المبادرة بتفجير الثورة في ليلة الفاتح من نوفمبر 1954 م، فإن هذا الفضل يعود إلى المدينة كذلك عندما خرجت عن بكرة أبيها لا تستهدف من هذه المظاهرات إلا التعجيل بوضع حد نهائي لهذه الحرب الظالمة، وقد نجحت المدينة في تحقيق هدفها نجاحا كبيرا إذ عجلت تلك التظاهرات الشعبية العارمة بحسم الموقف بعد مدة قصيرة من إعلانها في وجه العدو.

وقد أزعجت هذه المظاهرات نفوس المعمرين وأقضت مضاجعهم وذادت النوم عن عيونهم فراحوا يبطشون بالشعب البطش كله وينكلون به تنكيلا ولكنه لم يكن ليلين أو يضعف ويستكين بل كان قويا وظل كذلك إلى أن أذن الله للعدو بالرحيل.

ولئن حدثتك عن مظاهرات الشعب في يوم 11 ديسمبر 1960 م بإيجاز

شديد فإني أختم حديثي إليك بذكر حادثتين كلما تذكرتهما ازداد إيماني بعظمة هذا الشعب وعبقريته الفذة. أما الحادثة الأولى فقد رواها لي أحد مناضلي مدينة الجزائر قال :

في اليوم الأول من اندلاع المظاهرات في العاصمة قال ضابط فرنسي يخاطب جموع المتظاهرين داعيا إياهم إلى التزام الهدوء والتذكير بالطاعة للدولة الحاكمة : «والآن يجب عليكم أن تعودوا إلى دياركم، لقد داهمكم الليل، إذهبوا لتناموا». ولكنه ما إن أتم كلامه حتى أجابه أحد أولئك المتظاهرين : «لقد نمنا كثيرا، ولن ننام بعد اليوم». وأما الحادثة الثانية فقد سمعتها هي الأخرى من الكثيرين من سكان مدينة الشريعة (ولاية تبسة) ومؤداها أن السكان عندما خرجوا يتظاهرون تلبية لنداء جبهة التحرير الوطني آنذاك فإن فرنسا قد حاصرتهم حصارا شديدا واستعملت وسائل الترهيب كلها لاخافتهم وتهديدهم. ولما لم يفل ذلك في عضدهم فإنها استنجدت بالطائرات علها تقذف في قلوبهم الرعب ولكن ذلك لم يزدهم إلا إيمانا بالله وتعويلا على النفس فراحوا يرشقونها بالحجارة في المكان المسمى «لكراع». نعم كانوا يرمون الأحجار على تلك الطائرات كما يفعل ذلك أطفال الحجارة في فلسطين على الأعداء الصهاينة في هذه الأيام.

إننا إذا أردنا أن نحلل هذين المشهدين المتباعدين في المكان، المتقاربين في الزمان يتجلى لنا بوضوح أن الشعب الجزائري قد عقد العزم على طرد الاستعمار لأنه استفاق من نومه الذي لم يذق له حلاوة.

لقد كان الاعتصام بحبل الله، والتسلح بمبادىء الثورة مبدأ قويا من المبادىء التي آمنت بها الجماهير الشعبية. من هنا كان الوعي السياسي مظهرا من مظاهر الفرد الجزائري خلال الثورة التي تخرج في مدرستها هذا الفرد وهو مؤهل لتحمل المسؤولية بفضل توجيهه الثوري الصحيح، واعتناقه الراسخ للمثل العليا التي يدافع عنها دفاعا لا يعرف اليأس والاستسلام. ولعل حادثة مدينة الشريعة تدلنا على مدى تأهل وتأصل فكرة الدفاع المشروع عن النفس في نفس الفرد الجزائري، ولو كان ذلك بأكثر الوسائل بدائية وأقربها إلى العصر الحجري ذلك أن الذين رشقوا الطائرات بالحجارة يعرفون أكثر من غيرهم

وحشية الطائرة بل وحشية من صنعوا هذه الطائرة كما أنهم يؤمنون بالمثل الذي يقـول : «لا يفل الحديد إلا الحديد»، ولكنهم فعلوا ذلك لأنهم يريدون أن يعبروا للعدو عن وجودهم الفاعل في ميدان المعركة، وأن يشعروه بأنهم قادرون على مجابهته والتصدي له بقوة وعزم إذا توافر لهم من الوسائل المادية ما يسهل لهم عملية مجابهتهم إياه.

وإذا كان علينا أن نصف هذه العملية وصفا داخليا دقيقا فإننا نقول : إنها رد فعـل نفسـاني معاكس لما يقوم به العدو من إبادة جماعية وحصد للأرواح البشرية ظهرت بشاعة صورتها في هذا الموقف المشهود الذي تحلق فيه الطائرات تريد أن ترهب هذه النفوس المؤمنة التي لا تتزلزل ولا تتزعزع لأنها صممت على اكتساب النصر فكان لها ما أرادت من ذلك النصر.

الشعب هـو مصـدر القـــوة

أيهما يستمد قوته من الآخر أهي الدولة أم الشعب ؟ هذا سؤال ألقيته على نفسي، وأنا أشهد هذه المشاهد الخالدة التي تخلد بها الحكومة يوما منسيا من أيام الشعب (11 ديسمبر 1960) الذي لم نشهد إحياءه إلا في هذا العام (1991) فقد خرج الوزراء في موكب رسمي بهيج إلى حيث انطلقت أولى هذه المظاهرات الشعبية العارمة التي خرج فيها الشعب يعلن رفضه للاستعمار الفرنسي وتأييده لجبهة التحرير التي تقود كفاحه، وتتحمل مسؤولياته في أحلك ظروفه وأشدها قسوة.

وإذا كانت تلك المظاهرات قد أدخلت جهاد الشعب الجزائري في التاريخ من بابه العريض، وأرغمت العدو على وجوب الاعتراف له بحقه المشروع في الحرية والاستقلال فإنها تعد بحق يوما من أيام الله في حياة الشعب. لأجل ذلك فإن الواجب الوطني يفرض على أولي الأمر أن يدرجوا هذا اليوم في قائمة الأيام الوطنية الرسمية التي تحتفل بها السلطة التي تمثل إرادة الشعب.

ولكن السلطة تعودت أن لا تحتفل بهذا اليوم ولا أن تحيي مآثره فهي لا تذكره بكلمة رسمية منها ولا يمجد بقول على لسانها، ناهيك من أن تخرج في مثل هذا الموكب الذي يخترق الشوارع الضيقة للعاصمة ويكلف نفسه عناء الوصول إلى هذه الساحة الشعبية المزدحمة بالسكان حيث يرفع العلم الوطني وتلقى الكلمات فتتحمس لها نفوس كثيرة وتنكسر لها نفوس أخرى قليلة، نعم تتحمس نفوس الـذين صنعـوا هذا اليوم بدمـائهم ودموعهم وتنكسر نفوس الذين وقفوا في وجوههم بالأمس وهم قليلون والحمد لله.

ولكننا فوجئنا هذه الأيام بما لم نتعوده قبل هذا العام فقد وقفت السلطة موقفا لم نألفه منها قبل اليوم من مظاهرات عام 1960 م فأقامت الاحتفالات بهذا اليوم ونظمت المهرجانات وأشرفت على كل حركة تحرك في النفوس حنينها إلى ذلك اليوم.

وإذا كان لي أن أجد تفسيرا مقنعا لهذه اللفتة الكريمة من الحكومة عن هذا اليوم فإني أقول : إن السلطة هي الوسيلة التي يتوسل بها الشعب إلى تحقيق أهدافه، والوسائل تتباين قوة وضعفا بتباين عزم الرجال الذين يمسكون بزمام أمرها وذلك انطلاقا من نظرة هؤلاء الرجال الخاصة إلى الحياة وتصورهم للأساليب التي يحققون بها الأهداف والأغراض التي فرغوا أنفسهم لخدمتها. من هنا كان حتما على السلطة أن ترجع إلى الشعب تستمد منه القوة كلما آنست من نفسها ضعفا وتستلهم برنامج عملها من مبادئه وأصوله التي تظل دوما تشكل زاده الذي يتزود به. ولكن شعور السلطة بقوة جانبها يجعلها تبتعد عن الشعب أحيانا فيقل إحساسها بإحساسه ويضعف شعورها بشعوره.

إن السلطة ترجع إلى الشعب فيما يستشكل عليها من أمر فتجد فيه الحلول لقضاياها وتستنبط منه الأحكام التي تجابه بها المعضلات التي تجد على ساحتها السياسية. وإذا كانت السلطة تنفيذا لتعاليم الشعب فإنها بذلك تعد مقيدة بقيوده وملزمة بالالتزامات التي التزمها والمبادىء التي آمن بها والأصول التي تأصل بها.

إن السلطة لا تضعف إلا إذا نبذت العمل بتعاليم الشعب وراء ظهرها. عندئذ يختل كيانها وتفقد مصداقيتها فلا يخرجها من هذه المتاهات السياسية إلا مدى ما تتمتع به من درجة عالية في الوعي والثقافة السياسية التي تفترض عليها حينئذ أن تتقيد بالمرجعية التاريخية للشعب تلك المرجعية التي غالبا ما تكون ممثلة في الارادة القوية للشعب الذي لا يضعف إلا ليقوى ولا يشيخ إلا ليتجدد شبابه ولا يعرف الصوت النشاز إلا لتتناغم ترانيمه وتتناسق تقاسيمه.

إن الشعب يستلهم قوته من ذاته أساسا ومن قوة السلطة المعبرة عنه كمصدر رئيس لهذه القوة. من هنا تبدو عملية التكامل بين الشعب والسلطة واضحة المعالم إذ لا قوة فاعلة للشعب إذا لم يكن له سلطة يستعملها للتعبير عن إرادته،

ولا سلطة قوية إذا لم تستوح مصادر قوتها من ينبوعها الأصلي الذي هو الشعب. لذلك فإن الشعب سيظل دائما هو مصدر الالهام المعنوي والامداد المادي لأي سلطة سياسة وطنية يوليها الاعراب عن مشيئته ولذلك أيضا فإن قوة الشعب خاصة الروحية منها لا تتبدل ولا تتغير وذلك على عكس قوة السلطة الحاكمة التي يأتي عليها التبديل وتهب عليها رياح التغيير لأنها فرع عن الأصل ووسيلة قابلة للتغيير لا أصل متأصل وقاعدة مقعدة.

إن التلاحم بين الشعب والسلطة هو ما تستهدفه أي حكومة راشدة تنبذ الخلافات الشخصية وتسمو فوق النظرات السياسية الضيقة وتتعالى عن كل ما يمس مقومات الأمة، ويسيء إلى سمعتها ويرمي إلى النيل من الدعائم التي ينهض عليها منهجها القويم في الحياة؛ فالحفاظ على هذه الأسس التي يتأسس عليها البناء الصحيح للشعب هو المعيار الصحيح الذي تقاس به الممارسة الفعلية لأي سلطة سياسية وبذلك فإن مصير السلطة يرتبط أساسا بمدى ارتباطها العملي والسلوكي بهذه القيم التي تشكل حجر الزاوية في كل عمل لأي سلطة سياسية وطنية تقف نفسها للذود عن تلك القيم الروحية الثابتة. إن إخلاص السلطة للشعب هو الذي يرضي الشعب ويؤيده إيمانا بفعاليتها وتأييدا لها في كل ما تقوم به من أعمال وما تنهض به من أعباء وهذا الاخلاص يعني أن السلطة ملتزمة مع الشعب في كل ما يعرض له من أمر وما يطرأ عليه من حال وما يؤمن به من أفكار وما يرفعه من شعارات تشعره بكيانه وتثبت فيه الوعي بالذات هذا الوعي الذي صنعه في أيامه الحوالك ولياليه الشداد. وإذا كان يوم 11 ديسمبر أحد هذه الأيام فلم أغفلت الحكومة إحياء ذكراه طيلة هذه السنوات الواحد والثلاثين التي مرت على تفجيره في وجه الاستعمار الفرنسي؟ إن الجواب عن ذلك لا يقلق الحكومة لأنها تعرف كيف تجيب إجابة يغلب فيها جانب الالتواء على جانب الاستقامة ومهما يكن من أمر فإننا نرى أن إسراف الأحزاب السياسية في الضغط على الحكومة وغلوها في تخاصمها مع هذه الحكومة قد أشعرها بضعف جانبها وألجأها إلى البحث من جديد عن مصدر قوتها التي أحست أنها فقدتها أو قاربت ذلك خاصة في هذه الظروف التي تتميز بدخول البلاد في مرحلة سياسية تستهدف انتخاب مرشحين لها في المجلس

النيابي الذي سينبثق عنه تشكيل أول حكومة تمثل النظام الديمقراطي ، حكومة سيتنافس على تكوينها كل الأحزاب التي ستحظى بتمثيل واسع لها في هذا البرلمان. لذلك كان حتما على هذه الأحزاب أن تستعطف الشعب لتكسب رضاه وتنال تأييده فراحت تقدم أفكارا عامة لا برامج ثرية وتعد بأكثر مما تستطيع بل وتسب وتشتم السلطة الحاكمة والحزب الذي أقامها من قريب أو من بعيد أكثر مما تركز على الجوهر وتقدم المشاريع المغرية التي تمكنها من أن تشق بها الطريق إلى أخذ مقعدها في المجلس الوطني المقبل، وكان واجبا على الحكومة القائمة أن تعمل على كسب تأييد لها يضمن لها البقاء في دست الحكم فراحت تحيي هذه المناسبات التاريخية التي لم تتعود إحياءها ليوم 11 ديسمبر 1960 أو غيره من الأيام الأخرى التي نسيناها وما أنسانا إياها إلا ظروف سياسية كانت الحكومة تشعر فيها بأنها «قوية» وما أعادها إلى أذهاننا إلا ظروف سياسية أخرى شعرت فيها الحكومة أنها أصبحت في مركز أقرب ما يكون إلى «الضعف». نعم إن الحكومة تعود إلى الشعب لتستلهم منه عناصر قوتها ولكنها - أي الحكومة - مدعوة إلى أن تكون بعيدة عن كل تأويل يفسره الناس بأنه استعطاف مخز تلتمسه من الشعب إذا وقعت عليها ضغوط سياسية. أما إذا كانت بمنجى من ذلك فإنك لا تستطيع أن تتصور مدى ما بينهما من بعد ولا أن تجد تفسيرا مقنعا لشبه هذه القطيعة التي تكاد تقع بين السلطة والشعب. وأخيرا فإن ما قامت به الحكومة هذا العام من لفتة كريمة إلى الرموز الثورية للشعب يجب أن يكون عملا متواصلا وتقليدا متبعا منها ومن الحكومات التي تعقبها وذلك حفاظا على هذه الصلة التي تصل السلطة بالشعب فلا ينفصل ما بينهما من عرى ولا ينقطع ما بينهما من صلة هي اللحمة التي يتكون منها هذا المصطلح السياسي الذي نسميه «الدولة».

القسم الثاني

إشكالية كتابة تاريخ الثورة

الرجال والظروف، أيهما يصنع الآخر ؟

هذا موضوع شغل بالي كثيرا لست أدري أيكتب لي شيء من النجاح في طرقه أم يخالف عني ذلك ؟ ولكني سأحاول هذا الطرق ما استطعت إلى المحاولة سبيلا.

على أني أريد أن أجلب انتباه القارىء إلى نقطة هامة هي أني أريد أن أتناول البحث من منظور أراه يساعد في الوصول إلى تقرير الحقيقة.

وذلك الموضوع الذي يشغل بالي هو : هل الرجال يصنعون الظروف أم الظروف هي التي تصنع الرجال ؟ . وإني أبادر إلى الاجابة عن ذلك فأقول : إن الرجال لا يصنعون الظروف كما أن الظروف لا تصنع الرجال، ولكن الذي يصنع الرجال ويصنع الظروف شيء آخر لا أريد أن أطلعك عليه أو أقدم إليك من أمره شيئا حتى أجعل موثقا بينك وبيني على أنك لا تثور بي، ولا تسخط علي بل لا تتهمني بمثل ما تعود الناس أن يتهموا به بعضهم البعض في مثل هذه المواقف التي تقترب من الدين ويكون للدين فيها شأن أي شأن.

وإذا كنت قد فكرت مليا في الأمر فإني لن أفاجئك إذا صرحت لك بأن لمسألة «القضاء والقدر» دخلا كبيرا في حل هذه العلاقة الجدلية أي تأثير الرجال في الظروف أو تأثير الظروف في الرجال. وتلك المسألة هي التي أريدك أن تتأنى فيها، وتتريث في الحكم لها أو عليها لكي نقف جميعا على النتيجة الحتمية التي سيقودنا إليها هذا البحث.

إذن فأنت تعلم عجز الرجال عن صنع الظروف كما أنك تعلم عجز الظروف عن صنع الرجال، فكلاهما عاجز وكلاهما قاصر عن النهوض بتلك

العلاقة الجدلية، ومادام الأمر كذلك فينبغي لنا أن نجد مخرجا من هذا المأزق المتضايق.

ولكي ندخل في صلب الموضوع فإننا نؤكد هذا الرأي الذي يرى أن الرجال مهما يؤتوا من القوة والعزم، والكفاية العالية، والفطنة السياسية فإنهم لا يستطيعون بحال من الأحوال أن يصنعوا الظروف ولا أن يغيروا من الوضع القائم شيئا، ولكنهم يستطيعون في أحسن الأحوال أن يستفيدوا من الظروف، وأن هذه الأخيرة لا تصنع الرجال ولكنها تكون مطية لهذا النوع من الرجال الملهمين. إذن فلنتفق منذ البدء على أن نستبدل كلمة «الصنع» بكلمة «الاستفادة». إذ لو كان الرجال قادرين على صنع الظروف فإني أؤكد لك أن الانسانية ما مرت بعض المراحل التاريخية التي يطبعها الظلم والطغيان. ويميزها تسلط الأقوياء على المستضعفين وبذلك يكون تاريخ هذه الانسانية خلوا من الظلم وغير مميز بهيمنة القوى على الضعيف. وإذا سجل تاريخ الانسانية شيئا من ذلك الظلم وهذا التسلط فسرعان ما ينهض ذوو العزم من الرجال في هذا الشعب المغلوب أو ذاك ليخلصوه من الظلم ويخرجوه من حياة القهر إلى الحياة الحرة الكريمة. نعم؛ إنهم يحاولون ذلك ولكنهم لا يحققون منه أدنى مراتب النجاح إذا لم يكن ذلك مقدورا لهم من هذه القوة الخفية التي نسميها «القضاء والقدر» أو «مشيئة الله».

ويظن الذين يؤمنون بسلطان المادة أن هذا الرأي على جانب كبير من الصواب، أي أن الرجال يستمدون عظمتهم من الظروف لا يرون أن لقضاء الله وقدره قوة مؤثرة في ذلك ويدا فوق أيدي الجميع في صنعه.

وقد يبدو للذين يرون هذا الرأي أن من أصدق البراهين على صحة ما يذهبون إليه هو أن أولئك العظماء من الرجال أو بعضهم على الأقل هم الذين أقاموا صروحا شامخة في تاريخ الانسانية بما أوتوا من علم وقوة وذكاء، وتسخير الظروف التي أمدتهم بعناصر النجاح، فالظروف الملائمة هي وحدها الكفيلة بضمان ذلك النجاح متى أحسن الرجال التعامل معها، وعوامل النجاح تتوقف أساسا على أولئك الرجال الذين يتحينون فرصها المواتية. وأخيرا فإن الظروف بمجمل معطياتها هي القاعدة الصحيحة التي يؤسس عليها كل عمل يطبع

التاريخ بطابعه الخاص. وقد يضيفون إلى الظروف وملابساتها هذه العناصر المكونة لشخصية كل واحد من أولئك العظماء بما يتميز به كل منهم عن غيره، فهناك الشخصية العلمية بما تتوصل إليه من نتائج، وهناك الشخصية العسكرية بما تكسبه من نصر يقلب مجرى التاريخ. على أن هذه الفكرة أبعد ما تكون عن الصواب ذلك أن عظماء الرجال على مر العصور التاريخية هم ناس من الناس، ولكن الله ميزهم ببعض المؤهلات العقلية والخلقية التي تساعدهم على الاتيان بعظائم الأمور ما وجدوا إلى ذلك سبيلا.

وقد أودع الله في تلك الطائفة من الرجال قدرات فائقة لأداء أنبل المهام الدينية، والوطنية منها والانسانية، وهم قد يخفقون في النهوض بتلك المهام فلا يكادون يظفرون بتبليغها على وجهها الكامل ولكنهم على كل حال يسجلون فترة من أزهى فترات تاريخ حياتهم وشعبهم إذ يكفيهم فخرا أنهم بذلك النهوض قد مهدوا الطريق للذين يأتون من بعدهم ليواصلوا من حيث توقف نشاط غيرهم. وهكذا تتواصل المراحل التاريخية في حياة الشعوب تكمل بعضها البعض إلى أن يقيض الله لها رجالا يجعل النصر على أيديهم.

على أننا إذا استقصينا تاريخ الجزائر فإنه يطالعنا بظواهر تاريخية لا نستطيع لها تأويلا ولا تعليلا، فمقاوماته الشعبية المتكررة قادها رجال مخلصون حاولوا أن يستفيدوا من الظروف العامة التي كانت تكتنفهم، ولكن هذه الظروف كانت تلتوي عليهم أكثر مما تستقيم. قد نقول: إن تلك الظروف الداخلية والخارجية لم تكن ملائمة الملاءمة كلها لمقاومتهم، ولذلك صاحبها الفشل، وأنا أؤيدك في هذا القول لأحملك على أن تعترف لي بأن إرادة الله التي تقرر النصر قد خبأت وسائل هذا النصر إلى مرحلة تاريخية معينة في الزمان والمكان، وعلى أيدي رجال محددين ومعينين كذلك، هؤلاء الرجال هم طليعة ثورة أول نوفمبر 1954 م وما يقال بالقياس إلى الجزائر هو عين ما يقال بالنسبة إلى غيرها من هذه الشعوب التي عرفت مراحل تاريخية تتشابه مع بعض مراحلها. ففي هذا المثال وغيره من الأمثلة التاريخية عجز الرجال أن يصنعوا الظروف، كما عجزت الظروف أن تصنع الرجال، وكان الذي أعجز الرجال والظروف جميعا هو إرادة الله التي لم تتدخل لايجاد هذا التلاحم العضوي الفاعل بين كل من الرجال

والظروف. إذن فإرادة الله هي القوة التي تحرك الأشياء يستوي في ذلك ما تعلق منها بأمور الناس أنفسهم أو بالظروف العامة التي تحيط بحياة هؤلاء الناس. إن الرجال لا يستطيعون أن يحولوا الظروف غير الملائمة إلى ظروف ملائمة إلا إذا تدخلت عناية الله في ذلك. وإذا كان الرجال الذين يتميزون بعقولهم وإدراكهم على هذه الدرجة من العجز في التحكم في الظروف وتكييفها حسب مشيئتهم، فما ظنك بهذه الأخيرة التي ليست من قوة الادراك في شيء وليست قوة العقل والادراك منها في شيء، ولكنها - أي الظروف - معطيات عامة يعيش الناس كلهم في خضمها؛ غير أن الأذكياء منهم هم الذين يحاولون أن يستفيدوا منها ليوقفوا عجلة تاريخ الظلم المسلط على بعض الشعوب ويقدموا عجلة هذه الأخيرة. ولن يكون لهم ذلك إلا إذا هداهم الله إليه ووفقهم لنيل هذه الخطوة التي لم يكونوا فيها إلا عناصر منفذة لارادة الله ولكنها عناصر تتوافر على الشروط التي تمكنها من تحويل الظروف الملتوية إلى ظروف مستقيمة متى أراد الله لها ذلك.

ولعل في هذه النظرة اليسيرة التي قدمناها ما يكفي لاثبات أن الرجال الملهمين هم الذين يستفيدون من الظروف المناسبة وأن هذه الظروف ليست إلا مطية يركبها أولئك الرجال. وإذا كان هؤلاء الرجال قادرين على صنع الظروف المؤاتية لنهض في كل مرحلة من مراحل تاريخ البشرية شخص نابه، جليل القدر، عظيم الشأن يصطنع لنفسه ولشعبه هذه الظروف الضامنة للنصر، كل ذلك ليكفي من يأتي من بعده شر هذا الشقاء الذي يظل الشعب يتخبط فيه آمادا طوالا ولكنها الظروف التي يجريها الله على غير مشيئة الانسان ولو حاول هذا الانسان أن يجريها على رغبته ووفق إرادته.

إن الظروف في أحيان كثيرة هي هذه التي يتصارع معها الانسان فتصرعه فيشعر بغربته وضعفه فيها. ولو كان له القدرة عليها في الأحوال كلها لصرعها، وبدا فيها سيدا قويا عليها لا يشعر بالغربة ولا يتطرق إليه التخاذل والتواكل. إن عظماء الرجال قد تخذلهم الظروف ولكنهم لا ييأسون من التغلب على تلك الظروف عندما تتدخل هذه القوى الروحية التي تخضع لها كل قوة مادية أخرى. وبذلك يواصلون جهادهم لا يكلون ولا يملون ليس يهمهم أنهم هم

الذين يحولون الظروف إلى مصلحتهم عندما تتدخل تلك القوى الروحية الكامنة أو أن تتحول تلك الظروف على أيدي من يخلفونهم في النهوض بمحاولة تغيير الأحوال المنافرة للحياة.

وهذا التفسير يمكن أن يطمئن إليه الذين يؤمنون بالغيب ويصدقون بذلك فإذا فعلوا تذكروا على الفور ما يؤيد هذه النظرة ويدعمها فلن يجدوا لها تأييدا ولا دعما إلا في بعض ما قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (1) وقال كذلك: «فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ» (2). إن كل شيء في الآية الأولى يدل بوضوح على أن الله سبحانه هو الذي يتولى تغيير الأوضاع وتبديل الأحوال، ولكن هذا التغيير والتبديل موقوف على إرادة الأشخاص الذين يجب عليهم أن يحاولوا ذلك فإن هم فعلوا يرجون منه سبحانه وتعالى تغيير هذه الأوضاع بما تحتوي عليه من دوافع تدفع الانسان إلى العمل من أجل استبدالها؛ فإن الله يستجيب طلبهم ويهيىء لهم من الأسباب ما يضمن لهم طي بعض المراحل التاريخية التي تدعو طبيعتها الخاصة بما تحمل في طياتها من ظلم وتعسف إلى مقاومتها ما وجدت المقاومة إليها سبيلا.

إن الآية تدل دلالة واضحة على أن هناك تغيرا عاما للأوضاع الخاصة، وعلى أن هذا التغيير لا يأتي عفو الخاطر ولا فيض القريحة ولكنه عمل متواصل يقوم به الأفراد من داخل أنفسهم بتغيير ما طرأ عليها من فساد، وتبديل ما ران على القلوب المريضة، كما أن هذا العمل الذي يستهدف تبديل الظروف من داخل النفوس يجب عليه أن يؤدي هذه المهمة ذاتها بالنسبة إلى هؤلاء الذين يتحكمون في رقاب الشعوب تحكما طاغيا باغيا سواء أكانوا من أبناء جلدتها أو من هذه العناصر الدخيلة التي تسمى عادة بالاستعمار الأجنبي. على أن تغيير الله ما بالقوم مغيى بتغييرهم هم أنفسهم ما بأنفسهم فإن هم فعلوا ذلك؛ عندئذ تتدخل العناية الربانية لتحدث التغيير الفاعل الذي سبقته هذه

(1) سورة الرعد، الآية: 11.

(2) سورة التغابن، الآية: 12.

المحـاولات الجـادة التي قام بها أولئك القوم، ولكن محاولاتهم هذه تظل بلا جدوى إن لم تتدخل العناية الالهية كما قلنا، وليس يخفى ما في هذا الكلام من معان تشير كلها إلى أن الانسان مأمور بالعمل وابتغاء الوسائل التي تمكنه من بلوغ أهدافه، وفي هذا دعوة صريحة كذلك إلى عدم الركون إلى فكرة التواكل والتخاذل والتقاعس عن أداء العمل الذي يعد وسيلة كبيرة من وسائل التغيير في الحياة إذا صاحبها التوفيق من الله.

ولعل الآية القرآنية التي نجد فيها سندا لرأينا الذي يقول: إن الرجال لا يصنعون الظروف ولكنهم يستفيدون منها إذا تدخلت العناية الالهية في ذلك؛ هذه الآية هي قوله تعالى: «فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ»؛ إن هذه الآية ترشدنا إلى أن الرسول ﷺ مكلف بالتبليغ فقط، وليس عليه بعد ذلك أن يكلل تبليغه بالنجاح أو بالاخفاق لأن هذه النتيجة موكول أمرها إلى الله الذي حصر مهمة الرسول في مجرد الابلاغ عنه سبحانه وتعالى وهذا الحصر لمهمة الرسول ﷺ في التبليغ وحده مراعي فيه ما يعترض الرسول من صعاب وعقاب وتولى القـوم وإعـراضهم وإدبـارهم عنه قال تعالى: «فإن توليتم» أي إن أعرضوا وأدبروا وجحدوا وأنكروا فإنك لست عليهم بمسيطر وليس من مهامك أن تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين لكنا هو التبليغ الذي أنت مسؤول عليه وكفى.

إن الله يسير هذا العالم في أدق وأروع وأبوع نظام فالدقة في كل شيء هي المحور الذي تدور عليه حياة الناس أفرادا وجماعات من حيث ضبط مراحل حياتهم التي تخضـع لفترات زمنية لا دخل ليد الانسان فيها؛ وهذه المراحل تختلف في حياة الشعوب اختلافا بينا في الشعب الواحد فهي تارة مشرقة وأخرى مظلمة في مسيرته. أما ما كان منها مشرقا فخاضع لعوامل وأسباب، وأما ما كان منهـا مظلما فنـاتـج من عوامل وأسباب كذلك وهذه العوامل والأسباب تمثل عناصر القوة والضعف في كل مرحلة تاريخية يعرفها ذلك الشعب ويشهدها أفراده.

وأنا أعتقد أن للانسان دخلا كبيرا في إشراقة مرحلة معينة من تاريخ شعب، كما أني أعتقد كذلك أن لهذا الانسان يدا طولى في إظلام مرحلة محددة في تاريخ

هذا الشعب، ولكني لا أسلم أن هذا الانسان يمثل كل شيء في صنع المرحلتين وبلورتهما، ولكنه وسيلة منفذة لارادة الله في كلتا الحالتين إذ لو كان هذا الانسان قادرا على إيجاد الظروف الملائمة لجاء تاريخ الانسانية صورة ناطقة بالعدل السياسي والاجتماعي بين الناس لا لشيء إلا لأن الرجال قادرون على التغيير فيجب أن يضمنوا لأفكارهم العناصر التي تحقق نجاحهم في عملية التغيير هذه كما أسلفنا القول في ذلك.

وما رأيك في أن الرجال الذين أهلهم الله لصنع الظروف، وتبديل مجرى التاريخ في مرحلة معينة من عمرهم قد وقفوا عاجزين في مرحلة لاحقة من حياتهم أمام ظروف طارئة عليهم فسجلوا بذلك اعترافهم بالعجز عن قهر تلك الظروف وقصورهم عن تغيير الحياة الواقعة. وإذا سألتني عن السر الكامن في ذلك أجبتك بدون التواء : إن حياة الأفراد والشعوب تجري بالمقادير، وإلا فكيف نفسر بعض الظواهر التاريخية في حياة بعض الشعوب. فأنت ترى أن بعض العظماء من الرجال يوفقهم الله للنهوض بأعمال دينية ووطنية تاريخية كبيرة فيكونون بذلك أسعد الناس وأعظمهم شأنا في الحياة، ولكن ظروف الحياة سرعان ما تتنكر لهم فيتنكر لهم الناس ويزورون عنهم فيصبحون عندئذ من أشقى الناس نفسانيا لأنهم يرون ثمرة أعمالهم ينتفع بها غيرهم وهم منها محرومون، والحال أنهم لا يستطيعون أن يعيدوا الكرة ليغيروا الظروف لمصلحتهم، تلك الظروف التي كانوا هم الذين ساهموا في صنعها عندما أراد الله لهم ذلك، ولكنهم أصبحوا أشقياء بها أيضا عندما حرمهم الله من ذلك.

وإذا كنت تريد مثالا على ذلك فإن لك في تاريخ الانسانية كلها مواقف تشد الباحث إليها. ومشاهد تجتذب المتأمل. وما لنا نذهب بعيدا، وتاريخ الثورة الجزائرية أهم مصدر نصدر عنه في هذه النظرة المستلهمة من الحياة الواقعة في هذه الثورة. أليس رجال تاريخيون نعرفهم كلنا جميعا عندما ألهمهم الله وأهلهم لتحمل أعباء الثورة نهضوا بذلك خير النهوض فكانوا بين من استشهد وبين من ينتظر بل بين من ينظر إلى الثورة وهي تصادر ولكنه يقف من ذلك موقف المتألم لا يستطيع أن يفعل لها شيئا لأن الارادة الالهية التي ألهمته تفجير تلك الثورة في

فترة زمانية سابقة لم تلهمه الاقدام على بعث الحياة من جديد في كيان هذه الثورة في مرحلة تاريخية لاحقة. من هنا يمكننا أن نؤكد هذه الحقيقة وهي أن بعض الرجال الذين تجمعهم فكرة واحدة في ظرف زمني واحد يمكن أن تفرقهم ظروف جديدة تختلف فيها نظرتهم ويتباين فيها تصورهم لواقع جديد، وملابسات حياتية تطرأ بطرو تلك الظروف المستحدثة والمستجدة على العقول والقلوب، أريد أن أقول: إن بعض الرجال يتبدلون بتبدل الظروف فينحرفون عن الطريق، ويجورون عن القصد ليسا هموا بذلك في إيجاد أحوال شاذة تدعو إلى الغليان، وتقود حتما إلى التغيير السلبي. وإذا كان التغيير الفاعل يمر بمراحل يتخللها كثير من التضحيات فإنه لا يثنى أولي البأس والعزم من الرجال عن مواصلته إلى أن يحقق أهدافه التي رسمها في استبدال وضع منكر بآخر أقل منه نكرا.

بنبولعيد وأصحابه.. لا للمسيح والعيد

ها أنا اليوم أريد أن أخفف عنك يا ولدي فأنحو نحوا آخر في الكتابة إليك هو إلى القص القوي والحزين أقرب منه إلى تناول هذه الفصول الجادة الجافة التي أجهد نفسي في كتابتها كما أنك تثقل على نفسك بقراءتها فلا تجد فيها الغناء الذي ترجوه.

على أنني لست أطمئن إلى التأثير الايجابي لذلك القص على نفسك فأنا متأكد أن ماسأقدمه إليك منه سيدخل الحزن في نفسك فترتاع لذلك وتلتاع، وتثور وتغضب ولكنك سرعان ما تهدأ لأنك تعلم أن ما أقصه عليك هو هذا الصراع العنيف الذي يظهر أبطاله أقوياء أذكياء أمام بطش المستعمرين، لاييأسون ولا يحتارون في أشد المواقف هولا؛ يتطلعون دائما إلى الحياة وإن حال العدو بينهم وبين سبل الحياة، يوصلون ما انقطع منها، ويقوون أملهم وحرصهم عليها وإن كانت الأحكام الجائرة صدرت بإعدامهم والأوامر قضت بوجوب تنفيذ ذلك.

إنهم يحبون الحياة لأن حياة غيرهم تنبجس من هذه الحياة كما أنهم لا يتهالكون على الحياة إلا لأنها أمل سيشرق على الناس جميعا.

أرأيت يا ولدي إلى هؤلاء القوم الذين يسرفون على أنفسهم ويشتدون عليها إن كنت عرفتهم فنعما عرفت وإن لم تعرفهم فسأنبئك بخبرهم في طوايا هذه الصفحات كما حكاه أحدهم على هامش الملتقى الوطني الأول لجمع مادة تاريخ الثورة (أكتوبر 1981 م) في مدينة الجزائر فإني قد وجدت ذلك في أوراقي التي أزودك ببعض ما جاء فيها من وقت إلى آخر كلما واتتني الفرصة.

على أني أجلب انتباهك إلى أنني سأروي لك هذه القصة بتصرف طفيف جدا في آخرها فلا أقدم لك منها إلا ما أرى ضرورة التركيز عليه.

قال الراوي : (1)

في 3 جانفي 1955 م وقع اشتباك في جبل «سيدي احمد» (2) حيث وقعت أسيرا في يد العدو صحبة أربعة مجاهدين آخرين. وقد نقلنا العدو إلى سجن «سوق أهراس» حيث حاولوا أن يفتكوا منا اعترافات عن نشاط الثورة. ولأني كنت مجروحا في كتفي فقد أجرى علي الدكتور «قصاب» فحصا طبيا، ونصح لرجال العدو أن ينقلوني إلى المستشفى حيث أجريت لي عملية جراحية. ثم نقلوني بعد ذلك إلى مدينة «قالمة» حيث وجدت مجموعة من المجاهدين ممن ألقى عليهم العدو القبض كذلك، وحيث أخضعوني لعملية البحث والاستنطاق مدة سبعة أشهر. وأخيرا تم نقلي إلى مدينة قسنطينة للمثول أمام المحكمة العسكرية.

وفي مدينة قسنطينة علمنا أن سي مصطفى (يعني بنبولعيد)(3) قد أتوا به من تونس بعد أن قضى ليلته الأخيرة في مدينة قالمة في قاعة معزولة وأنه في سجن الكدية (يعني في قسنطينة). أما نحن فكنا في سجن القصبة العسكري. وكان في هذا السجن عدد كبير من المساجين من مختلف أنحاء الشرق الجزائري.

كان أملنا الوحيد ونحن في السجن أن نلتقي سي مصطفى، وليحكموا علينا بعد ذلك بالاعدام. فقد كنا نرى في لقائنا به رفعا لروحنا المعنوية ذلك أن المسؤول الكبير يؤدي أحيانا هذا الدور ولو كان ذلك في أحلك أوقات الانسان وأشدها ضراوة وقسوة على نفسه :

ومثلنا أمام المحكمة العسكرية في 18 أوت 1955 م. كان عددنا عشرين مجاهدا صدرت الأحكام بالاعدام على ثلاثة منا وعلى اثنين آخرين بـ : 20 عاما سجنا.

---

(1) هو العقيد السابق الطاهر الزبيري، قائد هيئة الأركان العامة للجيش الوطني الشعبي سابقا.
(2) يقع على الحدود التونسية الجزائرية.
(3) كل كلام في النص وضع بين قوسين فهو من عندي.

وكنت أنا و«مشري الأخضر» و«جبار السبتي» قد أدخلوا كل واحد منا إلى الزنزانة مقيدا بالسلاسل. كنا لا نخرج إلا في النهار للأكل وفي هذه الأثناء سمعنا بحوادث عشرين أوت. فقد كانت طلقات الرصاص وأصوات صفارات الانذار قد أوهمتنا بأن الثوار هم الذين دخلوا إلى المدينة. ومن زنزاناتنا تلك نقلونا إلى حيث كان سي مصطفى ومن معه من المجاهدين المسجونين. وعندما وصلنا إلى هؤلاء وجدناهم في حالة إضراب عن الطعام منذ سبعة أيام. فشاركناهم في إضرابهم هذا سبعة أيام أخرى.

وفي أثناء ذلك الاضراب كتب سي مصطفى رسالة إلى رئيس الجمهورية الفرنسية سلمها إلى محاميه يحتج فيها على التعذيب قائلا: «إننا مناضلون جزائريون، إما أن تعاملونا كمناضلين أو تنفذوا فينا حكم الاعدام. أما أن تعذبونا فإننا لن نقبل بذلك أبدا».

وكان في الجناح الآخر من السجن جماعة من السياسيين المسجونين مضربين هم أيضا. ويبدو أن عملية الاضراب هذه قد أحوجت قيادة السجن إلى عدد كبير من الزنزانات ولذلك فقد نقلنا من زنزاناتنا تلك إلى قاعة أخرى (أي تضم عددا كبيرا من السجناء) اسمها «الويتيام» (يعني الثامنة) كما يسميها البعض أو «صال. بلاندي» (يعني القاعة المدرعة) كما يسميها البعضِ الآخر.

كان عددنا يتجاوز الثلاثين سجينا في تلك القاعة قد حكم عليهم كلهم بالاعدام. أما عن المسؤولين السياسيين المسجونين والمضربين فقد زجَّ بهم جميعا في الزنزانات حيث كنا (أي في تلك الزنزانات التي أخرجونا منها، ونقلونا إلى القاعة الكبيرة).

وقد تبدل نظام حياتنا في القاعة إذ يتم الافراج علينا ثلاث مرات في اليوم: من الساعة التاسعة صباحا إلى الحادية عشرة والنصف، ومن الثانية والنصف بعد الظهر إلى الثالثة، وأخيرا من الخامسة والنصف إلى السادسة مساء. وكان الشخص الوحيد الذي يسمح له بزيارتنا في تلك القاعة هو الحلاق الذي لا أذكر اسمه. وقد كان هذا الأخير موفدا إلينا من قبل «جماعة القانون العام» (يعني رابطة حقوق الانسان) وكان الهدف من تلك الزيارة هو حلق رؤوسنا.

وعندما جمعونا كلنا في قاعة «الويتيام» فإننا لم نكن نملك من متاع الدنيا شيئا إلا ورق اللعب ولعبة الضامة نتلهى بهما ونفوت الوقت. أما ماعدا ذلك فإننا كنا نتكلم مع سي مصطفى. وكان هذا الأخير شديد الحذر على أسرار الثورة، شديد التكتم عليها، يخشى تسر بها لكي لا يتسبب ذلك في إلحاق الضرر بالمجاهدين، وأما ما ليس له صبغة سرية كبيرة فكان كثيرا ما يطلعنا عليه.

وعندما دخلنا إلى السجن فقد وجدنا فيه عددا من الجنود من بينهم : «بكوش محمد» و«مشري الأخضر» وبذلك بلغ عددنا ثلاثين جنديا.

وكان يقدم إلينا من الأكل «تعيين المحكوم عليهم بالاعدام» وهو يتكون أساسا من : القهوة، الحليب، علبة سجائر، علبة كبريت كل يوم، شريحة لحم والعنب أخيرا. إلا أننا لم يكن يهمنا من هذا كله إلا القهوة والسجائر. وكان اليوم الذي يتم فيه الاتصال بالمحامين هو اليوم الوحيد الذي نتزود فيه بالأخبار أو عندما يساق أحدنا إلى الاستنطاف أو يذهب إلى المرحاض فيلتقط قصاصات الجرائد وغيرها عله يعثر فيها على خبر أو ما شابه الخبر.

كان التأثر الشديد باديا على وجوه البعض من القوم، فقد كانوا محكوما عليهم بالاعدام. وكان سي مصطفى يطوف عليهم الواحد بعد الآخر يحاول أن يرفع معنوياتهم، وأن يقنعهم بأن الثورة بخير وهي مستمرة وبذلك يشجعهم ويسوق لهم المثل بإخوانهم المغاربة والتونسيين الذين حكم الاستعمار عليهم بالاعدام والذين أصبحوا بعد ذلك أحرارا يتجولون في مدنهم وقراهم بعد أن استقل بلداهم.

ويبدو أن هذا السلاح المعنوي الذي زود به سي مصطفى القوم قد أثمر وأتى بنتائج طيبة.

قال الراوي : وبدأنا نفكر في العمل (أبي عمل شيء ما لانقاذ حياتنا من الموت) ذلك أن سي مصطفى قال : يجب أن لا تذهب أرواحنا هباء، خاصة وأن شهر نوفمبر على الأبواب فقد يطالب المعمرون بتعليق بعض الرؤوس فداء لموتاهم الذين قتلوا في هذا الشهر. وكان أولئك المعمرون يطالبون برأس سي مصطفى بنبولعيد بصفة خاصة. ولذلك قال هذا الأخير : يجب أن نعمل، لا ننتظر، نحاول محاولاتنا كلها. وكنا قد درسنا الوسائل جميعها هل نهجم على

بعض الحراس ؟ كان ذلك ممكنا ولكن نجاح نتائجه غير مضمون بنسبة 80 ـ 90 ٪. ذلك أن الحراسة تتكون دائما من حارسين وحتى من ثلاثة حراس مسلحين طبعا. وقد قررنا أخيرا أن هذه الطريقة لا تجدينا نفعا. وكان الهدف من هذا كله هو الاهتداء إلى حيلة نتمكن من خلالها من الهروب (يعني من السجن).

وكان سي مصطفى، العيفة، إبراهيم طايبي وأنا أشد القوم حماسة للقيام بمحاولة الهروب تلك. وقد انضم إلينا في ذلك فيما بعد «بوشمال». أما غيرنا من المسجونين فقد كانوا شديدي اليأس لا يفتأون يقولون لنا : إنكم تعملون على إرجاعنا إلى الزنزانات وعلى حرماننا من القهوة والسجائر. ولكننا كنا جادين في فكرتنا، متعلقين بها.

وكان أول عمل قمنا به هو اختبار مدى صلابة السقف (1) الذي كان في منتهى الصلابة وقد أخذت القاعة اسمها من هذه الصلابة فسميت (Salle blindée) أو (القاعة المدرعة). إنها لم تسم كذلك إلا لأنها مدرعة بحق. وفعلا فقد أحدثنا ثقبا صغيرا في السقف احترنا آخر الأمر في كيفية إغلاقه.

وكان معنا أحد المسجونين المجاهدين هو المسمى «حجاج بشير» الذي كان يعرف السجن جيدا لأنه كان قد دخله قبل ذلك فأرشدنا إلى أن تخشيبة (بيت من خشب) وراء الحائط مباشرة تستعمل لخزن العتاد كالسلالم ولوازم الترصيص. وقد بدأنا نحفر ذلك الحائط في اتجاه تلك التخشيبة؛ ولكن ماذا عساها ستكون وسائلنا في عملية الحفر هذه ؟. لقد اقتلعنا من الباب رزته ومزلاجه. وكان المزلاج معوجا فعالجنا اعوجاجه بواسطة الباب الحديدي. وبذلك أصبح لنا وسيلتان نستعملهما في الحفر هما : الرزة والمزلاج. عندئذ شرعنا في عملية هي إلى حك الحائط أقرب منها إلى حفره فهذه هي التسمية الدقيقة التي يمكننا أن نطلقها على ذلك. كنا نستعين في تلك العملية البسيطة بمادة الخل فعندما نخرج إلى الراحة (أي إلى صحن السجن) فإننا نعود محملين بكمية قليلة منه خفية عن الأنظار إذ كان محرما علينا أن ندخل أي شيء إلى القاعة مهما كان ولكنهم لم يغفلوا (أي الحراس) عن الخل إلا لأنهم لم يعيروا

---

(1) يظهر أنه يتحدث عن الجدار السميك لا عن السقف كما يبين النص ذلك فيما بعد.

أمره كبير اهتمام. على أنني لست أدري إذا كان الخل قد نفعنا في عملية الحك أو الحفر تلك إذ لم أتأكد فاعليته فيها.

قال الراوي : واستمرت هذه العملية مدة ثلاثة عشر يوما لم نحفر خلالها إلا حوالي سنتمترا واحدا أو سنتمترين اثنين أقل من ذلك أو أكثر بقليل. فقد كانت الأحجار الصلبة التي تشدها الخرسانة المسلحة إلى بعضها البعض تعوقنا عن التقدم في الحفر الذي يبعث على الأمل ولذلك فكم كانت حاجتنا شديدة إلى آلة تساعدنا في كسر تلك الحجارة وتحطيمها.

وقد لاحظنا في صحن السجن عندما كنا نخرج إلى الاستراحة أن أنبوبا لصرف المياه قد تم حفره بهدف إصلاحه وأن حجرة ناتئة لم توار في التراب بعد الانتهاء من الأشغال فحاولنا أن نأخذ معنا تلك الحجرة إلى القاعة فأحاطت بها جماعة تحاول أخذها خلسة بينما وقفت جماعة أخرى تحرس الأولى في أخذ تلك الحجرة الناتئة. وفي الأخير فقد تمكنا من قلع تلك الحجرة وأخذناها معنا إلى القاعة حيث نستعين بها في تفتيت الأحجار الكبيرة (أي التي تمنعنا من مواصلة عملية الحفر).

وإذا كان تكسير الأحجار ببعضها البعض من شأنه أن يحدث جلبة قد تجلب انتباه العدو إلينا فإننا لجأنا إلى حيلة وهي أننا ندلي بطانية تغطي «العيفة» من رأسه إلى رجليه ثم نحزمه ليقوم بعد ذلك بإيقاعات راقصة تارة، وضرب شديد بقدميه على الأرض المنتعلتين حذاء خشنا تارة أخرى ونحن من حوله نصفق له تصفيقات حارة متظاهرين بأننا نرفه على أنفسنا. وفي خضم هذا الجو الراقص المدوى تكون عملية تكسير الأحجار تجري على قدم وساق تحت غطاء هذه الضوضاء التي نحدثها عن تعمد لنكون بذلك في مأمن من أن يتشكك العدو فيما نقوم به من عمل.

وقد يحدث أحيانا أن يأتي إلينا حراس السجن، وعندما يروننا على هذه الحالة من الفرحة «المفتعلة» فإنهم يعلقون على ذلك بقولهم : «المهم أن المحكوم عليهم بالاعدام مغتبطون وراضون، وأنهم لا يحدثون لنا مشكلات وكفى ! ».

وأمـا عن السياسيين المسجونين في القاعة الأخرى فإنهم عندما يسمعون رقصـاتنـا وشطحاتنا تلك يقولون هم الآخرون : «لابد أن المحكوم عليهم بالاعدام قد سمعوا خبرا سارا».

واستمررنا على هذا المنوال : تحطيم للحجارة وتهشيم لها بل وقلع لما أمكننا قلعه منها تحت نغمات الطرب المصطنع والرقص والتصفيق المتكلفين.

وكم كانت حاجتنـا شديدة إلى عصـا المرحاض (1)، ولكن الحراس كانوا يأخذونها معهم دائما. وقد اتفق ذات مرة أن أنسيناهم أخذها معهم فجعلناها في مكان ما. وبواسطة تلك العصا تقدمنا بعض الشيء في معالجة الأحجار إذ استعملناها في تحريك وخلخلة أحجار الحائط إلى أعلى وإلى أسفل مرة ويمنة أو يسرة مرة أخرى.

كان نصفنا يعمل في الحفر وتفتيت وتآكل الأحجار أما نصفنا الآخر فكان يقـوم بعملية التضليل للعـدو فيرقص ويصفق بقـوة ويضرب البلاطة برجله متظاهرا بأنه يؤدي رقصات شعبية معروفة تمتاز بضرب الرجل على الأرض. وبذلك أحدثنا فجوة في الحائط يستطيع الانسان أن يدخل يده فيها. كنا نحفر تحت هذه الفجوة أو الثغرة الصغيرة إلى أن أخرجنا منها التراب والرمل فلم يبق شيء من ذلـك. وقد كان هذا كله يتم تحت التصفيقات الحادة والايقاعات الـراقصـة التي نؤديهـا فوق تلك الفجـوة أو الثغرة في حين أن بعضنا يعالج الأحجار بتحريكها وخلخلتها قصد تقليعها من مكانها كما أسلفنا القول في ذلك.

وإذا كانت عملية الحفـر وإزالة الأتربة والرمال والأحجار تتم عن طريق مغالطة العدو فإن ذلك لا يعني أننا لا ننظم الحراسة في أثناء تلك الأعمال كلها. فقد كنا نراقب العدو، ولكن بطريقة خاصة وصبعة في الوقت ذاته. وإليك صورة حية لنوع وطبيعة تلك الحراسة، يركب أحدنا على كتفي صاحبه لكي يراقب حراسة العدو من خلال نافذة القاعة. ولكن هذه الطريقة كانت تتعبنا جدا إذ يصعب على الواحد منا أن يظل يحمل على كتفيه شخصا سرعان ما يثقل

(1) يعني القضيب الحديدي الطويل الذي يستعمل عادة لتسريح المرحاض عندما ينسد.

كاهله. ولذلك فقد اهتدينا إلى طريقة أخرى للحراسة وهي أنني (أي الراوي) اكتشفت في أثناء حراستي أن الباب عندما يفتح فإن بابا آخر يقابله مباشرة وأن بين هذا الباب وبين الأرضية فراغا صغيرا جدا كنت أراقب العدو من خلاله، بحيث إنني كنت إذا رأيت حذاء الحارس عرفت أنه آت يريدنا نحن. عندئذ أهمس لأصحابي «إخ» فيسارعون إلى تشكيل حلقات ويتظاهرون بأنهم مشغولون بلعبة الضامة أو الورق. وإذا أشرت إليهم عكس ذلك فإنهم يستمرون في عملهم الذي تواصل على هذه الطريقة المضنية من الحفر مدة ثمانية وعشرين يوما.

وعندما توغلنا في الحفر بعض الشيء فقد مثل لنا كل من الظلام والرمال والأحجار المقلوعة التي بدأت تكثر عائقا في تقدمنا في العمل. عندئذ التجأنا إلى حيلة هي محاولة تحسين علاقاتنا بالحراس. وقد سمح لنا هؤلاء أن ندخل معنا قليلا من الزيت في غطاء المرجل(1). كنا نضع فتيلا من الكتان ونبلله بقليل من ذلك الزيت ونشعله ليضيء لنا في أثناء الحفر وفي إزالة الأتربة.

وكانت الأحجار التي نقتلعها نجمعها في ركن من أركان القاعة بحيث إنها لا تكاد تظهر أبدا لأن الحارس عندما يأتي لمراقبتنا فإن أركان القاعة لا تظهر له كلها ظهورا تاما، وخاصة منها ركن كل من الناحية اليمنى واليسرى، وقد كان المرحاض في الجهة اليمنى من القاعة.

وأما عن أوقات الحفر وتنظيمه فقد كان ذلك يتم كما يأتي: عندما ندخل على الساعة الحادية عشر والنصف أو الحادية عشر وخمس وأربعين دقيقة فإننا نستمر في العمل إلى الساعة الثانية وثلاثين دقيقة عندما يخرجوننا إلى صحن السجن للراحة. وأما في الليل فإننا نشرع في العمل على الساعة السادسة مساء إلى حوالي التاسعة ليلا أو التاسعة وثلاثين دقيقة عندما يأتون إلينا ليأمرونا بالنوم؛ على أنهم يتركون إطفاء الأنوار إلينا إن شئنا أطفأناها وإن شئنا لم نطفئها. ولكننا كنا نتوقف في هذا الوقت بالذات عن الحفر لأن الحراسة قريبة من بعضها البعض ولأن حارسا خاصا يزورنا كل خمس وعشرين دقيقة ويسجل حضوره على الباب.

---

(1) *المرجل: القِدر.*

وقـد شهدت المدة الأخيرة من الحفر تقدما ملحوظا وتوغلا في المغارة التي أحدثناها وبذلك تجمع لنا كثير من التراب والرمل والأحجار كنا نضعها كلها في بطانية يتعـاون على حملهـا أربعة أشخاص ليفرغوها في المرحاض الذي كان يلاصقه حوض صغير لا يزيد على الخمسة عشر سنتمترا.

وقد تكلفت أنا شخصيا بعملية الافراغ تلك فكنت أغلق فتحة المرحاض بالخرقة التي تستعمل لمسح أرضية القاعة ثم أصب الماء بعد ذلك حتى يمتلىء الحوض ثم أفرغ عليه الرمل ثم نقوم بعد ذلك بعملية خلط كبير للماء مع الرمل فندعكه بأيدينا دعكا شديدا إلى أن يذوب التراب والرمل في الماء ثم نزيل الخرقة بعد ذلك عن فتحة المرحاض حيث ينساب فيه الماء صافيا رقراقا وبذلك لا يتعرض المرحاض للانسداد.

وقد كانت تلك العملية تجري في جو من التنكيت، والضحك والتسلية، وكان سي مصطفى وجماعة معه هم الذين يقومون بدور الحراسة في أثناء عملية «المرحاض» التي أصبحت أشبه ما تكون بورشة منها بأي شيء آخر بسبب كثرة المسـح، واستعـمال الخـرق المبللة بالمـاء والجـير أيضا، وكثرة الرمل والتراب والأحجار كذلك.

وقد كان ذلك كفيلا بأن يجلب إلينا انتباه العدو، ولكننا كنا نتقي شر الوقوع في ذلك بهذه الحراسة القائمة اليقظة الحذرة التي كان يؤديها سي مصطفى نفسه ومن معه كما تقدم الكلام في ذلك.

وقد حدث ذات مرة أن قال سي مصطفى وهو يؤدي نوبة الحراسة : «واش هاك السلعة مشات الكل، اتباعت» فأجبته : «نعم اتباعت الكل، امشات». وقـد كانت هذه هي الـطريقة الوحيدةالتي اتبعناها في التخلص من أكداس الرمل والحصى في بعض الأحيان.

وقد بدا لنا أن المرحاض سينسد من جراء تواصل عملية الحفر بالليل والنهار على الرغم من أننا كنا نحلل التراب والرمل في الماء تحليلا جيدا بحيث لا يبقى أي شيء من شأنـه أن يتسبب في انسـداد المرحاض. ورغما عن هذا الحذر الشديد فقد كان المرحاض يطفح بما كنا نلقي فيه من تراب ورمل وحجارة. وخوفا من وقوع انسداد محتمل للمرحاض فقد رأينا أننا بعد أن ننتهي من عملنا

ذلك فإن علينا أن نعيد الأحجار إلى أماكنها إعادة محكمة. ولكن هذه الأحجار يصعب علينا أن نرصها إلى بعضها البعض بإحكام إذا لم يكن التراب والرمل مادة أساسية تجمع بينها.

وقد تعرض الجزء الأسفل من الحائط إلى تشقق قوي، ولكي نخفي هذا التشقق فقد عمدنا إلى حيلة وهي أننا خلطنا لباب الخبز بالصابون ثم مزجنا هذا الخليط برماد السجائر - وما أكثر رماد السجائر - ليأخذ لون الأرض، ثم نسد ذلك التشقق بالخليط المكون من لباب الخبز والصابون ورماد السجائر كما قلنا. عندئذ لا يكاد ذلك التشقق يظهر عن بعد اللهم إلا إذا اقترب منه الانسان اقترابا كبيرا.

وقد استمرت هذه العملية مدة خمسة وعشرين أو ستة وعشرين يوما (يعني عملية الحفر والافراغ في المرحاض). ولكي نخفف العبء على المرحاض فقد كنا نملأ الصفائح التي كنا نبيتها معنا في القاعة لننظف بها هذه الأخيرة، كنا نعبئها بالرمل ثم نصب عليه مادة «القريزيل» لكي لا يظهر داخل تلك الصفائح.

ولأننا كنا نقوم بأعمال السخرة فقد كنا نحمل تلك الصفائح المملوءة بالرمل لنصبها في مراحيض الصحن الأخرى (يعني = مراحيض صحن السجن العام). كما أننا نتظاهر بأننا نريد أن نذهب إلى المرحاض في أثناء الراحة وعندما نصل إليه فإننا نفرغ فيه ما في جيوبنا من رمل كنا قد عبأناه فيها قبل أن نخرج إلى صحن السجن للراحة.

وبعد مرور خمسة وعشرين يوما على عملية الحفر هذه فقد تراكمت علينا الأحجار إذ أصبحنا غير قادرين على إخفائها لأننا لم نجد أي مكان آخر نرميها فيه بعيدا عن الأنظار. من هنا قررنا إحداث ثغرة في البيت المجاور (التخشيبة) حيث نكدس في أحد أركانه ما نحمل من أحجار في إحدى البطانيات.

ولما انتهينا من عملية الحفر وإخفاء الأتربة والرمال برميها في المراحيض وقلع الأحجار وسترها عن الأنظار فقد حان دور تنفيذ عملية الهروب مع ما يتطلبه ذلك من تنظيم ووسائل من شأنها أن تعيننا على عملية الفرار هذه.

وقد قمت أنا وإبراهيم طايبي رحمه الله بعملية الاستطلاع كما قام بها سي مصطفى بنفسه. ولم يكن من السهل علينا أن نحدد عدد الهاربين ونرتبهم ترتيبا خاصا فيكون الهارب الأول مثلا والهارب الثاني وهكذا إلى آخر الهاربين جميعا فقد مثل لنا هذا الأمر جانبا نفسانيا كبيرا (يعني أن كل واحد يريد أن يكون هو الهارب الأول). ولذلك طلع علينا سي مصطفى بفكرة وهي أنه حلفنا جميعا بالمصحف وذكرنا ووعظنا وأرشدنا وضرب لنا المثل بالمحكوم عليهم بالاعدام في كل من تونس والمغرب الذين نجوا من ذلك وهاهم الآن يتجولون أحرارا في بلديهم. وزيادة في اليقظة والحذر فقد كان معنا بعض الاخوان ممن دميت أيديهم من الحفر كانوا إذا ذهبوا إلى المصلحة الادارية لاستلام البريد فإنهم يصطحبون معهم أشخاصا آخرين سلمت أيديهم من ذلك ليتسلموا المراسلات بدلهم.

وكان الحل الذي قدمه سي مصطفى يتمثل فيما يأتي: إن من مصلحة الثورة أن يكون الهروب من السجن خاضعا لعملية القرعة ولكن الذين نفذوا هذه العملية (يعني الحفر وإحداث الثغرة) يجب أن لا تشملهم فكرة القرعة لأن هناك أعمالا أخرى لا تزال تنتظرنا (يعني تنتظرهم) وهي في حاجة إلى من يقومون بها كفتح الباب مثلا، وصنع سلم كبير، وفتل الحبال والتعامل أخيرا مع الحشيات (1).

وقد طلبنا من سي مصطفى أن يكون هو المسجون الأول الذي يفتتح عملية الهروب وبذلك لم نقحمه في مسألة القرعة. وتقدم إلينا سي مصطفى بفكرة جديدة عن تنفيذ الهروب فقال: نحن هنا في جماعة كثيرة العدد من نواح مختلفة كباتنة، قسنطينة، سكيكدة، عنابة، سوق أهراس، الخروب، ولذلك فإني أرى أن من مصلحة الثورة أن يكون المسؤولون الذين يمثلون النواحي المذكورة هم الذين يبدأون الهروب وعلى أن يحتكموا إلى القرعة فيما بينهم. أما غير هؤلاء فيكون فرارهم خاضعا للقرعة التي تجري على هذا العدد. وعلى هذه الصورة:

---

(1) سترى أن الحشيات (المطارح) نفعت الهاربين في تحضير وسائل الهروب كالخيوط التي أزالوها منها وصنعوا بها سلالم لهذا الغرض.

كل اثنتي عشر شخصا يقترعون مقابل عدد مماثل لهم. وقد نحينا نحن الستة [1] جانبا فلا تشملنا القرعة لأننا نفذنا العمل ولا يزال ينتظرنا منه الكثير.

وكنا قد وجدنا في التخشيبة المجاورة لنا هيكلا لسلم قديم، ورزات للأبواب وسريرا قديما كذلك. وقد صنعنا من هذا كله سلما حاولنا أن يكون ارتفاعه أربعة أمتار ونصف المتر على الأقل. وهذا السلم قد أحكمنا ربطه بخيوط متينة جدا نزعناها من الحشايا التي ننام عليها. وقد قطعنا تلك الخيوط بشفرة نسيت كيف أدخلناها في الحشايا المذكورة. كما أننا صنعنا لسلمنا ذلك درجات وحبلا في أعلاه ليتدلى - أي الحبل (من وراء الحائط) وقد خطرت ببالنا فكرة جديدة وهي أن نصنع من مادة «لكران»، (شبه حلفاء تحشى بها الحشية) حبالا أخرى ذلك أن سلّما واحدا لا يكفي لهروب الجميع. وكان عدد الحشايا التي وجدناها تسعا وهذا العدد كان كافيا لصنع حبال خاصة بالحائط الأول تساعد على ربح الوقت خلال عملية الهروب. وقد صنعنا حبلا آخر طويلا من تلك الحشايا ورميناه وراء الحائط على أن يظل مشدودا بواسطة مجرفة كنا نمسكها بأيدينا.

وكان مساء اليوم الذي سنهرب فيه قد شهد اضطرابا بان على وجوه القوم، ولكنه كان اضطرابا لا نفهمه إلا نحن ولا يتعمق حقيقته إلا من عاش هذه اللحظات التاريخية الرهيبة التي اجتمعت فيها الفرحة والترحة. وكان أفراد جماعتنا لا يهمسون لبعضهم البعض إلا بهذه الكلمة «نمشيو، نمشيو». إنهم يذرعون صحن السجن ذهابا وإيابا كأنما كانوا يهيئون أنفسهم بذلك لما يستتبع عملية الهروب عادة من مشي، وجري وقفز.

وكانت أكبر مشكلة واجهتنا في يوم الهروب هي مشكلة هذين الجريحين «شولي السعيد» و «سي امحمد» اللذين كانا لا يستطيعان أن يهربا مع الهاربين بسبب جروحهما البليغة. فقد كان الأول لا يقوى على المشي حتى أنه كان يحبو أحيانا على يديه ورجليه تماما كما يحبو الطفل الرضيع. وكان قد رفض أن تجري له عملية جراحية لاجتثاث أحد قدميه. إنه كان قد جرح في المعركة التي وقعت

(1) *لم يرد في النص أسماء هؤلاء الستة المذكورين.*

تحت قيادة «ديدوش مراد» في 28 جانفي 1955 م. وأما الثاني فكان يقدر على المشي ولكنه لا يقدر على الجري. ناهيك من القفز من على الحائط.

وقد كانت رغبة ذينك الجريحين في الهروب من السجن شديدة، وقد حاول سي مصطفى أن يقنعهما بأنهما عاجزان عن ذلك. أما سي امحمد فاقتنع بالرأي. وأما شولي فلم يكن من السهل إقناعه بذلك؛ لم يثنه عن رأيه في الأخير إلا قول سي مصطفى له: إننا سنترك رسالة لادارة السجن نبرىء فيها كل من لم يتمكن من الهروب بأنه لم يشارك في العملية ونعلن أننا نحن المسؤولون على ذلك، وأننا سننتقم لكل واحد من المسجونين إن هو تعرض للقتل بأننا سنفتدي منه بأرواح عشرة أشخاص من الفرنسيين. وفعلا فقد حرر سي مصطفى تلك الرسالة وتركها لادارة السجن.

وعندما حان وقت صلاة المغرب من مساء ذلك اليوم فقد أدينا تلك الصلاة في جماعة أمنا فيها سي مصطفى. وكان بيننا شخصان اثنان لا يصليان. وفي أثناء عملية الحفر فإن السعيد حجار نهض من النوم ذات ليلة على الساعة الواحدة صباحا ونطح رأسه على الحائط ثلاث مرات حتى سالت الدماء من رأسه بل وأغمي عليه.

ولما جاء حارس السجن وعاين الحادث قلنا له: «إنها حالة نفسانية، لم تصله الأخبار عن أبنائه فقد كاتبهم مرات كثيرة. وعندما جاءنا كبير الحراس قال له سي مصطفى: إني أنا الذي أكتب إليه الرسائل ولكنه لم يتلق أي رد عليها، ومع ذلك فإن العنوان صحيح، إننا لا ندري هلّ تبقى رسائله في السجن أو لا تصله عن قصد؟. وكنا متخوفين بعض الشيء من السعيد حجار فهو قد اختل نوعا ما في عقله. وقد قال كبير الحراس: ليقض ليلته معكم وسنأخذه إلى العيادة إذا كان الغد وقد قدموا له معالجة سريعة. وقال لهم سي مصطفى: الأجدر أن تتركوه معنا لا أن تأخذوه معكم. إننا نحن الذين نستطيع أن نقنعه ونرفع من معنوياته أكثر مما تصلون أنتم إلى ذلك معه، وإذا أردتم أن تأخذوه معكم فيجب عليكم حينئذ أن تتحملوا مسؤوليته، إنه سيقتل نفسه، أما عن الرسائل فعليكم أن تلتزموا إيداعها في صندوق البريد.

إن الواحد منا عندما يدخل إلى الغار ويخرج منه وقد عفّر التراب شعر رأسه أو وضـع منشفـة عليه وتظاهر بالمرض وذهب إلى الحارس يطلب منه بعض أقراص من الدواء كما أن حالة القاعة التي تحولت إلى ورشة بسبب الخرق المبللة الكثيرة والرمل والتراب على أرضية القاعة والمسح بالماء وآثار ذلك ومحاولة إزالة هذه الآثار كلها قلت : إن هذا كله دليل على ما كنا نعانيه من آلام نفسانية كثيرة وشعور بالاحباط.

وفي الليلة التي قررنـا فيها الهروب وقبل أن يدخلونا إلى السجن بخمس دقـائق جاء الحـارس إلى سي مصطفى يخبره أن محاميه يريدون مقابلته. وقد أحدث هذا اشمئزازا كبيرا في نفس سي مصطفى وفي نفوسنا جميعا فقد كنا لا نرغب في هذه المقابلة ولا نريدها أصلا. ولئلا يتشككوا في أمرنا فقد قال لنا سي مصطفى : سأذهب إليهم مدة خمس دقائق فقط لكي أعتذر إليهم عن المكوث معهم طويلا بدعوى أن وقت الصلاة قد حان وأن أصحابي واقفون في الصف ينتـظرونني لأؤمهم، وسأطلب منهم أن يعودوا إلي إذا كان الغد. وفعلا فقد ذهب إليهم ولم تكد تمضي إلا خمس دقائق حتى كان قد عاد إلينا.

عندئذ أمّنا سي مصطفى في صلاة المغرب ثم صلينا ركعتين لله وتوكلنا على الله ليكـون سي مصـطفى هو البـادىء في تنفيذ عملية الهـروب. كان سي مصطفى بدينا بعض الشيء وكان الغار ضيقا نوعا ما. وتلاه العيفة ثم أنا ثم سي إبراهيم، فرفعوا السلم وذهبوا به إلى الحائط. وقد دخلنا التخشيبة بعد أن كسرنـا بابهـا. في هذا الـوقت كان المسجـونون يتحادثون، ويحدثون أصواتا وضوضاء في صحن السجن وقد نفعنا ذلك كثيرا فلم ينتبه لنا الحراس. عندئذ وضعوا ذلك السلم الذي كانوا قد حملوه معهم من التخشيبة على الحائط الكبير للسجن، وبسرعـة فائقة هبط اثنان إلى الجهة الأخرى من الحائط (هما سي مصطفى والعيفة)... سرعان ما التحقنا بهما أنا وابراهيم فوجدنا السلم مازال مسندا إلى الحائط الثاني فأعطينا هما إياه. أما نحن فهبطنا مع حبله. وكان هذا الحبل مصنوعا من مادة لكران. كان سي مصطفى والعيفة غير بعيدين عنا كثيرا فساعدنا ذلك على اللحاق بهما بسرعة. وكذلك التحق بنا الجماعة الآخرون على عجل كبير... وهنا طلبنا من العيفة الذي كان رشيق الجسم، خفيف

البدن، نشيطا أن يطل على الشارع ليستطلع لنا الأرض. وكنا قبل هذا نتمنى على الله أن تكون الليلة التي نهرب فيها مطيرة. وقد أعاننا الله في تلك الليلة بعامل جوي آخر هو البرد الشديد. كانت الطريق خالية من المارة تقريبا. . . وكان استطلاع العيفة مشجعا لنا عندما قال لنا : «بحول الله، ناجحون»، وأراد أن يرجع إلينا ليكون سي مصطفى هو البادىء الأول بتنفيذ عملية الهروب فقد كنا قررنا ذلك قبل هذا الوقت ولكن سي مصطفى أمره بالقفز من على سور السجن إلى أرض الشارع العام قائلا له : هيا أقفز، لا تضيع علينا الوقت. وقفز العيفة إلى الأرض. عندئذ رفعنا سي مصطفى إلى أعلى ولكن قرميدة (يعني على حافة الحائط) جرحته فأسالت الدم على وجهه عندما تشبث بها، ولم يثنه ذلك عن أمره فهو لا يزال يواصل محاولته نرفعه نحن إلى أعلى وهو يمسك بأي شيء في الحائط. ومع أن الحبل لم يكن شديد الطول فقد أظهر سي مصطفى عنادا في وجوب النجاح في عملية القفز وظل كذلك إلى أن هوى إلى الأرض فلم نعرف عنه شيئا بعد ذلك. (1). وتلا سي مصطفى في الهروب صاحبي الذي كان معي (ليس اسم صاحبه هذا محددا في النص)، ثم أعقبه إبراهيم في ذلك وكنت أنا الهارب الثالث. أما أفراد الجماعة فقد كانوا كلهم معنا ينتظر كل واحد منهم دوره في الهروب. وأقتصر على هذا الذي أعرفه (أي أنه لا يعلم كيف تمكن غيره من الهروب، بعد أن تمكن هو أيضا من ذلك).

كنت لا أعرف مدينة قسنطينة جيدا، فقد اتجهت حيثما اتفق، رأيت حراسة العدو أمامي فرجعت أدراجي، كما أنني رأيت أفراد الجماعة (يعني الهاربين). كنا نرتدي لباسا أسود اللون، وعلى ظهر كل واحد منا وعلى ركبتيه كذلك قطعة من قماش أحمر اللون. وقد حاولنا أن نغير لون تلك الحمرة فصبغناها بمادة الجير لكي لا نجلب انتباه الناس إلينا، ولكن ذلك لم يغير من الأمر كثيرا ومع ذلك فإننا لم نستطع أن نعمل شيئا أكثر مما عملنا. .

وكنا قد حملنا معنا قليلا من السكر ومادة النشوق (النفة) لتضليل الكلاب

(1) وهنا تختفي علينا أخبار سي مصطفى فلا نكاد نعلم شيئا آخر عنها إلى أن يلتحق بجبل الأوراس من جديد حيث يلقى مصرعه في الله في شهر مارس 1956 م .

(يعني الكلاب البوليسية). كما أننا قد فكرنا في هذا كله قبل ذلك (أي قبل الهروب من السجن).

وكـان حجاج بشير، وسي مصطفى وآخرون غيرهما قد حددوا لنا الاتجاه الذي نسلكه وهو اتجاه المقبرة العامة فإذا اتجهنا هذه الوجهة استطعنا أن نخرج من المدينة في سهولة ويسر.

وعندما سقطت على الأرض من أعلى الحائط خلال الهروب من السجن فقد أغمى علي قليلا. وواصلت السـير فرأيت مشري الأخضر وابـراهيم (يعني طايبي) بعيدين عني بحوالي خمسين مترا في اتجاهي الأمامي. ولأن عددا قليلا من الناس كانوا يمرون من حين إلى آخر فقد تظاهرت بأنني أنادي (يعني ينادي أشخاصا مجهولين).

وأعود إلى مسألة أخرى هي مسألة تحديد الوقت الذي كان علينا أن نخرج فيه هذا وإنني متأكد أنني نسيت أشياء كثيرة فقد كان الوقت الذي هربنا فيه هو الذي تتبدل فيه الحراسة والذي يستغرق عادة ساعة أو ساعة إلا ربعا يتم فيه تعداد المسجونين من دخل منهم ومن خرج، حساب المفاتيح، مراقبة الأبواب من خارجها واستلام التوصيات بصفة عامة، ومعرفة من قضوا ليلتهم في القاعة المعزولة كما يسمونها ومن نقلوا أو حولوا (يعني إلى سجون أخرى). وقد تمت عملية تبديل الحراسة مع صلاة المغرب فاغتنمنا الفرصتين معا : أدينا صلاة المغرب واغتنمنا فرصة انشغالهم بتغيير العسة فنفذنا خطتنا.

قلت : إنني كنت تظاهرت بأني أنادي أسماء مجهولة وأقول : «آ الأخضر. آ علي، لعن الله هذه الخدمة التي يبقينا الرومي (يعني المستعمر) بسببها إلى هذا الوقت المتأخر من الليل». وكان العدد القليل من المارة يسمعونني أنادي ولكنهم لم يكونوا قد رأوني عندما نزلت من فوق سور السجن إلى الأرض إلا أنهم كانوا يرونني بلباس غريب. وعندما التحقت بهما (مشري الأخضر وابراهيم طايبي) فقد واصلنا سيرنا وبينما نحن كذلك إذا بشخص يركب دراجة نارية يقترب منا فأصـابنـا هلع شديد لذلـك. فقفـزنـا وأخذنا نجري إلى أن دخلنا في أحد الأحياء. كان النـاس ينـظرون إلينـا ونحن نعدو مسرعين. الكلاب تنبح، الأبواب والنوافذ تغلق بشدة.

ولم تمض إلا مدة تقدر بحوالي خمس دقائق حتى سمعنا البارود في السجن، وصفارات الانذار. عندئذ عرفنا أنهم (يعني قيادة السجن) علموا بالأمر. في هذا الوقت سلكنا طريقنا في مجرى مائي لنمحو الآثار التي تدل علينا العدو ثم واصلنا سيرنا على الأرض وكنا من حين إلى آخر نضع قليلا من النشوق على آثار أقدامنا (يعني لكي لا تشم الكلاب البوليسية رائحتهم).

وكان إبراهيم طايبي نحيل البدن لا يتمتع بصحة بدنية قوية فلم تسمح لي نفسي أن لا أسير على قدر ضعفه. وفي الحقيقة فقد كنا كلنا عاجزين عن مواصلة الطريق إذ كنا في حالة دوار شديد أصاب رؤوسنا، فكنا نتقيأ وكنا كثيرا ما نقع على الأرض من شدة ذلك الدوار. وقد كان مشرى الأخضر هو الشخص الوحيد الذي استطاع أن يقاوم أما نحن فلم نستطع ذلك فهو كان يجري قليلا (يعني يسبقنا) ويعود إلينا يشجعنا على المضي لا يريد أن يفرط فينا.

ولم نقطع في تلك الليلة كلها إلا مسافة تتراوح من 8 ـ 10 كلم وذلك بسبب جهلنا للأرض فنحن كنا لا نتحرك إلا داخل الشعاب. وعندما آذن النهار بالطلوع فقد نال التعب منا نيلا شديدا، كنا نجري حفاة نبحث عن مكان حيث نختبىء فوصلنا إلى ربوة يقل فيها الشجر فتخيرنا شجرة واختبأنا تحتها. كما كنا نتكهن بما سيأتي به الغد وما يخبئه لنا اليوم الموالي واليومان من بعده فمن غير شك أن السلطات الاستعمارية ستقوم بعمليات تفتيش واسعة النطاق. وكنا في حالة نفسانية لا يستطيع الانسان أن يتصورها فهي مزيج من الفرحة والخوف، الفرحة بالهروب والخوف من أن يلقى علينا العدو القبض... وقد أعاننا الله سبحانه وتعالى في ذلك اليوم فتكون الضباب وهطل المطر هطولا خفيفا وبذلك كان ستر (أي ستر من الله). كنا نرى القوافل العسكرية سالكة طريقها من جهة أخرى كما كنا نسمع جلبتها، ونسمع دوي محركات الطائرات في السماء ولكن هذه الطبقة الكثيفة من الضباب هي التي حالت دون رؤية الطائرات لنا. وقد استمرت تلك الطبقة من الضباب إلى نصف النهار الأخير حيث توارت عن الأنظار.

وعندما أظلم الليل فإننا أردنا أن نواصل سيرنا ولكننا وجدنا أنفسنا عاجزين عن ذلك، فأقدامنا منتفخة من الجري والحفا... وحلوقنا ظمأى وبطوننا

فارغة. وكان أكبر ما نعانيه هو شدة العطش. ومع ذلك فقد قررنا أن نمشي لكن على شرط أن لا نتصل بأي أحد كان حتى نبتعد كثيرا عن هذه المنطقة... ومشينا قليلا لكن التعب كان شديد التأثير علينا. وسمعنا كلبا ينبح فأخذنا نقترب قليلا منه نريد أن نتصل بصاحبه لعله يرشدنا إلى كيفية نتصل من خلالها بالجيش أو الشعب أو الجبهة (يريد المناضلين في جبهة التحرير الوطني كما أنه يريد بالجيش أفراد المجاهدين في جيش التحرير الوطني) أو على الأقل يقدم إلينا شيئا من الأكل والشراب ثم نواصل طريقنا. وكنا في أثناء سيرنا نتوكأ على العصي، نخطو خطوة للأمام وأخرى للوراء.

ولما وصلنا إلى الكوخ حيث سمعنا نباح الكلب نادينا صاحبه فخرج إلينا يقول: من؟ وكنا قد سمعنا أن الناس في هذه الناحية، ناحية قسنطينة يقولون عن المجاهدين: «المنتصرين» فأجبناه: المنصورون، المنصورون. وسألنا. ماذا تريدون؟ فقلنا له: هل تعرف هنا «الجماعة»؟ (يعني المجاهدين) وسكتنا. ثم قلنا له: هل سمعت؟ هل تعرف أو تدلنا على وسيلة للاتصال بالجبهة أو الجيش يعني المنتصرين فقال: لا أعرف. ويبدو أن الرجل كان لا يعرف بحق ذلك أنه كان يسكن في مكان ناء غير آهل بالسكان. عندئذ طلبنا منه أن يقدم إلينا قليلا من الأكل والماء فأدخلنا إلى كوخه حيث أحضر لنا صحنا من الكسكس بزيت الزيتون فأكلنا وشربنا... وواصلنا سيرنا فقضينا ليلتنا نمشي ونحن غير قادرين على ذلك... كنا نرى القوافل العسكرية تمر الواحدة بعد الأخرى من غير أن تقصد المنطقة التي كنا ندور في محورها وذلك بسبب الغلطة التي وقع فيها العدو وهي أن دعاية انتشرت بأنه في الوقت الذي تم فيه الهروب من السجن بالضبط قد كانت هناك ثلاث سيارات صغيرة من نوع «سيطروان» (يعني تنتظرهم غير بعيد من السجن). ولذلك فقد فهم العدو أن الهاربين يكونون قد قطعوا مسافة طويلة (هي أبعد بكثير من المنطقة التي يتحركون فيها على أرجلهم). وبينما كنا نراقب تحركات العدو ونقوم بتحليل للأرض واستطلاع لطرقها ومسالكها ظهر لنا مركز عسكري؛ كما ظهرت لنا قرية آهلة بالسكان. وكنا نسير في أرض وعرة جدا حتى أن المسافة التي نقطعها في خمس أو ست ساعات لا نكاد نقطعها في نصف ساعة من ذلك. وهكذا كنا

نواصل طريقنا إلى أن أظلمت الدنيا فلا نرى شيئا ولكن ما كان يدلنا في سيرنا هو نباح الكلاب.

وكنا قد طلبنا من صاحب الكوخ أن يعطينا حذاء ولكن حذاءه لم يكن على قدّ قدمي أيٍ واحد منا ولذلك زادت أقدامنا انتفاخا من كثرة المشي وهي حافية.

وعندما وصلنا إلى منزل منعزل لأحد الأشخاص ناديناه وكان ذلك على الساعة الواحدة أو الثانية صباحا. ولما أجابنا طلبنا منه أن يحضر إلينا الأكل والماء وحذاءا أو زوجين منه على أن نرجعهما إليه فأتى إلينا بالعشاء على الساعة الثانية. وبعد أن أكلنا وشربنا القهوة سألناه إن كان يعرف شيئا عن الاتصال (يعني الاتصال بالمجاهدين) فقال: لا أعرف، ولكنني أسمع عن قرية تسمى «العيايشة»، هي زاوية العيايشة في جهة قسنطينة، إن هذه القرية كما سمعت يؤمها المجاهدون وقد يكون فيها واحد مسؤول (يعني مسؤول جبهوي دائم فيها). وقد دلنا بالتقريب على موقع تلك القرية فقصدناها ونحن نتبع بنيات الطريق (1)... كنا نسير في الليل على أننا لم نقطع في تلك الليلة إلا حوالي ثمانية إلى عشرة كيلومترات. ولما طلع علينا النهار وجدنا أنفسنا في أرض شبه عارية فاختبأنا عند عين جارية مسوّرة تحيط بها ثلاث أو أربع شجيرات. وعندما لاحت الشمس رأينا فلاحا يحرث أرضه. كنا نسمعه وهو يتكلم (أي وهو يحرث يتكلم إلى الحيوان الذي يحرث عليه). ثم جاء بعد ذلك إلى تلك العين الجارية ربما ليشرب أو ليتزود بالماء بعد أن تناول فطور الصباح. كانت نقطة الماء لا تبعد عنه إلا بحوالي مئتي متر. ولما وصل ورآنا فقد ذعر لمرآنا فولى مسرعا فناديناه يا محمد! اسمع يا محمد. تعال، تعال، فرجع إلينا. قلنا له: يا الأخ أنت مسلم وإلا فمن تكون؟ ألا ترد علينا السلام؟ ألا تسألنا. فقال: إخواني لم أعرف على كل حال (يعني لم يعرف كيف يتصرف في الأول). فقلنا له: نحن إخوانك المسلمون. هل لك أن تعطينا ما نأكل؟ قال: عندي الأكل. قلنا له: إنتظر قليلا فإننا نريد أن نتكلم معك؛ إننا لا نعرف البلاد

(1) *بنيات الطريق: هي الطرق المتفرعة عن الطريق الرئيس.*

وإننا من إخوتك المنتصرين وفي هذا الوقت اعترفنا له بأننا هاربون من السجن. وقد نسيت قليلا من الكلام. وسألناه عن أحد الأمكنة كان يظهر لنا فقال: إنـه للقايد. وذلك؟ للعسكر. وتلك؟ فقال: تلك هي العيايشة وعندما سمي لنا هذه الأخيرة فإننا تأكدنا جيدا وجهتها (لأنهم يريدون أن يذهبوا إليها هي). ثم أتى لنا بعد ذلك بصحن مصنوع من الطين مملوء بـ «الشخشوخـة» عليها زيت الزيتون ولكننا لم نستطع أن نأكل منها الكثير بسبب ما كان يغطيها من ذلك الزيت، إنها تقوتنا جيدا. . . وقد وضعنا على رأس الأخضر مشري شبه عمامة وخلطنا قليلا من التراب بالماء ودهنا سترته بذلك (أي ليموهوها عن أنظار الناس لأنها كانت تجلب انتباههم إليه). ثم طلبنا منه أن يذهب هو فقط (أي إلى قرية العيايشة) لأنه كان هو الوحيد الذي يستطيع أن يواصل السير. ولما وصـل إلى القرية فإنه شرح حالتنا (يمكن أنه قد تكلم للمسؤول) وعين له المكان حيث نوجد. وقد غادرنا مشري على الساعة التاسعة صباحا ولم يصل إلى القرية إلا على الساعة الثانية بعد الظهر. وعندما وصلنا المدد من القرية فقد كان محملا بثلاث قشـاشيب وبعض الأحذية. وقد اصطحبنا الاخوان الذين جاءونا مددا إلى أن وصلنا إلى الدار حيث وجدنا جماعة أخرى أعلمونا أنهم وجدوا أفراد جماعة أخرى وبذلك أصبح عددنا ستة (أي بدلا من ثلاثة). وقد لقينا عناية كبيرة في هذه الليلة في الحقيقة فقد كان الجو أشبه ما يكون بزردة. وقد التقانا شيخ الزاوية ففرح بنا هو والشعب على السواء. ورووا لنا كل ما وقع في مدينة قسنطينة ويمكن اختصار ذلك في هذه الكلمة. «الفرنسيون عملوا ما يجب عليهم عمله، وشعب قسنطينة عمل هو الآخر ما يجب عليه عمله». فقد اتصفت أعـمال الفرنسيين بالعنف: جاسوا خلال الديار، يحطمون الأبواب ويفتشون كل مكان. وإذا كان هذا هو حالهم فإن حال الشعب كان فرحة عامة تغمـر النفـوس فهم يباركون هذه العملية ويهنىء بعضهم بعضا بنجاحها، ويشربون القهوات ويأكلون الفطائر تعبيرا عن سرورهم البالغ (يعني بالهروب الناجح من السجن).

وفي قرية العيايشة وجدنا مسؤول الاتصال للجبهة قد قام بعمل ما يجب عليه نحـونـا فأجـرى اتصالاته النظامية وهيأ لنا عشاء لذيذا فارتحنا جيدا وداوينا

جراحنا إذ وجدنا عندهم شيئا قليلا من الدواء. وقد هيأ لنا المسؤول على النظام كل الـوسـائـل التي من شأنها أن تساعدنا على تأمين الطريق التي نسلكها. فالبغال كانت جاهزة لتنقلنا من مركز إلى مركز، وكل مكان غير مأمون كان محروسا من قبل جماعة خاصة. وقد كان ذلك كذلك إلى أن أوصلونا إلى «عين التين» حيث تمركزنا في هذه إلى أن طلع النهار. وقضينا نهارنا هذا كله في راحة إلى أن داهمنا الليل. عندئذ صحبتنا حراسة أخرى فقضينا الليل كله مواصلين الـطريق. وهكذا استمرت رحلتنا الطويلة والشاقة: الحراسة والمسبلون والبغـال إلى أن كان اللقـاء الكبير فقد وصلنا إلى حيث كان بنطوبال (يعني الأخضر بنـطوبـال) قائـد الولاية الثانية آنذاك، وجدنا الاخوان (يعني قيادة الولاية الثانية) قد انتهوا من اجتماع تقويمي لحوادث 20 أوت (يعني 20 أوت 1955). وقد التقينا سي عبد الله (يعني بنطوبال). فتكلمنا إليه. كان يلبس قشـابية، ويتـوسـد حجـرة، ولا يزال كثـير من الأمـور (يعني أشياء كثيرة لم يذكرها). وفي هذا القدر كفايـة.

صــور من الأدب الثــوري في الثورة الجزائرية

إذا كنت يا ولدي قد تحدثت إليك عن الثورة في الجبال وأوساط الشعب فإني أحدثك اليوم عن ميدان آخر من هذه الميادين التي لاذ بها الشعب دفاعا عن الحرية وذيادا عن الكرامة. وهذا الجهاد الذي سيكون موضوع حديثنا هو ما نلمسه في هذا العمل اليومي الذي يتواصل ولا ينقطع وتذكو ناره ولا تخمد، ولكن هذا العمل لا نلتمسه في الجبال والأوساط الشعبية كما أشرت إلى ذلك إنما نبحث عنه في مجال آخر لا تكاد تتعرف إليه حتى يأخذك العجب ويملأ الدهش عليك نفسك من جميع أقطارها، إنه ميدان ضيق يشتد ضيقه حتى لا يكاد يتسع للعمل الثوري ليس فيه هذه الحرية التي تجدها في الجبال والشعاب والوهاد وليس فيه هذه الوسائل التي تشجع على العمل وتبعث على الاغراق فيه حتى الأذنين كما يقال. أعرفت يا ولدي ما أقصد إليه ؟ إن كان لابد لي أن أطلعك على قليل أو كثير من أمر هذا الميدان حيث تعمل الثورة جاهدة وحيث يصمد مناضلوها صمودا لا يقل عن صمود إخوانهم الذين يحملون السلاح في الجبال والربى والحزون قلت : إن كان لابد من تعريف ذلك لك يا ولدي فإني أقـول : إن هذا الميدان الـذي ظل أمـره خفيا عليك هو معتقـلات العـدو ومحتشداته وسجونه التي زرعها في كل مكان والتي بثها حيثما كانت الثورة ليقضي بها على هذه الثورة، ولكن هذه الأخيرة كانت أقوى من العدو ومن هذه الوسائل الجهنمية التي اصطنعها هذا العدو اصطناعا فاتخذت الثورة لنفسها من هذه المـراكـز المعـادية مراكز يعمل فيها المناضلون لمصلحتها وذلك بالالتجاء إلى استعمال الحيل والأساليب المموهة.

وإذا كان العدو الفرنسي قد استطاع أن يجمع أعدادا غفيرة من المجاهدين والمناضلين الثوريين في تلك المعتقلات والمحتشدات بهدف إبعادهم عن الثورة المسلحة وقطع الصلة بينهم وبين حقهم المشروع في الجهاد فإنه لم يستطع أن يقطع هذا الخيط الروحي المتين الذي كان يشد أولئك المناضلين المعتقلين فيتغنوا بالثورة ويجعلوها موضوع أحاديثهم كلما ضمتهم مجالس تلك المعتقلات وماذا تريد من ناس كهؤلاء أن يدور كلامهم على نمط من الحديث إن لم يكن كلامهم هذا يدور على الثورة التي فرغوا أنفسهم لخدمتها ووقفوا حياتهم للذياد عن حياضها.

وقد تفطن الشعب الجزائري منذ الوهلة الأولى لتفجير الثورة إلى أن مقاتلة العدو تختلف أسلحتها وتتباين وسائلها في ذلك إذ يجب مجابهة العدو أينما كان في الجبال والمدن والقرى والمداشر وحتى في هذه المعتقلات والمحتشدات التي أسلفت لك القول عنها والتي سأجعل منها حديثي إليك اليوم. فقد كان لهذه المراكز دور كبير في تغذية الثورة وتقديم الدعم المعنوي لها بما تهيأ لها من أسباب وتوافر لها من وسائل وعوامل تدعو إلى الاعجاب وتبعث على الاكبار.

وإذا كان لك يا ولدي أن تعرف شيئا قليلا أو كثيرا عن هذا الدعم الأدبي الذي كانت جموع المناضلين تقدمه إلى الثورة في سجون ومعتقلات العدو نفسه فإني أقول لك: لقد تمثل ذلك الدعم أول ما تمثل في هذه النظرة الثورية الموحدة التي أجمعت عليها هذه الفئات ممن ضمهم هذا المحتشد أو ذاك، وذلك على اختلاف ميولهم الفكرية والأدبية وتباين آرائهم السياسية وتباعد نظرتهم العقدية لا تجد فرقا كبيرا في ذلك بين المثقف والأمي بل بين الأديب المفكر والسياسي المدبر والفيلسوف المنظر فلكم تجاوب أزيز رصاص المجاهد مع خرير قلم الكاتب الذي شغل باله أمر الثورة ومزق حجب عالمه الباطني هذا الايمان العميق بأن للشعب إرادة وتصميما لا يغلب.

من هنا يمكننا أن نقول: إن جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر قد كان لها دور أي دور في تعميق ضرورة الايمان بالوحدة الوطنية وتعزيز جانبها. وقد تجلت تلك الوحدة في الشعور المشترك بالبؤس والاحساس الكبير بالذل والهوان الذي يلقاه المناضلون في حياتهم اليومية.

وقد عبر عن هذه الحقيقة الأستاذ / محمد الصالح بنعتيق في بعض كتاباته التي دونها في إبانها والتي زودني بها في الشهر الرابع من عام 1980 م في منزله بالقبة. وكنت قد واعدته بأن أنشرها وأذيعها في الناس. ولكن ظروفا خاصة حالت دون ذلك.

وقبل أن أنقل القارىء الكريم إلى الجو الأدبي الممتع لتلك الكتابات فإني أود أن أقدم إليه هذه اللمحة التي كتبها الشيخ عن بعض زملائه الذين كانوا معه في معتقل العدو والذين أجرى على لسانهم محاورة أدبية يصف فيها ميول وأهواء كل واحد منهم واتجاهاته الفكرية والأدبية والدينية والسياسية. إستمع إليه مثلا يقول بالحرف الواحد عن كل واحد من أفراد هذه النخبة المثقفة الممتازة التي ورد ذكر أسماء أصحابها في هذه المعارضة الأدبية التي تكشف عن خفة روحه وسعة اطلاعه وحسن إدارته لهذه المناقشة الفكرية قال يصف ذلك: «فالاخوان الذين جاء ذكرهم في هذه المحاورة كانوا من النخبة الممتازة في الأدب ومن أهل العلم والفضل وقد راعيت في ذكر أقوال نسبتها إليهم ماكان يبدو عليهم من الاتجاهات والميول فالأستاذ / صالحي كان كثير الاهتمام بأقوال الصحابة يروي عنهم كثيرا وخاصة سيدنا عمر بن الخطاب، والشيخ / مصباح كثير الرواية للحديث فلا نكاد نسمع منه إلا قال رسول الله، والشيخ / أحمد سحنون شاعر أديب يستهويه الفن ويأسره أهله ويحفظ كثيرا من الشعر ويستشهد به، والشيخ / محمد الشبوكي شخصية سياسية يهمه النظام ويحاسب عليه، والسيد / دلال الغوثي سياسي لبق يدافع عن الصحابة في جميع الأحوال، والشيخ / عمر الشكيري، أديب وشاعر يزن كل كلمة بميزان العروض. أما كاتب (1) المحاورة فيحب الملاحظة وتعجبه المعارضة والدعابة. وقد كتبت لوقتها وسجلت ثم تركت ضمن غيرها فما هو مسجل في هذه الذكريات والخواطر الحديث عن صاحبنا الهمام، الشيخ / مصباح أو عيسى بن هشام».

وبعد هذا العرض فإني أضع بين يدي القارىء هذه المحاورة التي يبدأها الشيخ / محمد الصالح بنعتيق بهذه الدعابة التي عنوانها «حديث الدلاعة»،

---

(1) إن المشائخ المذكورين كانوا كلهم أعضاء عاملين في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

فالحديث عن «السردين» وأخيرا الحديث عن «الشاي». ومما يلاحظ على هذه الأحاديث الثلاثة هو أنها تدور كلها على تصوير حالة نفسانية لما يعانيه أولئك المعتقلون الـذين لا يجدون ما يقيمـون به أودهم ناهيك من خفض العيش وترفه. لذلك تجد هؤلاء المسجونين السياسيين الذين فرغت جيوبهم وجاعت بطونهم لا يفتأون يتندرون بذلك أحيانا في أحاديثهم أليس الأكل مما تقوم عليه حياتهم في طلب الحياة من هذا العدو الذي استأثر بكل شيء من دونهم حتى الخبز حرمهم إياه ؟ على أني أجلب انتباه القارىء إلى أن الأحاديث الثلاثة التي كان الشيخ سلمها إلي قد نشر منها في كتابه «أحداث ومواقف. . » موضوعين فقط هما : «قصة المقرونة» و«حديث الدلاعة». وعند مقارنتي لما نشره الشيخ بما كان قد أمدني به فإني وجدت بعض الاختلاف في كتابة الحديثين إلا أني لم أعـر ذلـك اهتـمامـا كبـيرا مادامت المادة التي عندي تكاد تكون سليمة من الأخطاء. وإليك الحديث الأول وهو تحت عنوان «حديث الدلاعـة».

ومما كان يقـع من الـدعابات وأنواع التسليات وهي كثيرة وكنت أسجل بعضها نذكر منها على سبيل المثال : حديث الدلاعة، 19 ـ 9 ـ 56.

كنـا جماعـة من المعلمـين مجتمعـين في إحدى الحجرات بمعتقل آفلو(1) نتجاذب أطراف الحديث الذي تجري حوادثه بالمعتقل ونجتر الأخبار التي ترد علينا ونعلق على ما قرأناه في الجرائد من أخبار ونتكهن بالمستقبل وربما ذهب كل واحد في طريق غير الطريق التي يراها غيره قد يشتد الجدال ويحتدم النقاش وفي الغـالب يؤول إلى المـراهنة وتعيين ضريبة يدفعها المغلوب للغالب وماذا عسى أن يكون هذا إلا نوعا من الأطعمة التي حرم منها ضيوف المعتقل، وبينما كان القوم في هذا الحال وإذا بالأستاذ مصباح يطلع علينا كما تطلع العافية على المريض يحمل بين يديه نصف دلاعة يسترها بمنديل أبيض كما تستر الملاح. فاشرأبت إليه الأعنـاق وتـطاولت إليها أنظار العشاق والتفت الساق بالساق فكتبت في هذه الحالة مقامه مطولة تناولت فيها كل ما جرى فيها بين الجماعة

(1) *يقع على الحدود المغربية الجزائرية.*

ولكن مع الأسف ضاع أكثرها في جحيم معتقل أركول (1) : ولم يبق منها إلا ما كان محفوظا عندي أو عند الأخ المجاجي وهذا نصها. لما انتظم جمعنا وكمل عددنا ولم يبق منا إلا من شذوند، إذا بالأستاذ / مصباح بطل الكفاح والاصلاح يدخل وعلى شفتيه ابتسامة وفوق رأسه منشفة وعمامة، يجيل بصره في الجماعة، يحمل بين يديه نصف دلاعة يسترها تحت جناح البرنوس ويزفها كما تزف العروس، فاشرأبت إليها الأعناق وتطاولت إليها أنظار العشاق والتفت الساق بالساق، فكان منهم قيس المجنون، وصاحب ولادة ابن زيدون، فأسرع إليها الأستاذ / المجاجي (2) وأخذها بين ذراعه وهو يناجي : أيتها الزائرة يا ابنة الكرام، كم لي من مثيلاتك ببلدة الأصنام، هجمت عليها تحت جناح الظلام، وهتكت سترها والناس نيام، ولثمت ثغرها وكتمت سرها، هل رأيتم أيها القوم بربكم ؟ أسعد من هذا اليوم، «دلاعة فتانة بدر الدجى منها خجل». آنسة من الأوانس، لا ترد أبدا يد لامس؛ توشحت بوشاح من الزبرجد وتكشفت عن جسد من العسجد، وافترت عن مثل العقيق، فسال لذلك لعاب بنعتيق، ألم تروا إليها كيف عبق ريحها، واحمر من الخفر (3) وجهها، أشهدكم أني لمستهام بها طروب بقربها هي حقا سيدة الفاكهة ونكهة السادة فيها تمنع ودلال ولكنها حريصة على القرب والوصال، فيها شراسة وصدود وهي اللطيفة الودود، فيها إعراض وجفاء وفيها إقبال ووفاء. ثم أخذ يشقها ويعانقها وينشد .

خبروها أني مرضت فقالت — أخنى طارفا شكا أم تليدا
وأتتنى في خفية وهي تشكو — رقبة الحي والمزار البعيدا
وأرتني كذا فلم تتمالك — أن أمالت على عطفا وجيدا

أراها قد لانت وحان وقتها وإني لصاحبها وأخذ موسى بيده يراودها يريد إهراق دمها. فناداه الياجوري بصوت جهوري إليك عنها يا غلام فلست لها بكفء ولا هي من بلدتك الأصنام، تنح بعيدا وإلا علوتك بهذا الحسام، إنها

---

(1) في ضواحي مدينة وهران.

(2) هو الشيخ / الطيب المجاجي دفين مدينة وهران.

(3) الخفر بفتحتين : شدة الحياء (مختار الصحاح).

ابنة الصحراء خفرة (بكسر الفاء) سمراء ثيب تبدو كالعذراء، سليلة الرمال رضيعة لبان النوق والغزال، ربيبة العز والكمال، ونديمة القمر والهلال، وحفيدة البراري ووارثة المهاري، أنت سهيل وهي الثريا، بل هي نوار وأنت «الكسعى».

أجابه المجاجي وهو يتميز من الغيظ، أني لكم مثل هذايا سلالة الحر والقيظ، وما عهدنا في بلادكم غير الثعابين والحشرات، ولا شاهدنا في تلكم الأكمات غير الجراد والحيات، أتكون مثل هذه الطروبة (1)، من ساكني تلكم الخيام المنصوبة. حاشاها وحاشا هذا الجسم الناعم أن يداس بأخفاف الرواسم.

الياجوري : أخرص أراك قد جاوزت حدك ونشرت حسدك وحقدك وتطاولت على الصحراء وروائها، وطيب عرفها وزرقة سمائها، وجمال فتيانها وفتياتها إن عبتهم بسواد لونهم فهو برهان على بياض قلوبهم فيا لله متى أشرف التل على الصحراء، أو علت الأرض على السماء، فلا والله ليس الأمر كما زعمت ولا الحقيقة كما ذكرت، لكنه التيه والصلف، والتجاوز للحد والسرف . .

الجماعة : لا يا قوم ماهذه المفاخرة بين الاخوان، والتفاضل بين البلدان، من أجل دلاعة عليها لعنة الشيطان فلتذهب إلى سقر وليتبعها من شاء من البدو والحضر.

ونطق ابن أبي عتيق، ولعابه يسيل مثل العقيق. أرى هذه اللعينة كبقرة بني اسرائيل، كثر حولها (2) القال والقيل. وتعنتوا في السؤال، وتفننوا في المقال، أنصحكم (3) أن تجهزوا عليها، وليأخذ كل منكم نصيبه من لحمها. فقالوا : الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون يوم 19 ـ 9 56 ـ آفلو.

أما الحديث الثاني فيحمل عنوان «حديث السردين» وإليك ما جاء فيه :

كنت ذات يوم بمعتقل البرواقية سنة 1956 في 16 ـ 5. أنتظر الغداء، وقد لسعني الجوع لسعا (فراغ في الأصل) له صبري، وانشق لهوله عقلي وفكري

---

(1) يقال : الطروب لأنه على وزن فعول لا يؤنث ولكنه يمكن أن يكون راعى السجع.

(2) التعبير السليم أن يقال كثر بشأنها لا حولها.

(3) الصواب أن يقال أنصح لكم.

أعد الثواني وأتطلع إلى الأواني، فإذا بها مملوءة «مكرونة» فلما رأيتها قلت : مالي ولهذه المجنونة. فإني أكرهها، ولا أكاد أسيغها، ونهضت في الحين وهرعت إلى «الكنتينـة» لعـلي أجد فيها من السردينة. ولما وصلت إليها وجدت جمعا من الشبـاب يقفون بالباب ثم دخلت ورميت ببصري وحدقت فلم أر فيها إلا حبـات من الـزيتـون مبعثرة على الأخشاب كأنها خنافيس علاها التراب أو عتاريس بعثرتها الذئاب أو أحابيش تراكم عليها الذباب. فعدت إلى البيت بخفي حنين لعلي أدرك من تلك بقية الآكلين، وأتناول منها لقمة أو لقمتين فما راعني إلا أن الأواني قد رفعت، وقضى عليها وانتهت.

وأما الحديث الثالث فموضوعه يدور على الشاي ونكهته والشراب وطعمه وذوقه، وهذا هو نصه :

بعدما التأم الجمع في الحجرة رقم 3 بمعتقل بوسوى (1) سنة 58 حول شيخ الاصـلاح الأستـاذ مصباح، نهض كعادته يهيء للأصحاب ما لذ وطاب، والشيخ «من أكرم القوم جودا وأصلبهم عودا» يمتاز بالكرم والسخاء، ويلعن البخل والبخلاء، فهو إذا آنس من نفسه القدرة، بادر إلى وضع القدرة وجمع الاخـوان على الخـوان ، واستقبلهم بالبشر والانبسـاط، ووضع لهم أفخر السماط، وجلسوا حوله محلقين، وإلى ما عليه مرنقين، وفي هذه المرة كان عليه إبريق من الشاه، تتلمظ له الأفواه والشفاه، وقد وضع عليه خرقة تستره، حتى لا يذهب (فـراغ في الأصل)، وبعد طول الانتظار أحضر الكؤوس الكبار، يصب فيهـا بإعـزاز واستكبـار، والقوم في طرب وانشراح. . . فما راعهم إلا اعتراض يصدر من الشيخ الياجورى ضد (2) استعمال هذه الكؤوس الكبيرة التي لا يقرها النظام الاقتصادي الحديث فمما قرأناه ودرسناه في كتاب سارتر مثلا وفلسفة ماركس يجعل هذا من السرف، ويندرج في قائمة الترف وهذا كما تعلمـون، ينـافي التعاليم الاسلامية. فتململ الشيخ مصباح، وتحرك لسانه

(1) يقع في الناحية الغربية من الوطن.
(2) الصواب أن يقال على استعمال لا ضد استعمال.

وقال : بل إن هذا مباح ألم يقل الرسول عليه الصلاة والسلام : اسقني بالكبير والصغير ودع الماء وشربه للحمير.

ليس هذا من قول النبي بل هو لسيدنا عمر بن الخطاب، الذي كان لقوله فصل الخطاب، فهو المشهور بالعدل والقول الفصل، وهذه الحكمة لا يمكن أن ينطق بها سواه. . . فاهتز الشيخ سحنون وحرك طربوشه يمينا وشمالا ثم قال : بل هذا لنازك الملائكة ألم تلحظوا رقة ألفاظه وعذوبة أنغامه، وجمال موسيقاه التي تتجلى في كلمة الحمير، فضلا عما تنم عنه من النعومة والرقة المتناهية التي لا تصدر إلا عن أنثى ولا تكون هذه الأنثى إلا نازك الملائكة التي فاقت غيرها في عالم المرأة وفي نسل بنات حواء، صدقوني إن قلت : إنها الوحيدة التي غلبت الفحول وخلبت بجمالها العقول فهي أحسن الحسناوات وأغنى الغانيات. آه منها ثم آه آها - ياليت عيناها لنا وفاها. . . وهنا سمع هاتف يهتف : كفى ! كفى ! أنا لا أحب أن يذكر اسمي بين الرجال. ولا أقبل الغزل بحال من سمح لكم أن تنبشوا القبور، وتمتطوا صهوة الفجور؟ ألم تعلموا أني في عالم غير عالمكم، وفي حياة بريئة من اللغو والتأثيم، فنزلت كلماتها على الجماعة تهبط كالعافية على السقيم، فانتعش القوم بهذا اللفظ الرقيق وخاصة منهم ابن أبي عتيق قائلا : أيتها الساكنة بين الحور العين والسابحة في أجواء عليين، يطوف حولك (1) غلمان كاللؤلؤ المكنون جودي علينا مرة بصوتك الحنون وإلا أصبنا بالخبل والجنون فإننا كما تعلمين رهن الاعتقال فدعينا نرتاح (2) برهة من أصوات الرجال - لا تغضبي من هيام شاعر مفتون، أو محب مال إلى الغزل والمجون، نحن هنا نتغزل بالكلام، كما نتغزل بالأكل والطعام، يا سلام على الصوت الندى والخبز الطري - إن صوتك يبعث النشوة فينا، وإنا لا نراك فالمسينا. أخرص فما أنت وهذا الهذيان، لكأنك تتحدث بلسان الشيطان أقول لكم مرة ثانية : نحن الآن في جنة عالية، لا تسمع فيها لاغية، فانتفض الشيخ / الشبوكي ورفع صوته بالاحتجاج ونظر إلى الغوثى وقال : ما هذا يا حلاج؟ أتذكر اللجنة وليس لنا والله فيها أثر، ولا علم لنا في تكوينها

(1) الصواب أن يقال يطوف عليك غلمان لا حولك
(2) الصواب أن يقال : نرتح بحذف الألف لأنه فعل مضارع مجزوم بفعل الأمر.

ولا خبر، لقد أسسها القوم على مقتضى أهوائهم، وطبخوها حسب أذواقهم أبعدوا منها أهل العلم والرأي، وجمعوا فيها بني وي وي، متجاهلين أبطال معتقل بوسوى، حرام علينا يا جماعة أن نسكت عنها ونقدم لها الطاعة، وليس فيها كما تعلمون من هو في العير و لا في النفير وليس له في هذا الميدان ناقة ولا بعير، حرام علينا أن نغمض عيوننا على هذا القذي، أو نرضى بالهوان والأذى، ولا نقاوم هذا الاستبداد، ونقضي على الظلم والفساد، فهيا بنا يا قوم نحارب هذا المنكر، ونمحوا عنا هذا العار قبل أن يسيطر؛ قولوها كلمة صريحة، لا لجنة حتى تقام على قواعد صحيحة. فقاطعه الغوثى في لهجة صارمة. وثورة عارمة، أنا لم أقل لجنة يا أستاذ ولكنني قلت : جنـة. والأمر بينهما بعيد، ولا يستوجب هذا التهـديد، وسـاد الهرج واللغط، وكثر الكلام وتدخل الشكيري عمر : المسألة ليست ذات خطر : والخلاف لفظي كما يقول أهل النظر. فإن لجنة وجنة كلاهمـا على وزن فعلة كعـظة، وبغلة، ونملة، فالبحـر يشملهـما والصرف يقرهما. فالمناقشة إذن في القضية من باب المناقشة البيزنطية. فينتفش صاحب المأدبة قائلا : أنا جمعتكم هنا للأنس والراحة، لا للخصام والوقاحة ـ فكلام الأستاذ يعني مثلا لا يصح أن يكون شيء مثلا بدون استشارة مثلا ونحن النخبة في المعتقل مثلا، وكلام الغوثى يعني أنه مثلا لم يقصد مثلا. وهنا تدخل كبير القـوم قائـلا : عودوا بنـا إلى ملء الكؤوس فلا عطر بعد عروس، وختمت الجلسة وتفرق الجمع وانتشر والحمد لله على ما بطن وظهر.

على أنني أريد أن أضيف إلى هذه المقامات ما كان الأستاذ الشيخ / محمد الشبوكي قد زودني به في شهر سبتمبر من عام 1989 م عندما قدم بين يدي ورقتـين صغـيرتـين كتب عليهـما مقطوعات شعرية كان قد نظمها في أوقات متباعدة عندما كان في معتقل العدو في أثناء الثورة فجاءت كل مقطوعة منها معبرة عن حالة نفسانية خاصة أو مترجمة عن خاطرة أو مداعبة أو ملاطفة أو ملاحقة لهذا الزميل المعتقل أو ذاك. وهذا بعض ما جاء في المقطوعة الأولى منها حيث يصف الشيخ / مصباح وهو يؤذن للصلاة فيقول عنه :

في موكـب الفجـر والأنداء حالمـــة   والليل من بسمات الفجر خجــلان
صوت تمـوج في سمع السكون له   في قلب كـل تقي الـروح إرنـــان

«الله أكبـر» مصبـاح يـرددهـا	فيغمـر الكـون إشـراق وإيمـان

كما يقول عنه دائما في هذه الأبيات :

عجبـا للشيـخ يتلـو	سـور الـذكـر الحكيـم
ويريـق الدمـع خوفـا	مـن لظي نـار الجحيم
ويقـول الشعـر في الفجـ	ـر إذا رق النسيـم
يصـف الحسنـاء فـي الخـد	ر ويصبـو ويهيـم

ويناجي شاعرنا الشيخ /"الطاهر حراث*رحمه الله فيقول :

نجـي الفـؤاد صديـق العمـر	ويـا «طـاهر» القلب يـا خير بـر
فكيـف الرفـاق وآمالهـم	وماجد في جـوهم مـن خبـر
فـإني وإن كنت فـي عـزلتي	بجـرف المسيلة رهـن القـدر
أعيش بـروحي مـع رفقتـي	وأنشـد فيهـم نشيـد الظفـر

أما نسمات الخريف في معتقل «بولقازال» ، (عين وسارة حاليا) فيصفها قائلا :

نسمـات الخـريف في «بولقـازال»	أيقظت مهجتي وهـاجت خيالـي
وغيـوم الصحـراء في لونهـا الـ	ـدا كـن تغرى برائعـات الجمـال
فدعـاني شوق جديد إلى الشعـ	ـر وغنت بـه حمائـم بـالـي
شـاقني مشهـد السهـول حوالـ	ـيَّ أحيطت بشاهقـات الجبـال
هـا هنـا هـا هنـا مآت مـن الأحـ	ـرا رشبـوا على الفدا والنضـال
جمعتنـا هنـا فرنسـا لكـي نـنـ	ـسى على زعمهـا حيـاة القتـال

وفي الأخير فإنه يتوجه إلى زميله في المعتقل السيد / «دربال» يطلب منه أن يعيره ديوان «وحدي مع الأيام» لسلوى طوقان ولكن هذا الأخير يبطىء في الاجابة فيخاطبه شاعرنا :

دربـال سـل (وحدي مع الأيـام)	ينبئـك عـن وجـدي به وهيامـي
ناشدتـك الرحمـن لا تبطىء بـه	إني أنـا الظمآن وهـو مدامـي

وأكاد أعتقد أن الأدب الثوري الذي أنتجته سجون العدو ومعتقلاته خلال

الثورة هو أدب غزير المادة لأنه نتاج ظروف سياسية اتسمت بالعطاء السخي من أجل تحرير الجزائر.

ومن هنـا كان للكلمة المعبرة أثرها في هذه النفوس المكلومة وكان للأدب الثوري تأثيره فيها كذلك. ولكننا نعتقد من جهة أخرى أن تكريس الجهود اليوم لجمـع هذا الأدب يشكـل رافدا أساسا من روافد كتابة التاريخ الأدبي للثورة. فأنت تعلم أن الحقائق التاريخية التي يعبر عنها المؤرخون بأسلوبهم هي عين الحقائق التي ينطلق منها الأدباء في تصوير ذات نفوسهم؛ وإذن فليس على هؤلاء وأولئك إلا أن تتضافر جهودهم ليقدموا للأجيال مادة يصوغها الأديب الألمعي، والشاعر الفحل، والقاص البارع، والمؤرخ الرزين كل بأسلوبه وكل من منطلق تخصصه العلمي والفكري.

جمـع للمادة أم كتابـة للتاريخ ؟

انعقـد بنـادي الصنوبر عشية الذكرى السابعة والعشرين لاندلاع الثورة التحريرية الكبرى الملتقى الوطني الأول لتاريخ الثورة. ويندرج هذا العمل الوطني في إطار الحفاظ على الثروة الثرية للثورة في مجاليها الكبيرين : الجانب المادي البحت، والجانب الروحي المحض. وقد كان هذا الملتقى مبادرة طيبة يشكر عليها كل من فكر فيها، وأعد لها فهو كان مناسبة رائعة استلهمت حسن روعتها. واستشفت خلود عظمتها من تجمع هذا الحشد الغفير لهؤلاء الأبطال الذين صنعوا التاريخ فكانوا جديرين أن يذكرهم هذا التاريخ بل وأن يتربعوا على كرسيه لتمجدهم الأجيال، ويذكرهم الخلف خير ذكر، ويروي جلائل أعمالهم، ويتحدث عنهم حديث العظماء الخالدين.

ولأني حضرت هذا الملتقى وتتبعت أشغاله كلها فإني أبدي بشأنه بعض هذه الملاحظات : لقد كان يجدر بالمشرفين عليه أن يسموه «الملتقى الوطني الأول لجمع مادة تاريخ الثورة» اللهم إلا إذا أسموه كذلك تجوزا. وسبب إضفاء هذه التسمية عليه ـ كما نرى ـ هو أن جمع المادة ضرورة علمية تسبق الكتابة عادة، وتهيء الأرضية لها. فإذا كنـا مقتنعـين كلنـا بأننـا لم نجمـع من المعـطيات العامة ما يكفي لكتابة تاريخ الثورة ويفي بالغرض المقصود من تدوين وقائعها وحوادثها، وتسجيل أهدافها وأبعادها فحري بنا اليوم أن نقوم بهذه العملية التي تستهدف جمع أكبر ما يمكن جمعه من شتات التراث الثقافي للثورة الذي لا يزال موزعا هنا وهناك تخزنه صدور أناس معرضين للانقراض بين الفينة والأخرى، والذي تدعونا الأمانة التاريخية والنزاهة العلمية إلى جمعه ولم شتاته. إن وجوب التفكير الجدي في وضع خطة علمية لجمع مادة تاريخ الثورة هو أمر يفرض

نفسه على كل من واكب هذه الثورة في سنواتها السبع الشداد، وعلى كل غيور يقدر جسامة هذا العمل الفكري العظيم. وانطلاقا من هذه الفكرة فإننا نقول : إن الكتابة تكون نتيجة طبعية للمادة العلمية متى توافرت، والمعلومات الضافية متى جمعت.

وسبب آخر يؤكد صحة ما نميل إليه هو أن كتابة تاريخ الثورة لا تأتي نتيجة انعقاد ملتقى مثل هذا أو غيره من الملتقيات مهما تعددت هذه الملتقيات وتنوعت في الزمان، والمكان ونوعية وعدد المشاركين فيها. فهذه الملتقيات إنما تساعد على جمع القليل من المعلومات عن الثورة فقط. أما كتابة تاريخ هذه الثورة فإنها عملية أخرى متصلة الحلقات، مكملة جوانب بعضها البعض من ناحية، وتتطلب دراسات جادة وبحوثا معمقة على كل المستويين : الرسمي، والشعبي من ناحية أخرى.

إن كتابة تاريخ الثورة مهمة من أشق المهام التي تنتظرنا وتنتظر أجيالنا كذلك. ذلك «أن تاريخ أي بلد لا يكتبه إلا أبناؤه». أما ماعدا ذلك من الكتابات الأجنبية فلن تعدو أن تكون مجرد تعبير عن وجهة نظر خاصة بتاريخ هذا البلد أو ذاك، فتاريخ الثورة الفرنسية مثلا لا يزال الفرنسيون يضيفون إليه إلى اليوم ما يظهر لهم من حقائق جديدة بشأنه وقل مثل هذا في تاريخ غيرها من الثورات العالمية الأخرى.

إن حضور رجال ممن صنعوا تاريخ الثورة يتنا في تماما والاستماع لمحاضرات اعتمدت في معلوماتها على الجرائد والمجلات الفرنسية. فقد كان حتما على هؤلاء الرجال أن يتكلموا ويسكت غيرهم، ويتحدثوا وينصت سواهم كل ذلك ليكشفوا للناس عن بعض أسرار الثورة، وبعض مجالاتها التي لا تزال غامضة بل مجهولة لدى عامة الناس، والدارسين منهم بصفة أخص.

إننا لا ننفي ماللمثل هذه المحاضرات من قيمة علمية ولكننا نريد أن نؤكد أنها يجب أن تعتمد في معلوماتها على الشهادات الحية لأصحابها الأصليين تلك الشهادات التي تريد الصدور أن تصدع بها والأفواه أن تنطق بها لولا شيء من الاحترام لبرنامج عمل الملتقى يمنعها من ذلك.

إن منطق الأشياء يفرض علينا أن نستقي المعلومات من مصادرها الأساسية

لا من الجرائد والمجلات الأجنبية فهذه وتلك غير متخصصة من جهة، وتمثل وجهة نظر طرف واحد متحيز من جهة ثانية.

ان وفاءنا للأجيال يحتم علينا أن نترك لهم مادة خصبة يتخذونها حجر الزاوية في كتابة تاريخ الثورة، وإلا فإن هذه الأجيال ستديننا، وتحكم علينا بالتقصير. وعند ذلك فإن التاريخ لن يرحمنا. ولعل أبرز ما خرجت به من انطباع عن هذا الملتقى هو أنه سيكون حافزا للمجاهدين والمناضلين على السواء في أن يدونوا مذكراتهم الخاصة عن الثورة كتابة أو إملاء، أو تسجيلا على «الكاسيت». فهو قد نبه الغافلين عن هذا الأمر، وأيقظ في نفوسهم الحماسة لأن يولوه ما يستحق من العناية والاهتمام.

وإذا كان المركز الوطني للدراسات التاريخية أصبح يتوافر على كل ما ألف من كتب عن الثورة التحريرية الكبرى، وقام بعملية جمع شامل لكل الجرائد والمجلات الفرنسية التي كانت تصدر بالجزائر إبان الثورة المسلحة فإن السؤال الذي نلقيه هو ما يأتي : ماذا يجب عمله بكل هذه الأكداس بعد عملية الجمع هذه ؟ وللاجابة عن هذا السؤال فإننا نقول : إن الأمانة التاريخية بل إن الواجب الوطني يفرض علينا أن نقوّم تلك الجرائد والمجلات تقويما تاريخيا علميا وذلك بمقابلتها للواقع الذي عشناه، والذي نعرفه أكثر من سوانا أريد أن أقول : إن دراسات ميدانية تستهدف غربلة وتمحيص تلك الجرائد والمجلات عن مدى صحة أوعدم صحة ما جاء فيها من أخبار عن الثورة هو أمر تقتضيه النزاهة العلمية، ويوجبه الاخلاص للثورة لكي نترك للأجيال مادة ثرية تمثل وجهة النظر الوطنية عن كل ما أوردته تلك الصحف والمجلات حتى لا تعتمد عليها هذه الأجيال في كتابة منظورها لتاريخ الثورة الذي يجب أن يدوّن من زاوية وطنية كما تفرض ذلك طبيعة الأشياء.

ومن خلال هذه السطور فإنني أقترح على الجهة التي يهمها أمر عقد مثل هذا الملتقى في المستقبل، أن تطلب من كل مدعو إليه أن يقدم إلى مكتبه كل ما يملك من معلومات عن الثورة يخزنها في صدره. فإذا كان على كل مدعو إلى حفل بهيج أن يتهيأ له بما تتطلبه منه هذه المناسبة فإن مناسبة انعقاد مثل هذا الملتقى توجب على كل مشارك فيه من المجاهدين والمناضلين أن يكللوا هامته

بما يقدمون إليه من معلومات وحقائق عن الثورة مكتوبة كانت، أو مملاة، أو مسجلة على «الكاسيت». إن هذه لعمري أجمل هدية يقدمها رجال الملتقى إلى ملتقاهم الوطني هذا، بل يقدمونها في كل مناسبة تقام احتفاء بذكرى شهيد أو تخليدا لمأثر عظيم عبر أنحاء الوطن كله.

وإذا كنا نبارك كل مبادرة ترمي للحفاظ على تمتين وشائج القربى، وربط صلة الرحم التي تشد المجاهدين، والمناضلين بصفوف أبناء الشعب من الجيل الصاعد الذي لم يسعفه الحظ في أن يعيش حوادث الثورة المسلحة، ويتكبد من ويلاتها نصيبه المحتوم، وقسمته المفروضة عليه. قلت : إذا كنا نبارك هذا كله فإننا نقترح على الذين يهمهم الأمر أن ينظموا موائد مستديرة متلفزة كهذه التي أعقبت نتائج الملتقى مباشرة على أن تكون هذه الموائد مستمرة، وعلى أن يكون الهدف المتوخي منها ما يأتي :

1) تشريح الثورة وسبر أغوارها وذلك بإبراز دقائقها وخفاياها التي بقيت سرا مغلقا على الناس حتى يتعرفوا إليها أكثر ويزدادوا إيمانا على إيمان بحقيقتها الكامنة في نفسها وعظمتها المستكنة في خباياها.

2) مناقشة مختلف الآراء، والأفكار بغية الوصول إلى وضع «برنامج علمي لجمع مادة تاريخ الثورة» (1)، برنامج أساسه الدراسة الميدانية للحوادث والوقائع، ووسيلته الاتصال المباشر بالرجال الذين صنعوا تلك الوقائع، والحوادث وهدفه الاسهام الفعلي في إثراء تاريخ الثورة الذي سيظل لغزا يصعب على الأجيال مهما تعاقبت أن تفكه وعلى الدراسات مهما تعمقت أن تتعرف إلى سره الكامن في نفسه.

---

(1) لنا رأي في هذا الموضوع بعنوان «رأي في جمع مادة تاريخ الثورة» سينشر قريبا بحول الله.

رأي في جمـع مادة تاريخ الثورة *

لئن جاوزت قدري في محاولة الكتابة عن الثورة الجزائرية فعذري في ذلك أني واحد من أبناء هذه الثورة الذين يواصلون رحلتها تحت شمسها المشرقة.

لقد كان لفراغ المكتبة العربية من المصادر الصحيحة التي تمثل وجهة النظر الـوطنية في بعض الفترات الحاسمة من تاريخ شعبنا أثره السيء على بحوث ودراسـات مؤرخينا الذين لا يكاد الواحد منهم يستوفي أي دراسة حقها من البحث والتحليل والوصول للذروة في النتائج المرجوة. ويعزى ذلك إلى ندرة المـراجع المحلية التي تمثل أمام الدارس عقبة كأداء في تكثيف المادة العلمية وتطوير الأفكار التاريخية والرجوع بها إلى أسبابها الحقيقية. وانطلاقا من هذا الأساس فإن جوانب كثيرة من تاريخنا الحديث لا تزال مادة خاما تنتظر نزاهة العلماء الباحثين وعمل الرجال المخلصين.

لقـد ظهرت بعض الكتابات الأجنبية المغرضة عن الثورة تستهدف كلها التقليل من شأنها ومحـاولـة إفراغها من محتواها الوطني الأصيل، بل أن هذه الكتابات ترمي لأن تجعل من الثورة تجارة كاسدة وعملة غير متداولة على مر العصور. وأخشى ما أخشاه أن ينقرض جيل الثورة هذا ولا يترك شيئا ذا بال عن هذه الثورة تعتمد عليها أجيالنا القادمة في كتابة تاريخها الحافل. عندئذ سيحكم علينا التاريخ ويحاسبنا حسابا غير يسير.

إن تدوين المجـاهـدين في صفوف الجيش و المناضلين في صفوف الحزب للحوادث التي صنعوها بأيديهم هو ركن من الأركان الأساسية التي ستعتمد عليها الأجيال القادمة في كتابة تاريخ الثورة وإخراجه في ثوبه القشيب. فإذا

** قدم هذا البحث إلى (الملتقى الدولي عن الثورة الجزائرية وصداها في العالم) المنعقد من (24 / 28 ـ 11 ـ 1984) كما نشره المركز الوطني للدراسات التاريخية في كتاب ضمن أعمال الملتقى المذكور بالجزائر سنة 1985.*

قام كل واحد منا بكتابة أو إملاء أو تسجيل على الشريط لكل معلوماته عن الثورة فإننا نكون قد أدينا بحق بعض ما علينا نحو المستقبل بل نحو العدل والانصاف لهذه الثورة في إطار تاريخها المحيط الذي يجب أن يكتب من زاوية وطنية تأخذ هذه الفكرة أخذا جديا وهي أن إسدال ستار النسيان والطمس المتعمد للحقائق الصارخة لتاريخنا الطويل كاناهما (الطابع العام) الذي يغلب على بعض الكتاب الأجانب. فإذا كان جزء من تاريخنا قد كتبه الأجانب (وهم أسياد في هذه البلاد) أفلا يحق لنا (ونحن اليوم أسياد في هذه البلاد كذلك) أن نهيء الأرضية الصحيحة لكتابة أصح وأشمل عن تاريخ الثورة فنقوم بعملية جمع دقيق لكل المعلومات التي تتعلق بها من قريب أو من بعيد، إذ ليس أشد إيلاما لنفس المناضل الحر ولا أدعي لغضبه من أن يرى القنابل الموقوتة تنسف الآثار الحية لشهداء شعبه وأمجاد بلاده.

إن محاولات كثيرة قد ظهرت متفاوتة في الزمان تستهدف كلها جمع المعطيات الثورية العامة عن الوثائق والمخطوطات والأسلحة واللباس والصور الفوتوغرافية واللوحات الزيتية ما كان أجداها لو أنها جعلت من الاستمرارية شعارا لها. ومن تحقيق أطيب النتائج مبدأ لها.

إننا نبارك كل مبادرة تستهدف الحفاظ على الثروة الثرية للثورة في إطاريها الكبيرين: الجانب المادي البحث، والجانب الروحي المحض. كما أننا نحاول عبثا بعث أمجادنا الثورية إذا لم نعتمد في ذلك على تصحيح شامل للوقائع الحية للثورة وتقديم مادة ضافية بشأنها تكون في مستقبل الأيام قاعدة صلبة لكتابة أكثر منهجية وأدق علميا لتاريخ هذه الثورة المتألقة. إننا نحذر من أن تقع أجيالنا القادمة في أخطاء تاريخية سنكون - ولا شك - أول من يتحمل وزرها وينوء بثقل عبئها.

إن مسؤوليتنا - كما كانت عظيمة في تحرير البلاد - ستكون أعظم من ذلك في تزويد أجيالنا بالخبر اليقين الذي بشأنه يتساءلون وعن كنهه وهوله قد يختلفون. إن من أوكد الواجبات علينا أن نترك للجيل القادم مادة خصبة ينتفع بها في التعرف الصحيح إلى الأبعاد الانسانية للثورة ذلك أن فهما عميقا لأهداف ومبادىء هذه الثورة يتوقف أساسا على الدراسة والتحليل لشخصية أولئك الذين صنعوها و أفنوا زهرات شبابهم اليانعة في التمهيد لها والاعداد لتفجيرها.

الطريقة العملية في الجمع :

والسبب الذي حملني على تسجيل هذه الخواطر هو أن اختمارا لبعض الأفكار التي تبنيتها عن الطريقة الصحيحة لجمع مادة تاريخ الثورة قد طال أمده مع مرور الأيام التي لم تزدني إلا إيمانا بفعالية وجدوى هذه الطريقة العلمية والعملية في الوقت ذاته والتي تتلخص فيما يأتي : تتكون هيئة وطنية خاصة بجمع مادة التاريخ ؛ يعهد إليها أول الأمر بجمع كل الجرائد الفرنسية اليومية التي كانت تصدر بالجزائر وذلك من أول نوفمبر 1954 إلى 19 مارس 1962 مثل جريدة «ألجي روبيبليكان» و«ليكود الجي»، و«لادبيش دي كونستنتين» وغيرها. وبعد أن ننتهي من هذه العملية تأتي المرحلة الثانية وهي فرز هذه الجرائد حسب الولايات الست عشرة القديمة ثم ترسل حزم من هذه الجرائد إلى اتحاديات الحزب التي تتولى رعايتها والاشراف الفعلي عليها وذلك بأن تقوم بتحقيق ميداني عن مدى صدق أو كذب كل ما جاء فيها. وزيادة في التوضيح فإننا نسوق هذا المثل : أوردت جريدة «ليكود الجي» بتاريخ 1 . 1 . 1955 م أن معركة مسلحة دارت بين المجاهدين والجيش الفرنسي في مكان ما من ولاية عنابة. وقد كانت خسائر المجاهدين مئة قتيل وخمسين جريحا وعشرة أسرى. أما الجانب الفرنسي فلم يخسر سوى قتيلين اثنين.

هذه هي المعركة وهذه هي نتائجها المتحيزة كما تثبت ذلك جريدة العدو التي تمثل وجهة نظره الرسمية في هذه المعركة وفي غيرها من المعارك الأخرى. وفي التحقيق الذي يجب أن تقوم به سلطاتنا المحلية فإننا نجمع المجاهدين والمناضلين وكل من لهم دراية بتلك المعركة حتى ولو كانوا ممن يعملون في صفوف العدو ونطلب منهم أن يدلوا بشهاداتهم عن نتائجها الحقيقية والظروف العامة التي اكتنفتها وأحاطت بها كعدد من شارك فيها من كلا الطرفين، ومدى مشاركة الشعب فيها إلى جانب المجاهدين ومدى الأضرار العامة التي تكبدها المدنيون العزل، وبالتالي تأثيراتها البالغة على كامل تلك المنطقة التي احتوتها.

وبعد الانتهاء من هذا التحقيق الكامل للمعركة فإن تقريرا وافيا يحرر بشأنها يوقع عليه أولئك الشهود أو البعض منهم وتوقع عليه السلطات المحلية كذلك - ثم يرفق ذلك التقرير الذي يمثل وجهة النظر الوطنية بتلك الجريدة التي أوردت

هذه النتائج المتحيزة للمعركة في ظروف حربية دموية أقل ما يمكن أن يقال بشأنها اليوم إنها كانت تستهدف رفع الروح المعنوية للعدو وإثباط عزيمة الثورة. ولذلك تحكمت العواطف في كتابات جرائد العدو التي جاءت ميالة للتزوير. وليس يفوتنا في هذا الصدد أن نشير إلى ظاهرة هامة وهي أن هذه الجرائد لم تكن تنشر كل ما كان يقع من أعمال حربية وخاصة ما يتعلق منها بالأعمال الانتقامية. فهل كانت تذيع في الناس مثلا ما كان يقوم به جيشها الآثم من مناكر وفضائح في حق الأهالي العزل كانتهاك الحرمات، والاعدامات الجماعية للشعب، ومصادرة الأملاك والأرزاق، وتدمير القرى والمداشر وإحراق الأرض والغابات ؟ أم أنها كانت تنشر تلك الخسائر النكر لبعض معاركها مع المجاهدين ؟ تلك المعارك التي كانت تدور رحاها طاحنة بعيدا عن الاعلام ؟ ومن هنا فإننا نؤكد القول : إن السلطات العسكرية الفرنسية في كتابتها للتقارير الرسمية عن الثورة شيء وفي إذاعتها لأخبار هذه الثورة في الجماهير شيء آخر.

ومن هنا أيضا فإننا نجلب انتباه كل من يهمهم الأمر إلى الأهمية البالغة لمحاضر اجتماعات السلطة الفرنسية في جميع مستوياتها وذلك في مناقشتها ودراستها للأوضاع الاستثنائية التي كانت البلاد تعيشها خاصة ما يتناول الجانب العسكري منها. وذلك لأن الحقيقة الناصعة لهذه الأوضاع إنما تتجلى في تلك المحاضر والاجتماعات والمداولات كما لا يفوتنا أن ننبه كذلك إلى أهمية محاضر الشرطة الفرنسية في استنطاق المسجونين من المناضلين. وأخيرا فليس يغيب عن الأذهان سماع شهادة كل مَن يرغب في الادلاء بشهادته من أحرار الفرنسيين أنفسهم عن الثورة، بل واستضافة البعض من هؤلاء ليزودونا بما يثري تاريخ الثورة من معلومات نحن في أمس الحاجة اليها.
إننا بقيامنا بهذه التحقيقات التاريخية الكبرى نكون قد أسهمنا إسهاما علميا وعمليا في تهيئة التربة الصالحة التي ستكون منطلقا صحيحا، ودعامة أساسية من دعائم التاريخ العام للبلاد، بل في كتابة ركن من أهم أركانه ألا وهو كتابة تاريخ الثورة التحريرية الكبرى التي بلغت ذراها السامقة وغاياتها البعيدة.

إن عظمة الثورة الجزائرية مستوحاة من عظمة شعبها. وانطلاقا من هذا

فإننا نقول : إن هذه الثورة كبيرة جدا على الدارسين والباحثين والمؤرخين. نعم هي كبيرة بمعاركها العظمى، واشتباكاتها الكبرى وكمنائها الكثيرة، كبيرة بأعمالها في الفداء وكبيرة أخيرا بطرقها المحكمة في تنظيمها السياسي والعسكري والدبلوماسي. هي سيطرت على كل فكر في هذه البلاد، وهي تركت أثرا لها في كل جبل وفي كل واد. هي كانت في البحر كما كانت في الصحراء، وهي كانت في الأرض كما كانت في السماء. وإذا كانت الثورة الجزائرية بمثل ما ذكرنا من شمولية واحتواء واقتدار على الاتيان بعظائم الأمور فهل يمكن المجاهدين والمناضلين - الذين صنعوها بأيديهم - أن يقدموا لنا اليوم وللأجيال القادمة بصفة خاصة حقائق بشأنها غاية في الضبط والدقة دون الاعتماد في ذلك على أثر مكتوب ينفون أو يثبتون بعض ما جاء فيه ؟ إني أبادر إلى القول بالنفي القاطع لذلك لأنهم إن ذكروا الكثير عن الثورة سينسون الأكثر، وإن تحدثوا عن شيء يتعلق بها غابت عنهم أشياء ويعزى ذلك إلى سببين اثنين : يتمثل أولهما في كثافة مادة تاريخ الثورة أي في تعدد جوانبها، وتشعب نواحيها سواء أكان ذلك في الأعمال الحربية كالاشتباكات، والمعارك والكمناء، والحصارات العسكرية وغيرها أو في القتل، والتعذيب، والسلب، والنهب، والتدمير، والاحراق. أما السبب الثاني فيتمثل في البعد الزمني الذي أصبح يفصل بين ذلك العهد البطولي وبين المجاهدين اليوم وما ينتج من ذلك من نسيان بسبب ضعف ذاكرة البعض.

مزايا هذه الطريقة :

علي أن إيجابية هذه الطريقة العملية في الجمع تبرز مزاياها في النقاط الست عشرة الآتية :

1 - التعبير الحر والنزيه عن وجهة النظر الوطنية في تلك المعارك.

2 - الضبط المحكم لتاريخ معاركنا مع العدو بل تحديد المكان واليوم والساعة التي دارت فيها تلك المعارك.

3 - الاحصاء الدقيق لكل المعارك والاشتباكات والكمناء، والحصارات العسكرية التي خاضها المجاهدون أو وقعوا فيها وذلك لأننا لا نستطيع حصر هذه الأعمال المسلحة كلها إذا لم نتابعها يوما فيوما. ولن تتأتى لنا هذه المتابعة

إلا من خلال أثر مكتوب، ويكاد لا يكون بين أيدينا اليوم شيء من ذلك إلا جرائد العدو اليومية فهي التي واكبتها بإذاعة أخبارها من أول يوم اندلعت فيه الثورة إلى اليوم الذي وقع الجنوح فيه للسلم. وليس جمع عدد من المجاهدين في مناسبات خاصة - مهما كان عددهم غفيرا - يفي بهذا الغرض لا لشيء إلا لأنهم - أي المجاهدين - إن ذكروا معركة غابت عنهم معارك، وإن قادهم الحديث إلى تسليط الأضواء على حصار عسكري بعينه أنساهم ذلك حصارات أخرى وكمناء غيرها يطوي صفحتها النسيان. والسبب في ذلك واضح هو أن الثورة كبيرة كما قلنا بأعمالها البطولية، في التضحية والفداء.

4 - الكشف عن بعض المعارك التي لم تنشرها الجرائد الفرنسية.

5 - الكشف عن الاعدامات الجماعية للشعب وغيرها من نفي وتشريد.

6 - الكشف عن أعمال السلب كمصادرة الحيوانات من أغنام وأبقار وغيرها.

7 - إحصاء لكل ما تم تدميره من مساكن ومحال تجارية وإحراق للأرض والغابات.

8 - معرفة النسبة المئوية للذين أعدموا رميا بالرصاص بالنسبة إلى الذين شنقوا أو استشهدوا تحت التعذيب، أو رموا في الآبار وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة - وأخيرا معرفة النسبة المئوية للحيوانات المصادرة، والأملاك المدمرة، والأرض والغابات المحروقة.

9 - التعرف التام إلى الحياة اليومية للمناضلين المسجونين والمعتقلين في سجون ومحتشدات العدو. فهؤلاء قد يزودوننا بحكايات طريفة وأقاصيص لطيفة تصور حياتهم تلك في تراحمهم وتوادهم، وتصلح في الوقت ذاته لأن تكون منطلقا لأعمال أدبية رائعة يستلهم من وحيها الدفاق القلم السيال لهذا الأديب الأريب، أو هذا الشاعر الفحل الخنذيذ أو الكاتب المسرحي المنشىء.

10 - التعرف الدقيق إلى مدى التلاحم التلقائي الذي أحكمت يد الله صنعه بين صفوف الشعب المتراصة وقوافل المجاهدين على أرض المعركة.

11 - استخراج الفكاهة الجادة والمستهدفة وهذا لعمري جانب غزير المادة من أهم جوانب الثورة فهو قد عبر بصدق وحرارة عن الحياة اليومية للمجاهدين والمسجونين والمعتقلين من المناضلين في مجاهدتهم ومعاندتهم، ومكابرتهم للعدو حينا، وفي أملهم البراق ويأسهم القانط حينا آخر.

12 ـ جمع الأشعار الشعبية التي تغني بها المناضلون إبان اشتداد محنتهم الوطنية.

13 ـ تدوين الأقوال المأثورة والكلمات الخالدة للشهداء وتسجيل وصاياهم عن الثورة والوطن.

14 ـ جمع الألفاظ التي استحدثتها الثورة لتعبر بها عن مدى انتشارها في كل مجالات حياتها اليومية.

15 ـ وضع قاموس مفهرس بأسماء الشهداء من المجاهدين والأحياء منهم.

16 ـ وضع قاموس مفهرس بأسماء الجبال وغيرها من الأماكن التي دارت فيها المعارك.

الطريقة النظرية في الجمع :

قد يقول قائل إن هذه الطريقة هي رجوع بالتاريخ إلى مفاهيمه القديمة، لأنها لا تعدو أن تكون مجرد سرد للحوادث وتتبع لها والثورة الجزائرية تفتقر إلى التحليل العلمي الدقيق والتعرف التام إلى الأسباب والمسببات ـ وللرد على هذا الرأي فإننا نقول : إن هذه الطريقة هي قبل كل شيء دراسة ميدانية أو بعبارة أدق وأشمل للمعنى هي تحقيق علمي وعملي في الوقت ذاته هدفها الغربلة، والبحث، والتدقيق، وطريقتها الاتصال المباشر بأماكن الحوادث، وإجراء حوارات عملية مع الذين صنعوا هذه الحوادث وهي بالتالي تصحيح وطني لمفاهيم زيفها العدو وتعبير حر عن رأينا في تلك الوقائع التي ستتخذ منها أجيالنا القادمة مادة حية في تصوراتها العامة لجيل ثورة 1954 وهو يكابد العدو ويجاهده. إني أؤكد أن الأجيال المتعاقبة سوف تكون في حيرة من أمرها إذا لم نقدم لها شهادات صادقة تكون سلاحها الحاد في دحض هذه الحجج الواهية التي امتلأت بها جرائد العدو والتي صورتنا بأبشع الصور وقدمتنا لهذا العالم ولمن سيأتون بعدنا على أننا مجرمو حرب. قلت : إن هذه الطريقة هي تحقيق علمي وعملي تساير الثورة في جانب من أهم جوانبها ألا وهو الجانب العسكري وما تفرع عنه، وتواكبها في سنواتها السبع الشداد باليوم والشهر والحول فهي بهذا تقويم معنوي وعددي لمعاركها الحربية مع العدو. هذا باختصار عن الجانب العملي في الثورة. أما عن الجانب النظري لها فيمكن تقسيمه إلى التفاريع الآتية :

1 ـ الجانب التنظيمي ويشمـل :

أ ـ الوضع السياسي العام في الجزائر قبل الثورة.

ب ـ فشل الأحزاب السياسية في تفجير الثورة.

ج ـ الحالة النفسية والاجتماعية والاقتصادية للشعب قبل اندلاع الثورة.

د ـ اجتماع المسؤولين 22.

هـ ـ التحضير السياسي والعسكري للثورة.

و ـ اندلاع الثورة في أول نوفمبر 1954.

2 ـ الجانب العسكري ويشتمل على :

أ ـ المعارك الكبرى والحاسمة فقط.

ب ـ التنظيم السياسي والعسكري في صفوف الشعب ووحدات المجاهدين.

ج ـ التسليح والتموين في الثورة.

د ـ التكوين السياسي والعسكري للمجاهدين.

3 ـ الجانب السياسي ويشمل :

أ ـ الأنشطة السياسية للثورة داخل الجزائر وخارجها.

ب ـ المؤسسات الوطنية للثورة كالمجلس الوطني للثورة، والحكومة المؤقتة وغيرهما.

4 ـ الجانب الدبلوماسي ويشمل :

القضية الجزائرية في الأمم المتحدة وغيرها من المحافل الدولية. نعم إن الثورة تملك وثائق كثيرة عن هذه الجوانب كلها وهي وثائق ثرية وغنية بالمعلومات ولكنها معلومات عامة. والذي نريده في هذه العجالة هو تحليل ضاف وشرح واف لتلك المعلومات التي أذيعت في الناس مقتضبة كما اقتضت ذلك الظروف الخاصة والمصلحة العامة للثورة ـ فمن منا لا يعرف القليل أو الكثير عن المؤامرات الخطيرة والدسائس المسمومة التي حيكت على هذه الثورة ؟ أولا يتذكر هذه العواصف العاتية الهوج والهزات العنيفة التي كادت تميد بأرضية الثورة لولا شفاعة دماء الشهداء فيها عند الله ولولا وضوح مبادئها النبيلة وتفاني رجالاتها

في الـدفاع عنها ؟ وأخيرا هل ننسي المساومات السياسية للاستعمار وحلفائه. والضغـوط الدبلوماسية التي تعرضت لها الثورة ؟ إن هذه كلها وتلك جديرة بالدرس والتحليل، لأنها ستفجر الثورة عظمة وجلالا وتزيدها أبهة وإكبارا.

إن التشريح العضـوي للثـورة والسبر البعيد لأغوارها سيرينا - كما سيرى الأجيال القادمة - حقيقتها الكامنة في نفسها ويبهرنا ويسحرنا بما كانت الأيام تخبئه لهذا الجيل العظيم. . جيل ثورة نوفمبر 1954 . وإن لنا لأمثلة كثيرة في التاريخ الاسلامي من هذه الأعاصير والمصاعب. ألم ينهزم المسلمون في غزوة أحد ؟ ألم تقع ردة في الاسلام في عهد أبي بكر ؟ ألم يهاجر المسلمون من مكة إلى المدينة هروبا بدينهم بعد أن اشتد عليهم أذى قريش ؟ ألم يعرف الرسول ﷺ في حياتـه عامـا سماه المؤرخون «عام الحـزن» ؟. إن الكشف عن هذه المصاعب والأهوال لم يزد الدعوة الاسلامية إلا خلودا وبقاء في التاريخ. بل إنه على العكس من ذلك قد أبان عن قدرة هذه الدعوة في التغلب على الصعوبات والمعـوقات. وإذا كان لابد مما ليس منه بد فإننا نقول : إن الأجيال القادمة سوف تصـوغ منـظورها للثورة انطلاقا من أرضيتها التي تصارع عليها الحق الأعزل والباطل المدجج. وتقديمنا لهذه الثورة بكل تفاصيلها وإشكالاتها بل ومتـاهاتها من شأنه أن يساعد هذه الأجيال على تفهم أعمق وتقبل أشد لها وصياغتها أخيرا في قوالب إن اختلفت في الأشكال فإنها ستلتقي حتما في حظ هذه الثورة المتفرد من العلو والشموخ. ولذلك فإننا نقترح تشكيل هيئة وطنية عليا من بعض الذين سايروا القضية الوطنية في أعلى مستوياتها وتكون المهمة المتــوخــاة من هذه الهيئــة هو جمع المعلومـات التي لم تنشر في النـاس عن الجـوانب المـذكـورة للثورة. ويكون ذلك بتنظيم ملتقيات دورية تلقي فيها محاضرات ومسامرات كتابة وتسجيلا على الشريط كما تنشر مقالات في الجرائد والمجـلات - إن أمكن ذلــك - وإذا استعصي هذا الـرأي على التنفيذ بهذه الصورة، فأي شيء يمنع من كانوا مسؤولين في الهرم الأعلى للثورة أن يكتبوا كلهم ويدونوا مذكراتهم الخاصة ؟ إن الحسابات الشخصية شيء وكتابة حقائق الثورة شيء آخر - ولسنا نرى بأسا في لم شتات التراث الثقافي للثورة الذي ظل موزعـا هنـا وهنـاك تخزنـة صدور أنـاس معـرضـين للانقراض بين اللحظة

والأخرى. ان الهدف من هذه الملتقيات ـ التي قد تكون في إطار ضيق وعلى مستوى الاطارات فقط ـ هو كشف النقاب عن زوايا بقيت خفية في الثورة. وليس علينا حرج في الابانة عليها اليوم لأنها ستغمر الثورة بضوء كاشف جديد وتضفي عليها هالة من الاكبار والاجلال ـ وتطبعها بطابع الخلود وترسم لها لوحة فنية تتربع بها على كرسي التاريخ، وتحتل مكانها المرموق في دنيا الثورات.

إننا نكون قد أدينا خدمة جليلة للثورة لو أننا أدخلنا في برنامج تعليم الثانويات العامة والجامعات وما يعادل هذين المستويين مادة جديدة سميناها (جمع مادة تاريخ الثورة) هدفها الكبير هو الحصول على معلومات عن الثورة من أصحابها الأصليين. ذلك أن عددا كبيرا من هؤلاء المجاهدين والمناضلين يقومون بأعمال مختلفة في هذه المؤسسات ذاتها. فلم لا يتصل بهم الطلبة ليزودوهم بدقائق وتفاصيل عن هذه الثورة التي بقيت معالم كثيرة منها مجهولة لدى عامة الناس والمحققين منهم بصفة خاصة؟ أفلا يكون إلزام المنتسبين إلى المؤسسات المذكورة بتقديم دراسات ميدانية عن الثورة ضربا من ضروب التطوع، ورمزا من رموز تمتين وشائج القربى، وإحياء لصلة الرحم التي تشد هؤلاء الطلبة إلى صفوف الجماهير المتراصة؟ إن دور الطلبة عظيم في هذا الميدان ولا إخالهم إلا لم يتفطنوا إليه فهو وثيق الصلة برسالتهم العلمية لأنه إنماء لمعلوماتهم، وتفتح لأفكارهم على عالم يزخر بمواضيع إنسانية في محتواها، دينية في معتقدها، سياسية في مبادئها دبلوماسية في طرقها ووسائلها. وفي اعتقادنا فإن تنسيق العمل بين لجنة التطوع الوطنية وبين وزارتي هؤلاء الطلبة سيفضي إلى أطيب النتائج، ويشق بهذه المهمة النبيلة طريقها إلى النجاح رغم ما سيعترضها من صعوبات حادة سرعان ما تتذلل. وفي رأينا كذلك فإن التعجيل بسن قانون خاص بجمع المعطيات الثورية يقع التنصيص فيه على تقديم (جائزة الثورة) لمن يقدم معلومات أكثر شمولية، وأكثر دقة عن الثورة، وتحديد الزمان والمكان لهذا الغرض هما أمران لا ينبغي أن ينتطح فيهما كبشان ولا يتراهن بشأنهما فرسان. ذلك أن الاسراع بسن هذا القانون من شأنه أن يجعل المواطنين مطمئنين على مصير الأشياء التي يهدونها إلى الجهة المختصة متى تطلب منهم ذلك. إن كل مواطن وخاصة كل مجاهد ومناضل مطالب بأن يقدم كل

مالديه من معلومات يخزنها في صدره، وكل ما يملك في حوزته من معطيات عامة عن الثورة متى دعاه إلى ذلك داعي الوطن. وإن ترك الباب مفتوحا للمبادرات الشخصية هو جانب آخر مكمل لهذه العملية الوطنية - بل إننا نهيب بكل المناضلين الذين لا يحسنون القراءة والكتابة أن يتولوا إملاء كل ما يعرفون من حقائق تتصل بالثورة على بعض معارفهم أو أقاربهم من الشباب المثقف الذي أصبح لا تخلو منه أية أسرة في أي جهة من جهات البلاد.

كما أننا نكون قد أدينا بعض ما علينا في جمع مادة تاريخ الثورة لو أن رؤساء المجالس الشعبية البلدية قد قاموا كلهم بتكوين ملفات دقيقة في معلوماتها شاملة في أخبارها عن هذا العدد الهائل من الشهداء الذين تحمل المدن والقرى والساحات العامة والشوارع والأنهج والمؤسسات العامة والخاصة أسماءهم. ذلك أن النهوض بهذا العمل الوطني العظيم سيسهم هو الآخر إسهاما كبيرا في إثراء مادة تاريخ الثورة بما يقدمه إليها من معلومات تكشف عن بعض الخبايا وتسد بعض الفجوات فهي بذلك ستكون أداة مساعدة في كتابة تاريخ الثورة وصيانته صيانة علمية لا تهمل كل ما من شأنه أن يسجل الحقيقة ويعمل على تعريتها وتقديمها عنصرا مكملا لفكرة وعاملا من عوامل شرح وتعليل وتحليل. ولعل أكبر ما يجب التركيز عليه أكثر من غيره في تكوين تلك الملفات هو تسجيل الأفكار الشخصية عن الثورة لبعض الشهداء وذلك من خلال أقوالهم المأثورة وكلماتهم الخالدة ومواقفهم التي انفردوا بها والتي سيذكرها لهم التاريخ فأضفت على شخصيتهم هالة من الاكبار والاجلال سواء أكان ذلك في ثباتهم أمام العدو أو الزحف إليه، أو في محاولة السلطات الاستعمارية استنطاقهم، والتفنن في تعذيبهم، فإذا كنا نقرأ في سير الصحابة وأتباعهم كلمات مضيئة عن الاسلام تصور عمق إيمانهم به، وسمو تفكيرهم فيه، فأي شيء نعرف من مثل هذه الأقوال عن عظماء شهداء ثورتنا في التعريف بهذه الثورة، والاعداد لها وفي أثناء اشتدادها على المستعمرين ؟ إننا لا نكاد نعرف شيئا عن أقوالهم هذه، وأقوال الناس فيهم إلا النزر اليسير الذي لا يكاد يفي بالهدف أو يعبر عن الغرض، ولذلك فإن جمع الأقوال، ولم شتات تلك الكلمات الخالدة من شأنه أن يساعد الدارس والباحث والقارىء وكل مهتم بأخبار الثورة على تشريح الشخصية

الحقيقية لأولئك الشهداء وغيرهم ممن صنعوا هذه الثورة أولئك الذين عبروا بجمال الكلمة وسحرها بل وجزالتها عن أصالة الثورة قبل أن يعبروا عنها بحد السلاح.

المؤرخون الفرنسيـون وكتابة تاريخ الثـورة

لن يستطيع أعداء الثورة من المؤرخين والباحثين الفرنسيين أن يثبتوا ذات يوم ولو كان بعيدا أن هذه الثورة على ما يريدون أن يصوروها عليه من العصيان والتمرد والخروج على القانون. اللهم إلا إذا كان العصيان، والتمرد والخروج على القـانـون إحدى الوسائل الضرورية التي يلجأ إليها الشعب لاسترجاع حريته واستقلاله فيكون له ما يريد، ويتهيأ له من أمره ما يشاء. عندئذ يصبح العصيان، والتمـرد والخروج على القانون أسلوبا مشروعا تلجأ إليه الشعوب المغلوبة على أمرها إلا بعض هذه الشعوب التي فقدت ثقتها بنفسها ولذلك فإننا نقـول : إن العصيان، والتمـرد والخـروج على القانون الذي قام به الشعب الجـزائـري كان في إطار عمل ثوري محكم التنظيم يستمد قوته من مبادىء وأهداف الشعب في وجوب التخلص النهائي من الاستعمار الفرنسي.

قلت : لن يستـطيع المؤرخـون الفرنسيون المتحيزون أن ينالوا من جهاد الشعب ولا أن يقدحوا فيه اللهم إلا إذا خالفوا عن مبدإ «الموضوعية التاريخية» التي يدّعـونها بل يدعـون إليهـا هذه الشعوب التي كانت ترسف في قيودهم ليوهموها بهذه الموضوعية التاريخية الكاذبة التي يتخذونها ذريعة للتقليل من أهمية بعض المفـاهيم الحضـارية التي تنـطلق منهـا في حربهـا العادلة على الأعداء الغاصبين. ولذلك فإن الحقائق التاريخية يمكن استخدامها لتزييف وتحريف التاريخ نفسه أو لاظهار هذا التاريخ على أنه أعمال وطنية وإنسانية تساهم في البناء الحضاري للانسانية والتواصل بين الشعوب.

وقـد كانت الكتـابات التاريخية الفرنسية عن الجزائر تحاول دائما أن تفسر

حوادث التاريخ الوطني تفسيرا يرمي إلى تعزيز الاحتلال ويخدم أغراضه. ولذلك فقد جاءت البحوث التاريخية الفرنسية مليئة بالمغالطات حتى أن الكثير منها يرى في فترة الاحتلال الروماني والفرنسي مثلا صفحة مشرقة في تاريخ الجزائر خلت منها حتى الفترة الاسلامية ذاتها. وإذا كانت هذه الدعاوي الاستعمارية الفرنسية صحيحة فإننا نقول لهؤلاء المؤرخين : إذن لماذا أخرجكم الشعب الجزائري من وطنه اليوم كما أخرج الرومان من قبلكم بالأمس ؟

إن المؤرخين الفرنسيين يحاولون أن يجردونا من الشعور بأهمية حقائق التاريخ باسم الموضوعية في التاريخ، كما أنهم ينصحون لنا بالتحلي بأخلاق العلم في حين أنهم ينتهكون حرمة أخلاق هذا العلم، كل ذلك ليسوغوا للاستعمار بعض هذه الأسباب التي يتذرعون بها في الاستبداد بالشعوب وامتصاص دماء هذه الشعوب.

إن الدراسات الميدانية التي قام بها الكتاب الفرنسيون كانت تستهدف التعرف إلى طبيعة السكان والأرض أي أن أولئك الكتاب كانوا أشبه ما يكونون بدورية استطلاع للقوات الغازية كيف يتسنى لها أن تحكم الشعب وتستنزف خيرات الأرض. وهذا التحليل يدل على هذه العلاقة العضوية بين الكتاب الفرنسيين وبين إدارتهم المستعمرة التي كانت تمدهم بالامكانيات المادية وتسخر لهم الوسائل ليجمعوا لها ما أمكنهم جمعه من المعلومات عن هذا العالم المجهول الذي يتوغلون في متاهاته والذي لا يعرفون له نهاية. من هنا طغت الذاتية على المؤرخين الفرنسيين فظهرت أعمالهم وكلها ادعاء كاذب بأن الاستعمار الفرنسي في الجزائر يمثل حلقة مفقودة أو مكملة لشقيقه الاستعمار الروماني في هذه البلاد.

وقد حاول أولئك الكتاب الفرنسيون دائما أن يقللوا من أهمية المقاومة الشجاعة التي يواجههم بها الشعب فراحوا يجردونها من المقومات الدينية والوطنية والانسانية التي تقوم عليها فهم يصفونها بالتطرف الديني مرة، وبضيق الأفق مرة أخرى. ولذلك طلعوا علينا بمقولتهم المعروفة المضحكة «الاسلام الجزائري» (1) أو الاسلام الذي يدعو معتنقيه إلى التعصب الديني والذي يقوم أهله بأداء (واجبهم الوطني) انطلاقا من مفاهيم دينية منغلقة على ذاتها ومتقوقعة

---

(1) سعد الله، أبو القاسم. *أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر*. الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978. 395 صفحة.

على نفسها. وقد أدت هذه النظرة العلمية الفرنسية المتحيزة بأولئك المؤرخين والكتاب إلى إضفاء هالة من التشكيك في كل ما هو جزائري سواء أكان علميا بحتا أو وطنيا محضا فالمصادر التاريخية وغيرها تبعث على الشك عندهم لا لشيء إلا لأنها تمثل عناصر الضعف في كيان شعب أراد له سوء طالعه أن يدمروا بنيته الاجتماعية ويقوضوا هياكله التنظيمية.

إن المؤرخين الفرنسيين لايستطيعون أن يتحرروا من قيودهم الذاتية ولا أن يتخلصوا من أنانيتهم البغيضة لأنهم ينظرون نظرة ظلم وعلو واحتقار إلى بعض هذه الشعوب الضعيفة التي سلبوها حقها في الحياة الحرة الكريمة. وهم بهذه النظرة أبعد ما يكونون عن النزاهة العلمية التي يتوقف عليها كل عمل تاريخي يتحرى الصدق وإلا فإن التاريخ عندهم يفقد مقوماته في البحث المتكامل ويصبح مدعاة إلى الشك وباعثا على الارتياب.

ومن هنا فإننا ندعو إلى قيام مدرسة تاريخية وطنية ملتزمة. على أن دعوتنا هذه لا تعني أننا نتجاهل ونتساهل في مواصفات البحث العلمي، ولا نراعي فيه أصول المنهجية التي تعد مناط كل بحث علمي جاد خاضع لقواعد وأسس ذلك البحث.

إن الحقائق التاريخية ليست هي التي تنقصنا فنحن منها أغنياء، ولكننا عن فهم نيات القوم أغبياء (1).

وأهم ما يمكننا أن نركز القول عليه في هذا الفصل هو أن الكتابات الفرنسية عن الثورة الجزائرية كانت في معظمها تتعرض لتحليل السياسة الفرنسية في الجزائر لا للحديث عن الجزائر كشعب مضطهد وأرض مغتصبة. من هنا جاءت كتاباتهم مناقضة ومنافرة للحقيقة التاريخية التي نظروا إليها من زاوية خاصة إذ حللوا سياستهم في الجزائر وعللوها ولكنهم لم يقدموا لنا تحليلا نزيها عن أوضاع الجزائريين العامة قبل الثورة وفي أثنائها فهم لم يعالجوا هذه الثورة معالجة متكاملة الجوانب من حيث الأسباب العميقة التي أدت إلى اندلاعها ولكنهم تناولوها تناولا يحاول أن يطعن في رجالها إذ يصفهم بالعصاة والخارجين

(1) نعتذر عن إيراد هذا اللفظ فإننا أثبتناه للتمليح فقط.

على القانون الشرعي ؛ على أننا لسنا ندري متى كان القانون الفرنسي شرعيا بالنسبة إلى الجزائريين وكيف اكتسب منه هؤلاء «هذه الشرعية غير الشرعية» ولذلك فقد كان عصيان تلك الشرعية المزعومة مما تتيحه القوانين الشرعية غير المتسلطة وتدعو إليه.

كما أن من أخص ما يلاحظ على تلك الكتابات الفرنسية خلال الثورة هو أن معظم الذين قاموا بها لم يكونوا من ذوي الاختصاص ذلك أنهم كانوا ممن عايشوا الثورة وبلوا وقائعها فكتبوا عنها كل واحد منهم من خلال موقع عمله. لذلك تجد هذه الكتابات متنوعة المواضيع تتحدث عن الدور الذي قامت به مختلف أسلحة الجيش الفرنسي في الجزائر كدور قصف الطيران في ذلك، ودور رجال المباحث، والجلادين، وضباط الشؤون الأهلية «SAS» وغير ذلك من هذه الأساليب البشعة التي يلجأ إليها العدو إذا كان يدافع عن الظلم. إن هذه المواضيع كلها وكثيرا غيرها قد تناولها أولئك الكتاب الفرنسيون ليظهروا مدى قوة الجيش الفرنسي وصلابته في الدفاع عن «الجزائر الفرنسية» ولكنهم يسكتون عن صمود هذه الجزائر فلا يتحدثون عن جهاد شعبها المخلص وصبره الشديد على المكاره ولا يصفون الهزائم العسكرية التي يلقونها من جيش التحرير الوطني، وهجوماته المظفرة عليهم، وسواء علينا أذكروا هذه الحقائق أم تنكروا لها فإن النتيجة من ثورتنا الشعبية عليهم قد دخلت التاريخ من بابه الواسع عندما استرجعت هذه الثورة الحرية واستعادت الكرامة للشعب.

وإذا كان الكتاب الفرنسيون قد ألفوا الكثير عن الثورة الجزائرية فلأنهم يريدون أن يحققوا هدفين اثنين : أما الهدف الأول فهو أنهم يحاولون أن يجدوا أسبابا ومسوغات لهزيمتهم المنكرة في الجزائر هذه الهزيمة التي لم يكونوا يحلمون بها أو تخطر على بال الكثير منهم. وأما الهدف الثاني فيتمثل في أن الكتابة عندهم تشكل مورد رزق وعملا تجاريا مدرا للربح بسبب انتشار الثقافة فيهم يستوي في ذلك الكاتب والقارىء كلاهما يكمل الآخر، يكتب الكاتب لأنه يجد قراء يتلهفون إلى إنتاجه، ويقرأ القارىء لأنه في حاجة إلى شيء من ذلك يغذو قلبه وعقله جميعا.

وقد وجد الطرفان ـ الكاتب و القارىء ـ ضالتهما في الحديث عن الثورة

الجزائرية ينتج البعض من الكتاب بهدف الترويج لبضاعته ويقبل القارىء على تلك البضاعة قصد الاطلاع والتعرف إلى الأسباب الحقيقية التي انتصرت بها الثورة الجزائرية والتي كانت السبب في هزيمة نظام بلادهم.

أما كتابات الجزائريين عن الثورة فإنها قليلة جدا بالقياس إلى مثيلاتها في اللغة الفرنسية وذلك راجع في رأينا إلى الأسباب الآتية :

1 ـ معظم الذين تجندوا في صفوف جيش التحرير الوطني أو ناضلوا في صفوف الثورة كانوا أميين لا يحسنون القراءة والكتابة أي أنهم يمثلون غالبية المجتمع الذي جرده العدو من وسائل الحياة والعلم.

2 ـ التحفظ الذي يبديه المجاهدون والمناضلون عندما يتحدثون عن الثورة أو يكتبون عنها بسبب بعض قضايا الثورة المعقدة وأسرارها الخطيرة التي لا يمكن الكشف ولا الابانة عنها إلا بعد انقراض هذا الجيل الذي صنعها أو كان شاهد عيان عليها.

3 ـ الأزمات النفسانية التي عاشها الكثير من المجاهدين وأبناء الشهداء وأراملهم والكثير من المناضلين بعد الاستقلال فقد خابت آمالهم في كثير من المواقف عندما صدمهم الواقع بما لم يكونوا يتوقعونه من استغلال أطراف طارئة لهذا الاستقلال الذي صنعوه بأيديهم.

4 ـ أعطت الثورة الأولوية لعملية البناء والتشييد بعد الاستقلال مباشرة لرأب صدع ما خربه المستعمرون عن عمد في أثناء رحيلهم المكره عن البلاد.

5 ـ ليس في الجزائر كثرة ضخمة من الكتاب الذين يتصدون بالكتابة عن الثورة ناهيك من القراء الذين يقل عددهم حتى يكاد ذلك يكون مثبطا لبعض العزائم التي تريد أن تزود المكتبة العربية ببعض المصادر الصحيحة عن الثورة الجزائرية ولكن شبه القطيعة بينها وبين القراء الذين يشجعونها على ذلك يقف حائلا دون ظهور تآليف كثيرة عن هذه الثورة.

ومع ذلك فقد ظهرت بعض الكتابات بأقلام جزائرية عن الثورة يمكن الحكم لها أو عليها من خلال قراءتين مختلفتين : أما القراءة الأولى فتمثل وجهة النظر الوطنية ولعل أهمها هذه التي فند فيها البعض كثيرا من المغالطات التاريخية التي أراد «إيف كوريار» مثلا أن يلصقها بالثورة الجزائرية. وأما القراءة الثانية

فهي بعض هذه الكتـابـات التي يحاول أصحابها أن يدافعوا من خلالها عن مصـالحهم الخـاصة وقضاياهم الذاتية فهم قد أدوا خدمات للعدو الفرنسي ولكنهم لم يجدوا منه ما يجب لهم من حظوة وتقدير ؟ وقد فات هؤلاء أنهم كانوا يخدمون نظام بلاد يستعبد بلادهم إن كانوا يشعرون بالانتماء إلى الشعب الجزائري.

وعلى الرغم من ضحالة الكتابات الوطنية عن الثورة فإن أملنا كبير في أن يشهد المستقبل القريب ظهور مؤلفات كثيرة عن الثورة يكتبها أبناؤها ممن اكتووا بنارها واصطلوا جحيمها.

وعندما أقول ذلك فلأن عددا ضخما من هؤلاء الذي أحيلوا على المعاش سينكبون على تسجيل ذكرياتهم، وتدوين آرائهم عن الثورة بل سيقدمون عنها دراسـات مستفيضة. فقد ضمت الثورة في صفوفها مختلف طبقات المجتمع فهنـاك الأسـاتـذة، المحـامـون، الأطباء، السياسيون، الفنانون، الأدباء، الشعراء والعسكريون فهؤلاء كلهم وغيرهم مطالبون بإثراء مكتبة تاريخ الثورة كل في ميدان تخصصه، وإلا فإن التاريخ سيحكم عليهم بالتقصير، ولا إخالهم إلا فاعلين ذلك. فنحن نراهن على أن حظ تاريخ الثورة سيكون إنتاجه المتنوع عظيما، إذ سيتناوله أولئك بالكتابات المتنوعة والمواضيع المختلفة ينطلق فيها كل واحد منهم حسب تخصصه ومعلوماته الغزيرة في ذلك. عندئذ ستطلع علينا دراسـات في الـطب خلال الثـورة، وأخـرى في الاتصـالات السلكية وغـير السلكية، والمخابرات والتموين والتسليح، والأعمال الثقافية الثورية كالسينما والـرسم والنحت إلى غير ذلـك من هذه الجـوانب الهـامـة التي لا يخلو من التخصص فيها أي واحد من هؤلاء المثقفين باللغة العربية والفرنسية الذين عاشوها واصطلوا نارها. ولكن اضطرابهم في شؤون الحياة اليومية هو الذي حال بينهم وبين الاهتمام في انجاز الكثير منها.

وسيشهـد المستقبـل القريب إحالة أعداد ضخمة على المعاش من هؤلاء المثقفين الذين سيجدون أنفسهم آنذاك مضطرين إلى تدوين معلوماتهم عن الثورة، وهي معلومات مفيدة للتاريخ وباعثة للهمم العالية على الاستزادة من ذلك.

وإذا كان التاريخ هو البحث عن الحقيقة فإننا نعتقد أن الهياكل العظمية لهؤلاء الشهداء الذين سيتم اكتشاف هياكلهم العظمية تلك في المستقبل البعيد هو وحده الكفيل بتقديم الأدلة على أن الشعب الجزائري إن أنكر المؤرخون الفرنسيون مشروعية جهاده اليوم فلن تستطيع الأجيال القادمة مهما كانت متحيزة في نظرتها للجزائر أن تتنكر لهذه التضحيات.

إن الوثائق والآثار التي ستدرسها الأجيال دراسة تتميز بالنقد الداخلي والخارجي ستبرهن لهذه الأجيال على أن تاريخ الثورة هو الماضي المشرف لأجدادهم كما صنعه هؤلاء الأجداد لا كما يريده المؤرخون الفرنسيون المتطرفون أن يكون، ذلك أن دراسة التاريخ دراسة علمية مستوفاة هي النظر إليه كما كان لا كما يريده المتحيزون أن يكون.

وعندما نقول : إن تاريخ الثورة زاخر بالحوادث فإننا نعني بهذا القول جملة من الحقائق التي يتم اكتشافها من حين إلى حين والتي سيبقى أمر اكتشافها هذا متصلا سنين أخرى طوالا، وهي على كل حال تأكيد للتاريخ على أن تاريخ الثورة هو أقرب ما يكون إلى الحقيقة وأبعد ما يكون على التجني على هذه الحقيقة. فقد طالعتنا التلفزة الوطنية في بداية عام 1993 م برفات هذا الشهيد الذي قتله الاستعمار الفرنسي صبرا في إحدى المغارات بنواحي «سعيدة» وعندما أظهروا جثته على الشاشة الصغيرة فقد كان كل شيء فيها ينبىء بأنها هيكل عظمى لجزائري ثائر اسمه «العياشي» كما تثبت ذلك بطاقة تعريفه الوطنية التي استخرجوها من جيبه كما استخرجوا بعض الأوراق المالية منه. وقد علق المذيع على رفات ذلك الشهيد فقال : إن بقعا كثيرة من جسم الشهيد حافظت على لحمها فلم يتعرض للتلف. وقد تم هذا الاكتشاف بعد سبعة وثلاثين عاما من يوم استشهاده وهذا دليل على أن تاريخ الثورة ستتعدد مصادره وتتباين مراجعه كلما أوغل التاريخ في القدم.

وقد كان اكتشاف هيكل ذلك الشهيد واحدا من هذه الهياكل العظمية التي سيتم اكتشافها في المستقبل القريب والبعيد والتي سينقدها المؤرخون من داخلها ومن خارجها فيقررون في الأخير أن هؤلاء هم الجزائريون وما أدراك ما الجزائريون الذين استرخصوا أرواحهم في سبيل الجزائر الغالية على نفوسهم العصية الأبية.

لماذا لم يكتب تاريخ الثـورة ؟

إننا عندما نتحدث عن تاريخ الثورة فإن أول سؤال يتبادر إلى أذهاننا هو ما يأتي : لماذا لم يكتب تاريخ الثورة ؟ وللاجابة عن ذلك نقول : إن الأسباب التي أخرت عملية كتابة تاريخ الثورة يمكننا أن نوجزها في سبب واحد هو ما نستطيع أن نسميه بـ «العقـدة النفسـانية» أو مركب النقص الـذي تشعـر به بعض الأطراف المسؤولة في الدولة وفي غير أجهزة الدولة عندما يدور الكلام على الثورة كظاهرة ثورية شعبية رائدة تتوجت باسترجاع الحرية والاستقلال.

وذلك الشعور المتزايد بالنقص هو ناتج من الاحساس بعدم المشاركة المبكرة في التمهيد للثورة وفي تفجيرها. من هنا يحس البعض عند الحديث عن الثورة كثيرا من السخط والتأفف الذي لا يكادون يتخلصون من شعوره الآثم فأنت تراهم ساخطين على هذه الثورة، غير راغبين في العيش تحت ظلها، كارهين لمبادئها وثوابتها حاقدين على من سارعوا إلى اندلاعها وأخيرا ساخطين على طبقة المجاهدين بصفة خاصة والفئات العريضة من الشعب التي احتضنتها وواكبت مسيرتها حتى النصر المبين.

وأولئك القوم عندما يتكلمون عن الثورة فإنك تجدهم أشد الناس دفاعا عنها بل وأعظمهم إسرافا وغلوا في هذا الدفاع وأكثرهم سخطا على الساخطين على رجـالها ولكن نفوسهم تضمر ما لا تظهر ألسنتهم وتبطن ما لا تعبر عنه أفـواههم فهم بذلـك يراءون الناس في أقوالهم الكاذبة عن الثورة. إنهم في

موقفهم هذا يصدق فيهم قول الله سبحانه وتعالى : «وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون» (1).

وإذا كنت تريد أن تعرف شيئا عن حقيقة تلك الجهات المسؤولة فإني أوجز لك الحديث عنها فأقول : إنها هذه العناصر التي اعتاد الناس تسميتها بـ «الطابور الخامس» والتي آلت على نفسها أن تظل مخلصة للاستعمار الفرنسي. وهذه العناصر تتكون من الموظفين الاداريين الذين خلفتهم فرنسا على رأس الادارة الجزائرية وبعض المثقفين على اختلاف درجاتهم من الثقافة وتنوع المراكز الثقافية التي يحتلونها. فهؤلاء يقومون من هذه المواقع التي يحتلونها بكبح جماح النفوس المتحمسة لكتابة تاريخ الثورة لا لشيء إلا لأنهم لم يشاركوا في صنع هذه الثورة التي حرموا أنفسهم شرف الانتساب إليها بالأمس عندما حاربوها إلى جانب العدو وهم يحاربونها اليوم بأساليب اليوم وسبل تختلف عن سبل ووسائل الأمس؛ ولكنهم في كلتا الحالتين أعداء للثورة يضمرون لها الحقد ويكنون لها الكراهية في شكلها وجوهرها، ومع ذلك فإنهم من أكثر الناس تنعما بخيرات هذه الثورة ومن أشدهم انغماسا في نعيمها.

على أن الأمانة العلمية والتاريخية تفرض علينا أن نأتي بالذكر على هذه الطائفة الأخرى من بعض المجاهدين الذين هم على رأس الدولة وفي غيرها من مراكز القيادة والذين لم يكن لهم هم أيضا قصب السبق في تفجير الثورة فلحقوا بها متأخرين وقد عد ذلك إحدى نواقصهم إذ أنهم لم يحظوا بشرف إطلاق الرصاصات الأولى للثورة. لذلك ترى هذه الطائفة هي الأخرى أن هناك شيئا من عدم التكامل بين تأخرها عن التحضير للثورة وتفجيرها لهذه الثورة وبين وجودها على رأس قيادة الثورة بعد الاستقلال. ولكي تحاول هذه الطائفة أن توافق بين عدم التكامل هذا وبين تسييرها للبلاد فإنها وجدت نفسها مضطرة أن تلجأ إلى الحل الذي لا يكذب على الحقيقة التاريخية فتدعى لنفسها ما ليس لها من إعداد وتمهيد وتفجير للثورة ولكنها في الوقت ذاته لا تسمح للحصان أن يجر العربة أو قل إنها لا تعطي الاشارة الخضراء بالشروع الجاد في عملية كتابة تاريخ هذه الثورة وبذلك ظل أمر الكتابة مجمدا نتيجة حتمية

(1) سورة البقرة، الآية : 14.

لسيطرة بعض الأفراد على المبادىء والقيم فمتى تتحرر هذه المبادىء والقيم من سيطرة الأفراد ؟ إن ذلك لن يكون إلا إذا انتشرت الثقافة السياسية وعم الوعي الفكري أوساط الجماهير فأحس القادة المسؤولون أنهم خدام مسخرون لمصلحة الشعب وأن هذا الشعب هو مالك أمره، يؤتى أمره من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء لا يصدر كل أمر ذى بال إلا عن إرادته و مشيئته.

إن قضيتين وطنيتين يتغنى الناس جميعا بحبهما ويعبرون من خلالهما عن «وطنيتهم» لكنهما لن تريا النور حتى تختفي وجوه كثيرة من الساحة السياسية. هاتان القضيتان هما : كتابة تاريخ الثورة وعملية التعريب اللتان تعرضتا لمناورات سياسية تستهدف عرقلتهما. ولعل أغرب ما في الأمر هو أن القوة الخفية التي تناور وتكيد كيدا ماكرا لعملية كتابة تاريخ الثورة هي عينها القوة التي تسعى جادة إلى تعطيل عملية التعريب. قد يكون ذلك لأن كتابة تاريخ الثورة تحدث في نفوسهم مركبا بالنقص ولأن عملية التعريب هي الأخرى تقطع الأسباب بينهم وبين الثقافة الأجنبية التي لم يسلم البعض منهم من تأثيراتها النفسانية والحضارية القوية على نفسه وشبه انتمائه الحضاري.

وهذه الدراسة تبقى ناقصة إن لم نعرج فيها بالذكر على الدور الخطير الذي ما انفك الاستعمار الفرنسي نفسه يؤديه في عملية تعطيل كتابة تاريخ الثورة.

أليس واضحا أن فرنسا يسؤوها أن يكتب الجزائريون المخلصون تاريخ ثورتهم لكي لا يشوهوا فترة استعمارها للجزائر ذلك أن فرنسا تريد دائما أن تصف هذه الفترة بالفترة التي تخلص فيها الشعب الجزائري من الحكم الأجنبي المستعمر «التركي» كأنما هي حكم به هلل الشعب وكبر.

ولتحقق فرنسا هذه الغاية من محاولة إضفاء صفة الشرعية على استعمارها للجزائر فإنها تريد أن يتولى أبناؤها كتابة هذه الحلقة المشرفة من تاريخ الثورة وذلك لكي تضيفها إلى ما كانت قد كتبته عن مرحلة حكمها البغيض وبذلك تكتمل حلقات تاريخنا الذي تكتبه فرنسا اليوم من وجهة نظرها كما كتبته بالأمس من وجهة نظرها أيضا.

إن تاريخ الجزائر لا يكتبه إلا أبناء الجزائر المخلصون لأنهم أكثر الناس شعورا بجسامة تضحيات شعبهم، وأشدهم غيرة وطنية على أرواح ودماء

شهدائهم وجرحاهم ومعطوبيهم وأرامل وأبناء أولئك الشهداء. إننا لا نصطنع التاريخ ولكننا نصنع التاريخ ولا نتكلف صنع الحوادث بل نصنع الحوادث، إن الأمانة العلمية التاريخية تفرض علينا الصدق في رواية الحوادث التي نكون نحن مصدرها الأساس أو يرويها لنا غيرنا من الناس لذلك فنحن في أمرها بين اثنتين: إما أن نميط عنها اللثام فنقدمها بضاعة غالية الثمن للتاريخ وإما أن نتكلف الجهل بها فيخسرها التاريخ، ولأننا نؤثر العلم بالشيء على الجهل به فليس علينا بعد ذلك أن يسخط الساخطون ويغضب الغاضبون. ولكن الحقيقة الكبرى هي أننا عن أمر تدوين ذلك غافلون فهل نحن عن هذه الغفلة منتهون؟ خاصة إذا علمنا أن تاريخنا مخزون في صدور الناس وأن هؤلاء معرضون للموت في كل يوم بل في كل لحظة وأن رحيل الواحد منهم عنا إنما يعني غياب جزء مهم جدا من التاريخ غيابا أبديا.

لأجل هذا فإن كل واحد من المجاهدين والمناضلين مطالب اليوم بالكتابة أو الاملاء أو التسجيل على شريط «الكاسيت» ما يخزنه في صدره من معلومات عن الثورة تكون لسان صدقه في الآخرين قال تعالى: «واجعل لي لسان صدق في الآخرين» (1).

إنني عندما أنظر في كتب السيرة النبوية تأخذني الدهشة ويتملكني الاعجاب لهذه الدقة في المعلومات والضبط في التواريخ والصحة في السند والرواية والدراية وأسارع بإصدار هذا الحكم الذي أراه صائبا وهو أن إخلاص المسلمين الأوائل للسيرة النبوية قد ألزمهم البحث الجاد والتنقيب المتواصل عنها لكي تصلنا على هذا النمط من الدقة العلمية التي لا يمكن أي ناقد أن يغض من قدرها العلمي. وقد جاءت على هذه الصورة الكاملة رغم ندرة المواصلات إن لم أقل انعدامها وذلك بالقياس إلى هذه الوسائل في الاتصال التي أصبحت أصلا من أصول حياتنا اليومية. عندئذ أقول: حقا إن إنجاز أي عمل ذي بال إنما يتوقف أساسا على الارادة المخلصة فعندما أراد أسلافنا كان لهم ما أرادوا من البحث العلمي الدقيق والوقوف الصحيح على الحقيقة. أما نحن فقد سلبنا الارادة عن أنفسنا أو سلبت منا إرادتنا فلم نكن شيئا يذكر على الأقل في مجال الشروع الجاد في عملية كتابة تاريخ الثورة التي تشكو تقاعسا لا ينبىء بخير ولا أملنا في المستقبل كبير.

(1) سورة الشعراء، الآية: 84

شعب يصنع التاريخ ولا يكتبه

عفا الله عن شعب الجزائر لم يصنع التاريخ ولا يكتبه ؟ أهو إجداب القرائح وكلال الأذهان أصاب النخبة المثقفة الممتازة من أبنائه ؟ أم هو شيء من هذه التقية التي عرف بها الجزائريون والتي يحذرون أن يخالفوا عن أمرها أن توقعهم في الزلل والتزيد. لذلك فهم يستأنون ويتروون ما وسعتهم الأناة وأمكنهم التروى قصد التثبت من الحقيقة التاريخية لأنهم من أعرق وأعرف شعوب الدنيا إلماما بهذه الحقيقة التاريخية التي يصنعونها بأموالهم وأنفسهم ولكنهم لا يتكلفون كثيرا من العناء في تدوينها وتسجيلها كما أسلفت لك القول في ذلك.

والأسباب التي حالت دون كتابة الجزائريين لتاريخهم هي أسباب طارئة بطروّ الاستعمار الفرنسي وحادث تاريخي عارض ظهر بظهور هذا الضيف الثقيل على الجزائر. فقد عرفت هذه المرحلة المتميزة بالتسلط الأجنبي إحراقا وإتلافا للمصادر التاريخية الوطنية ونهبا للتراث الثقافي للشعب وغلقا لمنافذ تسرب المعرفة إليه.

ولأن وجود فرنسا في الجزائر كان دائما يمثل صراعا حضاريا في مختلف جوانبه الفكرية والثقافية فإن فرنسا عملت على محاولة طمس كل ما ينمي الشعور الوطني ويذكو ناره المتأججة في النفوس.

من هنا تحولت بندقيات الغزو الفرنسي عام 1830 م إلى أقلام مؤرخة تحاول أن تكتب تاريخ الشعب الجزائري انطلاقا من نظرتها التي تحاول دوما أن

تسوغ أسباب عدوانها وتضفى هالة من الشرعية على حضورها البغيض في الجزائر.

وفعلا فقد استفادت فرنسا من الظروف السياسية غير المتكافئة فكانت بقدر ما كتبت التاريخ بقدر ما كذبت على التاريخ . وهاهي اليوم تريد أن تعيد الكرة لتكتب تاريخ الثورة كذلك.

ولكن السؤال الذي نلقيه على فرنسا هو ما يأتي : إذا كان الاستعمار الفرنسي الذي انتصر على الشعب الجزائري عام 1830 م قد أدهشنا كتابه ومؤرخوه بظهور تآليف مكذوب فيها على الحقيقة التاريخية فماهي أنواع الكذب الجديدة التي سيطلعون بها علينا اليوم خاصة وأنهم قد انهزموا هزيمة نكراء أمام ثورة الشعب الجزائري ؟ .

لست أشك أبدا في أن أولئك القوم سيظهرون علينا بنظريات غريبة تستهدف النيل من قيمة الشعب والانتقاص من بطولاته كل ذلك ليجدوا مسوغات لانكسارهم من جهة وليقللوا من الأهمية التاريخية والانسانية للثورة الجزائرية من جهة أخرى.

ولعل أصدق مثال على صحة ما نذهب إليه من رأي ما كانت فرنسا تدعيه كاذبة خلال الثورة من أن الجزائريين مدينون في ثورتهم هذه لهذا الشعب أو ذاك من الشعوب الشقيقة أو الصديقة التي وقفت بقوة إلى جانب الجزائر تدعمها في كفاحها وتساندها في جهادها لأن ذلك ـ في نظر تلك الشعوب ـ واجب إنساني توجبه الحياة الحرة الكريمة التي يحق أن تتمتع بها الشعوب كلها دون ميز ولا تخصيص.

وإذا كانت فرنسا من وراء عملية تأخير كتابة تاريخ الثورة فإنها تستهدف تحقيق غرضين اثنين : أما الأول فهو احتكار المثقفين المهتمين من أبنائها تدوين تاريخ الثورة تدوينا متطرفا يرمي إلى تضليل الرأي العام الجزائري بأن فرنسا لم تغز الجزائريين في عقر دارهم ولكنها جاءت لتخليصهم من الحكم «التركي» .

وأما الهدف الثاني فهو إيجاد المصادر الرئيسة والمتنوعة باللغة الفرنسية ـ طبعا ـ التي سيجد الجزائريون أنفسهم ذات يوم مضطرين إلى الأخذ عنها، ومالنا نذهب بعيدا والحال أن القليل مما يكتبه بعض الجزائريين اليوم عن الثورة إنما

يعتمدون في غالبه على المصادر الفرنسية. قد يكون ذلك كذلك لأنهم - أي هؤلاء البعض - يشق عليهم أن ينتقلوا من مكان إلى آخر بهدف الاتصال المباشر بالأشخاص الذين صنعوا الحوادث والذين يحتم البحث التاريخي عليهم أن يستجوبوهم بوصفهم مصادر ناطقة صنعت الحوادث الصادقة.

وإذا كنا نجد لأنفسنا بعض العذر في استئثار العدو الفرنسي بالكتابة عن المرحلة التي كانت له فيها السيادة على البلاد فأي عذر نعتذر به اليوم لأنفسنا وللأجيال القادمة عن هذا التباطؤ المصطنع أحيانا في الاسراع بكتابة تاريخ الثورة من وجهة نظر وطنية كما فعل العدو ذلك ؟ على أننا لا نريد أن نقدم لمن سيأتون بعدنا تاريخا عن الثورة يضعون علامات استفهام على الكثير من حقائقه ذات يوم فنسيء إلى هذا التاريخ دون أن نقصد إلى الاساءة إليه ونشكك الناس في أمره. وإذا كان علي أن أوضح هذا الكلام فإنني أقول : إن تاريخ الثورة صنعه قوم هم ناس من الناس يخطئون كما يخطىء الناس ويصيبون كما يصيب الناس ولكن صوابهم أكثر من خطئهم لأنهم حققوا الاستقلال واسترجعوا السيادة للشعب وكفاهم بهذا فخرا أمام الله وأمام التاريخ. وتقديمنا لتلك الأخطاء للأجيال القادمة يعد دليلا صحيحا على صدقنا في عرض الحوادث التي اصطنعتها الثورة لأن عدم ذكرنا لتلك الأخطاء من شأنه أن يعرض الثورة في المستقبل للنقد الجارح والسؤال الذي يقود إلى الشك في بعض الجوانب التاريخية للثورة.

وإذا كان يجب علينا أن نذكر أخطاء بعض هؤلاء الناس في الثورة فقد كان لتلك الأخطاء ما يسوغها في أثناء وقوعها إذ يجب مراعاة الظروف الاستثنائية التي كانت الثورة تمر بها والتي تحتم عليها أن تكون قاسية قساوة تحملها على ارتكاب الخطإ أحيانا ولكن هذا الخطأ عندي خير من صواب الكثيرين من هؤلاء القوم الذين انضموا إلى صفوف العدو واستسلموا له صاغرين ذليلين، فكان جديرا بالثورة أن تقسو عليهم وعلى من حذا حذوهم «فمن صواب الناس ما يكون خطأ ومن خطإ الناس ما يكون صوابا». وعندي أن نسبة عالية جدا من خطإ الثورة كانت تصويبا لبعض النفوس وتقويما لها مما أصابها من اعوجاج كاد يعصف بالثورة كظاهرة شعبية تستهدف المصلحة العليا للوطن.

ولكي لا يلومنا اللائمون ممن سيأتون بعدنا فإننا نعلن بثقة في النفس أن ذكر محاسن ومساوىء هذه الثورة يعد عملية متكاملة فلا محاسن بلا مساوىء ولا مساوىء بلا محاسن والناس خلقهم الله من عنصرين متناقضين يتممان بعضهما البعض : المادة والروح فلا حياة للمادة بدون الروح ولا حياة للروح بدون المادة.

والتعرض بالحديث عن إيجابيات الثورة ونواقصها لا يقلل من شأنها بقدر ما يجعل لها مكانا مرموقا في أعين الناس فيحكمون لها من خلال إيجابياتها التي طغت على تلك النواقص. أليست الثورة قد حققت أهدافها السياسية في الحرية والاستقلال ؟

وإذا كنت أدعو إلى ذكر الايجابيات والسلبيات التي عرفتها الثورة فإني أجلب الانتباه من جهة أخرى إلى وجوب القيام بعملية فرز في نشر هذه السلبيات التي لا يمكن إذاعتها على عواهنها في الناس في هذا الوقت الذي تمر فيه البلاد بأزمة متعددة الجوانب يقف العدو الفرنسي منها لنا بالمرصاد فيجب علينا أن لا نقدم إليه المادة التي توفر له الظروف المواتية سياسيا للهجوم علينا. ولكن بعض تلك السلبيات التي يجب التحفظ في نشرها سيأتي عليها حين من الدهر تصبح فيه جزءا مكملا للتاريخ العام للثورة.

إن العقل لا يجد مساغا لثورة عظيمة كثورة الجزائر لا تظهر في مسيرتها الطويلة هذه تناقضات سياسية وتنظيمية وفكرية واختلاف في الرأي وتباين في الوسائل التي تفضي إلى تحقيق الأهداف. إن ظهور هذا كله أو بعضه من شأنه أن يدعو إلى التصديق المطلق بحوادث الثورة كما أن إنكار هذا كله أو بعضه من شأنه أن يشكك الأجيال القادمة في الكثير من حقائق الثورة وبذلك فلن نخدم هذه الثورة بقدر ما سنثير أفكار تلك الأجيال بالثورة على هذه الثورة. عندئذ سيخضعونها لعمليات التشريح والتجريح والنقد المربل والاعراض أحيانا عنها من قبل بعضهم، لأنهم لا يستطيعون أن يتصوروا ثورة بهذه الضخامة والفخامة لا تعيش تناقضات بين رجالها. وهذه لعمري حقيقة من الحياة الواقعة يجب علينا أن نسلم بها وإلا فإننا سنعرض الثورة في المستقبل لعملية هازئة ساخرة منها ومن الذين قاموا بها؛ ذلك أن الأجيال القادمة

سيطغى عليها عنصر الشك أكثر مما يطغى على حياتنا اليوم. فلنبرىء الثورة من هذا الشك في مستقبل أيامها بل ولنبرىء أنفسنا نحن من هذا الشك لأننا قمنا بعمل ثوري جبار أبعد ما يكون عن الشك والارابة.

إن عملية كتابة تاريخ الثورة سوف تستغرق آمادا طوالا وذلك بسبب كثافة مادتها وتنوع مواضيعها وتباين أغراضها لذلك فإن أقلاما كثيرة ستتكسر ومدادا غزيرا سينفذ قبل أن تكتمل تلك العملية التي نراها ستغطى مئات السنين فخلال هذه التغطية الزمنية المستقبلية الطويلة ستظهر من حين إلى آخر حقائق جديدة عن الثورة تدحض ما سبقها من معلومات أو تؤكدها أو تشكك في صحتها، والسبب في هذا يرجع إلى أن مادة هذه الثورة مخزونة في صدور الناس وأن معظم هؤلاء أميون تألموا كثيرا في أثناء الثورة على أننا نعتقد أنهم سيبوحون بالكثير من آلامهم تلك إلى أهليهم وذويهم وهؤلاء سيروون بدورهم نتائج تلك الآلام لغيرهم، وبذلك تظل تلك الحقائق يتداولها الناس جيلا عن جيل إلى أن تعم الثقافة أكثر وتنتشر المعرفة انتشارا أوسع عند هذا سيقدر لتراث الثورة أن يرى النور مقروءا لا مرويا ومكتوبا لا شفويا.

هذا إذا لم أحدثك عن هذه الوثائق المحفوظة في منازل البعض من المجاهدين الذين يرفضون أن يسلموها إلى الجهات الحكومية المسؤولة خوفا عليها من الضياع على أن تلك الوثائق لن ترى النور إلا بعد زمن طويل جدا ذلك أن انتشارها سيكون منجما (1) يفسر طبيعة الحوادث التي سيجري النقاش والجدل بشأنها في المستقبل المتوسط والبعيد.

وأذكر بهذه المناسبة أن المرحوم «الحاج المهدي البوعبدلي» (2) كان قد حدثني عن وثيقة فرنسية نشرت أول مرة عام 1966 م تكشف عن أسرار سياسية خطيرة تتعلق بالأسباب الحقيقية للهجوم الفرنسي على الجزائر عام 1830 م وأن تلك المخطوطة ظلت محفوظة في عائلة «الجنرال دلي بورمون» (3) تتناقلها أفراد هذه الأسرة إلى أن نشرها أحدهم في العام المذكور أعلاه. هذا إذا لم نتطرق

---

(1) منجما. أي في أوقات معينة.

(2) كان متخصصا بتاريخ الفترة العثمانية، أصله من مدينة بطيوة في وهران، توفي رحمه الله.

(3) هو الذي تسلم مفاتيح مدينة الجزائر يوم 5 جويلية 1830 م من الداي حسين.

بالذكر إلى الحديث عن المخطوطات والوثائق التي يحتفظ بها الاستعمار الفرنسي عن الثورة الجزائرية والتي لن يكشف عنها كلها إلا بعد عقود متلاحقة من الزمان وعن طريق مفاوضات سياسية تطول مدتها أكثر مما تقصر قد تصل أحيانا إلى درجة المساومة عليها وذلك كله من شأنه أن يعسر أمر استردادها وبالتالي فإن الكثير من أسرار الثورة سيظل واقعا تحت قبضة العدو؛ وهذا لعمري مما سيطيل عمر البحث عن الحقائق المكملة لكتابة التاريخ العام للثورة.

إن عملية اكتمال كتابة تاريخ الثورة تتطلب نفسا طويلا يتوقف على أجيال متعاقبة ومراحل زمنية متلاحقة. وإذا كنا نذهب هذا المذهب في النظرة الزمنية البعيدة لانجاز كتابة تاريخ الثورة المتكامل فلأن لنا من الواقع المعيش ما يبرهن على صحة ذلك. أليست هذه الجثث لأرواح الشهداء التي تكتشف من حين إلى آخر بعد مرور أربعين عاما على اندلاع الثورة والتي أبادها العدو إبادة جماعية وكدسها على بعضها البعض تكديسا جماعيا في حفر جماعية يبلغ عدد الواحدة منها أحيانا ما يزيد على المئة جثة قلت : أليست هذه الجثث التي تطالعنا بها الصحافة الوطنية وتعرضها علينا التلفزة في صور تدعو إلى الحزن والعطف معا لسان صدق على الجرائم البشعة التي ارتكبتها فرنسا في حق الشعب الجزائري ؟.

إن فضائح فرنسا في الجزائر لن ينفذ الحديث عنها قبل أن تنفذ آلاف السنين وإن إمعان فرنسا في اقتراف تلك الجرائم كان منشؤه ما كانت تلقاه من ضربات موجعة وتعانيه من خسائر فادحة على أيدي المجاهدين من أبناء الشعب. وقد نتج من هذا كله غزارة في مادة تاريخ الثورة لا حد لوصفها ولا مجال لاستجلاء حقيقتها. إن هذا كله من صنع الشعب الجزائري وإن هذا الشعب مطالب اليوم بأن يحافظ على مادة تاريخه فيجمع هذه المادة ويشرع في كتابة التاريخ قبل أن يحاسبه التاريخ.

إننا أولى من غيرنا وأحق بالحفاظ على تاريخ الثورة، كما أن لغيرنا الحق في أن يكتب تاريخ الثورة مادمنا عن هذه الكتابة غافلين وكم يعجبني هذا الاستشهاد الذي حكاه عياض في (المدارك) وهو أن إسماعيل بن اسحاق بن حماد

المالكي البصري سئل عن السر في تطرق التغيير للكتب السالفة وسلامة القرآن من تطرق التغيير له. فأجاب بأن الله أوكل للأحبار حفظ كتبهم فقال : «بما استحفظوا من كتاب الله» (1). وتولى حفظ القرآن بذاته تعالى فقال : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» (2).

ويمكننا أن نصنف عملية كتابة تاريخ الثورة إلى ما يأتي :

1 ـ كتابة رسمية تشرف عليها الدولة وتعين لنا لجنة متخصصة بالتاريخ تتفرع عنها لجان فرعية تختص كل واحدة منها بمحور وتضع الوثائق المكتوبة والمرئية والمسموعة تحت تصرفها قصد إنجاز هذا العمل الوطني.

2 ـ الدراسات الجامعية خاصة منها «شهادة الماجستير» في تاريخ الثورة التي أنشئت حديثا بمعهد التاريخ بجامعة الجزائر. إن تشجيع الدولة لهذا الفرع المتخصص من شأنه أن يمهد السبل لاعداد دراسات ميدانية عن الثورة يكون لها الفضل الكبير في الحفاظ على تاريخ الثورة.

3 ـ الابداعات الأدبية الفنية التي تركز على الناحية الدينية والوطنية والانسانية في الثورة والتي تعبر عنها أقلام الأدباء والشعراء وريشات الفنانين والمثالين وغيرهم.

4 ـ المذكرات الشخصية التي يسجلها أصحابها على شريط «الكاسيت» أو يملونها إملاء على الغير أو يكتبونها هم أنفسهم كتابة عادية بسيطة ولكنها مع ذلك تعبر تعبيرا متواضعا عن دقائق ثورية كبيرة يعتمد عليها الباحث ويرجع إليها المتخصص.

وفي رأينا فإن هذه هي الأنواع الأربعة لكتابة تاريخ الثورة وإلا فإننا سنظل بدون هذه الكتابة شعبا من أبرز عيوبه أنه لا يهتم بالكتابة ؛ والكتابة هنا عملية تقوم بها هذه الكثرة من الذين تخرجوا في الجامعات وغيرها من المعاهد العلمية العالية، ولكننا كنا في غفلة من أمرنا عن الطريقة المثلى للاستفادة من هذه الطاقة العلمية التي كان علينا أن نعبئها تعبئة ثورية في إطار حملات صيفية تطوعية لجمع مادة تاريخ الثورة تمهيدا للشروع الفعلي في كتابة هذا التاريخ

(1) سورة المائدة، الآية : 44.
(2) سورة الحجر، الآية : 9.

الذي ينافسنا الأعداء في كتابته. إنما يكتب تاريخ الثورة إذا توافرت الارادة السياسية في ذلك لأن كل شيء عندنا يخضع للارادة الفوقية. أما الارادة التحتية فهي جملة معترضة كما يقول النحاة فهل يكون للجملة المعترضة محل من الاعراب ذات يوم ؟ .

أثر الدراسات المستقبلية في الكشف عن تاريخ الثورة

إذا كان من همك أن تكتب عن الثورة، فإني أنصح لك اليوم بالكتابة في موضوع أراه خطيرا ويراه بعض الناس غير ذلك. إنه هذا الأمل الكبير في رؤية تاريخ الثورة يكتب لتقرأه هذه الأجيال التي صنعته قبل أن يدركها الموت لكي تتناوله بالنقد والتجريح والتقريظ والتشريح إثراء له وتصحيحا لحقائقه وضبطا لبعض معلوماته بل وتشجيعا للبعض من الناس في أن يكتبوا ويعكفوا على التدوين وتسجيل الحوادث والوقائع التي تعد مادة خاما في تلك الكتابة التاريخية وزادا للدارسين والباحثين الذين ستتنوع دراساتهم وتختلف طبيعة أبحاثهم بتنوع واختلاف المواضيع التي سيتناولونها والتي ستظهر لهم أهميتها العلمية كلما تناولوها تناولا شاملا وعميقا.

وعندي أن كتابة تاريخ الثورة عملية سهلة وعسيرة في آن واحد. أما سهولتها فتأتي من كونها تتوافر على معلومات غنية جدا وكثيرة الانتشار في كامل أنحاء الوطن؛ فالحقيقة التاريخية الواحدة مثلا لا يستأثر بمعرفتها أحد من الناس من دون غيره لأنه لم يصنعها وحده وإنما شاركه في صنعها الكثير من إخوانه، وكل واحد من هؤلاء يعرف جوانب أو تفاصيل عن تلك الحقيقة لا يعرفها غيره أو يكون نسيها في أحسن الأحوال. فإذا كان الكل يعرفون العموميات عن ظاهرة تاريخية من حيث ملابساتها، والظروف العامة التي وقعت فيها والأسباب التي أدت إلى حدوثها فإن البعض من هذا الكل يتفرد بعلم شيء أو أشياء عن تلك الحقيقة لا يعلمها ذلك الكل.

من هنا تأتي فكرة متابعة الواقعة التاريخية من شخص إلى شخص ومن مكان

إلى آخر وعدم الاقتصار على الاقتناع بالرأي الواحد في الموضوع الواحد الذي تتعدد مصادره، وتختلف وجهات النظر بشأنه، وما أكثر المصادر وأعظم المراجع الشفوية في الثورة لأن الكل شارك في هذه الثورة، والجميع أسهم في صنعها. إذن فالكل والجميع مطالبون اليوم بالادلاء بشهاداتهم عن حقائق الثورة وملزمون بتقديم حقائق عنها لأن التاريخ حقائق ناطقة، وروايات صادقة، فهل ينطق صانعوا التاريخ، ويروي رجاله ما يغنون به الأجيال التي ستنكب على دراسته بإعجاب لأنه جدير بهذا الاعجاب.

وأما عسرها فيكمن في سهولتها. وإذا كان لك أن تصف هذا الكلام بالتناقض فإني أحاول أن أجيبك بما يقنعك ويزيل عنك هذا التناقض فأقول: إن الثروة الكبيرة لمادة تاريخ الثورة، وتغطية هذه الثروة للتراب الوطني كله هي عينها التي تشكل في حد ذاتها عسرا أي عسر على المؤرخين والدارسين في تأكيد إثبات الحقيقة التاريخية إثباتا نهائيا. وبيان ذلك هو أن غزارة مادة تاريخ الثورة، وشموليتها للبلاد كلها وحتى خارج حدود هذه البلاد؛ إن تلك الشمولية من شأنها أن تخضع الحقيقة التاريخية للتعديل بالزيادة أو النقصان في مفهومها كلما وقف الباحث على معطى جديد يتصل بتلك الحقيقة التاريخية؛ هذا إذا لم نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول: إن التغيير الكبير سيصيب جوهر بعض المفاهيم التاريخية من حيث تفسيرها الخاطىء والظروف العامة التي أحاطت بها والأسباب التي أوجدتها والأهداف التي كانت تستهدفها. على أننا لسنا نذهب هذا المذهب في القول إلا اعتمادا منا على كثافة المادة العلمية للثورة والسرية التامة التي لا تزال تكتنفها، وتنوع المصادر واختلاف مشارب هذه المصادر في فهمها واستيعابها لتلك الظواهر التاريخية التي سيقف منها الباحثون موقف الاضطراب الفكري وحتى الشك أحيانا لأنها فوق ما يتصورون وأكثر مما يتوهمون.

وانطلاقا من هذا التصور الذي نعتقد صحته وسلامته فإننا إذا كنا نؤكد سهولة كتابة تاريخ الثورة بسبب وفرة المادة العلمية إذا توافرت النياب السياسية المسؤولة الصادقة والمخلصة في ذلك فإننا نثبت كذلك صعوبة تقرير الحقائق التاريخية إثباتا وتقريرا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والسبب في ذلك

كله راجع إلى هذه الاكتشافات العلمية التاريخية التي ستظهر في كل عصر ومصر لتؤكد أو تنفي هذه الحقيقة التاريخية أو تلك، ولأجل ذلك فإن تاريخ الثورة سيظل خاضعا للنتائج التي يتوصل إليها الباحثون كلما اهتدوا إلى حقيقة تاريخية جديدة تنقض ما سبقها أو تؤكده.

وإذا كنت أتحدث إلى القارىء حديثا يوهم بالشك ويبعث عل الارتياب في البعض من حقائق الثورة فإني أبادر إلى تهدئة نفسه وطمأنة قلبه ذلك أنني لا أعني بكلامي هذا ما يتصل منه بالأهداف الكبرى والمحاور الأساسية للثورة بقدر ما أعني بذلك هذه الوسائل التي لم يحسن البعض من المسؤولين استعمالها لتحقيق تلك الأهداف والمحاور.

وإذا كان من السهل علي أن أسوق إليك بعض الأمثلة على هذا التصرف السيء فإني أقول : أليست بعض التصفيات الجسدية في صفوف الثورة، وما اصطلح على تسميته في أثناء هذه الثورة بـ : «التشويش» (1)، وما كان من بعض الاستسلامات للعدو التي قام بها رجال عرفوا بشدة جهادهم لهذا العدو؟ وأخيرا أليس ما كان من بعض هؤلاء القادة الذين ذهبوا إلى قصر «الايليزي» للتفاوض مع العدو دون علم من قيادة الثورة بذلك قلت : أليست هذه كلها دليلا واضحا على سوء التصرف الذي صدر من بعض المسؤولين الذين لم يحسنوا التعامل مع غيرهم أو في بعض القضايا الحساسة في الثورة والذين يعللون سلوكهم هذا تعليلات إن التقت في جوهرها فإنها تختلف في الوسائل التي ساءت سبيلا. ولكنها الطبيعة البشرية التي يعتريها الضعف أحيانا وتتغلب العاطفة فيها على العقل خاصة إذا تهيأت الأسباب المنطقية الداعية إلى المضاعفة من هذا الضعف الذي طبعت عليه النفس الانسانية. حقا لقد كان لبعض أولئك المسؤولين سلوك شاذ في الثورة ظهرت آثاره الوخيمة على بعض النفوس التي تحملته مكرهة فمنها من ارتد عن الثورة ومنها من قاوم هذه الثورة بحد السلاح ومنها من وقف منها موقف المتفرج إلى أن تنفرج الأزمة وبذلك عرفت الثورة منعطفات تاريخية حاسمة يصعب الوصول إلى معرفة حقيقتها

---

(1) هو خروج مسلح على سلطة الثورة ظهر خاصة في الولاية الأولى بسبب أولوية العمل السياسي على العمل العسكري الذي أقره مؤتمر الصومام عام 1956.

اللهم إلا إذا انقرضت هذه الأجيال التي شاركت فيها والتي تسببت أحيانا في إيجاد مشكلات مصيرية لبعضها البعض هي وحدها الكفيلة بكشف الغطاء عنها ونفض الغبار عليها. لذلك فإن على هذه الأجيال أن تعي مهمتها اليوم وعيا تاما فتستحفظ على مادة تاريخ الثورة أقرب الناس إليها وأشدهم حفاظا على هذا التراث الذي يزخر بالمعلومات التي تثرى تاريخ هذه الثورة والتي ستظل تمده بمعلومات لن تنفذ ما دام سجل تاريخ الانسانية مفتوحا تدون فيه جلائل الأعمال وكبريات الحوادث والوقائع التي صنعها الانسان.

لقد آن الأوان لكتابة تاريخ الثورة الذي يتوقف على مدى ما يقدمه المجاهدون والمناضلون من معلومات يخزنونها في صدورهم. وهذه المعلومات تتناقص يوما بعد يوم بسبب ما يتعرض له هؤلاء وأولئك من موت يتخطف العشرات منهم كل يوم.

وإذا كانت وسائل تدوين حوادث الثورة كثيرة ومتنوعة فإن الكثير من المجاهدين والمناضلين الذين يهمهم أمر هذا التدوين لم يقوموا إلى اليوم بهذه العملية فهم لم يقدموا لنا أي شيء خطير في هذا الشأن اللهم إلا ما يمكن أن يكون عن ذلك في المستقبل.

وإذا كان هؤلاء الذين نطالبهم بتسجيل وقائع الثورة يعتذرون بأعذار مختلفة عاقتهم عن فعل ذلك يأتي على رأس تلك المعاذير ما يتعرضون له كل يوم من صدمات نفسانية وخيبة آمال سببتها لهم هذه العناصر العميلة المندسة في تسيير شؤون الثورة بعد الاستقلال فتكونت بذلك فجوة بين هؤلاء المجاهدين والمناضلين وبين الثورة فأنت ترى لذلك أن أولئك القوم يفضلون دائما أن يخوضوا في حديث غير الحديث عن الثورة ومشكلاتها المعضلات لأنها تذكرهم بالآلام والأتعاب والتضحيات الجسام التي آلت بالنسبة إلى الغالبية العظمى منهم إلى ترف في الحياة ونعيم في الدنيا ولكنه ترف ونعيم لم يكن من نصيبهم بقدر ما كان من نصيب تلك العناصر المندسة التي حدثتك عنها، والتي تفسد على المجاهدين نمط حياتهم وتنغصها عليهم.

وإذا كانت التناقضات الفكرية والسياسية والعقدية قد اتخذت لنفسها أوكارا

في هياكل الثورة غذتها تلك العناصر المشبوهة فإن هذه الثورة وهؤلاء المجاهدين على حد سواء كانوا هم الضحية الأولى لتلك التناقضات، ولم ينتصر في هذه الحرب الباردة إلا تلك العناصر الغريبة عن الثورة بأفكارها؛ المندسة فيها بأبدانها فأفلحت في إفساد الجو أو كادت بين الثورة وأبنائها الشرعيين. و الكتابة عن تاريخ الثورة أو الحديث عن هذه الكتابة يقودني إلى التنويه بهذا الوليد الجديد الذي ظهر في أواخر عام 1990 م في معهد التاريخ بجامعة الجزائر إذ تكون في هذا المعهد فرع علمي خاص بشهادة «الماجستير» في تاريخ الثورة يقوم الطلبة فيه بإعداد رسائل جامعية تتناول مختلف المواضيع عن الثورة ـ وما أكثر مواضيع الثورة ـ التي يجب الانكباب على دراستها.

على أن أملنا كبير جدا في هذه المبادرة العلمية التي عبر بها الدكتور / محمد الطاهر العدواني (1) عن إخلاصه للثورة وتاريخ هذه الثورة فإليه يعود الفضل كما نعلم في الحصول على الأمر من وزارة البحث العلمي بفتح هذا الفرع العلمي الذي نتمنى له النجاح كله خدمة للثقافة الثورية ولتاريخ هذه الثورة الذي صنعه شعب يحسن صناعة التاريخ أكثر مما يحسن صناعة الكتابة فيه، إنه شعب يهمل فن كتابة التاريخ كما لم يهمله أي شعب آخر من هذه الشعوب التي تصطنع التاريخ لنفسها اصطناعا وتتكلفه تكلفا.

إن الكثير من المجاهدين والمناضلين يفضلون أن يتحاشوا الادلاء بالمعلومات التي يخزنونها في صدورهم عن الثورة لا لشيء إلا لأنهم يعتقدون أنهم قدموا الكثير من التضحيات لهذه الثورة في أيام محنتها وشدتها. ولكن تلك الثورة لم تقدم لهم من المقابل المادي إلا الشيء القليل ولعدد قليل منهم فقط. أما الفئات العريضة منهم فإنها ظلت محرومة لم تنعم بخيرات الاستقلال ليس ذلك لأن الثورة أرادت لهم هذا الحرمان ولكنه يرجع إلى أسباب طارئة حالت بينهم وبين التمتع بخيرات ذلك الاستقلال. وهذه الأسباب يمكن إيجازها في كلمة واحدة وهي أنها تتمثل في هذه العناصر المغرضة التي كانت تتواطأ مع الاستعمار والتي شاء لها سوء طالع الثورة من جهة وحسن حظ تلك العناصر من

(1) هو الدكتور / محمد الطاهر العدواني الأستاذ المتخصص بالتاريخ القديم، وأحد أفراد جيش التحرير الوطني سابقا.

جهة أخرى أن يكون لها نصيب الأسد في إدارة الادارة المحلية للبلاد على إثر الاحراز على الاستقلال الوطني، فلم يكن ينتظر من هذه العناصر إلا أن تنقم من المجاهدين والمناضلين بحكم موقعها المتميز في الادارة كما أنه لم يكن متوقعا من أولئك المجاهدين والمناضلين إلا أن يقوموا برد الفعل فيتهمون خصومهم أولئك بالعمالة والخيانة والنفاق والعمل لغير مصلحة البلاد أحيانا. وبذلك نشأت عداوة نفسانية بين الفريقين سنراها تؤدي بهما إلى ظاهرة غريبة حقا هي حقدهما وبغضهما العفوي والتلقائي المشترك على الثورة. فإذا كان الفريق الأول يكره الثورة بطبعه فإن الفريق الثاني أصبح ينظر إلى الثورة هو الآخر نظرة تحفظ وتحيز بسبب هذه العناصر الادارية المندسة فيها والتي تكيد له كيدا. وبذلك فقد تكون جامع مشترك عفوي بين هذين الطرفين ـ العناصر العميلة والمجاهدين ـ يمكننا أن نسميه بـ «رد الفعل النفساني» عندهما فالطرف الأول انتقم من المجاهدين انتقاما معنويا وحسيا أحيانا لأنهم كانوا السبب الرئيس في قطع الأسباب بينهم وبين الاستعمار، والطرف الثاني أصابته أزمة نفسانية بسبب ما يلقى من المعاملة غير الانسانية من خصمه التقليدي فراح يكيل التهم جزافا للثورة لأنها المسؤولة على هذا الوضع العام الذي كان من نتائجه الأولى خيبة آمال الكثير من المجاهدين والمناضلين لأن هذه الثورة سلكت مع تلك العناصر الحاقدة الماكرة الماهرة سياسة «عفا الله عما سلف» التي لم تتحمل قيادة الثورة آثارها الضارة في حياتها اليومية الخاصة كما تحمل ذلك عموم المجاهدين الذين ظلوا دائما طبقة محرومة بسبب ما انجر عن تلك السياسة التي حافظت على العناصر الخائنة، هذه العناصر التي ستستأسد على المجاهدين والمناضلين فيتحمل الكثير من هؤلاء الكثير من مكر وعنت أولئك.

الأزمـة النفسانيـة للمجاهديـن

لست أدري سببـا لهذه الأزمـة الحـادة التي تمر بها هذه الطائفة من أفراد الشعب، أعني بها طائفة المجاهدين الذين يطعنون في ماضيهم، وحاضرهم. فقد أخذت تظهر بعد انتصار الثورة بعض ردود الفعل العكسية لهذا الانتصار، ولتلك الـطائفـة التي حققت هذا الانتصـار. وكـانت بعض الجهات الخفية الحاكمة تغذي هذه الظاهرة الغريبة وتعمل على توسيع الهوة بين تلك الطائفة وبين سائر أفراد الشعب. فما هو جوهر هذه المشكلة التي أثارت هذا الجدل العنيف؟ بل ما عسى أن تتمخض عنه هذه القضية المفتعلة التي تعرض من حين إلى آخـر؟ فتتحدث عنها وسائل الاعلام كل حسب موقفه منها، فمن معارض لها أو معرض عنها إلى مؤيد لها. ولكنها على كل حال تعد أحد مواضيع الساعة التي تدعو إلى كثير من البحث والتأمل. ولا يكاد الجدال ينتهي بشأنها حتى يستـأنف من جديد. إنها مشكلة ملأت حياة الناس خصومة وجدلا، وامتلأت بها نفوسهم أخذا وردا كل ذلك لأن لها تأثيرا في النفوس، بل لأنها كانت السبب المباشر في هذا الانقلاب الذي أحدثته في المجتمع الجزائري ألا وهـو هذه القـطيعـة الأبـدية التي أحدثتها بين هذا المجتمع وبين الاستعمار الفرنسي البغيض. فقد كان لتلك الطائفة التي حدثتك عنها في أول هذا الكلام أن جعل الله على يديها طرد هذا الكيان الغريب عن الشعب أعني به الاستعمار الفرنسي. من هنا نفس (1) قوم على هذه الطائفة هذه النعمة التي أنعم الله بها عليها فراح أولئك القوم يقدحون فيها ويوجهون إليها التهم الباطلة، ويلصقون

---

(1) نفس بمعنى: حسد.

بها الدعايات المغرضة التي تستهدف النيل من قيمتها والحط من شأنها كل ذلك بدافع رد فعل نفساني عكسي على هذا النصر الذي حققته تلك الطائفة على العدو الفرنسي إذ أخرجه رجالها من البلاد تاركا وراءه هذه الشرذمة التي كانت تتعامل معه والتي حز في نفوسها أن تكون هذه القطيعة المفروضة بينهم وبين أسيادهم المستعمرين بالأمس، فراحوا يصبون جام غضبهم على تلك الطائفة من المجاهدين إذ شنوا عليهم حملات مضللة في داخل البلاد وفي خارجها كل ذلك بدافع حب الانتقام قال تعالى : «وما نقموا منهم إلا أن يومنوا بالله العزيز الحميد» (1).

وإذا كنت قد أطلت عليك الحديث، فإنما أريد أن أحملك على متابعتي في هذا الفصل الذي خصصته للكلام عن المجاهدين، فقد كثر النقاش في هذه الأيام عن هؤلاء الذين تقوم بعض الجهات المشبوهة بتنظيم حملات صاخبة عليهم، قصد النيل من ماضيهم المجيد وعرقلة مسيرتهم في مواصلة عملية البناء والتشييد. كل ذلك لأن الله اختص هذا الجيل بما لم يخص به غيره من الأجيال التي سبقته.

على أنني لا إخال الناس إلا غالين ولا أظنهم إلا مسرفين في القول عندما يصفون هذه الطبقة المختارة من المجتمع بأوصاف لا يتصفون بها وينعتونهم بنعوت ليسوا منها ولا هي منهم.

وهذه الحملة الحاقدة على أفراد تلك الطبقة إنما يقصد من ورائها الحط من شأن المجاهدين بغيا وحسدا من عند الناقمين عليهم قال تعالى : «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله» (2). ولقد أتى الله هذه الطبقة الكثير من فضله فنفسهم الحاقدون على هذا الفضل. والحسد ظاهرة اجتماعية خلقية ظهرت بظهور آدم عليه السلام فقد حسد قابيل هابيل، بل وقتله نتيجة لهذا الحسد. فكيف لا يحسد البعض من المتواطئين مع الاستعمار هذه الطبقة التي امتن الله عليها ففضلها على كثير من خلقه في هذه الأرض فأفاض عليها من فيوضاته وميزها بالكثير من النعم التي شرفها بها عندما اختصها بهذا الشرف

---

(1) سورة البروج، الآية : 8.

(2) سورة النساء، الآية : 54.

الرفيع، الذي لا يضاهيه شرف آخر. أو يدانيه وأعني به شرف استرجاع حرية البلاد واستقلالها الذي كان على أيدي هذه الطائفة التي قامت بشعيرة الجهاد وروضت نفسها على مثله العليا وتربت في مدرسته الروحية تربية إسلامية وطنية أهلتها لتحمل رسالته الشاقة وهيأتها للنهوض بمهامه الجسام فكانت خير من تحمل الرسالة وأصدق من عاهد الله على ذلك وصدق فيها قوله سبحانه وتعالى: «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا» (1). ولكن البعض يتهمون المجاهدين بأنهم بدلوا وغيروا ويشهد الله أن القوم ما بدلوا وما غيروا، ولكن النصر الوطني الكبير الذي حققوه والاستقلال الذي انتزعوه من العدو الفرنسي هو الذي أوجد مركب النقص في نفوس البعض من الجزائريين الذين كانوا يتعاملون مع العدو فراحوا يكنون البغض والحقد لهذه الفئة المنتصرة من المجاهدين الذين جعل الله الفوز على أيديهم وشرفهم تشريفا محمودا بتحقيق الأمل الكبير الذي استعصى تحقيقه على الأجيال السابقة آمادا طوالا. وهذه الطائفة الساخرة من المجاهدين يمكن تقسيمها إلى ما يأتي:

1 - «الحركة والقومية» وهم الذين كانوا يحملون السلاح في وجه الثورة ويقدر عددهم بحوالي 364000 حركيًا. وهؤلاء يعدون أخطر العناصر التي كانت تطعن الثورة طعنا موجعا وتطعنها اليوم من خلفها وحتى من أمامها.

2 - الموظفون الاداريون وهم الذين تخرجوا في مدرسة «لاكوست» (2) وورثتهم الثورة عن الادارة الفرنسية عندما انسحبت هذه الأخيرة على إثر الاعلان عن استقلال الجزائر.

3 - العائلات التي كانت في خدمة الاستعمار طيلة وجوده في الجزائر والتي كانت تعمل جاهدة من أجل أن تنتصر فرنسا على الثورة لكي يقوى نفوذها أكثر من ذي قبل وتبسط سلطانها على الشعب في ظل هزيمته الجديدة. ولا يفوتنا أن نذكر في هذا الصدد أن عائلات أخرى لم يكن لها علاقة بالوظيف كانت

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 22.

(2) هو الوالي العام على الجزائر في السنوات الأخيرة للثورة.

هي الأخرى تريد أن تظهر على حساب الثورة كقوة جديدة إلى جانب الاستعمار وذلك تمهيدا لدورها المرتقب في إسناد وظائف إليها إذا آل أمر الثورة إلى الفشل.

وإذا خصصنا الحديث عن المجاهدين في هذا الفصل فإننا نؤكد أن الانتصار الذي حققه هؤلاء على العدو الفرنسي وعملائه قد كان له أثره العميق في نفوس كلا الطرفين المذكورين.

من هنا بدأ الجميع يؤامرون على المجاهدين لينزعوا عنهم هذه الهالة القدسية التي صنعوها لأنفسهم، وهذا المجد الذي أضفاه الله عليهم: فكانت التهم توجه إليهم والسهام تلصق بهم بهدف النيل منهم والحط من قيمتهم. لقد كبر هذا النصر على العدو وأذنابه في الداخل فلم تهضم نفوسهم هذه الغلبة التي فرقت بين العدو في الخارج وزبانيته في الداخل.

إن الاعتراف لأهل الفضل والمزايا واجب شرعي ووطني يحمل عليه الشعور الصادق بوجوب إكرام هذه الطبقة من أصحاب الفضيلة والايثار ممن يضحون بأموالهم وأنفسهم في سبيل سعادة وطنهم.

وإذا كنا نتحدث عن وجوب التنويه بالمجاهدين في وقت قل فيه الشاكرون والمعترفون لذوي السابقة فإن لنا أدلة نستند إليها وحججا ينهض عليها كلامنا لايضرنا بعد ذلك أن لا يقيم الناس لها وزنا ولا أن لا يحسبوا لها حسابا مادمنا نستنبطها من الكتاب والسنة فقد قال الله العظيم في كتابه الكريم: «يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجلس فافسحوا يفسح الله لكم» (1). وسبب نزول هذه الآية هو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يربي المسلمين تربية اجتماعية أخلاقية كاملة تنبه فيهم الشعور بالفضل، وتغرس فيهم فكرة الاعتراف بالجميل كل ذلك تشجيعا على المزيد من فعل الخير. فقد روى عن مقاتل أنه قال: كان النبي ﷺ في الصفة (2)، وكان في المكان ضيق في يوم الجمعة فجاء ناس من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس بن شماس قد سبقوا في

---

(1) سورة المجادلة، الآية: 11

(2) الصفة بالضم: رواق كبير مظلّل في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة وإليه نسب أهل الصفة المعروفون في التاريخ الاسلامي (الكاتب).

المجلس فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يفسح لهم وكان النبي ﷺ يكرم أهل بدر فقال لمن حوله : «قم يا فلان بعدد الواقفين من أهل بدر فشق ذلك على الذين أقيموا» وغمز المنافقون وقالوا : ما أنصف هؤلاء، وقد أحبوا القرب من نبيئهم فسبقوا إلى مجلسه. فأنزل الله هذه الآية تطييبا لخاطر الذين أقيموا، وتعليما للأمة بواجب رعي فضيلة أصحاب الفضيلة منها، وواجب الاعتراف بمزية أهل المزايا.

إن الواضح من الآية القرآنية المتقدمة هو أنها نزلت تأييدا لرسول الله ﷺ فيما كان منه من إكرامه أهل بدر على من سواهم من عامة المسلمين الذين لم يحضروا هذه المعركة وواضح أيضا لكل ذى بصيرة أن البدريين أنفسهم كانوا يشعرون في قرارة نفوسهم أنهم مفضلون شرعا على غيرهم بدليل ما جاء عن مقاتل «فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يفسح لهم»، وواضح كذلك أن هذا الشعور من البدريين لقي تجاوبا من النبي ﷺ عندما قال لمن حوله : «قم يا فلان بعدد الواقفين من أهل بدر».

على أن إكرام أهل الفضل إن دل على شيء فإنما يدل على هذا الرقي في الفكر والتفتح الذهني وسعة الموهبة والادراك والشجاعة الأدبية أخيرا في أن تقول للمحسن أحسنت وللمسيء أسأت وليس كل الرجال مقدورا له أن يقول هذه الكلمة التي تعبر حقا عن حس حضاري لا يبلغه إلا القلائل من الرجال. ولذلك فإن هذه الخلة الحميدة ليست مقصورة على شعب دون غيره فهي ظاهرة عامة تعبر الشعوب الراقية من خلالها عن واجب الاعتراف منها لذوي العظمة والنبوغ من أبنائها فأنت تعرف أن الحكومة الفرنسية توفد على رأس كل عام إلى قبر «الماريشال بيتان» ممثلين عنها يضعون باقة من الزهور على قبره، وأظن أن ليس يخفى عليك أن «بيتان» يمثل الهزيمة الفرنسية في الحرب العالمية الثانية وأنه تعاون مع الألمان على بلاده، ولكن فرنسا تعتقد رغم هذا كله أن ماريشالها المغموز في تاريخه هو شخص جدير بالاحترام يجب الوقوف على قبره على رأس كل عام وهي محقة في ذلك على كل حال.

وأذكر أن بعض الاخوان حدثني (عندما كنت تحت السلاح في سيدي

بلعباس عام 1972) عن سكان مدينة «هند نبارق» في ألمانيا الغربية (الموحدة اليوم) بأنهم يقومون على رأس كل عام بزيارات جماعية ضخمة إلى المقبرة الكبيرة حيث دفنت أعداد هائلة جدا من أبناء المدينة المذكورة في الحرب العالمية الثانية ـ هنالك ـ يخصصون جزءا كبيرا من وقتهم للوقوف على أرواح موتاهم وقوفا يتخلله العويل والصياح والولولة والشجيب والنحيب وإقامة الطقوس الدينية تعبيرا منهم عن اعترافهم الفعلي بعظمة أرواح موتاهم.

وإذا كان لي أن آسف على شيء كلما ذكرتني به عناية الألمان بموتاهم فإني شديد الأسف على هذا العبث بقبور شهدائنا الذي طالعتنا به الصحافة الوطنية والذي وقع في أكثر من مكان من مناطق البلاد. فإذا كانت الشعوب العظام تزور عظماءها من الموتى في وضح النهار فإن ضعاف النفوس منا يتسللون في ظلام الليل إلى قبور الشهداء لينبشوها في دناءة أي دناءة وصغار أي صغار.

إننا لا نحترم رموزنا إلا إذا سمونا بأفكارنا ولا نكرم أبطالنا وعظماءنا إلا إذا كنا في مستوى بطولتهم وعظمتهم تلك. وكم يعجبني هذا القول «لا يعطي الأديب حقه في عالم الأدب إلا بعد أن يموت». ولكننا نحن الجزائريين لا نعطي أبطالنا وعظماءنا ماهم علينا من حق حتى بعد أن يموتوا، بل أننا نلاحقهم في قبورهم ونطاردهم في حفرهم لست أدري ألأننا شعب ينكر الجميل ويجحده فلا يعترف بالفضل لأهله وذويه؟ أم لأننا شعب يمر بمرحلة مخاض سياسي يريد أن يخرج من دائرة التخلف ولكن التخلف يجذبه إليه؟ ولكنه على كل حال سيدخل عهدا جديدا من الترقي والتحضر سيكون من أهم ما يميزه، وذلك بالنسبة إلى هذه الصراعات التي سيصرع التقدم فيها عوامل التأخر كلها.

وأخيرا فإننا نحن المجاهدين لا نطلب من المجتمع الجزائري أن يسمح لفئة هؤلاء المجاهدين أن يعمل أفرادها ما يشاءون ولكننا نطلب من الشعب أن يحترم هذه الطبقة منه لأنها تمثل جهاده هو نفسه وصبره وثباته ومتى احترم المجتمع هذه الفئة من أبنائه المخلصين فإنه يكون بذلك قد احترم نفسه لأن هؤلاء هم طليعته الرائدة في الجهاد وقيادته الرشيدة في سنواته السبع الشداد.

ألا ! فليحسن المجاهدون الدفاع عن أنفسهم بالمثالين الحيين من كتاب الله وسنة رسوله وغيرهما مما قدمنا دليلا على ذلك. ولتخرص أفواه كثيرة عن النقد اللاذع للمجاهدين الذين دافع الله عنهم ورسوله قبل أن يدافع عنهم أي مدافع آخر.

نـداء إلى ملتقى ولاية باتنة *
لجمع مادة تاريخ الثـورة

المجاهد / محمود الواعي يعد من أكثر المجاهدين وعيا بوجوب كتابة تاريخ الثورة. إنه واع بأهمية هذه الحقيقة، ويأتي وعيه هذا من كونه أحد أبناء جبال الأوراس السباقين إلى تفجير الثورة. وأحد المبادرين اليوم إلى جمع مادة تاريخ هذه الثورة تمهيدا لكتابة وتدوين تاريخها الذي عرف الشعب الجزائري كيف يصنعه ولكنه لم يعرف كيف يسجله إلى اليوم.

والأستاذ / الواعي عود المجاهدين أن يجمعهم في أواخر شهر أكتوبر إحياء لذكرى الفاتح من نوفمبر وذلك خلال سنتين منصرمتين يعمل فيهما على جمع المجاهدين، والأساتذة المتخصصين والطلبة في قاعة المحاضرات بمحافظة باتنة حيث تلتقي جموع غفيرة من صانعي الثورة والأساتذة والطلبة الجامعيين وغير هؤلاء وأولئك ممن لهم اهتمام بتاريخ الثورة وذلك ضمن برنامج حافل بالمحاضرات عن الثورة تعقبها تدخلات تستهدف كلها إعداد الأرضية الصالحة لجمع المادة لكتابة التاريخ الرسمي للثورة عندما تعطى الاشارة الخضراء بذلك.

ولست أحدثك عن نشاط أخينا الواعي في هذا المجال فهو على الرغم من تجاوزه السبعين عاما من عمره إلا أنه يتقد نشاطا وحيوية فما أيسر ما يسهل عليه السفر من مدينة باتنة إلى مدينة الجزائر، ولكن زيارته إلى هذه المدينة قد بدأت تقل في المدة الأخيرة فلم نتسلم منه الدعوة إلى حضور الملتقى الوطني الذي تعود إقامته في أواخر شهر أكتوبر من كل عام في عاصمة الأوراس.

---

* *نشرت في جريدة «الشعب» شهر نوفمبر سنة 1991 م.*

ولما لقيت الأستاذ المجاهد / عزوي (1) في فصل الصيف من هذا العام (1991) في مدينة الجزائر وسألته عن سبب ذلك أجابني بأن ظروفا طارئة حالت دون انعقاد الملتقى المذكور من أهمها مرض ألمّ بأخينا الواعي أدخله إلى المستشفى.

وإذا كان تاريخ الثورة يعاني مرضا مزمنا فما أشد ما يكون مرضه هذا شديد الوطأة على نفسه وعلينا جميعا عندما يصيب ذلك المرض من وقف نفسه لخدمة هذا التاريخ، شفى الله التاريخ وعجل بشفاء القائمين بأمره.

ومهما تكن طبيعة الأسباب التي عاقت تنظيم هذا الملتقى فإننا نرى وجوب تذليل هذه الصعاب والمتاعب لكي يتسنى لهذا التجمع الثقافي أن ينعقد من جديد لأنه يحقق هدفين اثنين : أما الهدف الأول فهو تقديم معلومات متكاملة يدلي بها الذين صنعوها بأنفسهم لكي تكون مادة تساعد المؤرخين والباحثين في تقديم دراسات تاريخية جادة تمثل وجهة النظر الوطنية في مسيرة هذه الثورة التي تتميز بأنها ثورة أسست على تقوي من الله ورسوله. وأما الهدف الثاني فهو محاولة جلب انتباه الولايات الأخرى عبر الوطن إلى التمثل بهذه الظاهرة الثقافية الصحية التي ما انفكت ولاية باتنة تقوم بها ألا وهي تنظيم هذا الملتقى الذي نأمل أن يكون مثالا لغيره من الملتقيات الولائية الأخرى التي تنظمها جهات أخرى على غرار ملتقى ولاية باتنة المذكور.

والحديث عن ملتقى باتنة يقودنا إلى الادلاء برأينا في الملتقيات الوطنية التي كانت المنظمة الوطنية للمجاهدين تنظمها كل عام منذ بداية الثمانينات، ولكنها تخلت عنها في المدة الأخيرة كأني بها جمعت المعلومات كلها عن الثورة وأحصت ما صنعته هذه الثورة من أبعاد ومفاهيم ستظل ميدانا خصبا للتحليلات التاريخية المعمقة على الآماد الطوال.

إننا لا ننكر المجهودات الجبارة التي بذلتها المنظمة الوطنية للمجاهدين في عملية جمع مادة تاريخ الثورة ولكننا ننكر على هذه المنظمة أن تكون جمعت أو

---

(1) هو الفاضل محمد الطاهر عزوي له نشاط ملحوظ في كتابة تاريخ الثورة وأصله من مدينة باتنة أو نواحيها.

حدثتها نفسها بأنها جمعت كل ما كانت الثورة تتمحور عليه فهل دونت منظمة المجاهدين الأشعار الشعبية التي كانت الثورة تتغنى بها ؟ وهل سجلت الحياة اليومية للمجاهدين في أثناء الثورة ؟ وهل قيدت الأمثال والحكم والأقوال التي عبر النـاس بها عن حالاتهم النفسية خلال الثورة ؟ وهل قامت بعملية جرد للأمـلاك والأرزاق المنهـوبـة والحيوانات المصادرة ؟ وهل قامت بعملية مسح جغرافي للأراضي والجبال التي أحرقها الاستعمار إبان الثورة ؟ إلى غير ذلك من الأعمال الوحشية التي كان الاستعمار الفرنسي يقوم بها في حق الأرض وما على ظهرها، والانسان وما وعى والحيوان وما حوى.

إننا نشك في أن المنظمة الوطنية للمجاهدين قد ألقت هذا العبء الثقيل كله عن كاهلهـا، ولـذلـك فإن الـواجب الـوطني يفـرض عليهـا أن تعيد النـظر مرة أخرى في نشاطها الثقافي عن جمع مادة تاريخ الثورة لكي تكمل النقص فيكون عملها بذلك متكامل الجوانب فلا تحاسبها الأجيال القادمة ولا تحكم عليهـا بالتقصير لأنها لم تقصر في حق الثورة في أثناء مراحلها التاريخية الدامية فأولى بها وأحرى أن لا تقصر اليوم في حق هذه الثورة التي لا تزال تعاني التقاعس في كتابة تاريخها.

أعود من جديد إلى أخينا الواعي فأناشده مخلصا أن يفكر في إحياء السنة التي استنها ألا وهي تنظيم الملتقى الوطني لجمع مادة تاريخ الثورة الذي عود المجاهدين والأساتذة والطلبة أن يسارعوا إليه إذا كانت العشر الأواخر من شهر أكتوبر من كل عام، وأن لا يفاجئنا مرة أخرى بهذا التخلي عن أداء الواجب الوطني الذي لم نعهده منه فإننا لم نألف منه إلا الجد والمثابرة. إننا نطلب منه ذلك لأننا نرى أنه من أكثر الملتزمين بالنضال التزاما بمبادىء وأهداف الثورة، هذه المبادىء التي تعد ضربة لازب (1) في جيل نوفمبر 1954 م والتي أوقف هذا الجيل حياته لخدمتها.

---

(1) اللازب: الثابت وهو أفصح من اللازم (الكاتب).

ثـورة تـاريخ الثـورة

لم تكد الثورة الجزائرية تحقق النصر فتعيد للبلاد حريتها واستقلالها حتى بدأ الباحثون يسألون عن وجوب كتابة تاريخها فهم متشوقون إلى أن يقرأوا تاريخ هذه الثورة التي صنعوها بأيديهم وافتكوا لها النصر من العدو عندما أراد الله لهم ذلك.

وقد أخذ فريق من أولئك المهتمين والباحثين يبدو عليهم اليأس وخيبة الأمل لأن تاريخ الثورة لم تشرع السلطة في كتابته أو أنها لم تزود ذوي الاختصاص منهم بالمعلومات الضرورية للشروع في إنجاز هذه المهمة الثقافية التي تعد مكملة للثورة واستمرارا لها.

من هنا جاءت الأحكام الاعتباطية بأن الثقافة الجزائرية تشهد احتضارها لأنها لم تسهم في كتابة تاريخ الثورة ولم تصدر حقائق هذه الثورة ولم تعبر عن خلجات النفوس والقلوب والعقول بالوقائع الكبرى التي شاركت تلك النفوس والقلوب والعقول جميعا في صنعها الذي كلفها الكثير من التضحيات. من هنا أيضا تأكد الكثير من الناس أن تاريخ الثورة سيظل أملا يداعب النفوس لأنه عرف الكثير من الصعاب والعقاب التي حالت دون ظهوره. وقد نتج من تلك الأحكام الاعتباطية أن البعض من المجاهدين الذين يمثلون المادة الخام في كتابة تاريخ الثورة استيأسوا من بلورة هذا التاريخ، وأعرضوا عن الحديث فيه والخوض في أمره إلى الاغراق في الحياة اليومية يجدون فيها ما يعوضهم عن ذلك.

وتهافت المهتمون على قراءة ما ينتجه بعض الكتاب الأجانب في تاريخ الثورة وظواهرها، فارتاح القليل لهذه الكتابات وسخط عليها الكثير منهم لأنها قدمت

هذا التـاريخ من وجهـة نظر متـطرفة. ولذلك بقيت تلك الكثرة من القراء والمهتمين تترقب إنشاء تاريخ وطني صحيح عن الثورة يكون صورة صادقة عنها كما تكون هي صورة صادقة عنه.

وأنا أرى أن مصدر ذلك اليأس وخيبة الأمل إنما يعود أساسا إلى هذه العناية بالمشاريع الاقتصادية التي شرعت البلاد في تنفيذها غداة الاستقلال لاخراج الشعب من ثالـوث الجهـل والفقر والمرض الذي ظل يتخبط فيه طيلة الفترة الاستعمارية. هذا من جهة وإلى أن الثورة المسلحة لم يمض على طي صفحتها إلا عام وبعض العـام من جهـة أخرى. لذلك إذا ادعت السلطة أن تلك الظروف غير ملائمة لكتابة التاريخ فإنها محقة في ذلك من الوجهة العلمية التي تتطلب الأناة والابطاء وإرجاء الكتابة إلى أن تمضي عليها فترة زمانية معينة. ولكنني أعتقد أنها غير محقة في عملية الابطاء والارجاء من الوجهة العملية فنحن نعلم أن هناك في السلطة من يعمل على تأجيل هذه العملية لأنها لن تذكره بخير فهي ستفضحه أو على الأقل ستظهره بمظهر المتفرج عليها في أثناء محنتها أو المحايد في أحسن الأحوال. وفي الحقيقة فإن الثورة لا تعرف المواقف الوسط فإمـا أن تكـون معها أو عليها وهذا النوع ممن ذكرت لك يعدون في المفهوم الثـوري ممن ناصبـوهـا العداء وناصروا عليها الأعداء فكيف يمكنهم اليوم ومـوقف الثـورة منهم بمثل هذه الصرامة وموقفهم منها على هذه الدرجة من التواطؤ مع العدو أن لا يقفوا حجر عثرة في كتابة تاريخها الذي لم يشاركوا في عملية صنعه بقدر ما شاركوا في عملية منعه.

ويكفي أن تعلم أن الكثـير من هؤلاء الجـاحـدين والناقمين أنكروا على الشعب جهاده الذي أعلنه على العدو، وأشاعوا في أفكار الشباب، الذين لم يعيشوا حقائق الثورة أن الرجال الذين أشعلوا فتيل هذه الثورة كانوا أقرب ما يكـونـون إلى الجنون والطيش لأنهم لو انتظروا بالاستقلال قليلا فإنهم كانوا سيحصلون عليه بدون شن حرب على الاستعمار الفرنسي. أليس العصر الذي نعيش فيه هو عصر الحرية التي يجب أن تتمتع بها الشعوب جميعا وأن الاستقلال الذي يتبجح باسترجاعه هؤلاء الرجال لم يسترجعوه بقدر ما كان «هدية» إليهم من «الجنرال ديغول». وكذلك سار هؤلاء على هذا النهج من التضليل فكونوا

في نفوس الشباب هذه الطبقة الجديدة التي تجحد فضل الثورة عليها بل تتهم رجالاتها في السمعة الأدبية والمقام التاريخي الذي ملأ الدنيا وطبق الآفاق.

ولكن هؤلاء وأولئك لم يدرك بعضهم الثورة لأن الله خلقهم في خضمها أو قبل نشوبها بوقت قصير ولم يقيض للبعض الآخر ممن عاشوا وقائعها وأبعادها أن يكون لهم شرف الانتساب إليها لأنهم آثروا مصالحهم الخاصة على مصلحة الشعب والثورة.

والذين نقموا من الكتاب الأجانب تحيزهم فراحوا يحدثونك عن التحريف والتزييف والتزويق والتنميق والكذب على التاريخ. لم يكتبوا التاريخ بل لم يقدموا حتى المعلومات التي يعرفونها عن الثورة لمن يطلبون منهم ذلك. وإن أنت سألتهم عن سبب ذلك أجابك بعضهم: «أتريدني أن أساعده في إصدار كتاب يبيعه بالدراهم»؟ إن هذه النظرة البسيطة للأشياء كانت أحد الأسباب التي عطلت كتابة تاريخ الثورة. لقد شغل هؤلاء بالنقد عن العمل فأثاروا بذلك موضوعا من أهم مواضيع الثورة يستعملونه للوصول إلى أهدافهم الخاصة. ولك أن تبحث إن شئت عن المؤرخ الجزائري الذي قدم دراسة شاملة عن الثورة جديرة بالبقاء فاتصل مباشرة بالرجال وتنقل من مكان إلى مكان داخل الوطن وخارج هذا الوطن فحاور هذا وناور أو جادل ذاك، فإني أؤكد لك أنك لن تجد له أثرا. وأذكر بهذه المناسبة أن مؤرخا جزائريا شهيرا دعي إلى إلقاء محاضرة عن الثورة في الملتقى الوطني الثاني لجمع مادة تاريخ هذه الثورة عام 1990 م في مدينة باتنة فما كان منه إلا أن ألقى على مسامع الناس خواطره عن الثورة منذ انطلاقتها إلى حوادث أكتوبر 1988 فخرج علينا بعرض عام لمراحل الثورة مما يعرفه الناس جميعا. وقد صفق الناس لسمعته أكثر مما صفقوا لعرضه الذي جاء ملائما للظروف التي ألقي فيها وألهب النفوس ودفعها إلى التصفيق. على أني أعتقد أن ذلك المؤرخ لو اتصل بالمجاهدين وتنقل من مكان إلى مكان وسأل هذا واستقصى ذاك لكان سيطلع على الناس بعمل تاريخي يكون في مستوى كل من المحاضر والثورة على حد سواء ولكنه لم يفعل لأن ذلك يكلفه هذا الاتصال وهذا التنقل الذي يشق عليه كثيرا فلم يقدم إلى الناس من العمل إلا قليلا. أعتقد جازما أنه هو نفسه غير راض عنه ولا مطمئن إليه.

في نفوس الشباب هذه الطبقة الجديدة التي تجحد فضل الثورة عليها بل تتهم رجالاتها في السمعة الأدبية والمقام التاريخي الذي ملأ الدنيا وطبق الآفاق.

ولكن هؤلاء وأولئك لم يدرك بعضهم الثورة لأن الله خلقهم في خضمها أو قبل نشوبها بوقت قصير ولم يقيض للبعض الآخر ممن عاشوا وقائعها وأبعادها أن يكون لهم شرف الانتساب إليها لأنهم آثروا مصالحهم الخاصة على مصلحة الشعب والثورة.

والذين نقموا من الكتاب الأجانب تحيزهم فراحوا يحدثونك عن التحريف والتـزييف والتزويق والتنميق والكذب على التاريخ. لم يكتبوا التاريخ بل لم يقدموا حتى المعلومات التي يعرفونها عن الثورة لمن يطلبون منهم ذلك. وإن أنت سألتهم عن سبب ذلك أجابك بعضهم : «أتريدني أن أساعده في إصدار كتاب يبيعه بالدراهم» ؟ إن هذه النظرة البسيطة للأشياء كانت أحد الأسبـاب التي عطلت كتـابة تاريخ الثورة. لقد شغل هؤلاء بالنقد عن العمل فأثاروا بذلـك موضـوعـا من أهم مواضيع الثـورة يستعملونه للوصول إلى أهدافهم الخـاصـة. ولك أن تبحث إن شئت عن المؤرخ الجزائري الذي قدم دراسة شاملة عن الثورة جديرة بالبقاء فاتصل مباشرة بالرجال وتنقل من مكان إلى مكان داخل الوطن وخارج هذا الوطن فحاور هذا وناور أو جادل ذاك، فإني أؤكد لك أنك لن تجد له أثرا. وأذكر بهذه المناسبة أن مؤرخا جزائريا شهيرا دعي إلى إلقاء محاضرة عن الثورة في الملتقى الوطني الثاني لجمع مادة تاريخ هذه الثورة عام 1990 م في مدينة باتنة فما كان منه إلا أن ألقى على مسامع الناس خواطره عن الثورة منذ انطلاقتها إلى حوادث أكتوبر 1988 فخرج علينا بعرض عام لمراحل الثورة مما يعرفه الناس جميعا. وقد صفق الناس لسمعته أكثر مما صفقوا لعـرضه الذي جاء ملائما للظروف التي ألقي فيها وألهب النفوس ودفعها إلى التصفيق. على أنني أعتقـد أن ذلك المؤرخ لو اتصل بالمجاهدين وتنقل من مكـان إلى مكان وسأل هذا واستقصى ذاك لكان سيطلع على الناس بعمل تاريخي يكون في مستوى كل من المحاضر والثورة على حد سواء ولكنه لم يفعل لأن ذلك يكلفه هذا الاتصال وهذا التنقل الذي يشق عليه كثيرا فلم يقدم إلى الناس من العمل إلا قليلا. أعتقد جازما أنه هو نفسه غير راض عنه ولا مطمئن إليه.

دائما بتقديم عروض عامة عن الثورة أو التهرب من ذلك إلى طرق المراحل التاريخية المتعاقبة في حياة الشعب. وسواء أتعلق الأمر بتلك العروض العامة أو بهذا التهرب المتعمد فإن الخاسر في ذلك كله هو تاريخ الثورة الذي أؤكد مرة أخرى فضل بعض المثقفين الثوريين عليه إن كان هذا يعد فضلا منهم على تاريخ الثورة.

وبعد أن مضى على اندلاع الثورة أربعون عاما استقرت فيها الأمور وهدأت النفوس التي تتأجج غضبا على الاستعمار وبعد أن آمن الشعب بفضل الثورة عليه وأصبحت حياته متميزة بالحياة الحرة الكريمة التي لا يستطيع عنها نكولا.

بعد هذا كله أما آن لتاريخ الثورة أن يكتب؟ هذا سؤال نرجو أن تكون الاجابة عنه لا تستغرق مدة كهذه التي مضت على إلهاب نار الثورة إلى اليوم.

إن بين التاريخ والثورة جامعا مشتركا هو استفادة كل منهما من الآخر فإذا كانت الثورة تستفيد من دروس التاريخ فإن التاريخ يستفيد هو الآخر من ملاحم الثورة بل إن الثورة هي المصدر الأساس الذي يعتمد عليه التاريخ في تقديم الدروس للأجيال اللاحقة. وإذا كان التاريخ يحدث الثورة في النفوس قبل أن تحدثها السياسة فإن ذلك يعني أن ثورة التاريخ هي هذه الحالات النفسانية التي تعلنها السياسة في وجه الاستعمار في آخر المطاف. على أن التاريخ ليس هو وحده المؤثر في إحداث الثورة فهناك عوامل أخرى في حياة الشعوب داخلية وخارجية من شأن التاريخ أن ينمي الشعور بها والاحساس بمرارتها كالظلم الاجتماعي والسياسي والشعور بالحرمان مما يدفع إلى الثورة الشعبية السياسية التي تمهد لها ثورة التاريخ.

ولا يروي لنا التاريخ أنباء ثورة رائدة عبر مراحله المتتالية إلا وقد كان هذا التاريخ قد سبقها إلى نفوس أصحابها فحببها إليهم ودفعهم إليها طائعين أو كارهين. على أننا نستطيع الآن أن نعلن أن هناك تاريخين: تاريخا يسبق الثورة ويمهد لها إذا استفادت منه الشعوب وتاريخا يأتي بعد الثورة يصور مراحلها وأبعادها ويصف أثرها في النفوس والعقول جميعا. والخلاصة هي أن السياسة تستلهم مفاهيمها من تجارب الشعوب التي يعبر عنها التاريخ كما أن التاريخ يظل جسدا بلا روح إذا لم تعبر عنه السياسة التي تستقي منه مصادر قوتها وأسباب منعتها الذاتية.

والتاريخ خلال الثورة المسلحة يظل يترصد أعمال الذين يصنعون الحوادث التي تتشكل منها مادته لأنه يستشف كنهه ويستمد حقيقته من التضحيات الجسام التي يقومون بها.

وهذه الأعمال تتوقف على نشاط الثورة فعندما تضطرم نار هذه الأخيرة فإن تلك الأعمال تتكثف وعندما تخمد نارها فإنها تطوي صفحتها في انتظار أن يستفيد منها المؤرخون كتابة والقراء اطلاعا ومعرفة بالأصول التي انبنى عليها تاريخهم ذلك. والتاريخ يطمح دائما إلى المزيد من تلك الأعمال ويطمع في أن تثريه بهذه الألوان المختلفة قبل أن يصبح كتابا يقرأ. وهو بهذا الطمح وذاك الطمع يدفع إلى صنع تراث ثقافي متميز.

كما أن التاريخ من جهة أخرى يعد حليفا طبعيا للثورة فهو لا يعاديها لأنها خلاصة تجاربه المريرة كما أنها هي لا تباديه بالمقاومة لأنه سيكون المعبر الصادق عن خضمها الزاخر بعناصر الحياة المستلهمة من هذه الجماهير العريضة التي تحميها بصدورها وتقيها بنحورها، والتاريخ الذي تصنع وقائعه خلال الثورة يكون مطبوعا بهذه الواقعية التي تجعله مصدر صدق لتجلية الحقيقة وهو في هذه الحال تاريخ قوي لأنه صادر عن حوادث هي أقوى منه وأشد ظهورا وشتان بين الشيء تصنعه بيديك صنعا وتعبر عنه بالقلم بعد ذلك. إن الأعمال الميدانية في الثورة كانت دائما أقوى من التعبير عنها بالكلمة مهما أوتيت هذه الكلمة من الصدق في التعبير.

إننا نعني بثورة تاريخ الثورة هذا الانتصار الذي سيسجله تاريخ الثورة على الجاحدين والناقمين ما في ذلك شك.

من كل ما تقدم يظهر أن إلحاح البعض على كتابة تاريخ الثورة عقب الحصول على الاستقلال مباشرة كان ضربا من اللغو ولونا من ألوان الحديث الذي يدعو إلى الضحك والسخرية أكثر مما يدعو إلى أخذ الأمور مأخذ الجد لأن تاريخ الثورة الذي يشرف هذه الثورة كان وقت كتابته لم يحن بعد. أما اليوم، وقد مضى على عمر هذا الاستقلال واحد وثلاثون عاما تخرج خلالها الشباب في الجامعات المنتشرة هنا وهناك. وبعد أن تقادم العهد بين الثورة وصناعها، بل أخذ بعض الناس ينسى البعض من حقائق الثورة، فإن على

الهيآت العليا في البلاد أن تشرع في كتابة تاريخ الثورة. على أنني أعتقد أن تاريخ هذه الثـورة عندما يكتب سيكون على درجة كبيرة من التنافر والتدابر للتاريخ الذي صنعناه بأيدينا وتعمقنا حقائقه، وبلونا من أمره الكثير، إنه لن يأتي على الصورة التي شقي الرجال المجاهدون كثيرا في صنعها، إنه سيكون صورة أخرى مغايرة لصورته الأولى.

إن الشباب الذي يتخرج في معهد التاريخ بالجامعة مطالب بالنهوض بأعباء هذه المهمة الثقافية التي يتحمل مسؤوليتها اليوم تماما كما تحمل آباؤه بنجاح كبير مسؤولية تحرير الوطن، وهذه المسؤولية هي وجوب تكبده الصعاب والمشاق من أجل أن يكتب تاريخ الثورة الذي لا يكتبه إلا الرجال الذين صنعوه. على أني أعتقد أن هذا الشباب لن يشق عليه هذا العمل الكبير لأنه لن يتعثر بالعراقيل التي تحدثها له هذه الطغمة من الجاحدين والناقمين فهو سيتخلص منهم كما تخلص آباؤه من الاستعمار. عندئذ لن يحتاج هذا الشباب إلى المناورة والمداورة التي نعـانيهـا اليوم إذا تحدثنا عن ضرورة العناية بتاريخ الثورة فنجد أنفسنا مكرهين على الملاينة حينا والمخاشنة أحيانا، ولكنها مخاشنة ليس فيها غناء يرجوه المكرهون على ذلك.

إن الأجيال القادمة ستكون من أسعد الناس حالا لأنها لن تشقى بوخزات إبر هذه العناصر التي تمثل الاستعمار في غير أرضه والتي عطلت تنفيذ الكثير من المشاريع الوطنية وعلى رأسها إرجاء كتابة تاريخ الثورة إلى أجل غير مسمى.

إن سعادة الأجيال في وطنهم السعيد ستنعكس حتما على إنتاجهم الثقافي العام، وعلى كتابة تاريخ الثورة بصفة خاصة. عندئذ يظهر الفرق الكبير بين عمل من يشعرون بالأمن من الخوف الجسدي والنفساني، وبين من يعملون عملا هو إلى التمني أقرب منه إلى التغني بالشعور بسعادة تحقيقه وتنفيذه.

إننا بعد هذا كله نرتقب تاريخ الثورة الحق من هذه الأفواج التي تتخرج في الجامعات كل عام، إنها هي وحدها الكفيلة بكتابة تاريخ الثورة إذا اعتمدت على مصـادرها الصحيحة في ذلك، هذه المصادر الحية التي صنعت التاريخ والتي لا يزال بعضها بل الكثير منها أحياء يحملون بين الأحناء والضلوع تاريخا ثائرا ينتظر من يدونه للأجيال، فهل يدون تاريخ الثورة للأجيال ؟ سؤال نلقيه على السلطة الحاكمة نأمل أن يكون الجواب عنه غير مسرف في الطول.

انتحال الجهاد
أو
الغالبون المغلوبون، والمغلوبون الغالبون

يبدو أن تاريخ الثورة الجزائرية أعظم من أن يكتبه أبناؤها الذين صنعوه بمهجهم وأرواحهم. فقد هان على هؤلاء أن يصنعوا التاريخ ولكنهم صعب عليهم أن يكتبوا هذا التاريخ فبينما الثورة يعمر الايمان بها قلوب الناس وعقولهم كلما ضربت في أعماق الزمان، وبينما يعكف الأوربيون والفرنسيون المهتمون والمؤرخون منهم بصفة خاصة على إظهار كتابات عن هذه الثورة التي يعظم حظها من عناية هؤلاء القوم فإن عناية أبنائها بتسجيل هذا التاريخ تظل خاضعة للأهواء الخاصة والعواطف المغرضة لأن هذه العناية مشلولة قد حيل بينها وبين الارادة في الكتابة عن تاريخ الثورة. وهذا الشلل إنما أصاب بعض النفوس التي جعلت منها الظروف السياسية للثورة بعد الاستقلال هرما سياسيا بيده أخذ القرار السياسي الفاعل ولكنه يكن حقدا دفينا لهذه الثورة. فقد هال تلك النفوس وكبر عليها أن لا يكون لها حظ قليل أو كثير في عملية صنع تاريخ الثورة أو بعبارة أدق تحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي، لذلك عملت تلك النفوس وستظل تعمل على إرجاء كتابة تاريخ الثورة وإطالة مدة انتظار تنفيذ هذه العملية لا لشيء إلا لأن هذه النفوس لم يقيض لها أن تشارك في هذا الشرف التاريخي الذي حظى به قوم من المستضعفين الذين واجهوا الاستعمار وحرم منه آخرون ممن أخذتهم العزة بالاثم فاشتد الاتصال بينهم وبين المستعمرين وبذلك لم يساهموا في طرد الاستعمار من بلادهم. وقد أثر هذا الموقف السلبي على نفوس هؤلاء القوم فراحوا ينقمون من الشعب ومن ثورته

بعد أن أصبح لهم النفوذ الاداري بعد الاستقلال مباشرة فأنت تعلم أن الاستعمار قد خرب البلاد في أثناء رحيله عنها تخريبا شاملا في الادارة والاقتصاد والأمن والثقافة ومرافق الحياة كلها. وقد كان واجبا على الثورة المنتصرة أن تملأ هذا الفراغ المهول الذي تركته فرنسا من ورائها والذي تستهدف من خلاله شل الحياة اليومية للبلاد.

وكانت فرنسا قد كونت أعدادا لابأس بها من الجزائريين الذين كانوا موالين لها ومخلصين للنهج غير القويم الذي ربتهم في أحضانه. وقد أسندت إلى هؤلاء تسيير الادارة في أثناء وجودها. وعندما أراد الله لها أن تغادر هذه البلاد إلى غير رجعة فإنها أبقت على رأس الادارة هذه العناصر التي كونتها والتي حدثتك عنها والتي كانت الثورة الغالبة في حاجة إليها لادارة شؤون البلاد لكي لا تتعطل الحياة العامة للمواطنين.

ولست أحدثك عن رد الفعل النفساني الذي أحس به هؤلاء المغلوبون الذين كانوا بالأمس القريب يتعاونون مع الاستعمار ويتظاهرون اليوم ببناء دولة كانت تحاربهم وتحارب الاستعمار الذي تربوا في أحضانه. لذلك سجل تاريخ الادارة الجزائرية هذه الأغلال والقيود التي خضعت لها بطرق ملتوية بعد الاستقلال والتي أخذت بعد ذلك بعدا وطنيا كبيرا انعكست آثاره الوخيمة على قطاعات الحياة كلها هذه القطاعات التي أصبحت تحتكرها هذه الجماعة المغلوبة التي أضمرت الحقد للثورة الغالبة.

ولذلك نشأت هذه الخصومة الفكرية بين هؤلاء الذين تخرجوا في المدرسة الاستعمارية وبين أولئك الذين تخرجوا في مدرسة الثورة هذه المدرسة التي كانت من صنع أيديهم والذين كانوا هم أيضا من صنعها.

وأريد أن ألاحظ لك أن تلك الجماعة المغلوبة كانت ولا تزال على قدر كبير من المكر والخداع إذ أن أصحابها قد داروا وجاروا فعرفوا كيف يسلكون طرقا ملتوية يستهدفون من ورائها تقسيم صفوف المجاهدين وذلك باستعداء بعضهم على البعض والاستفادة من خصوماتهم السياسية ونزاعاتهم الهامشية.

وهذا الموقف الماكر الماهر الذي اتبعه هؤلاء الموالون للاستعمار يسر عليهم الوصول إلى المناصب العليا في الدولة من جهة كما أنه أحفظ صدور المجاهدين

وأثـار ضغـائنهم عليهم من جهـة أخـرى. أليس أولئك المغلوبون اليوم قد أصبحوا يتحكمون في رقاب المجاهدين الغالبين بالأمس فلا يكاد يصدر أي قرار هام في الدولة إلا عن أمرهم ومع ذلك فإنهم كما يقول المثل الشعبي «يأكل الغلة ويسب الملة». ولعل أروع وأصدق صورة تعبر لنا عن هذا الوضع الذي آل إليه الأمـر بين المجاهدين وهذه الطائفة المنبوذة ما أورده بعض الكتاب، قال: «قالوا: كان إسماعيل بن يسار زبيري الهوى فلما ظفر آل مروان بآل الزبير أصبح إسماعيل مروانيا وقبله بنو أمية. فاستأذن ذات يوم على الوليد بن عبد الملك فأخره ساعة، حتى إذا أذن له دخل عليه يبكي. فلما سأله عن بكائه هذا قال: «أخرتني وأنت تعلم مروانيتي ومروانية أبي. فأخذ الوليد يهون عليه ويعتـذر إليه وهـو لا يزداد إلا إغراقا في البكاء، حتى وصله الوليد فأحسن صلته. فلما خرج تبعه بعض من حضر فسأله عن هذه المروانية التي ادعاها: ماهي؟ ومتى كانت؟ فأجاب: «إن هذه المروانية هي بغضنا لآل مروان، وهي التي حملت أباه يسارا وهو يموت على أن يتقرب إلى الله بلعن مروان بن الحكم، وهي التي تحمل أمه على أن تعلن (لعل الصواب أن تلعن) آل مروان مكان ما تتقرب به من التسبيح» (1).

وإذا كانت مروانية إسماعيل بن يسار هي بغضه لآل مروان فإن ثورية هذه الفئـة التي حدثتـك عنهـا هي بغضهـا وانتقامها البطيء من الثورة وتسديد الضربات الموجعة لها قصد توهينها وإضعافها ولكن الثورة التي صنعها شعب كشعب الجزائر لا يطفىء نورها أفواه طالما تغنت بحياة فرنسا وهذا الاختلاف في النظرة السياسية يعد نتيجة حتمية لما يمكننا ان نسميه بـ «الماضي المشبوه» لبعض فئات المجتمع الجزائري خلال الثورة.

وإذا كانت الثورة قد عولت في بداية الاستقلال على «خبرة» هؤلاء القوم في تسيير شؤون البلاد فإننا لا نجد مسوغا لهذا التعويل بعد أكثر من ثلاثين عاما من عمر الاستقلال؛ اللهم إلا هذه العلاقة التي وجدت اعتباطا وبصفة تلقائية بين البعض من المجاهدين الناطقين باللغة الفرنسية وبين هؤلاء الذين يسيرون الادارة الجزائرية فقد شكلت اللغة الفرنسية محورا جمع بين الطرفين جمعا عفويا

---

(1) المجموعة الكاملة للدكتور طه حسين: دار الكتاب اللبناني: بيروت، المجلد الخامس، 1982.

مصدره اللغة الواحدة وهدفه التقاء المصالح الدنيوية، وبذلك استمر هذان الطرفان على اتباع نهجهما كلاهما يحافظ على الآخر فهما يكملان بعضهما البعض ولا تستقيم حياة طرف بدون الطرف الآخر. وقد غاب عنهما أن تحقيق أهدافهما كان على حساب بعض المبادىء والقيم الوطنية التي ظلت مشلولة كما أسلفنا القول في ذلك فقد خضع تاريخ الثورة مثلا لارادة هذه العناصر التي لم تؤمن في حياتها بأن للثورة تاريخا يجب أن يكتب ليس ذلك لشيء إلا لأنها لم تساهم في صنعه - استغفر الله - بل لأنها كانت أداة مسخرة في يد السياسة الاستعمارية عندما كان المحرومون يصنعون هذا التاريخ، فويل لهذه الجماعة اليوم من تاريخ لم تشارك في صنعه وويل للتاريخ من شر هذه الشرذمة التي عملت الكثير على أن لا يرى تاريخ الثورة النور فسجلت في ذلك نجاحا ولكننا نعتقد أنه نجاح إلى حين، ذلك أن تاريخ الثورة سيكتب وسيكون حظه من الكتابة عظيما لأن نار الثورة أحرقت النفوس جميعا ولا بد أن يعبر الكثير من المناضلين والمجاهدين عن مدى تأثير هذا التحريق الذي أصابهم في أموالهم وأنفسهم وما يمت إلى هذه الأموال والأنفس بصلة قريبة أو بعيدة.

وكانت بعض تلك العناصر المناهضة للمجاهدين قد غرها تقلبها في المناصب العليا للدولة حتى بدا لها في أحيان كثيرة أن ما تسنه من قوانين يتقرر بها مصير أولئك المجاهدين، ويتوقف عليها تحسين وضعهم الاجتماعي أو سوء هذا الوضع لن يشملهم ذات يوم ولا يقعون تحت ضرره الشديد من ذلك ما يحكى أن مسؤولا ساميا من هذه الفئة التي أحدثك عنها عندما توفي فإن زوجته (وكانت أجنبية) ذهبت إلى الادارة المالية لتتسلم الدية. وقد كانت دهشتها شديدة عندما استلمت صكا زهيدا في قيمته فما كان من المدير المركزي إلا أن ناولها قرارا كتابيا ما إن قرأته حتى قالت: هذا إمضاء زوجي، فأجابها المدير إجابة اختلجت بها نفسه واعتمل بها قلبه «لعل زوجك عندما أمضى هذا القرار كان يفكر أنه لن ينفذ إلا على البسطاء من المجاهدين».

وإذا كنت تريد أن تعرف شيئا عن حقيقة تلك الطبقة الجاحدة الحاقدة فإني أقول لك: إنها هذه الفئة التي انتحلت جهاد ونضال غيرها. وكان انتحال الجهاد والنضال عملية غير مسؤولة ظهرت في الأيام الأولى للحصول على

الاستقلال. فقد شعر كثير من الجزائريين الذين كانوا يتعاملون مع الاستعمار على الثورة أن الحفاظ على أرواحهم وممتلكاتهم بل وضمان مصيرهم يفرض عليهم أن يتقربوا بكل الوسائل من الثورة وأن يتحببوا إلى بعض رجالها الذين آل أمر البلاد السياسي إلى أيديهم. وبذلك فقد استفادت تلك العناصر المغلوبة الموتورة أيما استفادة من هذه العلاقات المشبوهة التي أصبحت تربطها بالثورة اليوم وكانت بالأمس القريب تربطها بالعدو الذي أباد الشعب وخرب البلاد. وفي الحقيقة فإن تلك الاستفادة كانت متبادلة بين الغالبين والمغلوبين فكما استفاد هؤلاء الأخيرون الحصول على شهادات نضالية مزيفة من الغالبين فقد استفاد بعض الغالبين أيضا منافع مادية أغراهم بها المغلوبون. من هذه المعادلة يمكنني أن أتفق وإياك على أن نعطي آسما معبرا ونهائيا لأفراد هاتين الطائفتين هذا الاسم هو: «الغالبون المغلوبون والمغلوبون الغالبون» الذين كان طمعهم المادي والسياسي قد فتح ثغرة كبيرة في الثورة سيكون لها أسوأ العواقب على مصير هذه الثورة بعد عشريات ثلاث من بدء هذه الاتصالات التي انبنت على المصالح المادية والمنافع السياسية. وإذا كانت تلك الاتصالات بالقياس إلى بعض الغالبين المغلوبين مما لا يعذرون فيه فإنها بالنسبة إلى المغلوبين الغالبين مما يعذرون فيه. وإذا أردت أن أبين لك ذلك فإني أختصره اختصارا شديدا فأقول: إننا إن وجدنا المعاذير للمغلوبين الغالبين فلأنهم قوم لا أخلاق لهم ألم يكونوا منذ وقت قصير يناهضون الثورة ويؤامرون عليها إلى جانب الاستعمار؟. إن قوما هذا هو سلوكهم مع الشعب وهذا هو إخلاصهم وتفانيهم في خدمة الاستعمار لا يرجى منهم إلا مثل هذا التواطؤ الجديد مع البعض من رجال العهد الجديد وسبحان الله فقد وقفوا بالأمس إلى جانب الاستعمار والشعب يعجب من موقفهم هذا ووقفوا اليوم إلى جانب الشعب والاستعمار يعجب من موقفهم الجديد هذا. كل الناس لهم صديق وكل الناس لهم عدو. إذن فأنت توافقني الآن على أن هؤلاء المغلوبين الغالبين يصدق فيهم قول الله سبحانه وتعالى «يريدون أن يامنوكم ويامنوا قومهم» (1) كما أنني أعتقد أنك ستوافقني الآن على أن بعض أولئك الغالبين المغلوبين لا يمكننا أن

(1) سورة النساء، الآية: 91.

نعذرهم ولا أن نتكلف لهم الدفاع عن هذه الشهادات النضالية التي باعوها بأبخس الأثمان المادية لأن لهم عاصما من الأخلاق الدينيه والوطنية يمنعهم عن اقتراف مثل هذا الجرم الأخلاقي فهم عاشوا خلال الثورة مجاهدين يرفعون لواء الشعب عاليا في وجه الاستعمار فكيف يمكنهم اليوم أن يتعاملوا تعاملا دنيئا مع من كانوا يتعاونون مع هذا الاستعمار ؟. حقا إن أوضاعهم المادية كانت متدهورة جدا وإنهم لبثوا في جبلهم سنين بعيدين عن الحياة وزخرفها ولكنهم اليوم أصبحوا سادة البلاد وكان عليهم أن يقطفوا ثمرات النصر في غزة نفس وحفاظ على الأخلاق وترفع عن مخالطة هذه الشرذمة المرفوضة من الشعب ومن العدو على حد سواء؛ ولكن ضعفهم للمال أوقعهم في أخطاء أخلاقية وطنية لن يغفرها لهم التاريخ. إنهم قد انهزموا أمام بريق المال كما انهزم خصومهم بالأمس في انتحال النضال. وبعبارة موجزة فإني أقول : لقد كان للأغراض الدنيوية بصفة عامة تأثير على نفوس الغالبين المغلوبين والمغلوبين الغالبين في انتحال صفة الجهاد بل في هذه السرقة الأخلاقية للأخلاق نفسها وللتاريخ نفسه. على أن نحوا آخر من تأثير تلك الأغراض الدنيوية في نحل الجهاد والنضال وذلك عندما جعلت الثورة صفة الجهاد والنضال ضربة لازب لكل من يرجو ترقية في الوظيفة أو يعلق آمالا على إسناد مهمة ذات بال إليه؛ لذلك كثر التهافت على «سرقة» الجهاد فأصبح الذين لم يكن لهم حظ في ذلك يعملون على شراء بعض الذمم والنفوس الرخيصة بأرخص الأثمان كل ذلك من أجل أن يشهد لهم غيرهم بجهاد منحول أو نضال موضوع. ولذلك فقد كثر هؤلاء المجاهدون والمناضلون المنتحلون والمندسون على حساب المجاهدين والمناضلين الصادقين المخلصين.

وأذكر بهذه المناسبة أن أحدهم سألني ذات يوم : «لقد كثر عدد المجاهدين والمناضلين بعد الاستقلال فماهو تفسيرك لهذا ؟»، «فأجبته : كان عدد المجاهدين والمناضلين قليلا في أثناء الجهاد لأنهم كانوا ينتظرون الثواب من الله. أما بعد الاستقلال فكثر عددهم لأنهم يتقاضون أجرهم على الجهاد والنضال نقدا من وزارة المجاهدين». وكانت تلك الشهادات المزورة قد أساءت إلى الجهاد والنضال فانتقص الناس من قيمة الجهاد والنضال مادام يباع

ويشترى فأنت تستطيع أن تكون «مجاهدا» إذا قدمت شيئا من المال لمن هو في حاجة إلى المال وفي مستوى يؤهله لاضفاء هذه الصفة على غيره.

وفي الحقيقة فإن هؤلاء المجاهدين والمناضلين المزيفين قد أساءوا إلى الجهاد والنضال وأحسنوا إلى هذا الجهاد والنضال في آن معا. وإذا أردت أن أجلو لك هذا الغموض فإني أقول: إن الاساءة إلى الجهاد والنضال هي وضع معايير مادية خاصة تخضع لها هذه الصفة الحميدة التي أخرجتها التضحيات الجسام من أذهان الناس وأفكارهم إلى دنيا الواقع فهي بهذا البعد المعنوي الكبير فاقت كل تصور وسمت عن كل تمثل لها لأنها من صنع الدماء والدموع ولأن الله هو وحده هو الذي يثيب عليها ويزنها بميزانها الصحيح. ولكن قوما انحطت نفوسهم قد أساءوا إلى الجهاد وانتقصوا من النضال عندما اندسوا فيه يريدون تحقيق أهداف دنيوية مشبوهة ذكرنا بعضها في بداية هذا الحديث.

وأما الاحسان إلى ذلك الجهاد والنضال فإنه يتمثل في هذا الاعتراف الفعلي بالنهج القويم لهذا الجهاد والنضال الذي سارع أولئك المغلوبون الغالبون يريدون أن يستأثروا به من دون غيرهم حتى زحموا المجاهدين الحقيقيين في كثير من حقوقهم التيَ فرضها لهم القانون.

وقد واصل الكثير من أولئك «المنضمين» أداء «نضالهم وجهادهم» منبثين في أجهزة الدولة كلها حتى أنهم كانوا هم الذين - أو البعض منهم على الأقل - قد شكلوا النواة الأولى لانشاء وتكوين بعض القطاعات الحيوية في البلاد يسترشدون في ذلك ببعض الخبراء الفرنسيين أو قل إنهم كانوا مساعدين لأولئك الخبراء الفرنسيين، وليس يخفى عليك ما سينجر عن هذا التعايش بين الطرفين من آثار فكرية وسلوكية سيكون لها نتائجها العكسية على البلاد في مستقبل أيامها ولو كانت هذه الأيام مسرفة في الطول.

وهكذا يمكنك أن تتحدث عن مجالات أخرى في الحياة اليومية التي شكل هذا العنصر الغريب بأفكاره رافدا من روافدها التي تزودها بنمط معين من الحياة أشبه ما يكون بالسوس ينخر العظام وكذلك آلت حياتنا بعد ثلاثين عاما من هذه الشعوبية السياسية أو هذه الانتحالات الجهادية والنضالية وهذه

الانضمامات غير المراقبة في صفوف الثورة التي ظلت تعاني الكثير من المصاعب والمتاعب.

وليس يفوتني أن أجلب انتباهك إلى أن المجاهدين الذين كانوا داخل التراب الوطني بصفة خاصة لم يكونوا منظمين تنظيما دقيقا في ظروفهم وأحوالهم كلها. وقد كانت تلك الظروف والأحوال ذاتها هي التي تفرض عليهم شيئا من هذا التهاون والاهمال. فقد كان مما عرفناه عن أولئك المجاهدين داخل تراب الجزائر أن البعض منهم كانوا يحملون معهم دفاتر رسمية باسم الثورة عليها ختم هذه الثورة. وقد ضاع الكثير من تلك الدفاتر فوقعت في أيدي البعض الذي استعملها فكتب عليها شهادات تؤكد نضاله وانتسابه إلى الثورة، وقد كان ذلك سهلا مادامت تلك الدفاتر ليس عليها كتابات أخرى إذ يكفي أن يكتب عليها الشخص ما يريد ويوقع عليها توقيعا منتحلا على صفة جهادية أو نضالية منتحلة كذلك وبذلك عرفت الثورة في بداية الاستقلال هذا الانتحال في النضال والشعوبية السياسية التي تستهدف الرفع من قيمة من لا قيمة تاريخية لهم والحط من قيمة من لهم قيمة أي قيمة في ذلك.

وعلينا أخيرا أن لا ننسى أن بعض المسؤولين السامين في الدولة كانوا يتحصلون على هذه الصفة الجهادية والنضالية بحكم وظائفهم الكبيرة إذ يعطون تلك الصفة لتكتمل لهم بذلك شخصيتهم التي توافر لها المنصب الكبير والجاه العريض والمال الوفير ولكنها أصبحت لا ينقصها إلا هذا النضال الذي لم تناضله فلا عليها إذن أن تصرف الأوامر العلية إلى الجهات المعنية بتقديم شهادات نضالية رسمية لها يتقبلها بعضها متأففا غير آبه بذلك ولا مكترث بأهميته.

وبذلك تكونت أرستقراطية سياسية ممتازة في البلاد هي خليط من هؤلاء المناضلين والمجاهدين الملتزمين من جهة ومن الانتفاعيين الوصوليين من جهة أخرى.

وإذا كان للطائفة الأولى ما يسوغ أهليتها لتلك الأرستقراطية السياسية من الناحية الشرعية التاريخية لأنها تعد بحق - أي الطائفة الأولى - مكسبا ثوريا قدم أولئك المجاهدون والمناضلون الكثير من التضحيات ليؤثروا به أنفسهم بل ليؤثروا به الوطن والشعب - فإن الطائفة الثانية قد كذبت على نفسها وعلى

التاريخ لتدخل في التاريخ من بابه الضيق على أنها لا يقتصر أمرها عند هذا الحد فإننا سرعان ما نراها تعمل على إيجاد أجواء سياسية ملتهبة بين أولئك المجاهدين والمناضلين لم يستفد من إلهابها إلا أفراد تلك الطائفة المغلوبة الغالبة التي أصبحت السلطة السياسية النافذة تكاد تكون بأيديها وحدها. ذلك أن الخصومات السياسية التي كانت تقع بين المجاهدين والمناضلين قد جعلت البعض من هؤلاء يستعينون بتلك العناصر المندسة على البعض الآخر. وبذلك تحولت تلك العناصر الذليلة سياسيا الخائنة جهاديا ونضاليا إلى قوة معنوية وحتى مادية لها كلمتها النافذة على المجاهدين والمناضلين البسطاء مادامت مدعومة من الطبقة الحاكمة التي تستعديها على بعض خصومها السياسيين رفقاء الجهاد والنضال بالأمس القريب.

وإذا كنت قد ذكرت في أول هذا الحديث بعض الأسباب الانتفاعية التي أدت بالبعض إلى التحلي بهذه الشعوبية السياسية فإني قد نسيت بعضها الآخر ـ وما أنسانيه إلا شيطان هؤلاء المنتحلين ـ ولذلك فإني أقول مرة أخرى: إن البلاد لم تكد تتحصل على استقلالها وتسترجع سيادتها حتى أصبح الناس يتباهون بجهادهم ونضالهم ويفاخرون بذلك كل من لم يكن لهم مشاركة فيه. وقد شكل هذا التفاخر نحوا جديدا من أنحاء تأثير العصبية القبلية في نحل صفة الجهاد والنضال قصد به البعض إلى تكميل نقصه في ذلك، وإلى محاولة إضفاء هذه الصفة المنحولة على عدد من الأشخاص ليكثر بذلك عدد مجاهدي ومناضلي هذه القبيلة أو تلك. فنحن نعرف أن البعض من الناس قد اتخذوا النضال والجهاد الموضوع والمنحول وسيلة سياسية تستهدف الحط أو الرفع من شأن هذه القبيلة أو تلك، ولكنه ـ على كل حال ـ حط كاذب ورفع منتحل ومتكلف مادام يقوم أساسا على الكذب السياسي والأخلاقي الذي لا يتورع أصحابه عن بيع الذمم والنفوس بالعرض الزائل في الحياة الدنيا.

ونحو آخر من أنحاء تأثير العصبية القبلية في الانتحال السياسي وذلك عندما ظهرت فكرة الانتخابات البلدية والولائية والوطنية فقد شجعت هذه الظاهرة السياسية الجديدة فكرة سرقة صفة الجهاد والنضال تشجيعا غريبا فأنت تعلم شدة تنافس الناس في عملية الانتخابات خاصة إذا كانت حياتهم تقوم أساسا

على العصبية القبلية وأن هذه القبيلة أصبحت في أشد الحاجة إلى وجوب إبراز رجال من صفوفها لكي تقدمهم إلى معركة الانتخابات التي لا يخوضها إلا من نص القانون الانتخابي للبلاد على أنه مجاهد أو مناضل وأن ماضيه مشرف في ذلك. إذن فعلى كل قبيلة لا تتوافر على مناضلين مشهود لهم بالنضال أن تتدبر لنفسها رجالا من هذا الطراز تنتحل لهم صفة النضال والجهاد لكي تنافس بهم غيرها من القبائل التي لا تحتاج إلى انتحال فكرة النضال والجهاد لخوض غمار تلك الانتخابات.

ولا بأس على أولئك الرجال المزيفين إن كانوا بالأمس من المتعاونين مع العدو، ذلك أن اصطناع صفة الجهاد والنضال للواحد منهم لا يكلفه إلا السعي إلى هذا المسؤول أو ذاك ليبيعه ورقة النضال ويشهد له بالجهاد كل ذلك حسن ومقبول مادام الطرفان سيستفيد كلاهما من الآخر: هذا يصبح مناضلا أو مجاهدا ليفوز بعد ذلك في الانتخابات، وذلك يحصل على المال ويتمتع بالسلطة المعنوية على رقاب أولئك الذين شهد لهم زورا وبهتانا أنهم ثوريون صادقون في نضالهم وثوريتهم.

ونحو آخر من أنحاء هذا التأثير المفتعل في نحل الجهاد والنضال وهو هذا القانون المستحدث الذي بدئ في تنفيذه عام 1968 م والقاضي بوجوب أداء «الخدمة الوطنية» على كل شاب جزائري يتوافر على الشروط التي يحددها القانون. فقد كان لمحاولة البعض من التهرب من أداء هذا الواجب الوطني أثره الكبير هو الآخر في انتحال صفة الجهاد والنضال إذ كان من حق المجاهدين والمناضلين أن يعفوا من هذا الالتزام بحكم القانون.

من هنا بدأ الشباب المطالبون بخدمة العلم الوطني يتكلفون صفة الجهاد والنضال ويبذلون في ذلك الأموال السخية بهدف الحصول على ذلك الانتحال الذي يخلصهم مما ليس لهم بد من خلاصه إلا إذا تحصلوا على هذه الشهادات المزورة والموضوعة.

ولعلك تحمل هذا الكلام محمل الشك فتتهمني بالتزيد وعدم التثبت في تقديم الحقائق، ولكني أطمئنك إلى أني لا أتزيد عليك فقد بلوت هذه الحقيقة بنفسي وعشت مرارتها مع البعض من هؤلاء الذين أحدثك عنهم حديث

العارف بحقيقتهم في ذلك. فقد ادعى بعضهم أنه كان مناضلا يعمل لمصلحة الثورة والحال أن عمره في أثناء هذه الثورة كان لا يتجاوز الثانية عشر من عمره، وأمثال هذا كثيرون ممن يريدون أن ينتسبوا إلى الثورة لأن مصالحهم المادية والشخصية تدفعهم إلى ذلك دفعا قويا.

ولكني لا أريد أن أنتهي من هذا الموضوع أو أخلص منه قبل أن أخوض في نوع آخر من التأثير على انتحال صفتي الجهاد والنضال لعله يكون أعظم تلك التأثيرات كلها، وأشدها خطرا وأبعدها إيغالا في نفوس المجاهدين والمناضلين الخلص وأعني بذلك هذه الحشود والجماعات التي انضمت إلى الثورة بعد الاستقلال مباشرة فأنت تعلم أن فرنسا قد شكلت قوة عسكرية من الجزائريين سمتها «القوة المحلية» أو «القوة الثالثة» وذلك بعد إمضاء اتفاقيات «إيفيان» مباشرة، وكان الهدف من تلك القوة هو ضمان سير الحياة اليومية سيرا عاديا في المرحلة الانتقالية التي تبدأ من تنفيذ تلك الاتفاقيات وتنتهي عند الاعلان عن استقلال الجزائر عن فرنسا.

وقد شهدت الأيام الأولى لاسترجاع الاستقلال انضمام أعداد غفيرة من أفراد تلك القوة إلى صفوف الثورة كانوا بين مقبول في صفوفها وبين مرفوض، ولعل شيئا من العصبية القبلية - التي أصبحت لا تريد سماعها بعد هذا الذي حدثتك عنه بشأنها - قد كان له دور في قبول البعض ورد البعض الآخر منهم؛ ذلك أن الشخص المنضم الذي كان له من يساعده في ذلك أصبح واحدا من المجاهدين، وأن من لم يجد من يساعده في ذلك راح يقتنص من يعضده ويساعده في تجنيده الفعلي داخل صفوف وحدات جيش التحرير الوطني وبذلك فإنه يصبح على الفور مجاهدا له ما للمجاهدين الحقيقيين وعليه ما عليهم.

فأنت ترى بعد هذا العرض الطويل أن تبادل المصالح المادية والشخصية قد ربط بين هذين الطرفين اللذين لا جامع بينهما إلا تبادل تلك المصالح ربطا غريبا يخفي في طياته عزا للأذلاء وذلا للأعزاء، فما إن يطلع علينا عام 1991 م حتى تتفتح هذه الصفحات السود عن العز الذليل، والذل العزيز. عندئذ يصبح المجاهدون والمناضلون مجرد نظارة على خشبة المسرح يشاهدون أداء دور جديد قديم إن كانوا صنعوه بالأمس بجهادهم فقد أضاعوه اليوم بعنادهم.

من ينصف المجاهدين ؟

سأرهقك اليوم من أمرك عسرا يا ولدي فأحدثك حديثا تكرهه النفس ولكنها لا تكاد تميل إليه حتى تجد فيه لذة ومسرة، عندئذ تطلب الشهادة في سبيله لأنه سبيلها الوحيد إلى رضا الله عنها. وهذا الموضوع الذي ألوح به إليك هو الجهاد بالنفس في سبيل الله

وقد حملني شهر نوفمبر على أن أختار لك الحديث فيه عن الجهاد لأنه شهر أراده الله للشعب الجزائري أن يكون رمزا لتضحياته الجسام وجهاده الطويل الشاق والمرير.

وقد خاض المجاهدون الجزائريون غمار الجهاد كأعنف وأشد ما يكون الخوض في ذلك والاغراق حتى الأذقان فيه فمن أولئك المجاهدين من استشهد ومنهم من ينتظر. أما الذين استشهدوا منهم فقد قضوا نحبهم ظاهريا بدليل أن الله سبحانه وتعالى يقول عنهم «قتلوا»، ولكن أرواحهم حية عند الله حياة خاصة يفيض عليها من نعيمه ويشملها برزقه مما هو ملائم لطبيعة تلك الحياة التي لا يعلم حقيقتها إلا هو.

ولست أحدثك عن فرحة هذه الطائفة من الشهداء بسبب ما أتاهم الله من فضله إذ هداهم إلى النهوض بفريضة الجهاد في الدنيا ليثيبهم عليها في الحياة الآخرة. إنهم فرحون مسرورون بمقامهم المحمود عند الله من ناحية ومستبشرون بإخوانهم المجاهدين الذين تركوهم من بعدهم يؤدون رسالة الجهاد فيهلكون العدو لكي يحققوا النصر بذلك.

وقد منح الله أرواح الشهداء الكشف (1) عن أحوال إخوانهم المجاهدين في الحياة الدنيا وهذا الكشف ثابت لجميع الشهداء في سبيل الله وبذلك يمكننا

---

(1) بنعاشور، الطاهر، التحرير والتنوير، تونس : الدار التونسية للنشر. ج، 4 ـ 1984، ص 166.

أن نقول : إن الشهداء الجزائريين أطلعهم الله على النصر الذي حققه إخوانهم المجاهدون من بعدهم وألهمهم الكشف على النتائج الباهرة التي تكلل بها قهرهم للأعداء.

من هنا نستخلص أن الشهداء في الثورة الجزائرية قد جعل لهم ثلاث مسرات عند الله واحدة باستشهادهم، وأخرى ببقاء إخوانهم من بعدهم يواصلون شعيرة الجهاد وثالثة بهذا النصر العظيم الذي حققه رفقاؤهم على أعدائهم.

وإذا كان المجاهدون الشهداء يحيون عند الله حياة فيها سعادة أرواحهم واستبشار بذلك فما هي حقيقة الحياة التي يحياها المجاهدون الأحياء أي الذين لم يستشهدوا ولم يلتحقوا بربهم إنما التحقوا بالشعب قدموا بين يديه ثمن جهاده أعني بذلك تحقيقهم للنصر واسترجاعهم الحرية والاستقلال.

وإذا كان المجاهدون الأحياء وعدهم الله بالنصر الكبير فعجله لهم وكف أيدي الكافرين عنهم فإنهم يعانون اليوم نتائج عكسية لهذا النصر المؤزر الذي افتكوه من العدو بحد السلاح. أليست هذه الآلام النفسانية التي تتسبب لهم فيها بعض الفئات الاجتماعية ممن لم يكن لهم شرف صنع ذلك النصر دليلا صادقا على صحة ما تمارسه تلك الفئات من عنت وإرهاق تريد من ورائه تعكير صفو حياة المجاهدين ؟ إن هؤلاء الأخيرين يتهمهم البعض من الحاقدين والناقمين عليهم والحاسدين لهم لا لشيء إلا لأنهم مجاهدون فضلهم الله على غيرهم بهذه الصفة الحميدة قال تعالى : «ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض» (1).

ولأجل ذلك فقد عاشت الكثرة الكاثرة من المجاهدين عيشة غير راضية ولا مطمئنة كل هذا بسبب ما تلقاه من هذه النفوس الدنسة التي لم يرقها أن تعترف بالفضل لأهله ولم ترع لذوي المزية ما لها من حقوق مادية ومعنوية على المجتمع، هذه الحقوق التي اعترف بها الدين ودعا إليها. ونحن إذا رجعنا إلى كتب السير نجدها طافحة خاصة بهذه الاعترافات التي تستهدف رعي الفضيلة

---

(1) سورة النساء، الآية : 32.

لأصحابها ألم يحدثنا القرآن الكريم عن هؤلاء البدريين الذين صدرت عنهم بعض الأخطاء ولكن سابقتهم في معركة بدر شفعت لهم في تلك الأخطاء حتى أن رسول الله ﷺ يقول لعمر بن الخطاب وقد هم أن يقطع عنق حاطب بن أبي بلتعة في قصته المشهورة : «إصنعوا آل بدر ما شئتم فإن الله غفر لكم». وحتى أن مسطحا وهو ممن حضروا بدرا ولكنه خاض في حديث الافك على عائشة نزل فيه قوله تعالى : «ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى واليتامي والمساكين والمهاجرين» (1). إن هذين الموقفين من القرآن والسنة يشهدان أن لأهل بدر مكانة اجتماعية ميزهم الله بها عن غيرهم من الناس لأن لهم الفضل على سائر الناس بسبب ما حققوا من النصر فكان أولى بهم أن ينالوا هذه الحظوة في الدنيا رعيا لمزيتهم وفضلهم.

وإذا كان المجتمع الاسلامي الأول قد اعترف لهذه الفئة بمالها من أياد وأفضال عليه فإن بعض الطبقات في مجتمعنا اليوم يسوؤها أن يتمتع المجاهدون بهذه الصفة التي أصبحت غالبة عليهم ويعرفون بها من دون سواهم.

وإذا سألتني عن هذا التنافر والتباغض بين المجاهدين وتلك الفئة المندسة فإني أقول لك : إن الغيرة والحسد هما السبب الرئيس في هذه الخصومة النفسانية التي لا تعرف هوادة ولا تخمد نارها إلا لتشب من جديد فقد نفس قوم على المجاهدين أن يختصهم الله بشرف الانتساب إلى عالم الجهاد وتتويج هذا الجهاد بالنصر الذي لم تشاركهم في صنعه تلك الفئة المحرومة المتعاونة مع العدو.

وذلك الحسد الذي أشرت إليه في هذا الفصل القصير هو عينه الذي ينتشر داؤه حتى بين بعض المجاهدين أنفسم ولكنه في هؤلاء مادي أكثر منه معنوي كما هو الحال بالقياس إلى أولئك فأنت تعلم أن بعض المجاهدين يتحاسدون على ما أتى الله البعض منهم من فضل دون البعض الآخر كأني بهم قد نسوا هذه الآية القرآنية الكريمة «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله» (٢).

---

(1) سورة النور، الآية : 22.

(2) سورة النساء، الآية : 54.

وإذا كان هؤلاء المجاهدون يرون ـ مخطئين ـ أن إثراء البعض منهم كان على حساب الكثرة الكاثرة منهم فإن هذه النظرة لا تستقيم لأنها لا تستند في أساسها إلى أي دليل شرعي أو منطقي تقوم عليه.

حقا إن المجاهدين كانوا بالأمس القريب لا يملكون من حطام الدنيا شيئا إلا سلاحهم الذي يواجهون به العدو أو انتظارهم الشهادة في سبيل الله بين الثانية والأخرى. والسؤال الذي يحيرهم اليوم هو الآتي: من أين لهذا بالمال العريض ولذلك بالجاه الوجيه ما دام وضعهم المادي كما وصفت لك في أثناء الثورة؟ وللاجابة عن ذلك نقول: إن الوضع الاجتماعي المادي الجديد المتميز بين المجاهدين الذي يتمثل في ثراء بعضهم ليس وضعا غريبا ولا يدعو إلى إلقاء كثير من الأسئلة. فنحن إذا استقصينا كتب السير وجدنا فيها كثيرا من هذه المشكلات المعضلات ووجدنا فيها الحل لهذه المشكلات المعضلات فقد قال خباب بن الأرت: «هاجرنا مع النبي ﷺ نلتمس وجه الله فوقع أجرنا على الله فمنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها (1) ومنا من مات لم يأكل من أجره شيئا منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أحد فلم نجد له ما نكفنه إلا بردة». وفي رواية أخرى إذا غطينا بها رأسه بانت رجلاه، وإذا غطينا بها رجليه بان رأسه.

وكان عمر بن الخطاب عندما يقسم المغانم على أصحابها يقول: «هذا ما وعدك ربك في الدنيا وما ذخر لك في الآخرة خير وأبقى». إن هذا الشاهد يدل على أن المجاهدين يشتركون في الأجر عند الله ويتساوون في مبدإه لا في مراتبه التي تختلف من شخص إلى آخر فقد قال الله سبحانه وتعالى: «لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى» (2). ولكن المجاهدين يختلفون فيما عدا ذلك من متاع الدنيا فأنت إن كنت تجد فيهم الغنى الموسر «فمنا من أينعت له ثمرته فهو يهد بها» فإنك ملاق فيهم أيضا الفقير المعسر الذي لا يتوافر على شيء من زخرف الحياة الدنيا إلا ما ينتظره من ثواب عند الله «ومنا من مات لم يأكل من أجره شيئا، منهم مصعب بن عمير. فلم نجد له ما نكفنه إلا بردة».

---

(1) يهدبها بمعنى: يجتنيها.

(2) سورة الحديد، الآية: 10.

حقا إن النظرة المجردة للأشياء توحي بالشك وتدعو إلى إلقاء مثل هذا السؤال : مادام المجاهدون قد سوت بينهم ظروف الجهاد في الرزق فلم لا تشملهم اليوم مثل تلك التسوية العادلة ؟ أليس بعضهم يتوافر على الكثير من أسباب الرزق في حين أن السواد الأعظم منهم لا يزالون يعانون الفقر بل ويلقون كثيرا من المذلة والاهانة في مجتمع أصلحوا الكثير من أمره وكان حريا به ـ أي المجتمع ـ أن يرعى لهم حقهم الذي صنعوه لأنفسهم ولشعبهم.

إننا لا ننكر أن بعض المجاهدين لم يجمعوا المال ولم يعددوه ولكننا ننكر بقوة أن يتهموا كلهم أجمعون بجمع المال وتعديده. فالقليل ممن استغنى منهم والكثرة الكاثرة ممن شحّ الدهر عليهم كانت السياسة من ورائهم بمكرها وخداعها. أما من استغنى منهم فلأن الحكم أراد أن يستغني عنهم وعن مواصلة نشاطهم في النضال فأبدلهم المال عوضا عن النضال وهؤلاء هم الذين كانوا ينافسون السلطان أو كان السلطان يظن أنهم كانوا ينافسونه في الوصول إلى السلطة. وأما من ظل منهم على فقره أو عاش عيشة الكفاف في أحسن الأحوال فقد عملت الادارة العمومية المتعفنة والموروثة عن العهد الاستعماري فعلتها المنكرة في حقه فهي لم تعدل في سن القوانين التي تكفل لهم حياة اجتماعية كريمة. وهؤلاء يمثلون الغالبية التي لا تأنس من نفسها الوصول إلى الحكم بقدر ما تتمنى تحقيق عيش رغد يحفظ على أفرادها سمعتهم وماضيهم النضالي المجيد ولكن أني لهم الحصول على ذلك في ظل قوانين يصدرها خصومهم السياسيون ممن تخرجوا في مدرسة الاستعمار.

إن على المجاهدين أن يقوّموا أوضاعهم الاجتماعية التي يعيشون فيها اليوم انطلاقا من الواقع الذي كانوا يتخبطون فيه خلال الثورة المسلحة فقد كانوا في هذه المرحلة يحيون حياة تخضع لمعايير خاصة تتحكم فيها الأخلاق الثورية النبيلة المبنية على كثير من المفاهيم الدينية والوطنية الصحيحة فانطبق ذلك على سلوكهم اليومي الذي جاء معبرا بصدق عن تأثرهم بتلك المفاهيم فعاشوا عيشة راضية أبرز ما يميزها التحلي بالصفات الحميدة فالأمانة، والأخوة، والايثار، والاخلاص وطلب الشهادة إلى غير ذلك من هذه الخلال الحميدة التي

لا تزيد المتصف بها إلا قربا من الله وبعدا عن التعلق بطلب الوسائل المفضية إلى الاغراق في الحياة المادية. قد كان لها كلها انعكاس على نمط معيشتهم التي كانت تفرض عليهم كثيرا من شظف العيش وغلظ الحياة وتلزمهم التقيد بقيود في الحياة لا قبل لهم بها قبل ذلك. كل ذلك لأن الثورة تتطلب منهم أن يكونوا على هذا الالتزام الذي وصفته لك والذي سيؤثر في نفوسهم تأثيرا بالغا فيعزفون عن مظاهر الحياة ويعرضون عن زخافها.

وعندما استقلت البلاد فقد وجد أولئك المجاهدون أنفسهم في أشد حالات الفقر سوءا خاصة إذا علمت أن الكثيرين منهم كانوا أرباب عائلات لم تجد أسرهم مأوى تأوي إليه أو مسكنا يظلها. هذا إذا لم أحدثك عن حاجتهم اليومية إلى الطعام وأبسط ضرورات الحياة لذلك كله وجد المجاهدون أنفسهم في هذه المرحلة السعيدة الحزينة بعد الاستقلال مباشرة أمام صعوبات مادية كانت الثورة قد تكفلت بها خلال سنواتها السبع الشداد.

وإذا كان لكل أجل كتاب فقد جاء الأجل بوضع حد لهذه التضحيات التي أثقلت كاهل المجاهدين والمناضلين سنوات طوالا فأخذوا بعد الحصول على الاستقلال يبحثون عما يقيم أودهم ويعوضون به عن حياتهم الماضية التي خرجوا منها وهم لا يملكون من المال قليلا أو كثيرا ليجابهوا به متطلبات حياتهم الجديدة التي أصبحت الثورة لا تتكفل بها كما كانت تفعل ذلك خلال الكفاح المسلح.

من هنا كان حتما على هؤلاء المجاهدين أن يتدبروا أمرهم لاصلاح ما أفسدته الأيام وعطلته شؤون الثورة العامة من شؤون حياتهم الخاصة فتعطى كل ذي حق حقه من هذه الغنائم التي تركها الأوربيون بعد أن غادروا البلاد فتوزع المساكن على المستحقين وتتولى تقويم هذا الارث الكبير على من هم في حاجة إليه ولكن الثورة لم تفعل ذلك لأنها كانت منقسمة على نفسها تطغى عليها الخلافات ويتسابق رجالها إلى مراكز السلطة عقب الحصول على الاستقلال مباشرة.

إن مصادر ثروة البعض من المجاهدين يمكن حصرها فيما يأتي :

1 ـ موارد مالية تابعة للثورة كنزها البعض ولم ينفقوها على الثورة أي أنها أموال مختلسة أو مغلولة قال الله تعالى : «ومن يغلل يات بما غل يوم

القيامة» (1). وقال: «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم» (2). ويمكن أن نضيف إلى هذا الصنف من الأموال المغلولة والمكنوزة صنفا آخر من أموال الرشاوي والعمولات التي ظهرت بعد الاستقلال وهي بحق ما يمكننا أن نسميه بـ «الأموال الوسخة» التي كانت ثمرة الابتزاز وامتصاص دماء الفقراء وأكل أموال الناس بالباطل والادلاء بها إلى الحكام. قال تعالى: «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام» (3).

إن الناس يتحدثون اليوم عن الرشوة والاختلاس كظاهرة اجتماعية أخلاقية طارئة على المجتمع الجزائري؛ على أنك إذا أردت أن تعرف الأسباب الحقيقية لهذه الظاهرة الغريبة فلا تأخذك الدهشة إذا علمت أن السياسة كانت من وراء ذلك في هذه المرة أيضا وللتدليل على ذلك أقول: إن السلطة الحاكمة تريد دائما أن تحكم وحدها لا ينازعها في ذلك غيرها ولكي تنفرد هذه السلطة بالحكم فإن عليها أن تتخلص من منافسيها السياسيين بطرق ملتوية ووسائل متنوعة ومختلفة من ذلك مثلا أنها ترخى العنان للراشي والمختلس فلا تردعهما لكي يستزيدا من ذلك. فإذا فعلا سكتت عنهما حتى إذا انتشر أمرهما في الناس وعُرفا بذلك لدى العام والخاص كان له من ذلك لجام يلجمه ورادع يرعده فإذا حاول أن يتدخل في شؤون الحكم بما لا يرضي الحكم أوتي كتابه بشماله. عندئذ يسكت ولا يتكلم بل إنه يتمادى في اقتراف جرائم اقتصادية أشد نكرا وأفظع هولا ما دامت أهدافه السياسية لن تتحقق ووصوله إلى مركز القرار لن يرى النور، وعن طريق هذا الأسلوب السياسي المتعفن أثرى البعض من مختلف طبقات المجتمع فعمت الرشوة وانتشر اختلاس أموال الدولة بل أصبح ذلك منهجا متبعا لدى البعض ممن لا أخلاق لهم ولا ضمير ولا وازع لهم من دين.

وقد كان إسناد المناصب العليا في الدولة إلى غير أهلها قد شجع البعض من هؤلاء على الانغماس في الملذات التي جرتهم إلى استعمال شتى الحيل قصد

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 161.
(2) سورة التوبة، الآية: 24.
(3) سورة البقرة، الآية: 188.

الحصول على المال الذي استنزفوه في إرضاء شهواتهم بدل أن ينفقوه في تحقيق المشاريع الوطنية.

فأنت ترى أننا لا ننكر البعض من الحقائق التي شوهت سمعة البلاد ولكننا ننكر بشدة أن يتهم المجاهدون كلهم أجمعون بإتيان مثل هذه الأعمال المنكرة. إن المجتمع ألصق تهمة هذه الفضائح الأخلاقية والاقتصادية بمجموع المجاهدين فظهرت هذه الأفكار التي تروج لها أبواق تتهم هذه الطائفة من المجاهدين كلهم بأنهم هم الذين أفلسوا الدولة باختلاس أموالها وإغراقها في الديون التي أثقلت كاهلها وجعلتها رهانا مقبوضة أو كالمقبوضة. ولكن عموم المجاهدين برآء من تلك التهم وإن اتهمت بها طائفة قليلة منهم. عليها أن تتحمل مسؤوليتها الأخلاقية أمام الله وأمام التاريخ.

«أهليــة» للاستعمار لا قابلية للاستعمار

لست أشك في أن المعنى الصحيح للكلام لا يؤديه إلا اللفظ الصحيح، وذلك يعني أن اللفظ والمعنى مكملان لبعضهما البعض فلا يستقيم كلام عبر عنه لفظ لا يؤدي معناه أداء دقيقا. عندئذ تفقد الكلمات معانيها لأن أداة التعبير ليست من جنس المعنى فيفسد هذا الأخير بسبب انعدام الرابطة القوية بينه وبين اللفظ الذي اختاره الكاتب للتعبير عن المعنى المتوخى من الكلام.

أسوق هذا الحديث على إثر ملاحظة أبديتها مرارا لبعض الاخوان في بعض المناسبات الخاصة والعامة عما جاء في بعض كتابات المرحوم «مالك بنبي» فأولئك يستشهدون دائما بمقولة معروفة للأستاذ الفقيد كلما دافعوا عنها بحرارة ازددت مرارة إلى مرارة، وقلت في نفسي: لماذا لم ينتبه القوم إلى هذه الغلطة اللغوية الفادحة التي طلعت علينا بهذه الصورة الكالحة؟ هل يرجع ذلك إلى قصورهم في اللغة، وعجزهم عن التفطن لهذا التناقض الكبير الذي لا ينفكون يتحدثون عنه ونفوسهم راضية وقلوبهم مطمئنة.

والبعض من أولئك الاخوان يتورطون في خطإ جسيم عندما يظنون أن الكلام الذي يدلون به إلى الناس على جانب كبير من الصحة والاستقامة. وهم عندما لا يحاولون أن يوفقوا بين ما يقولون من كلام وبين المعنى الذي يدل عليه هذا الكلام فإنهم يقعون في المنكر من القول لأنهم لم يبحثوا عن العلاقة بين المعنى واللفظ فجاء بذلك كلامهم غير مستقيم ودل على ثغرة كبيرة يجب سدها، وفجوة يجب غلقها.

وكنا كلما دخلنا في جدال مع المدافعين عن فكر أستاذنا المرحوم لم ينكروا

علينا رأينا، وإنما كانوا يرون مثل ما نرى ويذهبون فيه المذهب الذي نذهبه، حتى أن بعضهم يصرح بصحة هذا الرأي ويدعو الناس إلى تبنيه ولا يستطيع أن ينكره لأنه لا ينكر ولا أن يجحده لأنه لا يجحد لا لشيء إلا لأنه يقرر حقيقة كبرى تنهض عليها حياة الشعوب ولا تستقيم حياتها إذا لم تكن جزءا من حياتها تلك.

وإذا كنت تريد أن تعرف طبيعة هذا الجدال الذي طال الحديث بشأنه فإني أوضحه لك على الصورة التي سمعتها عليه أكثر من مرة وهي ترديد أولئك الاخوان لهذه الجملة القصيرة التي تنطق بها ألسنتهم كثيرا وهي قولهم عن مالك رحمه الله : «قابلية الشعوب للاستعمار».

إنني كلما سمعت هذه الكلمة تملكتني حيرة شديدة اضطربت لها نفسي وأصابني ما يشبه الخبال، وسرحت في عالم الخيال أتعجب من هؤلاء الذين لا يتمعنون فيما يعنون ولا يعملون فكرهم فيما يقولون. ألست معي في أنهم عندما يصرحون بتلك الجملة فإن أول ما يتبادر إلى الذهن هو أن الشعوب أو بعض هذه الشعوب على الأقل قابلة للاستعمار، ولست أدري في أي كتب التاريخ قرأ هؤلاء عن هذه الشعوب التي تقبل الاستعمار ولا ترفضه وترحب به ولا تطرده، وتستضيفه ولا تضيق به. وما لنا نذهب بعيدا وحياة الأفراد مثال حي على هذا الرفض فلا يمكن أي واحد ممن خلق الله أن يرضى بغيره يغتصب أرضه وينتزع منه حقه وهو قادر على دفع هذا الشر ودرإ (1) العدوان عليه. وإذا أظهر شيئا من الرضوخ لسياسة الأمر الواقع فإنما ذلك إلى حين يتحين فيه الفرصة المؤاتية للدفاع من جديد عن حقه الذي أخذ منه بالقوة.

إن الأفراد والجماعات ليست قابلة بطبعها لتسلط غيرها عليها فنحن نعلم أن من الغرائز التي أودعها الله في الانسان صفة الدفاع عن النفس التي يشترك فيها الانسان والحيوان على السواء وبذلك ينتفى أن يكون في النفس البشرية هذه القابلية للاستعمار والاستغلال والاستذلال التي يتحدث عنها من يتبنون أفكار مالك رحمه الله.

---

(1) الدرأ بمعنى : الدفع.

إنني أعتقد أن المعنى الذي قصد إليه المفكر العبقري هو معنى صحيح كما أنني أو من أن هذا المعنى الذي كتبه صاحبه باللغة الفرنسية لم ينقل إلى اللغة العربية نقلا سليما ولذلك فإن المسؤولية المعنوية لهذه الجملة القاصرة والقصيرة إنما يتحملها المترجم ويتبرأ منها المؤلف. فقد قصد هذا الأخير إلى حقيقة تاريخية لا يمكن إنكارها أو جحدها وهو هذا الضعف العام الذي تمر به الشعوب فلا يكاد يسلم منه أي منها. عندئذ تصبح عرضة لأن يستعمرها شعب أقوى منها، فلا تلبث أن تتصدى له بالدفاع عن نفسها فإن هي ردته على أعقابه كان ذلك متماشيا مع حقيقتها في رفض تسلطه عليها وإن هي استكانت له فإنما ذلك بسبب تغلبه المادي القوي عليها، ولكنها لا تلبث أن تثور عليه كلما ساعدتها الفرصة في ذلك. ويبقى هذا طبعا من طباعها إلى أن تحقق النصر النهائي عليه.

وذلك الضعف الذي يدب في حياة بعض الشعوب هو نتيجة حتمية لتقاعسها عن العمل، وتفريطها في امتلاك الوسائل الضامنة للحفاظ على سيادتها، وانطوائها على نفسها التي تجمد فلا تتطور بتطور الزمان فتتخلف بعد تقدم، وتضعف بعد قوة، وتتفرق بعد توحد كل ذلك لأنها خالفت عن مبدإ إعداد القوة وترقب الشر ودرإ أسباب الضر.

وهذا الوضع الذي يؤول إليه أمر تلك الشعوب التي تفقد وعيها بذاتها في بعض مراحل تاريخ حياتها هو مطابق وموافق تماما لقوله تعالى: «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم» (1).

فقد أفادت هذه الآية أن ما يصيب الانسان في الحياة الدنيا من مصائب ومتاعب إنما هو من كسب يديه وهي هذه الحالة عينها التي يمكننا أن نمثل بها مسيرة بعض الشعوب عندما تصيبها مصيبة الاستعمار فيتسلط عليها. إن هذا ناتج من تفريط هذه الشعوب، وهوان أمرها وخلودها إلى الراحة والكسل والحياة التي تبعث على الملل وليس ناتجا من كونها ميالة بطبعها إلى عدم رفض استعلاء غيرها عليها.

---

(1) سورة الشورى، الآية: 30.

فأنت ترى أن عدم استعمال الألفاظ استعمالا دقيقا يترتب عليه مثل هذه الاساءة البالغة التي تعم أقدار الشعوب وكأن الله لم يخلقها إلا ليستعمرها غيرها ويستغلها ويستذلها، كل ذلك ناتج من أن لفظا لم يتوخ كاتبه الدقة في تخيره للاعـراب عن معنى محدد فيجيء هذا المعنى حينئـذ وقد تجاوز فساده حياة الأفراد ليمس حياة الشعوب.

وإذا كان اعـتراضنـا واضحا على هذه المسألة اللغوية التي شوهت المعنى الذي يرمي إليه الكاتب فإننا نقدم بديلا لهذه اللفظة التي دار عليها كلامنا في هذا الفصل فما رأي «البنابيين» وأصحابهم وأصحاب أصحابهم في هذه الكلمة التي نرى أن المعنى الذي يقصد إليه مالك يستقيم بها ولا يلتوي على الفهم. وهذه الكلمة هي : «الأهلية للاستعمار» فنقول مثلا : هذا شعب فيه أهلية للاستعمار، أو أنه مؤهل للاستعمار أو أن فيه أهلية أو تأهلا للاستعمار.

إننا نقدم هذا اللفظ بديلا لتلك الكلمة لأنه يؤدي معناها ولا يسيء إليه، وسواء علينا أوقع الاختيار على هذه اللفظة البديلة أم لم يقع عليها فإن هذه مسألة يسأل عليها الذين يحملون أفكار مالك ولا نظنهم إلا مالكين للصواب، رافضين لكل ما يسيء إلى مقدرات الشعب الجزائري فهم أعرف من غيرهم برفض شعب الجزائر للاستعمار وعدم قابليته لـ «قابلية الاستعمار» هذه.

الفهـــــــرس

المقدمـة 07

القسـم الأول : الحياة الروحية في الثورة الجزائرية 11

الهوية الوطنية في الثورة الجزائرية 13
جيل الثورة (خلاصة الأجيـال) 23
جبهة التحرير الوطني (خلاصة الأحـزاب) 37
الوحدة الوطنية في العمل في الثورة الجزائرية 41
تطور المجتمع في الثورة الجزائرية 45
الجهاد بالمال والنفس في الثورة الجزائرية 61
صور من الحياة الروحية في الثورة الجزائرية (1) 67
صور من الحياة الروحية في الثورة الجزائرية (2) 81
صور من الحياة الروحية في الثورة الجزائرية (3) 85
صور من الحياة الروحية في الثورة الجزائرية (4) 89
صور من الحياة الروحية في الثورة الجزائرية (5) 93
صور من الحياة الروحية في الثورة الجزائرية (6) 97
صور من الحياة الروحية في الثورة الجزائرية (7) 101
صور من الحياة الروحية في الثورة الجزائرية (تتمة) 105
رمضان في الثورة الجزائرية 111
أخلاقيات المجاهدين في الثورة الجزائرية 119
حمزة سيد الشهداء وعم رسول الله ﷺ يساعد
المجاهدين الجزائريين 135

من أسباب النصر «الخفية» في الثورة الجزائرية 141
التكوين الثوري في الثورة الجزائرية 149
الصراع الثقافي في الثورة الجزائرية 155
صور مما عانته الحيوانات في الثورة الجزائرية 170
يوم الشعب (11 ديسمبر 1960) 179
الشعب هو مصدر القـوة 183

القســم الثاني : إشكالية كتابة تاريخ الثورة 187

الرجال والظروف أيهما يصنع الآخر ؟ 189
بنبولعيد وأصحابه . . لا للمسيح والعيد 197
صور من الأدب الثوري في الثورة الجزائرية 219
جمع للمادة أم كتابة للتاريخ ؟ 229
رأي في جمع مادة تاريخ الثورة 235
المؤرخون الفرنسيون وكتابة تاريخ الثورة 247
لماذا لم يكتب تايخ الثورة ؟ 255
شعب يصنع التاريخ ولا يكتبه 259
أثر الدراسات المستقبلية في الكشف عن تاريخ الثورة 267
الأزمة النفسانية للمجاهدين 273
نداء إلى ملتقى ولاية باتنة لجمع مادة تاريخ الثورة 281
ثورة تاريخ الثورة 285
انتحال الجهاد أو الغالبون المغلوبون والمغلوبون الغالبون 293
من ينصف المجاهدين ؟ 305
«أهلية» للاستعمار لا قابلية للاستعمار 313